

حوليات جزائرية

بقلم
أ. بيليسي

المجلد الثاني



حوليات جزائرية

بقلم:
أ. بيليميني

قائد الأركان ورئيس مكتب العرب بالجزائر من 1973 و1974

ثناء مستعمرة يتطلب منحة الفكر
منه الفلا (المساريف)
رائد

المجلد الثاني

Assala
CULTURE

حوليات جزائرية

الجزء الأول

الكتاب 9

فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية في الجزائر العاصمة -
استدعاء الجنرال برتران Berthézène - تعيين الدوق دي روفيجو
Le Duc de Rovigo قائد الجيش احتلال إفريقيا - تعيين بيثون Pichon
حاكما مدنيا - تجديد أفواج الجيش الفرنسي - تدريب قناصة إفريقيا وكتائب
المشاة - بناء الطرق وإنشاء الخييات - Contribution des laines -
الأعمال الإدارية لبيثون Pichon - التدخل عن النظام الجديد و إعادة
استدعاء السيد بيثون Pichon - السيد جتي دي بوسي de Bussy
Genty حاكما مدنيا - إنشاء قريتي القبة و دالي ابراهيم - الأعمال الإدارية
للسيد جتي تحت إمرة الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo

ابتداء من مايو 1831، قام السيد كازيمير بيريه Casimir
Périer رئيس مجلس الوزراء بإقناع الحكومة بفصل السلطة العسكرية
عن السلطة المدنية، و ذلك عن طريق تنصيب حاكم مدني مستقل عن
القائد الأعلى للقوات، و كان غرضه من ذلك تولي حكم أكبر في شؤون
الجزائر العاصمة.

العنوان الأصلي: Annales algériennes

Tome deuxième

الترجمة: بن مكي نصيرة

الطوغلها: محمد مغلاي

© Assala Culture, 2013

ردمك: 978-9931-340-48-5

الإيداع القانوني: 2012-3878

الجزء الأول

هذه الأجزاء تتلخص

في أوائل شهر جوان، أعلم الجنرال برتزان Berthézène بهذا المخطط عن طريق برقية أرسلها وزير الحرب، و ذلك قبل فترة استدعائه، لكن المرسوم الذي يعلن التنفيذ لم يصادق قبل الأول من ديسمبر من نفس السنة. منح هذا المرسوم للحاكم المدني إدارة كل المصالح المدنية و المالية و القضائية. و قد عين هذا الحاكم تحت السلطة المباشرة لرئيس مجلس الوزراء، و من بعده و على التوالي: وزراء الشؤون الخارجية و الحرب و البحرية و المالية و القضاء و التجارة و الشؤون الدينية. كانت هذه التركيبة مفرغة لأنها كانت تدمر وحدة الحافظ في بلد يجب النظر إليه بشكل مجمل، أكثر من أي بلد آخر، و حيث كانت التفاصيل المتعلقة بالإدارة بحاجة إلى تنسيق نحو هدف مشترك. في فرنسا، حيث كان التنسيق محكما و القواعد ثابتة مما سمح للدولة بالتعامل مع الوزراء بشكل مباشر و بدون أي عوائق و ذلك عكس ما كان عليه الحال في الجزائر التي اعتبرت - تحت الروابط الإدارية - بلدا في طريق الانشاء. يبدو أن السيد كازيمير بيريه Périet Casimir كان أول من أحس بأهمية وحدة الحافظ فكان أول مشروع له هو تركيز كل الشؤون الخاصة بالجزائر العاصمة، لكنه تخلى عنه لتجنب صدم وزير الحرب.. لا شك ان السيد بيريه Périet كان رجلا ذكيا و قادرا على قيادة شؤون الجزائر، لكن من حسن حظ استقرارنا بالجزائر أن الدوق دو دالماسي Le Duc De Dalmatie احتفظ بجزء من مهامه التي استرجعها بالكامل فيما بعد، و ذلك لكونه و لفترة معينة الوزير الوحيد الذي ساند

وجود المستعمرة، بعكس زملائه الذين انشغلوا باهتمامات أكثر جدية في نظرهم و الذين كانوا مستعدين للتخلي عن مشروع المستعمرة. وكان وزير الحرب وحيدا في مقاومة هذا الخيار الكارثي الذي يبدو أنه هزم في الأخير بشكل نهائي.

شكل مرسوم أول ديسمبر مجلسا للإدارة مكونا من القائد العام، الرئيس، الحاكم المدني، قائد القوات البحرية، الحاكم العسكري، مدير الأملاك و مفتش المالية، سكرتير المجلس. و حدد مرسوم الخامس من ديسمبر وظائف القائد العام الذي كلف بالإجراءات السياسية و الشرطة العليا، بالإضافة إلى مهامه العسكرية الحتمية.

ولتنفيذ هذا النظام الإداري الجديد، رشحت الحكومة السيد الملازم العام سافاري Savary و الدوق دوروفيجو Duc de Rovigo ذوي التاريخ المعروف، و مستشار الدولة بارون بيثون Baron Pichon، الذي كان قد شغل بعض مناصب إدارية عليا و كلف ببعثات دبلوماسية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، سان دومانج Saint-Domingue و بعض دول أوروبا.

وصل الدوق دو روفيجو Duc de Rovigo إلى الجزائر في الخامس و العشرين من شهر ديسمبر. وغادر الحاكم السابق، الجنرال بيرتزين Berthézène بعد يومين من وصوله، تاركا في إفريقيا سمعة رجل شريف بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، لكن رجل لم يخلق لهذا

المنصب الذي لم يكن عليه الموافقة عليه أو التماسه. ولا يبدو أن أعطاه. هي من جلب إليه العار وإنما كانت الحاجة لتنصيب الجنرال سافاري Savary في مكان ما. في كل الاحوال، وإنصافا للجنرال سافاري Savary و إكراما للحقيقة، يجب القول أنه فهم أن لا مكان له غير إفريقيا، فعمل بحماس و صدق بنية الارتباط بالوطن. وقد تواصل هذا الحماس طوال فترة إدارته. وإن كانت النتائج في بعض الاحيان غير مرضية و كارثية إلا أنه كان ذو مزايا عديدة.

جند الجنرال دوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo معظم قوات الجيش الذي نصب على رأسه، وقد تكون من الصف العاشر، و الحظ الرابع، و الحظ السابع و الستين، و كون متطوعين من باريس، و الفيلق الأجنبي، الزواف و قناصة إفريقيا. جمع الزواف في كتية واحدة بعدما كانوا يكتونون كتيبتين و شكّل قناصة إفريقيا فرقتين من سلاح الفرسان ذات ستة أسراب. و معظم هذه الأسراب من أصل فرنسي، ثم شُرع في ضم بعض الأهالي الذين كانوا يتجمعون في أسراب مستقلة. فيما بعد تم إزالة القناصة الجزائريين من هذا التنظيم الجديد. تشكل أول فوج لقناصة إفريقيا في الجزائر العاصمة و الثاني بوهران أين تواجد الحظ السادس و الستون، و جزء من الفيلق الأجنبي. و في غضون العام 1832، صدر أمر من الملك لتشكيل كتيبتين من المشاة الافريقية مألقة من جميع العسكريين الذين الظموا إلى صفوف الجيش و الذين كان

محكوما عليهم لتهم بسيطة بعد انقضاء فترة الحكم أو تقليصها. كان الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo قد عين لقيادة هذه الكتائب على التوالي: كتائب ماريشالات المخيمات فودواس Podoas، بوشيت Buchet، بروسار Brossar، برو Brô و أفيزار Avizard، و قد أخذ هذا الأخير الحكم على منطقة الجزائر عند رحيل الجنرال دانليون Danlion. و عُيّن الملازم العام دالتون D'Alton مفضيا عاما لقوات احتلال إفريقيا. كما عُيّن الجنرال تريزيل Trézel رئيسا لهيئة الأركان العامة، و كان تحت إمرته لوروا دوفيرجي Duverger Leroy نائبا للرئيس. جاء الجنرال الجديد إلى الجزائر عاجزا على ترك جزء فقط من القوات في المدينة وتوزيع الباقي في بؤر أساسية من منطقة الساحل و منطقة الفحص. و بالتالي قام الجنرال باختيار مقرات مناسبة لنصب معسكرات قارة حيث تمكث كتية في كل واحد منها. كان على الفرق بناء مقراتها بنفسها وذلك بأبسط الوسائل التي منحت لهم من الإدارة. شُرع العمل في هذه المعسكرات في فصل الربيع، لكن سرعان ما اكتشف أن هذه الأماكن التي اختيرت كانت غير ملائمة نظرا للأمراض التي انتشرت سريعا و هذا ما أعلن عنه تقرير الصحة آنذاك. و بعد عدة محاولات استقرت هذه المخيمات في القبة، بئر خادم، تقصراين و دالي ابراهيم، و قد بني هذين الأخيرين بالكامل في سنة 1832 لأنها كان ملائمين للشروط الصحية. أما باقي المخيمات فلم يرس الاختيار عليها

إلا بعد عدة محاولات، بحيث بنيت عام 1833 وكان ذلك في الغالب تحت إدارة الجنرال فوارول Voirol. الزواف الذين تم تخصيص معسكر دالي ابراهيم لهم، كانوا الوحيدين الذين قاموا بمهامهم بشكل دقيق. أما بالنسبة للفرق الأخرى فقد وجب الاستنجاد بالمهندسين و ذلك بالاستعانة بفرض قيمته 25.000 فرنك فرنسي لكل مخيم، إضافة إلى مبلغ الإمدادات التي قدمتها الإدارة و أجور العمال، و هذا ما رفع نفقات كل مخيم إلى حوالي 50.000 فرنك فرنسي.

تصور الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo بناء مخيم أكبر حجما من المخيمات الأخرى لتهديد منطقة البليدة و القليعة، لكن هذا المشروع لم يتم تنفيذه إلا في فترة حكم الجنرال فوارول Voirol وذلك ببناء مخيم الدويرة.

في هذه الفترة كانت ضواحي الجزائر محفوفة بمسارات المشاة والدواب، بيد أنه لم توجد طرق لعبور السيارات وهذا ما تكلف بإنشائه القائد العام. كانت المخيمات متصلة ببعضها بطرق سميت بالحزام أنشأت بسرعة وبساطة لضمان التواصل الضروري في أقرب وقت ممكن. وبعد ذلك تم وضع مخططات لطرق أكثر انتظاما، والتي كانت تنسم بكل المواصفات الفنية، شرع في الطريق الرابط بين الجزائر العاصمة و دالي ابراهيم في عهد دوق دو روفيجو، و تم تمديدتها من باب عزون إلى أعالي قصر الإمبراطور. كان عملا

مميزا من حيث جمال الهندسة و البناء و سرعة التنفيذ، و بتة الفرق العسكرية بمفردها. سنعود للتحديث عن تفاصيل إنجاز الطرق عندما نتحدث عن إدارة الجنرال فوارول Voirol، الذي أشرف عليها باهتمام خاص. أدت أشغال بناء طريق حصن الإمبراطور و الساحة التي أنشئت خارج باب الوادي إلى هدم مقبرتين للمسلمين. لم يكن بالفعل من الممكن تجنب ذلك، و لم يكن من الواجب مضايقة تنقل الأحياء من احتراماً للأموات بل كان من الممكن التصرف بعطف أقل دون تعريض سمعة شعب متحضر لفضيحة انتهاك المقابر. كان من الواجب التصرف بنظام و احترام، و نقل الرفاة إلى مكان ملائم. لكن بالعكس تترت بقايا العظام بشكل عشوائي، وشوهد رجال يلعبون بفضاظة يروؤوس بشرية. أثناء أعمال الحفر كانت الحفارة تقسم القبر إلى جزئين ما يجعل محتوى القبر يرتفع إلى السطح ويستعمل لردم نقاط أخرى من الطريق، و يترك ما تبقى منها على مرأى الناس. كانت هذه الأعمال خطيئة وكانت بقايا الأموات تنطق بشكاوى جاءت لتنظم لمعانة الأحياء الذين هدمناهم مساكنهم، ما أدى به : حمدان إلى القول بكل فصاحة بأن الفرنسيين لم يتركوا للجزائريين مكانا ليعيشوا فيه ولا مكانا ليموتوا فيه.

تنبه الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo ، الذي كان يتعاطف كثيرا مع الجنود، أن هؤلاء يفتقرون لأقل وسائل الراحة حتى الفراش الذي يريح أجسامهم التعب أو المريضة، فسمى إلى توفير فراش

لكل رجل. ونظرا لانعدام النفقات المخصصة لهذه الحاجة، واعتقادا منه بأن سكان الجزائر يمتلكون كميات معتبرة من صوف الغنم، فرض الجنرال على سكان الجزائر ضريبة تقدر بـ 5400 قنطار من الصوف تدفع عينا أو نقدا بقيمة 80 فرنك على كل قنطار. وكان المجموع يعادل 432.000 فرنك فرنسي مفروضا على عشرين ألف مواطن ما يعني معدل 21 فرنك لكل فرد. ولكن وبطبيعة الحال لا ينبغي أن تدفع هذه الضريبة بشكل فردي بل بما يتناسب مع ثروات كل واحد، فتقرر بأن هذه الضريبة سوف تفرض على الأغنياء من المواطنين فقط. لكن الإدارة التي كلفت بالجباية قامت بدورها بشكل غير عادل ومتحيز وهذا ما انعكس سلبا على جمع الضريبة بحيث تميز بالبطء والصعوبة ما أدى في غالب الأحيان إلى استعمال الصرامة والقوة. كانت المدفوعات العينية الشبه معدومة دليلا على أن الجزائر لا تحتوي، عكس ما كان معتقدا، على الصوف الكافي. وللحصول عليه استعملت عائلات المساهمة النقدية في إبرام عقد مع السيد لاکروتز Lacrouitz تاجر الجزائر الذي أتوا به من تونس. في هذه الأثناء رفع الأهالي شكاوتهم إلى باريس، التي أخذتها بعين الاعتبار حيث اعتبرت الإجراءات المتخذة من طرف الدوق دي روفيجو هي بمثابة قصر نظر وزير الحرب، الذي كان من واجبه إدراج تكاليف فرض جيش إفريقيا ضمن ميزانيته منذ وقت بعيد. ما إن تنبه وزير الحرب لهذا الأمر، قام بعقد صفقة لهذا الغرض مع شركة فاليه Vallée، وقرر إلغاء الإجراءات المتخذة سابقا من الدوق دي روفيجو de Rovigo. Le Duc نظرا لعدم جدواها، لكن هذا الأخير رفض الانصياع لهذا

القرار، معتمدا في ذلك على قرار من مجلس الإدارة الذي اعتبر أن التراجع على قرار جمع المساهمات سيكون علامة ضعف وستكون له عواقب وخيمة. لكن الوزير لم يرضخ لهذا القرار وأكد أوامره بحيث ردت المساهمات التي دفعت إلى أصحابها.

اتفق لاکروتز Lacrouitz مع شركة فاليه Vallée وسلمها معدات القرش التي كانت قد جهزتها. وهكذا انتهت هذه المسألة التي سببت الكثير من الحرج للدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo، والتي كان يهدف من خلالها إلى تحسين أوضاع الجنود.

بعد شهر من قدوم القائد العام، وصل السيد يشون Pichon إلى الجزائر، وكان المرسوم المتعلق بالضريبة على الصوف قد وضع ووقع من طرف الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo، وعُرض عليه التوقيع هو أيضا، لكنه رفض قائلا أن هذا القرار اتخذ قبل وصوله وأن على القائد العام اتخاذ مسؤولياته بنفسه، وأنه سيساهم في تنفيذه، ولكن و لكونه معارضا لهذا القرار لم يكن تعاونه بشكل صريح. لاحظ السكان هذا الأمر ما جعلهم يحدون سيا آخر لمعارضة قرار فرض مساهمة الصوف. وعند وصول أمر إلغاء هذا القرار، كان السيد يشون Pichon الوحيد من أعضاء مجلس الإدارة الذي صوت بالإيجاب بدون أي اعتراض، كما طالب بإعراج موقفه المبرر في تقرير الجلسة التي عاينت هذه المسألة. وقد كان ذلك سببا في معاداة القائد العام للمحاكم التي ما انتج عنه سوء تفاهم دائم بين هذين المسؤولين. لم يكن يمكن لعلاقتها أن تكون غير ذلك، والعكس الأمر على النظام العش الذي جرى تيار عدم التفاهم. قام الدوق دي

روفيجو Le Duc de Rovigo ببعض التغييرات في جهازه الإداري، بحيث أعاد السيد فوجرو Fougereux معه إلى الجزائر كمفتش عام للمالية، والسيد فيوم Willaume الذي كان مفتشا عين تحت قيادة هذا الأخير، وبعد مرور بعض الوقت استبدل كلاهما بالسادة ميزونوف Maisonneuve و بلونداي Blondel. لعب السيد فوجرو Fougereux دورا هاما في صفقة الصوف و يبدو أن ذلك ما أدى إلى استبداله. لم يكن السيد دسكالون D'Escalonne مدير الجمارك والسيد جيراردان Girardin مدير العقار، تابعين إلى هاتين الإدارتين، و قد عُرض عليهما ضمهما لكن برتبة أقل و لم يقبلا ذلك، فاستبدل الأول بالسيد فيرلانج Verlingue في أواخر سنة 1831 والثاني بالسيد دومون D'Haumont في سنة 1832.

قام السيد بيثون Pichon بإرسال السيد دسكالون D'Escalonne إلى وهران مؤقتا لاستخلاف السيد باراشان Barachin نائب الحاكم المدني لهذه المنطقة.

أما السيد كاديت دي فو Cadet de Vaux، مفوض الملك على مقاطعة الجزائر، فقد توفي سنة 1832 وخلفه السيد كوتان Cotin موثق سابق في باريس. رغم الفترة القصيرة لإدارة السيد بيثون Pichon فإن أي رأي صادق و موضوعي يشهد بأنه كان رجلا عادلا و عدوا للظلم، ربما أخطأ في إبداء تشدد في آرائه الإدارية، لكنه يجب الاعتراف أنه قاوم نظاما لا يمكن لذو قلب سليم إلا أن يقاومه بكل عزم؛ إنه نظام تعسفي في استخدام القوة كقاعدة حكومية مؤيدة بكل حماقة و تعنت من طرف أشخاص هم غير قادرين حتى على تطبيقه.

في الثالث من فيفري عين السيد بيثون Pichon المدني العام للملك لدى محكمة العدل. و في الثامن من نفس الشهر، أسس الجريدة الرسمية "Le moniteur algérien" المخصصة للمنشورات التشريعية والقضائية. في السادس عشر من نفس الشهر أيضا، أصدر أمر مشترك بين السيد بيثون Pichon و القائد العام، ينص على أن الطعون لدى السلطات العليا ضد القرارات القضائية توضع لدى مجلس الإدارة.

في التاسع و العشرين من فيفري، قام الحاكم المدني بتحديد شكل و تنظيم الطعون. و في الثامن و العشرين مايو، أصدر أمر ينظم الرهون بحيث منح مهمة حفظها لكتاب المحاكم.

في السادس عشر فيفري، أوضحت كل العقود القضائية للإجراءات التسجيل. أخذت إدارة الأملاك تسمية إدارة الأملاك و الحقوق معاد و في السابع عشر مارس؛ تقرر أن يتلقى صندوقها جميع الإيرادات. وقد تقرر تركيز عمل هذه الإدارة مع إدارة الجمارك في الجزائر العاصمة بالنسبة لكل نقاط المنطقة. أثناء اتخاذ كل هذه الإجراءات كانت عناية قد وقعت تحت سيطرتنا منذ عدة أيام.

نظم الأمر الصادر في العشرين من شهر أفريل المصالح المدنية في عناية بحيث تقرر تعيين نائب الحاكم المدني و مفوض للشرطة (un commissaire de police) و قاضي ملكي مكلف بمعالجة كل النزاعات المدنية بين المسيحيين، و بين المسلمين و اليهود.

قابلة للطعن إلى غاية ألفي فرنك كحد أقصى، ولما تتعدى قيمة الطعن هذا المبلغ، يقدم الاستئناف إلى محكمة عدل الجزائر العاصمة. بالنسبة للقضايا الإصلاحية، كان القاضي الملكي يحكم في القضايا التي يمكن لأصحابها بأن يدانوا بالسجن لمدة عشرة أيام على الأكثر، إضافة إلى الغرامات. أما القضايا التي تؤدي إلى عقوبات أشد فكانت تحال إلى محكمة الجنايات في الجزائر العاصمة. في القضايا الإجرامية تقرر أن يعد القاضي الملكي البيان الخاص بالقضية و يجبل المتهمين أمام محكمة العدل من أجل أن يحكم فيها. لم ينصب السيد بيثون Pichon أي قاض ملكي في مدينة وهران رغم أن هذه الأخيرة كانت تحت سيطرتنا قبل عناية بزم من طويل.

أصدر في الواحد و الثلاثين من شهر مارس مرسوم ينظم أحكام الضرائب و الشرطة المتعلقة بصيد المرجان. و قسم الصيد إلى موسمين، كما كان عليه الحال في الأنظمة المعمول بها في الشركة الإفريقية السابقة، واحتفظ بالخدمات السابقة ولكن فقط لصيادي المرجان الأجانب.

في هذه الاثناء لم يكن لمصلحة الشرطة الصحية في الجزائر العاصمة إلا تنظيم مؤقت. وكان من الضروري إعطاء هذه المصالح تنظيمًا عن طريق وضع إدارة جديدة لمنح موانئ أوروبا الضمانات الكافية للحصول مقابل ذلك على تخفيض للحجر الصحي على صادرات المنطقة. و قد أعد مرسوم الخامس والعشرين من جانفي لهذا الغرض بحيث أسست ثلاث لجان للصحة في الجزائر، عناية و وهران و وضع حيز التنفيذ الأحكام الرئيسية من قانون الثالث من مارس 1822 و قانون الرابع عشر أوت من نفس السنة.

كانت هذه أهم الأوامر الإدارية للسيد بيثون Pichon، الأحكام الأخرى كانت إما انتقالية أو ذات أهمية ثانوية. رغم ذلك، فقد كان هناك من بين هذه الأحكام بند كان له تأثير واسع المدى في المجتمع رغم أنه قد يبدو قليل الأهمية؛ إنه الأمر الصادر في العاشر من شهر مارس، الذي تم مصادقته من طرف الإدارتين والذي أقر، من بين العديد من أحكام بيع المشروبات، بمنع منح الشراب لضباط الصف و الجنود. لو كان هذا الحظر قد طبق بصرامة من طرف السلطات، لما انتشرت العادة المخزية للشرب و السكر في جيش إفريقيا بحيث وصل لحد مبالغ فيه. كانت الشوارع مليئة كل يوم بجنود سكارى متناثرين في كل مكان، ينظر إليهم المواطنون بشفقة و اشمزاز لا يستطيعون القيام إلا بملأ المستشفيات.

كان سوء الفهم الذي حل بين القائد العام و الحاكم المدني يزداد حدة كل يوم و بشكل ملحوظ، و وصلت الأمور في أنه كان على الحكومة عزل أحدهما. و كان الحاكم المدني من هزم و بذلك فقد الحكم المدني استقلاليته القانونية. أصدر امر في الثاني عشر من ماي يلغي الأمر الصادر في أول ديسمبر 1831، و غادر السيد بيثون Pichon الجزائر، ما أدى إلى ارتياح الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo، وتم استخلافه بالسيد جنتي دي بوسي Genty de Bussy الذي تم تعيينه تحت إمرة القائد العام. و هكذا تأسست داخل المستعمرة حكومة موحدة.

كان السيد جنتي نائب الحاكم العسكري من الدرجة الثالثة، و تحالفه

مع رجل قوي جعله يعين مسؤولا إداريا وقضائيا. وكان لا يزال في الجزائر عندما تم إرسال اللجنة إلى إفريقيا، وليس بحوزتنا إلا استعارة الألفاظ التي استعملتها هذه الأخيرة لوصف إدارته: "السلطة المدنية في أسوأ أحوالها: غياب الإدارة الجيدة، الافتقار إلى الخبرة في مهامه، نشاط عقيم من النتائج المقيدة بل هي منهورة ومدمرة في غالب الأحيان".

"اللجنة لا تنفي أن الظروف كانت صعبة في كثير من الأحيان، لكن السلطات العليا جعلتها أشد صعوبة" (جلسة الواحد و الثلاثين أكتوبر 1833).

كان السيد جنتي Genty رجلا ذكيا وذو دراية بحيث تمكن في وقت قصير أن يستقل عن القائد العام الدوق دي روفيجو Duc de Rovigo الذي لم يستطع تحمل المطالب المشروعة للسيد بيثون Pichon، رضى بكل سهولة لتأثير خليفة هذا الأخير وتسامح معه في العديد من المرات على عمليات النهب. وفي وقت قصير أصبح توقيع السيد جنتي Genty مكتوبا على الأوامر الصادرة إلى جانب اسم القائد العام وبشكل متساوي، وهذا ما يثبت أنه إذا كانت المناصب تصنع الرجال فإن هناك رجالا يعرفون صنع مناصبهم بأنفسهم، ولكنه كان من المستحسن استغلال هذه الميزة سوى للمصالح العام لكن ذلك لم يحدث إلا نادرا.

كلفنا إدارة السيد جنتي بإنشاء القرنين الأوروبيتين في القبة ودالي إبراهيم، وينبغي توضيح بعض التفاصيل في هذا الصدد.

في غضون العام 1831، وصل إلى الجزائر العاصمة حوالي 300

مهاجر ألماني و سويسري، الذين غادروا موطنهم قصد الذهاب إلى أمريكا، ولكن عند وصولهم إلى هافر Havre (منطقة في فرنسا) غيروا وجهتهم فجأة و قرروا المجيء إلى الجزائر. وقد وصل أغلبهم في حالة من العوز التام. وبما أنهم لم يجدوا أية وظائف، وأنه لا يوجد شيء يعملونه في البلاد، أصبحوا تحت مسؤولية الإدارة التي أجبرت على توزيع المواد الغذائية عليهم وإسكانهم في خيام في المناطق المحيطة بالجزائر العاصمة. وبالرغم من هذه الإغاثات القليلة إلا أنه توفي ما يقارب مائة شخص منهم من البؤس والحنين. أراد الدوق دوروفيجو Le Duc de Rovigo، الذي أذن له وزير الحرب بالقيام ببعض محاولات الاستيطان، توزيع بعض الأراضي للمهاجرين الباقين وقد تحدث بهذا الصدد إلى السيد بيثون Pichon الذي رد بأن إدارة العقارات لا تملك شيئا في ضواحي الجزائر العاصمة وأنه من المستحيل وضع المستوطنين الجدد، كما يرجوه القائد العام.

قام هذا الأخير، والذي كان يولي هذا المشروع أهمية بالغة، بالإصرار على طلبه مبررا أنه من الممكن وضع المستوطنين في الأراضي المهجورة، وإذا ظهر لها ملاك يشتون ملكيتهم، تدفع لهم رسوم سنوية أو شيء من هذا القبيل. هذه الطريقة في مصادرة الأراضي لم تكن لتتوافق مع الحاكم المدني ذو الأفكار المنطقية والمنظمة، بحيث أنه لا يمكن ترجي أي فائدة من انتزاع ملكيات المغاربة من أجل بعض الأوروبيين، صحيح أن المغاربة قد تركوا زرع أراضيهم وأن المصالح العام كان يقتضي ألا تبقى الأراضي غير

مشجعة، لكننا نعرف جيدا الأسباب التي جعلت الأعمال الفلاحية تتوقف في ضواحي الجزائر العاصمة، كنا نعلم جيدا أن هذا الوضع المؤسف كان نتيجة حتمية للأضرار التي ألحقها القوات و إجراءات المصادرة والتدابير العنيفة التي شككت في أبسط الحقوق، هذه هي الظروف التي كان على السلطات العليا أن تعمل على توقيفها و العودة بشكل واضح وصادق إلى المبادئ العالمية للعدالة و أساسيات الإسلام.

فهذا الأسلوب في استرجاع النشاط الزراعي في ضواحي الجزائر العاصمة سيكون بالتأكيد أكثر فعالية من المشروع الاستعماري لدوق دي روفيجو. أما بالنسبة للمستوطنين الألمان فقد كانوا يشكلون عبئا كان يجب تحمله لبعض الوقت، كان بالإمكان وضع خطة تدوم بعض الأشهر لاستغلال الأراضي في منطقة الفحص في ظل ظروف أمنية أفضل وإيجاد عمل لهؤلاء دون تجريد الأهالي من أراضيهم. لكننا فضلنا نشر الأخبار في الجرائد للتباهي بأننا نجحنا في توطين مائة من الأجانب والذين قامت سلطتنا المكروهة بإبعاد الأهالي الملاك من أجلهم.

لقد ضحوا بكل شيء من أجل هذه الأفكار المؤسفة و قد اضطر السيد Pichon للاستسلام بعد أن قاوم طويلا. اختيرت منطقتي القبة ودالي ابراهيم لبناء فرجين أورويينين في أثناء حكم بيثون Pichon، لكن هذا المشروع تم تنفيذه في عهد خلفه. و كانت نفقات البناء معتمدة على فرض قيمته مئتي ألف فرنك ممتوح للحاكم المدني من قبل وزارة الداخلية من أجل المحاولات الاستيطانية. كُلف السيد بروس Prus الذي نصب منذ مدة قصيرة

مهندسا للجسور و الطرقات في الجزائر العاصمة، بتنفيذ الأشغال، و توقفت في المجلس مسألة إذا ما كانت القرى ستكون محصنة و حسم الأمر بالإيجاب. ومنذ ذلك الحين أصبح أمر تحديد المواقع في المقاطعات التي اختارتها الإدارة مهمة الهندسة العسكرية و هذا ما يفسر الخيار الخطأ الذي وقع على الأراضي الفلاحية خصوصا في دالي ابراهيم و كانت هذه القرارات لاعتبارات عسكرية قليلة الأهمية. ترك مشروع تحصين القرى على جنب بسبب سوء اختيار المواقع. و قد كانت معظم الأراضي التي وزعت على المستوطنين تقع في دالي ابراهيم، المرزعة التي تحمل هذا الاسم كانت تابعة لمجموعة من الأنكشاريين، و في القبة حوش تابع إلى مسجد. كان هذين المبتئين وقفا. و تم التعدي أيضا على الممتلكات الخاصة.

أثيرت ادعاءات كثيرة ضد هذه الاجراءات، و الكثير من المواطنين تخلوا عن حقوقهم بعد يأسهم و باعوا أراضيهم بشمن بخس إلى الأوربيين، الذين استعملوها حجة لإزعاج الإدارة. و تورط عدة موظفون حكوميون في هذا النوع من التجارة غير المشرفة.

بعد هذا قُسم المستوطنون الذين أقاموا في منطقتي القبة و دالي ابراهيم إلى ثلاث طبقات:

كانت الطبقة الأولى مكونة من أولئك الذين يمتلكون دخلا يكفيهم للتكفل ببناء بيوتهم بأنفسهم. وقد حصلوا على عشرة هكتارات للشخص.

الطبقة الثانية، تمثلت في الجنود السابقين الذين منحوا ستة هكتارات للشخص الواحد. هؤلاء الجنود القدامى كانوا خريجي الجيش الفرنسي.

أما الطبقة الثالثة فقد تشكلت من الذين كان يتوجب بناء مساكن لهم. وقد منح لهم أربعة ممتلكات للفرد الواحد.

هكذا استقر في ممتلكتي القبة و دالي ابراهيم المستوطنون البؤساء القادمين من ألبانيا إلباء لكنهم لم يجدوا النهاية السعيدة لأسبابهم أو بالأحرى التي انتظروها طويلا، إذ أن عددا كبيرا من سكان القبة لقي حتفه إثر الحمى الويالية، وتحولات هذه الأخيرة إلى خراب بالفعل. أما قرية دالي ابراهيم فقد كانت أكثر ازدهارا بفضل طريق الدويرة الذي كان يعبرها.

ما ميز هذه القضية برمتها هو خلق وكالة الاستيطان لإدارتها و التي ارتفعت تكاليف الموظفين فيها إلى ما يقرب العشرين ألف فرنك سنويا، و كانت هذه أيضا من بنات أفكار الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo الذي كان لديه بعض الأصدقاء ليوظفهم. لقد حاول السيد يشون Pichon مقاومتها لكن دون جدوى.

الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo كان يطمح أن نبعث لنا كل بلدان أوروبا قاصصها من السكان. لكن لما تطبعت له صحيفة إسكان ما بين أربع مائة إلى خمس مائة مستوطن، تغيرت أفكاره و قام بإصدار إعلان رسمي مضمونه أنه لن يقبل أي مستوطن بعد الآن في الجزائر، إقلا لم يكن لدى هذا الأخير ما يكفيه لتلبية حاجياته لمدة سنة. و منذ هذه الفترة، لم تلبث الإدارة التي كانت تستقل من تجاوز إلى آخر، تضع غزوات الوصول الأوربيين إلى الجزائر، خاصة أولئك الكادحين، أورديون مقيمين، و يلبث الأبواب مفتوحة على مصراعيها ليلتمس الحردة و القطع العتيقة، الذين وسموا بلقب الراسخاء المعادين و بنات الحرق.

سيكون من المتعجب سواء للكاتب أو للقارئ أن يصف هنا و لو بشكل ملخص كل الأوامر التي أصدرت أثناء إدارة السيد جنتي دو بوسي Genty de Bussy. إنها كمية كبيرة بشكل هفيف. هذا المدير الموهوب في الكتابة و الولع للعمل في المكتب، لم يكن يرى إفريليا إلا في ملفاته، أما بالنسبة للعمل الميداني فلا داعي للحديث عنه. و أغلب الأوامر التي أصدرها مالت عند الولادة، و لم تحط حتى ببداية التنفيذ. من بين الأمور التي جعل الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo يحضنها و التي أصدرت بالفعل، نذكر ما يلي:

مرسوم الرابع نوفمبر 1830 الذي منع تصدير البذور و الطحين إلى غير فرنسا، عمم هذا القرار بعد ذلك إلى مقاطعة وهران. و في العاشر جويلية 1832، وقع دوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo على قرار يمنع فيه التصدير إلى أي وجهة كانت.

في السادس عشر أوت، صدر مرسوم ينظم إدارة القضاء الجنائي على حسب القواعد التالية: أنشئت محكمة جنائية للفصل في الجرائم المرتكبة من قبل الفرنسيين و غيرهم من الأجانب. تألفت هذه المحكمة من أعضاء المحكمة القضائية و محكمة الشرطة الإصلاحية، مكونة من سبعة أعضاء. و لقد تقرر أن تجري الإجراءات و التعليلات وفقا للقواعد المنصوص عليها في القانون الفرنسي للمحاكم و محكمة الشرطة الإصلاحية و أن الآراءات لا يجوز إلزامها إلا بأغلبية خمسة أصوات من سبعة، و أن تحول الطعون أمام مجلس الإدارة الذي يتخذ لأخذ قرار الحكم من طرف خمسة أعضاء على الأقل.

أما بالنسبة للأهالي الأصليين، فقد كانت تنظر في قضاياهم محكمة الحرب التي تعنى بالجرائم التي اقترفت من طرف المواطنين في حق أرواح و ممتلكات الأوروبيين. كما وأصل القاضي المغربي النظر في القضايا الجنائية والإصلاحية بين المسلمين، وذلك وفقا لإجراءات مرسوم الثاني والعشرين أكتوبر من سنة 1830، وتناول الخاضعات القضاء بين الإسرائيليين في نفس النوع من القضايا، وتقرر أن يكون هناك استئناف لكل القضايا أمام مجلس الإدارة فيها يخص القضايا الجنائية، وأمام محكمة العدل بالنسبة للقضايا الإصلاحية. أما القضايا الجنائية بين المسلمين واليهود كان لا بد من النظر إليها من قبل المحكمة الجنائية، والمسائل الإصلاحية من قبل محكمة الشرطة الإصلاحية.

يمكن الملاحظة بأن مرسوم السادس عشر أوت جلب تغييرات كبيرة على النظام القضائي الذي وضعه الجنرال كلوزيل Clauzel. وفقا لمرسوم الثاني والعشرين أكتوبر، فإن الفرنسيين غير العسكريين المتهمين بارتكاب جرائم، ينبغي إرسالهم إلى فرنسا للمحكم فيهم. لم يعتقد السيد كلوزيل Clauzel أنه يمكن أن يلعب أبعد من ذلك، وكان واقفا أن قضية هذه الأهمية لا يمكن تسويتها نهائيا إلا بموجب قانون، أو بموجب مرسوم ملكي على الأقل، لكن السيد جانتني Genty كان يرى خلاف ذلك، وكان يعتقد أنه والقائد العام مجتمعين يمكنهما حل محل قضاة خاصين بقضايا الفرنسيين. وقد عوقب استغلال السلطة هذا من قبل وزير الحرب، في السابع عشر أوت، تم إنشاء الحرس الوطني في الجزائر، وقد حدد مرسوم الواحد والعشرين سبتمبر التنظيم ولم يتم قبول إلا الفرنسيين.

في الواحد والعشرين سبتمبر، صادق السيد جانتني Genty لوحده، ولكن بموافقة الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo، مرسوما موجهها لكل ملاك العقارات في المناطق القريبة من القبة و دالي ابراهيم، لتقديم عقود الملكية في يوم وساعة محددتين، وهي: الرابع والعشرين سبتمبر في الساعة والنصف صباحا لملاك دالي ابراهيم و اليوم الموالي في نفس التوقيت بالنسبة لملاك القبة، أما الذين لم يتقدموا للإدلاء بممتلكاتهم فيتوجب تطبيق المادة 713 من القانون المدني عليهم والذي ينص على ما يلي:

“الممتلكات التي لا يعرف لها مالك تنقسم إلى أملاك الدولة”

هذا المرسوم الجائر يظهر مدى اللامبالاة التي كان السيد جانتني Genty يتعامل بها مع حقوق أهالي الجزائر. ألم يكن ذلك من السخرية المرة والخطأ الفادح أن تستخدم مادة واحدة من القانون و يغض النظر عن تلك المواد التي تحفظ حقوق الغائبين، و أن يعلق حق الملكية لحضور المالك في توقيت محدد، و أن تمنح الملكية للدولة دون أي حكم قضائي بل وبمجرد عقد إداري؟

عين بمقتضى مرسوم العشرين سبتمبر قاضي ملكي في وهران، كما كان عليه الحال في بونا “عناية” و نص هذا المرسوم على أن القضايا الجنائية الصادرة عن هاته المدن و المفروض إحالتها إلى محكمة العدل يجب عرضها أمام المحكمة الجنائية عملا بمرسوم العشرين أبريل. في الثامن أكتوبر، أنشأ الحرس الوطني في كل من عناية و وهران. في نفس اليوم، الطعون المقدمة إلى مجلس الإدارة في الأسكاف الصادرة عن المحكمة الجنائية تم حصرها في الحالات المحكوم عليها بعقوبة الإعدام. أحيلت الطعون الخاصة بالقضايا الجنائية الصادرة من طرف

القضاة المحليين، ليس لمجلس الإدارة، كما كان ينص عليه مرسوم السادس عشر أوت بل أمام محكمة الجنايات.

في الواحد والعشرين جانفي 1833، أصدر مرسوم وضع قيد التنفيذ إجراءات جديدة حول الطعون أمام مجلس الإدارة للقرارات القضائية لمجلس قضاء الجزائر، وألغى كل المراسيم التي أصدرت مسبقا بهذا الصدد. بغض النظر عن هذا، قام السيد جانتني دي بوسي Genty de Bussy اعتمادا على أجزاء من القانون الإداري الفرنسي الحالي، بإصدار مجموعة كبيرة من المراسيم التي تنظم مهنة الصيدلية، شرطة الملاحاة و على ممتلكات المدينة وصيانة المنازل وأعمال الطرق وما إلى ذلك. كل هذه الأعمال كتبت بفخر في جريدة le Moniteur Algérien ولكن لم يكثر أحد بتنفيذها. كانت المدينة قلعة و غير مرتبة، والمنازل تنهار كالأنقاض، حتى النافورات جفت جراء إهمال الإدارة لأن السير لا يعني كتابة القوانين فقط. عرف السيد جانتني Genty في المقام الأول بفرض الضرائب، حيث أنه في فترة حكمه على الجزائر، كان السيد جانتني Genty من مدي فرض الرسوم على الصناعة. و تحت إمرة الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo وضع تعريفة جديدة من الرسوم على التصدير، و حرية على البناء في الطرق العامة، و عطف ظهور أول عربة في الجزائر وضعت لها سريعا تعريفة خاصة تدفع على العربات العامة، هذا ما أدى إلى كثرة هذه الصناعة على الفور و التي لم تزدهر إلا بعد مرور عامين.

في بلد جديد كالجزائر، كان يجب إعطاء حرية للتجارة والصناعة، وعدم فرض ضرائب في البداية ليفسح أمامها المجال لتتطور و تزدهر، و هذا ما لم يعمل به في الجزائر. الرغبة الجامحة في جلب أكبر قدر من الضرائب ضللت أغلب حكامنا لدرجة أنهم ضحوا بالمستقبل مقابل الحاضر دونها ضرورة لذلك. إنه من الغريب أن يرفض رجال ذوي ذكاء مميز في الأغلب تطبيق مبدأ جد واضح وأن لا يعترفوا بأبسط عناصر الاقتصاد السياسي ولو نظريا. في أول مارس، أنشأ السيد جانتني Genty، بموافقة الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo، لجنة مكلفة بفحص سندات الملكية. كان على الملاك أو المستأجرين تقديم سنداتهم ثلاثة أيام بعد إصدار البلاغ الذي قدمته اللجنة، وقد تقرر تطبيق المادة 713، التي كان يحيل إليها السيد جانتني Genty كثيرا، على كل من لم يقدم السندات. تألفت اللجنة المكلفة بهذا العمل الضخم من أربعة أعضاء، من بينهم واحد يجيد قراءة اللغة العربية، واثني فقط يتفقهان بها. كان من المستحيل عمليا أن تقوم بهذه المهمة الصعبة، دون إقدام الأهالي على ذلك و هو ما لم يحدث. ولا اعتقد أن عدد مستندات الملكية المقدمة آنذاك للجنة قد تجاوز المائة. هذا الإجراء المثير للسخرية لم يستمر. كان لدى السيد جانتني دي بوسي Genty de Bussy رغبة شديدة في اكتشاف أملاك الدولة التي احتضت مستندات الملكية بالنسبة لأغلبها بسبب إهمال السيد دو بورمون De Bourmont، وبالتالي فإن فكرة المفضلة والتي انعكست في مرسوم أول مارس، كانت الاستيلاء على

الكتاب 10

بنايات الجزائر دون تمييز، ماعدا تلك التي كان يعتقد بعض الملاك أن لهم حقوقا فيها يمكن إثباتها. وبما أنه كان من الصعب إقناع الحكومة بتطبيق هذه الطريقة العنيفة للعمل، كان يجب اللجوء إلى طرق أبطء وأكثر عدلا، فالأبحاث الجزئية، في عهد الجنرال فوارول Voirol، أدت كما ستراه لاحقا، إلى نتائج جيدة.

يتوجب البناء على إثنين من الأعمال الإدارية التي قام بها الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo، وهما: إنشاء مستشفى الداي و الكنيسة الكاثوليكية. أنشأ المستشفى في منزل ريفي قديم للباشا، كان المنزل كبيرا جدا و واسعا جدا، متواجدا في مكان صحي غير بعيد عن المدينة خارج باب الواد، كان مخصصا للجنرالات، لكن الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo عممها بكل سخاء. وعلى الرغم من أن البيت كان واسعا لكنه تطلب بناء منشآت جديدة.

تأسست الكنيسة الكاثوليكية في مسجد، لم يفاجئ هذا الاجراء المسلمين لما تعودوه منا من لامبالاة دينية. و كانوا سعداء لرؤيتنا أخيرا نقف للصلاة لله. استولينا أيضا تحت امرة الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo على مساجد أخرى لمختلف المصالح الإدارية.

سياسة الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo تجاه العرب - سلوكه تجاه الأغا - المفاوضات مع فرحات بن سعيد - مذبحه العوفية - مذبحه فرقة استكشاف فرنسية. - استعراضات الجنرال بوشي Buchet في منطقة يسر. - اضطرابات في منطقة الجزائر. - إعلان الجهاد و التمرد العام. - قضية بوفاريك. - سلوك غامض و هروب الاغا. - اعتقال مرابطي القليعة. - حملة البلدة. - اعتقال و إعدام مسعود و العربي. - مفاوضات مع قسنطينة. - مساعدة لعنابة. - أحداث وهران، و استدعاء الجنرال بوير Boyer - رحيل الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo - الإنحراف على محافظة قسنطينة.

بدأ الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo إدارته بطريقة جد مناسبة و جد منهجية. فقد تأكد أولا، كما رأينا، أنفاء من امتلاكنا للمنطقة بالفعل، من خلال إنشاء عدة معسكرات دائمة صغيرة. هذه المنطقة كانت محاطة بخط من التحصينات، التي انطلقت من حصن لابوانت بيسكاد الذي احتلناه، مروراً بقمة بوزريعة. دالي ابراهيم، القادوس، تقصراين، واد الكرامة، والمزرعة النموذجية، و جسر لاراتش المدعو جسر قسنطينة، البيت المربع (المحمدية حاليا) و مصب الحراش. كان يحوي حوالي ستة أميال مربعة وضعت بعيدا عن

أي محاولة غزو، والتي كان من الممكن أن تردها الزراعة من جديد لولا أن ظروف أخرى اعترضت ذلك. لقد ازدرينا كثيرا هذه المنطقة التي تحوي جزءا كبيرا من مرتفعات الجزائر، لكن على حد قول بعض الناس، فإنه لا يمكن أن تكون الزراعة منتجة إلا في السهول. يجب على المرء أن يكون حذرا من هذه التراجع المدعومة من الضارين، أو بالأحرى تجار الأراضي الذين أبعثوا من المستعمرة المنشأة في أعالي الجزائر، أرادوا استغلال الأراضي التي حصلوا عليها، وكانوا غير قادرين، أو غير راغبين في القيام بذلك، فتحججوا بأنه يمكنهم في السهول عرض مواشيهم في الزراعة والاستيطان. هؤلاء لم يعملوا على زراعة الشجيرة أكثر مما فعلوه بمرتفعات الجزائر. الكثير منهم سبق له وأن قام ببيع ما اكتسبه من الأراضي في تلك المنطقة. بشروط جعلت فرص نجاح المتعجلين الخفيين أكثر صعوبة. وأرادوا فعل نفس الشيء للسهول. إنهم كانتات ضارة، كانوا دبابير حقيقية تسعى للعيش على حساب خلية النحل، والتي بسبب طبعهم الجشع والأطماع، كانوا يستعملونها من أن تنمو وتشكل.

كان الاحتلال المنظم لمرتفعات الجزائر إجراء تنظيميا و نقطة انطلاق مؤسسية. كان من المستحسن، أن يرتكز الدوق دي روفيجو *de Rovigo* على هذه القاعدة الشبكية أن يتصرف مع العرب بوسائل وطرق مغايرة لتلك التي استخدمها. وسرعان ما تفاجأ بالنظام الذي اتخذته الجنرال برتران *Berthézène*، منذ استخدام أعالي الأمازيغ، الذي جعل دور السلطة الفرنسية يبدو سلبيا، ولكن لعدم وجود مخطط واضح، ولكون سياسته تنحصر في التطبيق غير المنطقي لوحشية النظام التركي الذي لم يكن يعرف عنه غير

الجانب السلبي، فقد اكتفى فقط بإزعاجه دون أن يسقطه تماما. ورغم أنه كان يتعامل مع الأغا ببعض الاستهتار، إلا أن هذا الأخير واصل مع ذلك مهامه. وقد نتج عن ذلك تدهور في آخر المطاف، كان من المفروض أن ينتج عنه تمرد عام، أدى إليه عمل رهيب وشديد القسوة، أمر به بكل برود الوزير السابق للشرطة الامبراطورية، وفيما يلي الأحداث:

فرحات بن سعيد الذي قمنا بتعريفه من قبل، فقد الأمل في إسقاط باي قسنطينة بدعم من العرب فقط، قرر اللجوء للفرنسيين. ولهذا الغرض، أرسل بعثة إلى الدوق دو روفيجو *Le Duc de Rovigo* ليحثه على القيام بحملة على قسنطينة، مع وعود بتقديم التحالف والتعاون من طرف جميع القبائل التي تعترف بسلطته. هذه البعثة، التي رافقتها ضجة كبيرة، رد عليها الدوق دو روفيجو *Le Duc de Rovigo* بمراوغة. بالرغم من ذلك، لاقى أعضاء البعثة استقبالا جيدا في الجزائر، وعادوا محملين بالهدايا. في نفس يوم رحيلهم هوجوا من طرف قطاع الطرق، في أراضي العوفية، وهي قبيلة بدوية صغيرة تحب على مسافة قريبة من البيت المربع *Maison-Carrée* (المحمدية)، فعادوا إلى الجزائر ليقدموا شكواويهم. إثر ذلك أخذ دوق دي روفيجو أعنف قراراته التي لا يمكن تبريرها: أمر في تلك الليلة بإرسال بعض القوات التي وصلت فجرا إلى العوفية وقاموا بتذبيحهم دون أن يستطيع هؤلاء البؤساء الدفاع عن أنفسهم. قتل كل من تذب فيه الحياة، كل ما يمكن أخذه سلب، لم يكن هناك تمييز لا في السن ولا في الجنس. مع ذلك أنقذت إنسانية بعض الضباط عددا قليلا من النساء والأطفال. وعند العودة من هذه الحملة

الشيعة، كان العديد من خيالاتنا يحملون رؤوسا على رماحهم، و يقال أن أحد هذه الرؤوس قد نكل به.

جُنب رئيس هذه القبيلة البائسة، رايبا، هذه المذبحة، لقد احتفظ به ليقدم للمحاكمة. في الواقع، ورغم الجهود الكثيرة للسيد بيشون، إلا أنه أقتيد أمام مجلس الحرب، حيث حكم عليه، أدين وأعدم، على الرغم من أنه تم التأكد من أن العوفيين لم يكن لهم علاقة بالاعتداء الذي حصل على رسل فرحات، لكن اتصاف رئيس القبيلة سيكون بمثابة الاعتراف ببراءة القبيلة وبالتالي فإنه يعني الادانة الأخلاقية للذي قام بإصدار أمر المجزرة، ولتجنب هذا الاستنتاج المنطقي كان يجب ادانة رايبا الذي قدم رأسه هدية للراحة الشخصية لدوق دي روفيجو. وقد جاء هذا الاعتراف من قبل أحد القضاة... (1)

الاعتداء الدموي على قبيلة العوفية كان في نظر بعض الأشخاص اجراما حكوميا مريحا للغاية. كانوا يقولون، هكذا كان يفعل الأتراك أثناء حكمهم، كانت تلك حجة لدوي العقول المغرضة. يوجد في العالم الكثير من اللين لا يفضلون شيئا غير الأفكار الجاهزة. العرب هكذا، لا يقادون إلا بالقأس، وإن الأتراك لم يستعملوا غير هذه الوسائل، هي واحدة من تلك الأفكار التي تبني دوتنا فحصر. لقد تأصلت هذه الأفكار في بعض العقول، لدرجة أن بعض الناس في الجزائر لا يزالون يقولون أن الحملة ضد قبيلة العوفية، رغم ظلمها، قد كانت ذات مقبول إيجابي، بحيث جلبت الهدوء التام لعدة أشهر، الشيء الذي يتناقض كليا مع الحقائق الرسمية، بحيث كانت هذه

(1) كان ذلك موجودا في الشخصيات ووجود بعض الضباط السالطين مثلي.

الفترة بالضبط نقطة انطلاق الاعتداءات الجزئية للعرب، و التي اتجر عنها لاحقا الاجتماع الكبير في سوق علي. حدثت مذبحة قبيلة العوفية أثناء شهر أفريل، و في شهر ماي التالي، تم ذبح ثلاثين من فرقة استطلاع للفيلق الأجنبي على مسافة كيلومتر من ميزون كاريه (المحمدية حاليا). كل ليلة، كان بعض العرب يقومون بضرب بعض الطلقات النارية في أرجاء معسكراتنا وحصوننا، ما أدى إلى حمل السلاح من طرف قواتنا، وجعلها في حالة استنفار دائم. كان دوق دي روفيجو، نفسه، غير واثق من ملائمة السياسة التي اتخذها، لدرجة أنه كان في حالة ترقب دائم. لكنه احتفظ بذكرياته من الشرطة أنه يجب استيعاب كل التقارير، ناسيا أنها لا تستحق كلها ثقة عمياء. كان المترجمين الذين يتعامل معهم، و الذين يعرفون جيدا نقطة ضعفه هذه، يريدون أن يكونوا مهمين، كانوا يحاولون دائما اطلاعه على ما يحدث، اما بالوصول الفوري لباي أحمد، أو أي دعوة لحمل السلاح في متيجة (1). الهجمات الجزئية للعرب كانت تعطي بعض المصادقية لهذه الضجة المبالغ فيها، وأمر الحراسة كانت بشكل جعل القوات شديدة الارهاق، حتى من دون مغادرة مخيماتهم، وبما أن هذه المخيمات لم تكن مقامة في أماكن صحية، هذه الظروف إلى جانب النشاط دون نتيجة، و بالتالي دون أي انشغال ذهني متطلب من الجنود، زاد

(1) كان يقال باستمرار أن الباي أحمد سيصل على رأس ثلاثين ألف رجل، و أنه على مقربة مسيرة يوم أو يومين من الجزائر. لقد لوح بهذه الفزاعة لغاية وصول الجنرال فورول الذي كسرها. أما أثناء حكم دوق دي روفيجو، و قد استغلت ستاجة بعض الأشخاص بطريقة أسعد أبسط ملاحظ يروي أن واحدا من الأهالي القحين كان يكتب بشكل علني رسائل لأحد ممالي الأختار للدوق على أساس أنها آتية من داخل البلاد، و هذه التجارة كانت جد مربحة لمن اخترعها.

الجزء الأول

عدد المرضى كثيرا لدرجة أن الجيش كان في وقت ما، أكثر من أربعة آلاف رجل في المستشفيات.

قلنا أنه في شهر ماي، تم تدبير فريق متكون من ثلاثين جندي في ميزون كاريه (المحمدية). وكان هؤلاء البؤساء يتعمون إلى الفيلق الأجنبي، سقطوا في كمين وضع لهم من طرف حزب العماروة و يسر. حاولوا الاختباء في حظيرة أحد المرابطين التي كانت في طريقهم، لكنهم لقوا حتفهم جميعا بعد أن نفذ لديهم الرصاص. أراد دوق دي روفيجو الأخذ بثأرهم، فقرر إرسال بعثة إلى يسر عبر البحر. كانت هذه الأخيرة مكونة من اثنا عشر إلى خمسة عشر ألف رجل، يقودها الجنرال بوشييه. وانتقلوا إلى نقطة الهبوط بواسطة فرقاطة⁽¹⁾ و سفينة شراعية و باخرة. كان من المفروض أن ترس أثناء الليل، و تفاجئ العدو عند الفجر، لكن هذا الأخير بقي على أهبة الاستعداد. فقد لمحت نيران مضيفة على الساحل من نقطة لأخرى، فلم تنزل القوات أبدا، و عند طلوع النهار، شوهد بعض الفرسان على الشاطئ يترقبون تحركات الأسطول. فعدنا أدراجنا إلى الجزائر، مما أثار دهشة العرب و دون أي استياء واضح بين أفراد البعثة العسكرية. و كان الجنرال بوشي قد تلقى تعليمات بإحداث مفاجئة لا غير و أن يعود إذا ما كشف أمره. فما الذي يمكن للعرب أن يكونوا قد فكروا به و لا تزال ذكرى حادثة العوفية حية في الأفهام؟ سيفكرون بالضرورة، أننا لا نجيد غير تقتيل رجال نائمين، نساء و أطفال، و لا نتجرا على مهاجمة رجال

مسلحين و يقضين. أن نكون مكروهين و محقرين في نفس الوقت، هذا
كثير.

الاغا محي الدين، كان مثل كل العرب، ساخطا على مجزرة قبيلة
العوفية، لكن نظرا لتمسكه بمركزه، و على الخصوص راتبه فإنه كان
من المستبعد انضمامه إلى أعدائنا. مع ذلك، هذا الموقف لم يعد ذاته في عهد
الجنرال بيرتران، دوق دي روفيجو كان قد حطم النظام الذي بنيت عليه
هذه الثقة، و هذا ما جعل الاغا في حالة شك دائمة. لقد فرض عليه في
العاصمة كوسيط حمدان بن عثمان خوجة، كما كان يضطهد أو يراقب
بواسطة الشرطة كل أصدقائه. أثناء حكم بيرتران كان كل شيء يتم عن
طريق الأغا، توقف العرب عن هجماتهم و كنا كلا في مكانه. وفي عهد
دوق دي روفيجو، على عكس ذلك، أصبحنا نود أن تكون لنا علاقة
مباشرة مع العرب، و تم استئناف الأعمال العدائية.

في حين أنه و من خلال اعتماد نظام مختلف عن الذي استخدمه الجنرال
بيرتران، كان ينبغي جعله كاملا بمعنى آخر ازالة الاغا، إذا أردنا التأثير
مباشرة على القبائل أو عدم فعل أي شيء إلا من خلاله إذا كنا نريد
الاحتفاظ به.

في كل شيء، خصوصا في فن تسيير و التعامل مع الناس يجب أن نكون أفعالا
منسقة، لم يكن الأمر كذلك في ظل هذه الظروف، بحيث نلنا مساوئ كلا
النظامين دون أي فائدة تذكر. علاقاتنا المباشرة مع العرب قلصت من اعتبار

و نفوذ الأغا ما جعله يفقد مكانته كمركز كل القبائل، و ما تبقى من سلطة لهذا الأغا كان يسيء الى علاقاتنا المباشرة، التي اصبحت غير كاملة و مقطعة. فالسلطة لم تكفي الواقع موجودة في أي جهة، و تمكن رجال الظروف الراهنة بكل سهولة من استغلال السخط الذي ولدته أعمال دوق دو روبيكو و تسير الأمور نحو انتفاضة عامة اندلعت أواخر سبتمبر.

و من أوائل من شارك و ظهر فيها كان المرابط سيدي سعدي الذي شارك من قبل في تمرد 1831. و كان هو من سافر بين القبائل ليدعو للجهاد أي الحرب المقدسة وكونه كان رجلا مشاغبا أكثر منه رجل حرب، عين بن زعمون قائدا للاتلاف. وقد نقل الاغا بمؤامرات سيدي السعدي الى الجنرال العام في السادس والعشرين أوت. في الثامن عشر سبتمبر كتب أن بن زعمون كان على مقربة من الحمير مع بعض الفرق ما أثار بعض القلق و كان هذا القلق في محله، فيما أن العرب كانوا على استعداد للقيام بنهضة عامة كان من الأحسن ترقبهم للهجوم عليهم بعد أن يجمعوا كل قواهم للتخلص منهم بضربة واحدة، بحيث لا يمكن ذلك من دون معركة قائمة على أتم القواعد. هذه السياسة أضاعت الاغا حتى نهاية سبتمبر، بحيث ظل يقاوم بكل اخلاص ضد التيار، لكن تقاعصنا الواضح الذي تركه يصل الى حد القليعة أين اقامة عمي الدين جعله يخضع للأمر الواقع. وقد كان قادة التحالف قد اجتمعوا في هذه المدينة للتشاور بالحرب المقدسة أي الجهاد لم يكن لدى الاغا القوى اللازمة للمقاومة أطول من ذلك فذهب الى سوق علي أين اجتمعت الجماهير الثائرة. مع ذلك فقد كتب

الى القائد العام لتحذيره لايخطاره بالخطوة التي اضطر و عائلته إلى إتخاذها على حد قوله، متحججا بأنه سيعمل على فك المعضلة و هذه كانت عباراته. و حملت هذه الرسالة من طرف الملازم حميدو الذي كان مجبرا على المجيء الى الجزائر عن طريق البحر كون الطريق البري معترضا من طرف المتمردين. هل كان الهدف من تلك الرسالة تهينة باب خلفي لخروج الأغا في حال ما توج بالهزيمة، و هو ما كان يملك الذكاء الكافي لتوقعه، أم كانت نيته فعلا البحث عن كسر التحالف؟ هذا ما يستحيل التأكد منه حيث أن دوق دي روبيجو سلط قواته ضد العرب قبل أن ينال الاغا فرصة المحاولة.

انظم جميع القياد الى المتمردين و بدأت أعمال العنف تأخذ طابعا جادا و خطيرا في أواخر شهر سبتمبر. كانت القوات تهاجم بشكل يومي أمام المزرعة النموذجية و ميزون كاريه. و في إحدى تلك المناوشات قتل قايد بني موسى، بن أوشفون من طرف السيد سينييه ملازم أول لقناصة افريقيا. في الثامن و العشرين سبتمبر، أنشأ القائد العام مقره العام في بئر خادم. و من هناك قام بتوجيه فرقتين، واحدة على سوق علي تحت قيادة الجنرال فوداس، و أخرى تحت قيادة الجنرال بروسار على القليعة. و سارت هذه الفرقتين في أثناء الليل.

سوق علي هي مزرعة متواجدة شرق بوفاريك كان المتمردون على اهبة الاستعداد و كانوا قد أرسلوا فرقة استطلاع تواجهت مع الفرقة عند مخرج غابة بئر توتة. فسارع لتحذير العرب فجاؤوا للمركز في سيدي حايد المتواجدة قبل بوفاريك بالنسبة لهم. و كان على رأس الفرقة سرب من قناصي افريقيا يسبقون الزواف.

وصلت هذه الأخيرة إلى سيدي حيدر في ليلة ظلماء وسط العرب الذين قابلوها بإطلاق النار من مسافة قريبة. هذا الوابل المفاجيء والغير منتظر نشر القوضى في سلاح الفرسان الذين انطوا على عجل وراء الزواف الذين ما لبثوا أن انهزوا بدورهم. لو أن العدو قد استفاد من هذا الارتباك فلا يمكننا التنبؤ بما كان قد يحدث لكنه لم يتجراً على التقدم والمضي قدماً. هذه الغلظة، أو بالأحرى نقطة الضعف أتاحت الوقت لفرقة القوات لأن تتجمع من جديد. فسرعان ما جمع القائد الشجاع دوفيفيه الزواف. أما بالنسبة للفرسان فقد رأى الضباط أنه من الصعب تنظيمها في وقت عصيب كهذا، وأنه لم يكن أمامهم سبل سوى التقدم بها كما كان حالها وبالتالي هرعوا بأنفسهم نحو العدو مع مناداة الفرسان للحاق بهم والذين لبوا ندائهم. كان هذا الزخم جيلاً جدياً وتوج بنجاح كامل. تراجع العدو. في هذا الوقت طلع النهار: وكان من الممكن تمييز الأشياء فوضع تنظيم أحكم للقتال. فانسحب الفرسان العرب الجبناء تاركين وراءهم المشاة الذين قتل حوالي المائة منهم طعناً بالسيف أو بالرمح، بينما فر الهاربون إلى الجانب الآخر من الموكب ونحو سوق علي. لم يرد الجنرال فوداس الاستمرار وتوقف عند مقدمة الموكب. وجمع الفرقة التي أفطرت في ساحة المعركة. وانحلت بعد ذلك طريق العودة إلى الجزائر، لكن ما إن بدأت حركة الانسحاب هذه حتى عاد العرب إلى القوات لاستئناف القتال، كان المشاة في الواجهة واستعد الفرسان من جديد ونعثر حظ العرب مرة أخرى، وانتهى بهم الأمر إلى التخلي عن المعركة.

في هذه الأثناء، وصل الجنرال بروسار Brossard إلى القليعة دون أن يصادف الأعداء. كانت مهمته اختطاف الأغا الذي كان يظن أنه لا زال هناك، لكنه لم يجده، فألقى القبض على اثنين من بني عمومته: سيدي علال و سيدي محمد الذين كانا مرابطين مبجلين في البلاد، وبالنسبة لسيدي محمد الذي عرف كرجل سلام وخير والذي سأحدث عنه أكثر من مرة في سياق هذا الكتاب. وظلا أسيرين في الجزائر إلى غاية فترة إدارة الجنرال فوارول Voirol.

بعد معركة بوفاريك، أو بالأحرى في سيدي حديد، عاد العرب أدراجهم مثقلين بإحساسهم بالعار للهزيمة الشتعاء التي نالها مشروعاتهم المجنون. و غير راض عن أدائهم في تلك المعركة، انسحب بن زعمون إلى حوشه بفليسة. ومنذ ذلك لم يرد التدخل في أي أمر، وبقي بعيداً عن أي مكائد سياسية.

كان الأغا يخشى أن يعتقل إذا ما عاد إلى القليعة فلجأ إلى بني مناد، حيث كتب من جديد إلى الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo لشرح تصرفه. لكن الدوق أصر على أن يسلم هذا الأخير نفسه مقابل أن يحظى بتقديمه للقضاء الذي يتكفل بتبرئته أو تجريمه، لكنه لم يجز على تسليم نفسه. وقد كان الملازم حميدو قد وضع في السجن ما إن وصل إلى الجزائر، بغية عرضه أمام مجلس الحرب. لكنه كان خائفاً جداً من فكرة المحاكمة التي كان مهدداً بها فمات في زنزانته من شدة رعبه. ظل الأغا يصبر على براءته لمدة طويلة، حتى أنه كتب بنفسه للملك ليؤكد ولاءه، لكن تصرفاته كانت غامضة جداً في الآونة الأخيرة، لدرجة أنه كان من الصعب تصديق أقواله، ثم أن الدوق دو

دورفيجو Le Duc de Rovigo الذي كان منذ مدة حذرا من الأغا. كان يريد قتله، وطلب من مترجم أن يجد له شخصا مستعدا لتنفيذ هذا الإجراء البوليسي كما كان يسميه. وقد حصلت على هذه المعلومة من المترجم نفسه، الذي تخلص بالخيطة من هذه المهمة المشينة.

كان من المفروض أن تسهل نتائج التمرد الذي قام به العرب من مهمة الدوق دورفيجو Le Duc de Rovigo. هذه المرة على الأقل سالت الدماء في ميدان معركة. تبين للعرب أنه لا جدوى من المقاومة، هذا ما سمح ببدء حقبة جديدة لإنارة القائد العام الذي كان بإمكانه، حسب اعتقادي، القضاء على الخلاف باستبداله العفء باللبن. ومن المؤسف أنه كان لدى الدوق دورفيجو Rovigo Le Duc de أنكارا أخرى بهذا الصدد. حيث بدأ هذه الفترة - التي كانت من الأجلر أن تكون عهدا للمصالحة - بفرض ضريبة قدرها مليون و مائة ألف فرنك على مدينتي بليدة و قليعة لمعاقيبتها على المشاركة في التمرد، بالرغم من أنه قد تبين بأن هذه المشاركة كانت غير مباشرة خاصة من سكان القليعة و التي ربما لم توفر سوى أربعة رجال للتحالف. علما أن هذه المدينة الصغيرة لا تضم أكثر من ألف و خمسة نسمة. ولم يدفع من تلك المساهمة سوى ما قيمته عشرة آلاف فرنك لعملتها عائلة مبارك و التي كان قردبها الرئيسيون في السجن، مثلما ذكرنا سابقا، و ألف و أربعمئة فرنك دفعت أثناء حكم الجنرال فوارول Voirol من طرف حاكم البليدة. كان هذا القسط الأخير بالأحرى نوعا من الضمان الذي أراد حاكم البليدة تقديمه لإثبات نواياه الحسنة لتسديد ما تبلى من المساهمة التي لم يعد منها داع بمجرد مغادرة دوق دي دورفيجو Le Duc de Rovigo الجزائر.

من بين العرب الذين كانوا على صلة بالدوق دورفيجو de Rovigo Le Duc؛ أحمد بن شنعان من بني جعد الذي كان على تواصل مع الفرنسيين عام 1830، عشية معركة سطاوالي. كان لدى القائد العام انطباع جيد عنه، و كان يود تعيينه آغا بدلا عن محي الدين. أثناء الفترة التي نتحدث عنها كان يقيم في البليدة، حيث كان يحاول جاهدا أن يعترف به كحاكم من طرف سكان المدينة. لكن و نظرا للاعتراض القوي الذي لاقاه حتى أنه تعرض لبعض الأخطار، فر إلى الجزائر العاصمة في أواخر أكتوبر. فقرر الدوق دورفيجو Le Duc de Rovigo بعث بعض القوات إلى البليدة، و كان ذلك ضمن مشروع كان يحضره منذ زمن. هذه الحملة الجديدة التي كانت تحت قيادة الجنرال فوداس Fodoas و التي انضم إليها الجنرال تريزال Trézel، قائد أركان جيش الاحتلال، اجتمعت في واد الكرامة، في العشرين من شهر نوفمبر، و تقدمت مساء اليوم التالي إلى البليدة، التي فر معظم سكانها. نهبت القوات كل ما وجدته بالمدينة و ألحقت بها أضرارا وخيمة. و في اليوم الموالي، إنجبه جزء من الفرقة، التي يقودها الجنرال تريزال Trézel، نحو سيدي الكبير، قرية جميلة جدا، تقع في إحدى شعاب الأطلس، غير بعيد من البليدة، و التي تم نهبها بدورها. و بما أن سكان البليدة قاموا بحمل أثمن ممتلكاتهم إليها فقد كانت الغنيمة معتبرة، كما تم القضاء أيضا على بعض المخلوقات غير المؤذية و هذا بطبيعة الحال كان من الأعمال المرافقة لمثل هذه الحملات. وبالمقابل، تعرضت فصيلة الجنرال تريزال Trézel إلى طلقات نارية من قبل

بنادق القبائل المتربصة في الجبال، لكنه عاد إلى البليدة دونما خسائر معتبرة. وفي اليوم التالي، أخذت القوات طريق العودة إلى الجزائر العاصمة، محملة بالغنائم أكثر من النصر، بعد إحداث عدة فجوات في تحصينات البليدة.

كان لهذه الحملة نتائج إيجابية في تمديد الانطباع الذي ترك لدى العرب إثر معركة بوقاريك. ولكن كان لا بد من الكف عن الضرب و عن التدمير، كان ينبغي التفكير في التنظيم و أمور الحكم. بتخلص الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo من الآغا، كان حكمه مباشرا على القبائل في ظروف مواتية للغاية. لا شك في أنه كان بإمكانه الوصول إلى غايته المرجوة، لو أنه تخلص من أفكاره المسبقة في طريقة تعامله مع العرب. عين بن رباح "قائد" على بني موسى، و حمود من قرواو "قائد" على بني خليل. أما المولكي، الذي لم يشارك بثباتا في التمرد، فقد ظل "قائد" على خشة. لكن و بينما كانت الأمور تأخذ الاتجاه الحسن، أفسدها الدوق بأعمال الغدر التي لا نجد لها مثيلا سوى في التاريخ المتدهور للإمبراطورية المنحطة؛ فقد بلغه منذ مدة أن العربي بن موسى، قائد أسبق لبني خليل، و مسعود بن عبد الواحد، قائد السبت، من الأعداء للفرنسيين و دائما على أهبة الاستعداد لتحريض العرب ضدهم. أراد الدوق دي روفيجو إحضارهما إلى الجزائر العاصمة التي لم يظهرأ بها منذ عدة أشهر، فقام في السادس أكتوبر، بإرسال برقية إلى سكان البليدة طالبا منهم أن يضموا هذين الأخيرين إلى الوفد الذي كان مقررا إرساله

إليه. هذين الأخيرين الذي أحسا بالملكية التي كان يخططها الدوق، و ترددا كثيرا، و لم يقررا الذهاب إلا بموجب رسالة الأمان التي تم توجيهها لهما عن طريق قائد الخشنة و هو أحد أصدقائهم. بحيث قادهما بنفسه إلى الجزائر، أين تم القبض عليهما بناء على تقرير أحد المترجمين و الذي لا يحتوي سوى على حقائق ماضية، و على وشاية مترجم آخر صرح أنها نصحا الوفد القادم من البليدة أن يوافق على كل الشروط التي يفرضها دوق دي روفيجو، مقابل نسيان أخطاء هذه المدينة و ألا تأخذ بعين الاعتبار لاحقا. عندما تم القبض عليهما، طلب "قائد" الخشنة ساخطا بأن يقبض عليه هو أيضا، و مديديه لتكبل بالسلاسل المجهزة لهما، و كتبت عدة قبائل طالبة الإفراج عنهما، لكن الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo كان متعتنا. و وجد قضية لإدانة هذين البائسين الذين تم إعدامهما في شهر فيفري 1833. ربما لم يجد القضية ما يدينونه في السلوك السياسي لهذين الأخيرين، فاكثفوا بالحكم عليهما اعتمادا على مظالم خاصة. كان من الواضح أن رسالة الأمان كانت عامة (1). كان هذا الإعدام آخر فعل صدر من إدارة الدوق دو روفيجو، الذي أصيب بمرض عضال - أودى به فيما بعد إلى الموت - و الذي اعتبره العرب عقابا له من عند الله. عاد سريعا إلى فرنسا، و بقي تحت وطأة الغدر. دمر هذا العمل الإجرامي الثقة لدى العرب، و إلى يومنا هذا لا يمكن ذكر إسمي مسعود و العربي دون أن تستيقظ ذكريات الخيانة و سوء النية القاتلة تجاه هيمنتنا.

(1) أنكر الذين لمسحوا الدوق دو روفيجو وجود رسالة الأمان في هذه القضية المؤسفة. لكن السيد زكار Zaccar، المترجم الذي كتبها و الذي يعرف ما يقول بهذا الصدد، قد احتج بأنها كانت في كلمات واضحة لا تقبل أي تأويل أو مجالا لسوء النية.

لم يكن الدوق دو روفيجو متعاطفا مع الموريسكيين⁽¹⁾ أكثر من العرب. فقد طرد العديد منهم من الجزائر العاصمة من بينهم، الأغا السابق حمدان الذي عاد إليها وكذلك أحمد بوضربة. كان استبعاد هذين الرجلين حدثا مرحيا به، خصوصا أحمد بوضربة الذي كان يعتبر رجلا خطيرا وغير مريح. وقد كان الدوق دو روفيجو Le Duc de شديدا لاقتناع أن موريسكيون الجزائر كانوا على أمل كبير أن الفرنسيين سيمثلون قريبا من حملتهم لدرجة أنهم سيتخلون عنها، بعد أن يعثروا حكومة سيكون لهم فيها نصيب. ويبدو أن هذه الفكرة كانت قد نمت في أذهان بعض الفرنسيين المهتمين، وأصاب ربحها بعض الموريسكيين - مثلما ما ذكرناه سابقا - هؤلاء الفرنسيون كانوا يرون في الاضطرابات التي يسببها العرب الوسيلة للاقترب من الحل، فسعوا لبقائها⁽²⁾.

من بين الموريسكيين هنالك شخص واحد شمله عفو الدوق دو روفيجو، إنه حمدان بن خوجة Le Duc de Rovigo، ربما إنه

(1) الموريسكيون : (Les maures)

(2) خوفا من التعرض لاحقا إلى المضايقات، قرر بعض الجزائريين - الذين لم تشملهم عملية التخلي من طرف الدوق دو روفيجو - الذهاب إلى باريس مع المرحلين و منهم بن مصطفى باشا، حمدان، أحمد بوضربة و آخرون. وقد لاقى هؤلاء استقبالا جيدا من طرف وزراء الحكومة التي كان يمثلها يمثلهم في الجزائر. كانت النظرة إلى هؤلاء الأشخاص المنحطين، الذين ليس لديهم فلسفا مشتركا مع العرب، على أنهم عينات لشخصيات إفريقية مرموقة لم تر مثلهم في باريس، فاصبحوا كعازضي الأزياء. تلقى كل من بن عمرو و بن مصطفى باشا وسام الشرف. كان بن عمرو يدعى بالسيد الثاني، أما حمدان فلقب بالسيد الأعلى. وكانت توجه إليهم الدعوات إلى الأوساط الراقية. كانت مدعاة حفيظة.

الشخص الأرقى والأخطر من الجميع. هذا الأخير كان يعمل لحساب باي قسنطينة، وهو الآن العميل "المعترف به لدى باريس". في الأشهر الأولى لحكم الدوق دو روفيجو Le Duc de، قدمت لنا يد مساعدة جريئة جدا جعلت عنابة من جديد في قبضتنا، ستحدث عن ذلك لاحقا. إحتلال عنابة جعل الباي يخشى من حملة على قسنطينة، وكان على علم بمؤامرات فرحات بن سعيد، فقرر الدخول في مفاوضات مع القائد العام بهدف وحيد على ما يبدو وهو كشف نواياه. هذه القضية بقيت غامضة بالنسبة لي ولم أتمكن من كشفها بشكل كامل. في شهر أوت 1832، أخبر حمدان الدوق دو روفيجو Le Duc de أنه علم من الم رابط بن عيسى، وهو رجل مبعجل للغاية في البلاد يعيش في سفوح جبل جرجرة، أن باي قسنطينة يود التفاوض معه. وقد حدثه أيضا عن رسائل كان قد وجهها له أحمد باي، والتي قد يكون تم اعتراضها. اغتتم الدوق هذه الفرصة بسرعة للتقرب من الرجل الذي كان مدعاة للقلق بالنسبة إليه، و أرسل إليه حمدان لسماع اقتراحاته. قيل حيثذ أن هذا المغاربي الذكي قد ألف قصة ليكون له عذر للذهاب - بموافقة الفرنسيين - إلى باي قسنطينة وإعلامه بالأوضاع، ولتسوية بعض المصالح. وقد اعترف لاحقا إلى لجنة إفريقيا أنه كان من المقربين لديه، مما يدعو إلى الشك في حسن نيته، لكن دونها رأي واضح في هذا الصدد، سوف تصف بسرعة

التقدم المحرز للمفاوضات، و على النحو المفصل كما جاءت عليه في مراسلات الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo. سافر حمدان بزا إلى قسنطينة. أرادت جماعة المغاربة - بمعنى الطرف الذي كان يحلم بحكم إسلامي يديره موظف فتصلي خارجي - اغتياله في الطريق. و حظر حمدان في الوقت المناسب، فأتخذ تدابير انقذته من المكيدة. و إثر وصوله إلى قسنطينة، وجد الباي في أحسن حالاته و كان يبدو مستعدا للاعتراف بسيادة فرنسا، بل و حتى دفع الجزية أيضا، لكنه كان يريد في هذه الحالة أن يتم التنازل له عن جمارك عنابة. لم يكن حمدان غفولا لإبرام هذه الاتفاقية، فعاد إلى الجزائر ليأخذ التعليمات الجديدة. في أوائل شهر نوفمبر عاد إلى قسنطينة، و اتجه إلى عنابة عبر البحر. في هذه المدينة تلقى رسالة من أحد تجّره فيها بأنه غير رآيه. و مع ذلك واصل طريقه على أمل أن يقنعه بالعدول عن ذلك، لكن الباي كان متمسكا بموقفه. كانت العروض التي اقترحها حمدان كالآتي:

- الاعتراف بسيادة فرنسا،

- الجزية السنوية،

- التنازل عن عنابة،

- حظر التعامل التجاري مع تونس لصالح عنابة.

و كانت فرنسا بالمقابل تعد بإمداد قواته، و مساعدته في دعم سلطته في المناطق الغير معترف بها.

أجاب الباي بأنه يمكن أن يوافق بإحلال السلام و ليس الاستسلام، و بأنه تابع للباب العالي و ليس لفرنسا، و أنه لن يتخلل أبدا عن حقوقه على عنابة، و في الأخير، أن العرب لن يدفعوا أبدا الجزية للمسيحيين. و لم يُخف على حمدان أنه تلقى رسائل من الجزائر حذرت من أن الفرنسيين يحاولون التفاوض معه لخداعه، و هذا ما أكدته رسائل أخرى جاءت من عنابة. علم حمدان أثناء وجوده بقسنطينة أن الرسائل الأولى كتبت من طرف مصطفى بن مرابط، و هو تاجر مغربي (موريسكي) بالجزائر و أن الثانية من طرف يوسف مملوك، قائد في الفوج الثالث من قناصي افريقيا⁽¹⁾. لم يشك أبدا أن هذه الرسائل كانت السبب في تغيير رأي الباي، الذي لم تربطه معنا علاقة منذ ذلك الوقت.

أثناء المفاوضات التي كانت تجري في الشرق دون نتيجة، أرسلت فرنسا السيد دي مورني M de Mornai - صهر وزير الحرب - إلى سلطان المغرب، لأمره بالتخلي عن طموحاته حول مقاطعة وهران، و خاصة على منطقة تلمسان التي كان يطمع فيها بشكل خاص. و بما أن هذا العاهل كان يحس بالضعف في عدة مناطق من الساحل و أن طريقة الكلام التي كان يتحدث بها السيد مورني M. de Mornai ذكرته بما قد يكون نسيه، فإن هذا الأخير وافق على كل ما هو مطلوب منه و أخليت قواته بيلك وهران، الذي تواجدت به منذ أكثر من عام. وضعت هذه المفاوضات حدا لوضعية غريبة كانت تسود منذ عدة أشهر في المدينة و

(1) على الفارق ألا ينسى أنني هنا أعيد الأقوال التي أكتها حمدان، الذي افترض أن يوسف كان يروي بنصه هذا أن يعين نفسه بابا على قسنطينة و أن من صالحه أن لا تتعامل فرنسا مع أحمد، و أنه كان يريد عرقلة المفاوضات.

الجزء الأول

مليانة. كان إثنان من المبعوثين من سلطان المغرب قد قدما لوجدهما إلى هذه المدن، و استقرا فيها بصفتها حاكمين، دون أن يواجهها أي اعتراض؛ الشخص الذي استقر في المدينة كان يدعى شريف المعطي، أما الآخر فكان يدعى محمد بن شرقي. صدم الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo من غرور الشخص الأول، لأنه لم يستخدم أية وسيلة للاستقرار في المدينة، غير الإقناع و ذلك في مدينة لم يتمكن من فرض سلطتنا عليها بالرغم من تهيب سكانها و تفوقنا المادي فيها. فحاول أن يتخلص منه باستعمال أساليب الضعفاء أي عن طريق الخيانة. كتب عدة مراسلات في هذا الصدد، و اتصل كذلك بوليد بو مزراق، الذي وعد بتسميم الشريف. كل هذه المؤامرات غير اللائقة بممثل الأمة الفرنسية النبيلة، كشفت من معطي، فكتب رسالة إلى الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo ضمنتها عبارات ازدراء. و من ناحية أخرى قام سكان المدينة بتوجيه رسالة للدوق مضمونها أن رسول المغرب رجل طيب يسعى لتحقيق النظام و السلام في محافظة التيطري، في حين أن الفرنسيين، الذين مدوا لهم ذراعهم، لم يكونوا قادرين على حماية أي شخص و لا إحلال السلام في أي مكان. ما نلاحظه في هذا الصدد، كما قلنا في مرات عديدة، و متكررة في كثير من الأحيان أن ولاء السكان المحليين و اعترافهم الواضح بالسلطة متعلق بالقضاء على الفوضى. أما محمد بن شرقي، الذي كان الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo يعيره اهتماما أقل، فقد قام بدوره بالكتابة له ليلزمه بالتعامل بسلامة أكبر مع العرب، و لأمه على

نصرته مع قبيلة العوقية الصغيرة. رأى القائد العام أن هذين الرجلين يتحديان سلطته، وأنها يأخذان منه الاعتبار الذي يعطى للخصوم حين لا يكون ضميرنا مرتاحا، وفي الأخير لا يمكن السيطرة عليهم. حاول في الأول أن يستعدها بطريقة ديبلوماسية قبل إرسال حملة يقودها السيد دو مورني M. de Mornai، فقام بالكتابة إلى القنصل الفرنسي في طنجة ليكلفه برفع احتجاج لدى سلطان المغرب، لكن هذه المفاوضات الثانوية ما لبثت تذوب جِراء الحملة التي قام بها السيد مورني M. de Mornai، وكانت من بين نتائجها تخلي وكيل هذا الأمير عن مدينتي المدية و مليانة. أراد العاهل المغربي - بعد أن أصبح مرغما على التخلي عن وصاية الجزائر - أن يكون له على الأقل تأثير خفي على محافظة وهران التي كان يأمل بضمها إلى مملكته عاجلا أم آجلا. ولتحقيق غايته هذه، وطد علاقته بالشاب عبد القادر، الذي بدأ يتألق في هذه المنطقة، والذي نظرا لسنه ارتأى له أن يخضع إلى نفوذ هذا الأخير أكثر من غيره من القادة. بالإضافة إلى ذلك، فقد كانت تربطهما نوع من العلاقة الأسرية، حيث أن الاثنين كانا يقولان أمهما من الأشراف ما يعني أن كليهما من نسل الرسول. كان عبد القادر رجلا فائق الذكاء إذ قبل الرعاية التي يعرضها الملك، على أن يستعملها في توسيع نفوذه الخاص. كان والد عبد القادر، الشيخ محي الدين محترما جدا من طرف العرب. أرادت القبائل المحاذية لمعسكر أن تعينه حاكما أعلى سنة 1832، لكنه رفض هذا الشرف بحجة كبر سنه، وعرض بدلا عنه ابنه الشاب عبد القادر الذي تمت مبايعته. خلال هذه المناسبة روى الشيخ محي الدين أنه أثناء تأديته لمناسك الحج - قبل

طبع صراف - وثقة ابنه الأكبر و عبد القادر، أنه في أحد الأيام بينما كان يتجول مع الأول قام درويش طاعن في السن بإعطائه ثلاث نقاجات، وقال له "هذه لك وهذه لأبنتك وهذه أما الثالثة فهي للسلطان". قال يحيى الدين مستغرباً "و من هذا السلطان؟" فرد الدرويش: "الذي تركته في البيت عندما خرجت لتجول هنا". هذه الطريقة الصغيرة كانت من الأمور المسلم بها لدى أنصار عبد القادر ولم يكن تأكيدها علينا لترسيخ سلطة عبد القادر.

بعد فترة قصيرة من صعوده أول درجة على سلم الخطأ، اعتزفت مدينة عسكري - التي كان حكمها جمهورياً منذ طرد الأتراك - به كأمير عليها، وليرى أنه تلك العين على كل نظراته. يمكن أن سكان هذه المدينة اتخذوا قرارهم هذا منذ أن أقيم لهم مراتب صعود أن الملك جبريل قد نجح له وأعلن له أن إرادة الله هي أن يحكم عبد القادر العرب. فمن المؤكد إذن أن الملك جبريل والله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يقوموا بخيار أفضل من ذلك.

في شهر أبريل 1832، تفتت مدينة وهران فجاء من القرسان لشكيلة الفوج الثاني من قناصي إفريقيا، وكانوا قد بدأوا بالقيام ببعض الجولات الصغيرة لتعرف على الضواحي من جهة و الحاية الواقفين من جهة أخرى. أخذت الحرب حينئذ منحى أكثر جدية، ففي الثالث والرابع من مايو تعرضت المنطقة لحجم من طرف بعض الآلاف من العرب تحت قيادة الشيخ يحيى الدين و ابنه عبد القادر.

لكن العديد منهم من الاعتداء في اعتاق في حصن سان فيليب (Philippe).

(Fort Saint) ولم ينسحبوا إلا في الليل، بعد أن اقتنعوا بصعوبة تسليق المحذر.

جده العدو هجماته في السابع من مايو، و السحب بعد عدة ساعات من الجهد المضاعف. و حاص حول المدينة في الثامن وما لبث أن احتل في التاسع من نفس الشهر. و على الرغم من عدم جدوى هذه المجموعات، فقد لير خلافاً عبد القادر بروفة دعمه و شجاعته أمام ذويه. و كان العرب في هذه الفترة لا يزالوا يرهون نيران المدفعية. و بغية أن يتعودوا عليها و يتغلبوا على خوفهم منها، قام عبد القادر بالتقدم عدة مرات في الجاه الرصاص و الطلائع و حيا بذلك تلك التي كانت تصدر صوتاً.

لم يحدث شيء يذكر في وهران حتى الواحد و الثلاثين من شهر أوت. في ذلك اليوم، حاول ثلاثمائة فارس من قبيلة طراية اختطاف قطيع تابع للإدارة، لكن تم صددهم من قبل فرسانا الذين قتلوا البعض منهم.

في الثالث و العشرين أكتوبر، تقدم من جديد نحو خمسمائة إلى ستمائة من العرب أمام المنطقة، و تم صددهم من طرف فرسانا مدعومين ببعض قوات المشاة. هذه المعركة الصغيرة التي تميزنا فيها بالعدو، كانت نجاحاً باعراً للفوج الثاني لقناصي إفريقيا من بينهم غياط الجيش و غياط الصف والجنود الذين كانوا يتصفقون بسياط بارزة من الشجاعة الفردية. كان هؤلاء تحت قيادة العقيد دوليتانغ de l'Étang الذي برهن في كل الظروف عن جدارته. لمع أيضاً المارشال تروبريان Trobriant، من أصل "بروتوني".

bretan الذي يتميز بالمحاربين الشجعان، و بقيادته للسرية الأولى⁽¹⁾ لمقاطعة وهران كان يتألق أيضا في الصفوف الأولى خلال تلك الاشتباكات الصغيرة. منذ حادثة الثالث والعشرين أكتوبر، قام عيد القادر باعتراض المراسلات بين وهران والمناطق الداخلية. وفي العاشر من نوفمبر، تقدم من جديد أمام المنطقة، و قاتل ضد الجنرال بوير Boyer، الذي خرج بنفسه لأول مرة في هذا الطرف. وتم صد العرب بعد أن قاتلوا يسالة. كان أداء قواتنا أيضا في مستوى جيد على الرغم من أن الفوج الثاني من قناصتي إفريقية قد لقي خسائر معتبرة في هذه المعركة.

كانت هذه المعركة آخر الأعمال القيادية للجنرال بوير Boyer، الذي أقبل بسبب عدم التفاهم بينه وبين الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo السيد بوير Boyer فقد كان مترددا في الاعتراف كقائد بمن كان رغم ذلك قائد كل قوات الاحتلال. وكان يبرر استقلاله عن إمرة الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo بالمراسلات المباشرة التي كان يتبادلها مع الوزير، وعلى الرغم من أن الدوق دو دالماسي le Duc de Dalmatie كان السبب الرئيسي للتصرف الخجول للجنرال بوير Boyer، فقد وجد نفسه مجبرا على التدخل معه عندما وصلت الأمور لدرجة الاختيار والفصل بينه وبين رئيسه. كان الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo ضد هذا الجنرال لدرجة أنه قام انتقاما منه بالإشارة خلال جدول الأعمال - لكن دون أن يذكر اسمه - إلى الأعدامات المخالفة للقانون التي كان يقوم بها في وهران. بطبيعة

48 (1) السرية الثانية كانت تحت قيادة الماريشال سوزي Saurzel

الحال، لقد كان من السهل لهذين الرجلين أن يتفقا على موضوع كهذا - والذي لا يمس في شيء إنسانية الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo ولا حساسية كقائد - لو أن قائد وهران أظهر القليل من الاحترام. ثم استبدل الجنرال بوير Boyer في الجزائر بالجنرال ديميشال Desmichels، الذي كان ماريشال عظيم بسيط.

أخذنا مسار السرد بعيدا عن مقاطعة قسنطينة، حيث يجب أن نعود لتعرف القارئ بتفاصيل الاحتلال الثالث لعنابة.

بعد الكارثة التي قام بها القائد هودير Huder والتي سردها في الجزء الأول من هذه الحوليات، إنهار الباي ابراهيم، حاكم عنابة، على السكان بفرض الضرائب ومصادرة الأملاك، مما جعلهم يندمون على أنهم استضافوه. لكن الخوف من الوقوع بين أيدي باي قسنطينة، الذي أمر ملازمه بن عيسى بأن يسير إليهم، منعهم عن فصل قضيتهم عن قضيته. بعد حصار دام ستة أشهر، قرر سكان عنابة وقائدهم ابراهيم - بعد أن استترفوا قواهم - باللجوء مرة أخرى للفرنسيين. استقبل الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo المعوثين بشكل جيد، إذ أنه تلقى أوامر من الحكومة باغتنام أول فرصة سانحة للاستيلاء على عنابة. وعند عودتهم أرفقهم بالتقيب جوزيف⁽¹⁾ وكلفه بالتأكد من الأوضاع الحقيقية في عنابة. و بناء على التقرير الذي تلقاه منه، أرسل نحو عنابة زورق "الثروة" محملا بالغذاء، واختار كاتبين فرنسي المدفعية دارمندي d'Armandy للذهاب لمساعدة أهل عنابة على

(1) جوزيف دو أصل غير معروف تماما، يبدو أنه إيطالي المولد، مسار حياته يروي بشكل مختصر. يمكن كتابة قصة رائعة بشأن ما لاقى منه في الإيجان في الأمر، هو أنه

مواصلة حماية المدينة، في انتظار إمكانية إرسال المساعدات المباشرة. كان ذلك حسب بعض التوقعات، بمثابة إعداد الضابط لنفس مصير القائد هودير Huder، لكن السيد دارمندي d'Armandy واحد من أولئك الرجال ذوي الحيلة والإقدام أمام الصعوبات، والذين يعرفون جيدا كيف يخرجون من أسوأ الظروف بكل قخر ومجد.

أبحر هذا الضابط في الثاني عشر من فيفري على المركب الشراعي "لا بيارنيز" la Béarnaise، الذي سحب معه زورق "الثروة". وأرسى بها في عنابة في التاسع والعشرين من نفس الشهر وغادرت في نفس اليوم عبر تونس، أين قادت الكابتن جوزيف Joseph، المكلف بمهمة خاصة بشراء الخيول لحيلاتها. عند وصول السيد دارمندي d'Armandy إلى عنابة، ورع المساعدات الغذائية على السكان و ألزمهم بمواصلة القتال ضد بن عيسى. لكن نظرا لتزول معنوياتهم لم يكلل تحريضه بالنجاح، و في الليلة من الخامس إلى السادس مارس، اقتحم القائد القسطنطيني المدينة حيث فتحت له أبوابها من قبل مؤيديه.

تمكن القبطان دارمندي d'Armandy من الحرب إلى الفلوجة، و استعجله الأشخاص الذين كانوا معه في الإقلاع سريعا، لكنه لم يرد التخلي عن الجنود الأتراك الذين كانوا في القلعة، فاكتمى بالإبحار بعيدا عن متناول تيران القسطنطينيين. و بعد حين، جاءه رسل من بن عيسى

قال في عام 1830 في ختمة باي تونس، و أنه جراه قصة حب كئي يمكن أن تكون ذات حواف وخيمة عليه، اضطر إلى الهروب من البلد الذي ولد فيه و الأرماء في أحضان فرنسا التي كانت آنذاك مشغولة بالقتال الجزائر. و قد ختمها بولام، و كوفي بما فيه التقدير

ليزموه باسم هذا القائد، للانضمام إليه للتشاور في المسألة التي تشغل كليهما، ورغم خطورة الموقف إلا أنه لم يتردد في الاستجابة لهذه الدعوة. استقبله بن عيسى بشكل لائق، و في أثناء الحديث الذي جمعها، تم الاتفاق على تعليق كل الأعمال العدائية بين القلعة و قسنطينة، ليتسنى لهم الوقت لتلقي أوامر القائد العام، الذي كان يبدو أن باي قسنطينة مستعد للتفاوض معه. استمر هذا الوضع إلى غاية وصول مركب البيارنيز Béarnaise العائد من تونس في السادس والعشرين من مارس مع القبطان جوزيف Joseph.

كان السيد دارمندي d'Armandy يرى أنه لا يمكن تمديد هذا الوضع لفترة أطول، نظرا للروح المعنوية المتدهورة للمحاصرين الذين كانوا لا يرون مخرجا غير الفرار، الشيء الذي كان سيؤدي بالقلعة إلى أيدي القسطنطينيين دون إطلاق رصاصة واحدة. و هذا ما كان يجب تجنبه بأي ثمن، لأنها لو وقعت في أيدي عدو قوي، لن يمكن استرجاعها إلا بجهود كبيرة. و نتيجة لذلك، ذهب على متن مركب البيرنيز Béarnaise، وطلب من القبطان فريارت Fréart الذي كان يقودها أن يضع تحت تصرفه ثلاثين رجلا من طاقمه، ليساعدوه على التسلل إلى القلعة، و الدفاع عنها ضد بن عيسى حين وصول الجديد من الجزائر. السيد فريارت Fréart ليس من أولئك الضباط الذين يخشون تعريض مسؤوليتهم للشبهة، و تبني مشروع الكابيتان دارمندي d'Armandy،

لكن قبل التنفيذ طلب منه الثناء بن عيسى و المحاصرين مرة أخرى لمحاولة الحصول على عقد هدنة، متعهدا بالذهاب قورا إلى الجزائر لإخبار الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo بتطورات الوضع.

ذهب إذن السيد دارماندي إلى بن عيسى، لكنه لم يتمكن من الحصول على شيء يذكر. وبعد تعب من عدم وصول أي رد من الجزائر، قام هذا القائد بالإعلان أنه في حالة ما إذا لم تستسلم له القلعة في اليوم الموالي فإنه سيقوم بأخذها بالغصب اليوم الذي بعده. و عاد دارماندي d'Armandy إلى متن البيرينيز la Béarnaise، و تقرر أنه سيكون تحت تصرفه ثلاثون من البحارة الذين سيتسللون إلى القلعة. لكن لا يمكن تنفيذ هذه الخطة دون موافقة الأتراك المحتجزين، و بالتالي ذهب إليهم دارماندي d'Armandy و جوزيف Joseph بالليل ليشرح حالهم ما اتفق عليه. لم يلق هذا الخبر قبولا حسنا، حيث أن ابراهيم، الذي كان التسبب في موت هودير d'Huder، كان يخشى تفويض الأمر لتقدير فرنسا، فأثار اضطرابا عريض الاثنين إلى المخاطرة بحياتهم، إلا أنها تمكنا من الفرار، و استمر الصراع بين أنصارهما و أنصار ابراهيم حتى بعد مغادرتهم، و اضطر هؤلاء إلى الهروب رفقة زعيمهم، للجوء إلى بنزرت أين كان لهم الخط للوصول دون أن يتم اكتشافهم من طرف بن عيسى. قام أتراك القلعة بإرسال أحدهم إلى القبطانين ليخبراها بما حدث هناك. فتوجهتا على الفور مع البحارة اللذين وضعوا تحت تصرفهم. و لأن المحاصرين كانوا يترقبون الباب، فدخلوا من الجانب المقابل بحمل

التي لهم. و على الفور تم رفع العلم الفرنسي على القسبة. عند رؤية ذلك حاول بن عيسى الهجوم، لكن بعض قذائف المدفع أجبرته على البقاء بعيدا. واستغلت فرصة ابتعاده لإحضار بعض المؤونة التي كانت تحتاجها القلعة من مركب البيرينيز la Béarnaise.

فقد بن عيسى الأمل في استرجاع القلعة من الفرنسيين، فقرر التخلي عن المدينة، لكنه أجبر كل سكانها على الخروج وراءه، ثم جعلها عرضة للنهب، و انتهى به الأمر إلى إحراقها لكي لا يترك إلا الحطام للفرنسيين. رأى القبطان دارماندي d'Armandy من أعالي القلعة عملية التخریب، و كان متأسفا من عدم قدرته على إيقاف ذلك. و ما إن ابتعد بن عيسى جارا وراءه سكان عتابة البائسين، حتى انقض جوع من القبائل و العرب على جنة المدينة لنهب ما كان قد خلفه القسطنطيون و الحريق. إثر هذه الأحداث حاول بعض الزواف Zouaves المتعاطفين مع ابراهيم التهرب من لاثارة تمرد. لكن القبطان دارماندي d'Armandy كان قد ألهم من طرف زعيم الأتراك، فألقى القبض على ثلاثة من هؤلاء و قادهم على متن البيرينيز la Béarnaise كما قام بقتل ثلاثة آخرين و تمت بذلك السيطرة على الوضع. رأى القبطان جوزيف Joseph أنه من واجبه إعدام أحد من هؤلاء احتفاء بالظروف المواتية التي أدت إلى تطويق هذا التمرد. و بعد ذلك لم تكن تلك المؤامرة شديدة الخطورة، لم يشارك فيها الأتراك، و عند ذلك الحين لم تر فرقة أكثر إخلاصا و ولاء لزعيمها مثل فرقة

الأتراك الذين أصبح منذ ذلك جوزيف القائد Joseph قائدها. و بفضل ثواب
وحكمة رجلين تمكنت فرنسا من السيطرة على عتابة.

في اليوم التالي للأحداث التي قمنا بوصفها، كان هب مدينة عتابة لا يزال
مستعراة فقام عشرون من الأتراك بالخروج من القلعة، و وضعوا كميناً على
أبواب المدينة التابعة لأوامر القبطان دارماندي d'Armandy. و عند إشارة
منطلق عليها، تم رمي بعض القنابل على المدينة، فخرج منها العرب الذين كانوا
ينهبونها سريعاً، لكنهم و قمعوا في الكمين الذي وضعه لهم الأتراك، وتكبدوا
خسائر بشرية كبيرة. بعد هذا النجاح تشجع هؤلاء الأتراك و أقاموا بالمدينة
في الثامن من أبريل. بعد وقت قصير جاءت أخبار من الجزائر مفادها تعيين
دارماندي d'Armandy القائد الأعلى لعتابة بصفة مؤقتة، و أعلنوا عن
إرسال الإمدادات التي وصلت بالتوالي بين الثامن والثاني عشر من شهر أبريل
والتي كانت تتمثل على العموم في الخنود والمدفعين. هذه الكتيبة كانت تحت
قيادة قائد الكتيبة دافوا Davois، الذي يجب ذكر اسمه بكل شأن، كونه مثال
ناجح للأسف للحس السليم و عدم الحساسية للتسلسل الهرمي. عند مغادرته،
أخبره القائد العام أن الظروف تلزمه على ترك دارماندي d'Armandy على
رأس عتابة، و أنه يمكن أن يقرر البقاء في الجزائر إن كان ذلك يزعجه. و رد
دافوا Davois أنه لا يرى في هذا الأمر إلا مصلحة الخدمة، و أنه لا يتوي
أيضا التنافس على الحكم مع دارماندي d'Armandy الذي قال لة القائد
العام كونه يستحقها عن جدارة، كما أكد أنه سيطلع كل الأوامر التي يصدرها

دارماندي d'Armandy دون أي جدال لخبايا مستعمراتنا الخفية.
في هذه الأثناء طليت قبيلة صنهاجة - القبيلة التي ينتمي إليها العرب الذين
قتلهم الأتراك على أبواب عتابة - السلام فالتوا التواقعة هم و بني عتابة -
قبيلة مجاورة للمنطقة - و كانوا يجلبون المؤونة و الماشية
وبدا الازدهار بعم عتابة، حتى أن الإدارة تمكنت من الحصول على ميدان
يؤمن احتياجات المتواجدين هناك من الماشية. لكن سرعان ما سرق جزء منها
من طرف قبيلة الحارسة التي سرعان ما لاقت العقاب جزاء أعمال العنف التي
قامت بها، حيث قام جوزيف Joseph رفقة الأتراك بمفاجئة هذه القبيلة أثناء
النيل، و قتل بعض رجالها، و صادر لهم قطعاً أكبر بأربع مرات عن الذي
أعطوه. هذا العمل العنصر أدى إلى إخماد كل أعمال عتف من طرف العرب، و
كانت عتابة آمنة تماماً حين جاء مارشال المخيم مونك دوزر Monck d'Uzer
ليستلم الحكم في الخامس عشر من شهر ماي. الجنرال مونك دوزر d'Uzer
Monck كان معروفا لدى جيش إفريقيا حيث قاد إحدى الكتائب عام 1830.
وصل إلى عتابة على متن الفرقاطة ديدون la Didon مع كتيبة الصف الخامس.
الفرقة الثانية وصلت بعد عشرة أيام على متن مركب السوقرين le Suffren، أما
الفرقة الثالثة فلم تصل إلا في أواخر السنة لاستبدال كتيبة الصف الرابع، التي لم
تعد إلى الجزائر إلا في الشهور الأولى من سنة 1833. وضعت أيضا تحت تصرف
الجنرال دوزر d'Uzer كتيبة الفيلق الأجنبي، مدفعية حصار، مدفعية ريف و
شعبة خاصة بالجبل. و في شهر فيفري 1833، أنشأ في عتابة الفيلق الثالث

لقناسي إفريقيا، والذي كانت نواته السرية السابعة و الثامنة من القبلىق الأول الذي قلص إلى ستة سرايا.

عندما جاء الجنرال دوزر d'Uzer لاستلام الحكم، عاد بعض سكان عناية البؤساء الذين أجبرهم بن عيسى على ترك منازلهم، فقابلهم بصدر رحب لكنه وضع ثقته في شخص يدعى مصطفى بن كريم الذي لم يكن جديرا بها، على حد قول البعض. ونظمت الخدمة المدنية في عناية مثلما كان الحال في وهران حتى قبل أن يكون هناك إداريون. وتضيئا لأوامر الدوق دي روفيجو Rovigo Le Duc de - الذي كان الجنرال دوزر d'Uzer يتعامل معه كما ينبغي، بمعنى أنه كان راضحا ومطيعا- تم القبض على بعض المغاربة المشكوك فيهم ونقلهم إلى الجزائر ومن ثم إلى مارسيليا، أين بقوا مسجونين مدة ثمانية أشهر في حصن سان جون Saint-Jean. وقامت الحكومة بالإفراج عنهم بعد هذه المدة، وأصبحوا أحرارا بالرجوع إلى ذويهم. من بين هؤلاء المغاربة كان هناك سيد أحمد الذي تحدثنا عنه في الجزء الأول.

اعتمد الجنرال دوزر d'Uzer منذ البداية سياسة الرفق والعدل، وبهذه الطريقة جمع حوله بعض القبائل التي جاءت تبحث عن الحماية ضد طغيان أحمد باي، لكن يجب القول أنه أصبح محوهم، يقوله تقريرا جميع الأعضاء الصبايحية غير النظاميين يراتب سنين ستيم في اليوم، بموجب الأمر الصادر في السابع عشر من نوفمبر 1831. وبلغت نفقات هذا البند في عناية خمسة عشر ألف فرنك في الشهر الواحد، بالرغم أنه لم يتم تجهيز هؤلاء الصبايحية كما ينبغي، وكانوا بالأحرى يشكلون مجموعة من الرعاة بدلا من أن يكونوا عصابة من المحاربين.

على الرغم من تساهله مع العرب، كان الجنرال دوزر d'Uzer مضطرا في بعض الأحيان لحمل السلاح ضدهم. ففي الثامن من جوان، بعث أثناء الليل الكابيتان جوزيف Joseph مع الأتراك، و قطعني مدفعية جبال وأربعة سرايا من نخبة الجنود، ضد ناي بن يعقوب و الذين كان يشتكي منهم. فاجأ الكابيتان جوزيف Joseph العرب و استولى على محصلهم وماشيهم، لكن الجنرال دوزر d'Uzer، الذي جاء وراءه مرفوقا ببعض القوات، تخلى عن هذه الغنائم. بن يعقوب كان أحد وكلاء أحمد باي، ومع ذلك فقد كان يبدو مختارا بينه وبيننا، ولم يحاربنا مباشرة، بل كان يكتفي بمنع العرب من الذهاب إلى سوق عناية. أراد الجنرال مساييرته، أملا أن يتراجع عن أفعاله و لم يرد أن يلحق به الأذى رغم قدرته على ذلك. وبالفعل، ورغم أن هؤلاء قد رافقوا الجنرال دوزر بإطلاق النار أثناء عودته من هذه الحملة، فإن هذا القائد لم يستبعد أبدا إمكانية التفاوض معه لكن كونه رجلا غنيا لم يمكننا أن نضمه إلينا إلا إذا استطعنا أن ندعم أصدقاتنا دون إجبارهم على التخلي عن موقفهم، وهذا يعني عندما يكون العون أمام هؤلاء وليس وراءهم.

لم يحدث شيء يذكر في عناية لغاية الثامن من سبتمبر. في هذا اليوم قام إبراهيم باي - هذا الرجل المشير و الغامض الذي لا يكل - بالتقدم لنا المظلة رفقة مجموعة من ألف و مائتي إلى ألف و خمسمائة رجل، لكنه حوَصر بين مجموعتين من الجنود خرجا في نفس الوقت من باي عناية، وحصر الكثير من الرجال و هزم تماما. تصرف الكابيتان جوزيف Joseph

يشكل جيد في هذه الحادثة، وعل إثرها أعيد طلب ترقية و تمت الموافقة عليه. حيث عيّن جوزيف Joseph، بعد شهور قليلة، قائدا على سرية في الفيلق الثالث لقناصي إفريقيا. السيد دارماندي d'Armandy تلقى نفس الدرجة في جيشه.

أما ابراهيم باي الذي لم يطل مكوثه في بنزرت بسبب قلقه، استعان بأحد المرابطين و المدعو بن بكري ليضم إليه بعض القبائل. و مع بداية شهر أوت تمكن من جمع قوات معتبرة، لكن في الوقت الذي أرادوا فيه السير، وقع بن بكري من على حصانه و كسرت يده. إعتبر العرب هذا الحادث كفأل سوء، فتفرقوا، و لم يستطع ابراهيم باي جمعهم من جديد إلا بعد شهر من ذلك، ليهزم كما قد رأينا قبلا تحت أسوار عنابة.

إثر ذلك الانهزام، و بعد أن خسر كل اعتبار لدى القبائل المهزومة، سعى ابراهيم باي لإقناع القبائل التي لم تشارك في تلك المعركة، لكنه لم يوفق فالتخذ طريق المديّة، أبين و وصل بعد عناء كبير و هناك اغتاله أحد باي عام 1834، تاركاً إبنان انضما إلى صفوفنا فيها بعد.

في حادثة الثامن سبتمبر وقع في أسرنا سجينين من قبيلة بني محمن القاطنة على شواطئ خليج سطورة. عاملهما الجنرال دوزر d'Uzer بشكل جيد، و أطلق سراحهما دون أية فدية. هذا العمل الكريم أكسبه صداقة هذه القبيلة القوية جدا، و التي جاء زعيمها إلى عنابة ليعرض عليه مساعدته في حالة تنظيم حملة على قسنطينة.

و خلال شهر سبتمبر، أراد بعض أهالي بني أورجين أن يتجنبوا هجمات

أحد باي، و استقروا في مصب نهر سيوس، بالقرب من أبواب عنابة. جزء من قبيلة الحارسة اقتربت منا أيضا، هاتين القبيلتين و قبائل أخرى قريبة من عنابة، كلها قدمت رهائن هم تابعون للسرية التركية.

في الأيام الأولى لشهر نوفمبر تفشى وباء قاتل، و كانت بعض أعراضه توحي بالحمى الصفراء، و ظهر بشكل واضح في حامية عنابة. ساد المرض لمدة طويلة من الزمن و قضى على ربع القوات و السكان. و بما أن العون الممدود لم يكن كافيا لشدة الأزمة، توفى الكثير من المرضى بسبب قلة العلاج. و ألقى اللوم في هذا الأمر على الإدارة، لكنه كان من الصعب عليها تكوين مخزون على أساس فاق كل التوقعات. و لحسن الحظ، لم يحاول باي قسنطينة الهجوم على عنابة في مثل هذه الأوقات العصية. كان الجنرال دوزر d'Uzer يخشى هذه الفكرة، فقام بعدة خرجات رقيقة بعض القوات و كل من استطاع الركوب على حصان ليثبت للعرب أنه لا زالت تتوفر لديه القوة العسكرية، و تقدم بها بعيدا دون أن يجد من يقاّله.

من جهة قام أحد باي بالسير بقواته نحو بعض القبائل التي لم تعترف بسلطته. و تقدم الأغا الذي كان على رأس هذا الجيش إلى حد طلحة، على بعد سبعة أميال جنوب عنابة، و اقترف ضد العرب جرائم لا توصف، حيث ذبح عددا كبيرا من الرجال، أما النساء و الفتيات فقد تم بتر أطرافهن بأشع الطرق و حرق ألدائهن و ركبهن، يصعب علينا وصف تلك المظالم.

إنه عار على فرنسا أن تترك ذلك الوحش البشري الذي يحكم قسطنطينة والذي مالت أن صب غضبه بعد فترة قصيرة على أفراد من عائلته بحيث قطع رأس صهره وسقم عمه بن قانا.

على الرغم من أن وحشية أحمد باي كانت تزيد كل يوم عدد مؤيديه، إلا أنه تمكن من أن يتدفع نحو عنابة في الثالث عشر من مارس 1833، حيث تقدم حوالي سعمائة إلى ثمانمائة فارس من قبائل الشرف، صنهاجة، بني مان ورجاية. كان على رأسهم بلنكحل، زعيم الزرديز، الذي كان في عام 1830 العدو الأكثر شراسة للجنرال دامريمون Damrémont.

قامت قواتنا بعد تلك الهزيمة دونها أي عناء أو أية خسارة بشرية. ومنذ تلك المعركة التي لم تسب عن شيء يذكر، إلى غاية الوقت الذي أكتب فيه الآن لم تسجل أية هجمات على عنابة من طرف العرب. و تعود هذه الحالة إلى سياسة الجنرال دوزر d'Uzer، الذي تمكن من جلب صداقة العرب، معتمدا على سيرة مناقضة لتلك التي استعملها أحمد باي. ومن المؤسف أن الحكومة لم تفكر في نشر تلك السياسة على نطاق أوسع. إلا أن الجنرال لم يكن يتردد في استعمال القوة عندما يبدو ذلك ضروريا. ففي شهر أبريل 1833، بعد تأكيد أن عدة أميال سرقة قد انخرقت في حق حلفائنا وبعض الأروبيين، من طرف قبيلة أولاد عطية الفاطنين على الضفة بحيرة تقع على بعد أربعة أميال من عنابة في اتجاه سطور، قدم الجنرال بالمجموع عليهم، وقتل الكثير منهم، والاستيلاء على ماشيتهم لتعويض خسائر حلفائنا وكذا

خسائر الإدارة التي سببت منها بعض الماشية من طرف هؤلاء الخصوص. في هذه الحادثة، جرح الملازم جوزيف Joseph، كما قتل العقيد دوشابان de Chabannes - الوريث الجدير باسمه النيل، قائد الفيلق الثالث لقناصين إفريقيا - (ثنين من العرب بنفسه).

حان الوقت الآن لإعطاء وصف دقيق لمحافظة قسطنطينة، أبرز محافظة من عدة نواحي من بين المحافظات التي شكلت منطقة الجزائر.

يهكل هذه المحافظة مشابه تقريبا للأخرى. من عموما سلاسل متوازية ذات سمك متباين، مفصولة بأودية مختلفة العرض و في بعض الأحيان مترابطة بسلاسل بسيطة. أقرب هذه السلاسل للبحر، تنصل في عقدة جبل الوحش، الذي يقع في الشمال غير بعيد عن قسطنطينة. تخرج من هذا المشرق ثلاث تلال جبلية رئيسية: الأولى تمتد نحو الشمال باتجاه عمودي للبحر و تنتهي في رأس بوجارون le cap Boujaroun⁽¹⁾، التلة الثانية نحو الشرق تحت منتصف رأس الحديد⁽²⁾، ثم بنشعب. إحدى تلك التشعبات تسير الساحل و تنتهي في عنابة، والأخرى تبتعد قليلا و تنتهي على بعد عشرة أميال من البحر في النقطة التي يخرج منها السيوس من الجبال. التلة الثالثة أكثر طولاً من الأولى، يحوي التي في ناحية الجنوب و ينتهي عند واد المشرق.

يبدأ سهل عنابة في نصف الدائرة المشككة من تشعب التلة الثانية تقريبا بنفس انحناء النتيجة، و تنتهي شرقا عند جبال تشكل نصف دائرة من الضفة مغرق إلى نهاية البحر شرق القالة.

(1) بالعمري صبح روج (الرووس السبعة) التي تشكل في الواقع سبع نقاط
(2) بالعمري رأس الحديد

يفصل كتلة الجبال التي تم وصفها عن كتلة جبال بجاية، الواد الكبير الذي يصب في البحر غير بعيد عن شرق جيجل.

بين رأس بوجارون le cap Boujaroun المتواجد شرق مصب الواد الكبير ورأس الحديد، نجد خليج سطورة، الذي كان يسمى قديماً بـ سينوس نوميديكوس Sinus Numidicus.

وبعد رأس الحديد في اتجاه الشرق، يمتد الساحل في اتجاه شرق غرب وصولاً إلى رأس احمر أو كاب دي غارد le cap de Garde. وبعدها رأس روزا le cap Rosa. وبين هذين الأخيرين خليج عنابة.

بعد أن نتجاوز رأس روزا le cap Rosa، وعلى بعد مسافة قصيرة نجد القالة وشرق القالة نجد لا زان la Zaine، أين تنتهي حدود منطقة الجزائر في هذه الجهة.

الجزء الذي فصلناه من محافظة قسنطينة، يحوي عدة مجاري مائية، أهمها من الغرب إلى الشرق: واد الكبير، لا زور بوجعمة، سيوس و مفرق.

غالباً ما يتغير اسم النهر الذي يصب فيه الواد الكبير، ككل المجاري المائية للبلاد. هذا الأخير يتشكل من تجمع عدة روافد، والتي يجري أحدها تحت أسوار قسنطينة، يسمى واد الرمال.

و يجري واد زور الأقل ميلاناً، بموازاة واد الكبير و ينتهي إلى البحر بين مصب النهر الأخير ورأس بوجارون le cap Boujaroun.

يتشكل السيوس من تلاقي العديد من الروافد مثل واد الكبير، ويأخذ

منبعه بالغرب و بالتوالي مع قسنطينة، كما يتدفق على مسافة طويلة بين السطح الثاني و الثالث لجبل الوحش، باتجاه الشرق ثم يستقيم نحو الشمال تحت خط طول عنابة، يجتاز السهل الكبير الواقع جنوب المدينة و يصب في البحر من الشرق و بالقرب من عنابة. أهم روافد السيوس هي: واد مسرف، واد زناني، واد لاريا و هو الأقرب من قسنطينة و واد عناية. أما المفرق فله مجرى أقل اتساعاً ولكنه على نفس اتجاه السيوس. يصب

في خليج عنابة على بعد أربعة أميال شرق مصب السيوس. البوجمة نهر صغير يقطع الجزء الغربي لسهل عنابة إلى الجنوب الشرقي و الشمال الشرقي و يصب في البحر تحت أسوار المدينة في حد ذاتها بينها و بين السيوس.

سكان المنطقة التي قمنا بوصفها يتجزؤون إلى قبائل السهل و قبائل الجبال. الأولى عربية و الثانية أغلبها من القبائل.

و ابتداءً من الشرق، نجد في ضواحي القل أولاد دياب و هي أقوى قبائل المنطقة و كذا: بني عامر، ولاد لاريت، بني ميزان، ولاد عمور بوعلي، التهيد و أخريات. عند مصب المفرق تتواجد أراضي بني أورقين إلى أعلى تتواجد المراداس، و في الجبال بين السيوس و المفرق توجد بني صالح.

على امتداد الجبال و بالالتفاف غرب سهل عنابة نلتقي بعد بني صالح وعل يسار السيوس بالثالة و أولاد بوعزيز. و شمال تالة نجد ولاد قايد

و بني فورحال. فبين هاتين القبيلتين يأخذ البو جمعة متبعه و يمر الطريق بين عتابة و قسطنطينة و نجد الرجايطه شمال بني فورحال و شمال هؤلاء تتواجد قبيلة العيشاوة. بين هذه القبيلة و عتابة وسط الجبال الوعرة الواقعة على طول الساحل و المسماة جبال ايدوغ تسكن العديد من القبائل ذات الأصول القبايلية و لكنها تتكلم اللغة العربية، نذكر منها بني محمد المشكلة في أغلبها من مرابطين.

غرب الرجايطه و بني فورحال نجد الزرادزة و هي قبيلة كبيرة العدد مقسمة إلى الكثير من المقاطعات. و إلى الغرب منهم نجد العلما حيث تسمى منطقتهم بسهل العسل نظرا لخصوبة تربتها. إلى شمال العلما و باتجاه البحر نجد بني مهمن الذين يصلون إلى غاية سطورة أو سكيكدة. تعتبر سطورة مرفأ جيدا. احتل الجنويون هذا الموقع في عهد قوتهم، و كان بمثابة استراحة للسفن التي تستهدف حراسة القراصنة البربر. أما الآن فلا يوجد بسطورة سوى بعض الأكواخ البائسة. و نفس الحالة نعم القل الواقعة على بضعة أميال غربا.

في الجزء الغربي من سهل عتابة نجد بحيرة كبيرة إلى حد ما. بين البحيرة و جبال ايدوغ تسكن قبائل ولاد عطية. و الكرازة يقطنون كذلك في السهل و لكن أقرب إلى عتابة.

و إلى جنوب جبال بجاية و قبائل القبايل التي تكلمنا عنهم في الكتاب 9، و بالتالي في الجنوب الغربي للمنطقة التي نحن بصدد وصفها يمتد

سهل كبير يفصله عن الصحراء سلسلة جبلية. هذه السلسلة مرتبطة بجبال بجاية و فليسة بسلسلة متقاطعة و تبدو قمة جرجرة كالحقنة فيها. و هذا هو المكان الذي نجد فيه البيان أو بيان الحديد، التي تشكل مضيقا رهيبا محفورا بالصخور العالية و شديدة الانحدار. و على بعد بضعة أميال عن هذا الممر، نصل إلى السهل الذي تسكنه قبائل العامرة، الريغة، العلما و ولاد عبد النور. و في هذه المنطقة بالذات يأخذ متبعه أحد أهم المجاري المائية التي تشكل الواد الكبير. و يسكن على ضفاف هذا الرافد قبائل بني مروان.

و عند التزول من جبال بجاية نحو الجنوب نجد المدينة الصغيرة زمورة و آثار سطيف.

السلسلة التواجدة إلى جنوب السهل يسكنها من الغرب إلى الشرق: الولاد تيان، بني يوطالب الذين يملكون مناجم الرصاص، اولاد سليم و البعض الآخر. ترتبط بجبال الأوراس الواقعة تحت خط الزوال قسطنطينة و التي من بينها كتف جبل يمتد إلى غاية هذه المدينة ليفصل السهل الذي تحدثنا عنه عن سهل آخر يقع جنوب الجبال التي تحد جنوب عتابة. هذا السهل يمتد إلى حدود تونس و يتخلله مجاري مائية يشكل النظامها نهر المجرى (Le Bagrada سابقا). يجري هذا النهر من الغرب إلى الشرق و يصب في البحر غير بعيد عن تونس. هذه المنطقة تسكنها العديد من القبائل العربية التي تعتبر الحناشة أقواها.

تمتد إلى جنوب السهل، سلسلة من الجبال التي تتصل بقمة الأوراس، ويحدها من هذه الجبال نجد الصحراء التي يمكن اعتبارها بحرا هائلا من الرمال والتي تمتد إلى مشارف تومبوكتو.

التسمية العامة للصحراء لمس كل البلاد التي تحد من الجنوب كل المقاطعات البربرية. و هنا حافظت الأصالة العربية على كل عنفوانها. نعرف القليل عن هذه المنطقة من الجانب الجغرافي ولكنه من المناسب أن أقول بضع كلمات بما أنني لا أريد الكتابة إلا بالاعتقاد على وثائق إيجابية و جديدة، وبذلك سأكون بالضرورة أكثر دقة من كوني شاملا.

إلى جنوب جبال أولاد نيان، بني بوطالب و أولاد سليم و على بعد معين من السلسلة تمتد بحيرة مالحة تحمل اسم الشط. هذه البحيرة أو بالأحرى هذه السبخة تجف تقريبا في الصيف فتتلفح حينها كمية كبيرة من الملح كما في السبخات المالحة بأرزيو، تصب فيه بعض المجاري المائية الآتية من الشمال إلى جنوب البحيرة، يجري من الغرب إلى الشرق واد جدي (du Chevreau La Rivière) و الذي يتوه في مستنقع كبير يقع تحت خط طول قسنطينة ولكن في الجنوب الأقصى و في الصحراء تماما. وتجد على ضفاف هذا النهر مدينة أولاد جلال التي تعد بأهمية البلدة. توجد بجوارها العديد من القرى التي تعتبر البعض منها ذات أهمية بالغة. وإلى شمال الشط توجد مدينة صغيرة تدعى مسيلة التي كانت تحتوي على حامية عسكرية ضعيفة تابعة للأتراك. على بعد مسيرة يوم ونصف وبالتحديد شرق ولاد جلال، نجد مدينة بسكرة أين كان للأتراك كذلك حامية.

كما يوجد بها قصر صغير. غير بعيد عن بسكرة نجد المدن أو القرى الصغيرة: سيدي خالد، طولقة و ليشانة.

و على بعد ثلاثة أيام سيرا نحو الشمال الغربي لأولاد جلال، نجد القبيلة القوية هاجلي التي تتواجد على أراضيها المدينة المهمة بوسعادة و التي منذ سنوات أصبح حكمها جمهوريا بعدما تم طرد الحاكم الذي عينه باي قسنطينة عليهم.

المنطقة الجنوبية للشط أين تتواجد المدن التي تحدثنا عنها تحمل اسم منطقة الزاب. و إلى الجنوب الشرقي لهذه المنطقة توجد واحة توفرت التي تحمل عاصمتها نفس الاسم. وهي غنية و جميلة، جد خصبة و وفيرة المياه. يقال أن مدينة توفرت لها نفس الكثافة السكانية لقسنطينة. لها نشاط تجاري كبير مع القيروان و تونس. و هي محاطة بأسوار قوية و لكن قوتها الكبيرة تكمن في الفيضانات التي يمكن إحداثها حول المدينة. هذه الدولة حافظت دائما على استقلاليتها. هناك من يؤكد أن حاكم أو أمير توفرت يملك كنوزا معتبرة. وهذه المقاطعة خارجة تماما عن إقليم قسنطينة.

كانت قسنطينة، عاصمة الإقليم الذي يحمل نفس الاسم، تسمى قديما سيرتا. وأخذت اسم قسنطينة إبان حكم الإمبراطور قسطنطين. و هي تقع على هضبة محاطة تقريبا من كل جانب بواد الرمل الذي يتدفق في واد ضيق. ولعبور هذا الواد يوجد جسر من ثلاثة أقواس، أعمدته متكئة على الصخور التي ترتفع بشكل كبير فوق مستوى الماء.

و يقال أن تعداد سكان قسنطينة يتراوح ما بين 20 إلى 25 ألف نسمة يوجد بها العديد من الآثار الرومانية كما في العديد من الأماكن التي لحيط بها.

عناية هي المدينة الوحيدة التي نحتلها في الإقليم لأنه من الصعب اعتبار بجاية جزءا منه. يشكل سكان المدينة من حوالي 1200 من السكان المحليين و 1700 أوروبي. و على بعد ربع ميل من عناية تجد أطلال هيون المشهورة بأسطية سانت أوغسطين.

نواحي عناية جد خلابة و جد مناسبة للاستيطان. يملك البيلك في السهل أراضي شاسعة كان باباها قسنطينة يعطونها للعرب للقيام بزراعتها بشروط محددة. تدعى هذه الأراضي العزل و كذا العاملين بها. و خصصت أراضي أخرى لرعي قطعان الباي و كانت تدعى العزيب و كذا العرب الذين يرعون بها. في فصل الصيف، كانت قطعان الماشية تأخذ إلى الجبال، و بعد موسم الحر تعاد إلى السهل. كان بن يعقوب، الذي تم ذكره سابقا، يحكم هؤلاء الرعاة و وكيل الباي أو رجل أعماله.

و لقد أخطأنا تماما بشأن هذا الرجل الذين ظنناه شيخ من قبيلة الدريد العتيقة و القرية التي لم يعد يوجد منها سوى أفراد قليلون متشرون في أنحاء اللطاطة، في حين أنه ليس سوى ما نسميه نحن مستأجر في سهل لاكرو la Crau و لاكامارغ la Camargue. فالرعاة في هذه المنطقة يشكلون بنفس طريقة العزيب في نواحي عناية.

ومنذ احتلال الفرنسيين لهذه المدينة هجر العزل و العزيب السهل. و الجنرال دوزير d'Uzer لم يدرك أبدا مهامهم الفعلية فلم يقوم بشيء لإبقائهم. و هذا كان خطأ كبيرا لأن هؤلاء الناس كانوا سيستمرون في زراعة المنطقة و رعاية القطعان لصالح فرنسا مثل ما كانوا يفعلون لصالح الأتراك. و بذلك كنا ستحافظ باستمرار الحياة على آثار ممتلكات الدولة في سهل عناية. و هناك أسباب تدفعنا للشك بأن مصطفى بن كريمة و بعض الأشخاص الآخرين الذين كان بإمكانهم إعلام الجنرال دوزير تعمدوا إخفاء الأمر عنه، و تركه في جهله بالوضعية الحقيقية للعزل و العزيب تجاه الدولة⁽¹⁾.

أما القل التي كان لنا بها تواجد مزدهرا جدا لم يعد لها وجود هذا التواجد فديم جدا و يعود إلى سنة 1450. فقد اشترى التجار الذين استقروا بها من العرب ملكية هذا الجزء من الساحل، عن طريق دفع بعض الإتاوات، مما أعطى لهذه الممتلكات إسم تنازلات. و عند استقرار الأتراك بالجزائر اعترفوا بصحة هذه التنازلات من خلال العديد من المعاهدات، و في عهد لويس الثالث عشر، كان لدينا خمس حصون على هذا الساحل، أهمها حصن فرنسا الذي كان يصل أفراد الحامية به إلى 800 رجل. و في سنة 1798، التزم الجزائريون القل منا. قبل ذلك كنا قد أهملنا المواقع الأخرى. أعيدت لنا القل سنة 1810 ثم استعادها الجزائريون سنة 1806 ليعيدوها مجددا عام 1817. و أخيرا و في سنة 1827 خلال فترة القطيعة مع حسين باشا، أجبر الفرنسيون على التخلي عن القل للمرة الثالثة و قام العرب بهدم كل

(1) أنظر هذه المعلومات للكولونيل دوفيفي Duvivier

الكتاب 11

المرحلة الانتقالية للجنرال أفيزار Avizard — إنشاء مكتب العرب
— تعيين السيد دولامورسيار de la Moricière رئيسا لمكتب العرب
— أعمال الإدارة المدنية تحت حكم الجنرال أفيزار Avizard — وصول
الجنرال فوارول Voirol — حملة قرواو — معسكر الحمير — تشكيل
صباحية الفحص — تسليم حراسة التحصينات إلى الأهالي — إحلال
السلم في البلاد — أشغال جسر بوفاريك — أشغال الطرق والتجفيف
— معسكر الدويرة — حملة بجاية — أحداث عنابة.

غادر الدوق دوروفيقو Le duc de Rovigo إفريقيا في شهر
مارس 1832 للعلاج بفرنسا، كان يأمل بالحصول على عصا المارشال عند
وصوله إلى باريس، لكن ذلك لم يحدث أبدا. الجنرال دالتون D'Alton
الذي كان يقود القوات في عهد الدوق بصفته مفتش عام دائم والذي لم
يترك لنا فرصة للحديث عنه لأنه غادر الجزائر بعد فترة قصيرة، فتم تسليم
القيادة إلى الجنرال أفيزار Avizard وهو أقدم مارشالات المعسكر.
خلال عهده القصيرة ومشورة منه قام الجنرال تريزيل Trézel بتأسيس
مكتب العرب، وهي هيئة ضرورية ستعطي لعلاقاتنا مع القبائل نطاقا
أوسع و انتظاما ينقصها لحد الآن. تمثلت مهمة هذا المكتب في تنظيم كل
قضايا العرب، و جمع كل الوثائق و ترجمة الرسائل الأكثر أهمية بإشراف
نأم من الجنرال الذي يُحفظ يوميا بوضعية البلاد.

المباني التي أقمتها هناك. يتضح لنا جليا بأن آباءنا قد فكروا قبلنا بشأن
شمال إفريقيا. فقد أراد لويس الرابع عشر احتلال جيجل و فأرسل حملة
عليها بقيادة الدوق دوبيفور DeBeaufort. و تم الاستحواذ على المدينة
بسهولة، و لكنه بعد مرور ثلاثة أشهر أجبر الأتراك و العرب كل الفرق
الفرنسية على إخلائها.

كانت قرارات الجنرال المسؤول تُبلغ عن طريق المكتب الذي كان يشكل من: رئيس، ضابط أو اثنين تحت إمرته و ثلاث مترجمين. أول رئيس لمكتب العرب كان السيد دولامورسيار de la Moricière نقيب بكتية الزواف، والذي تم تعيينه منذ ذلك الحين رئيس كتية بنفس الفيلق. ولم يكن بالإمكان القيام باختيار أفضل؛ هذا الضابط كان يتكلم العربية بشكل حسن يمكنه من التعامل المباشر مع الأهالي وهذه الوظيفة ستساعده بالضرورة على تحسين ذلك. وهو كذلك رجل مواقف، ذو أفكار خصبة، مثقف، كادح و يملك طموحا جاعا للتميز بشيء كبير ومفيد. ومن خلال زيارته المتكررة والمنفردة للعرب، كان أول من أثبت أنه من الممكن التعامل معهم بصورة مختلفة عن حد السلاح.

من أهم إنجازات إنشاء مكتب العرب هو تحرير السلطة من هوس المترجمين الذين لا يرون الأمور بمنظار صحيح، ويرجع ذلك لسيئ أولها كونهم يفتقدون تقريبا جميعا للمعرفة⁽¹⁾، و ثانيها أن أغلبهم يتمون إلى ذلك العرق المسيحي القادم من بلاد الشام المشرب بكرة عميق ضد المسلمين وهم غالبا كثيرو الشكوى منهم. الطريقة المثل للضباغ في هذا البلد هو التصرف وفق نصائح المترجمين أو حتى الأخذ بالوثائق المقدمة من طرفهم بثقة عمياء. لا أنهم هنا أي أحد بل أذكر

(1) على القارئ أن يلاحظ أنني لا أقول كل ما يجب قوله. لدينا داخل الجيش بعض المترجمين الملقين والجنود بالاحترام وما يجيرني على عدم ذكر أسمائهم هو أنهم جد مشهورين في البلاد و مناكذ أنهم سيكونون من نفس رأيي في هذا الموضوع.

الواقع فحسب. هناك احتياطات لا يستغني عنها أكثر الناس ذكاء، فما بالك بالعقل الجاهل. و عندما تعيدنا ذكريات الطفولة باستمرار إلى صور الإهانة التي عاينناها و أهاليها من طرف عرق كامل، فإنه من الصعب الحكم عليها بحيادية، و هي الحالة التي يتواجد بها المترجمون تجاه المسلمين: فهم حذرين منهم و يجب أن يكونوا كذلك. و بذلك فالنصائح و المعلومات التي يوفرونها تتأثر بموقفهم منهم، و بذلك فعل الرغم من أنهم عاشوا أكثر من غيرهم وسط الأهالي إلا أنهم أقل دراية بهم، إذ يرفضون الاعتراف بأية صفة طيبة لدى العرب لأن علاقاتهم أو علاقة عائلاتهم بهؤلاء كانت دائما غير جيدة، و لكن الحكم على المسلمين حسب حكمهم ستكون أقل منطقية من الحكم على مستعمري سانت دومينغ Saint-Domingue من خلال حديث عيدهم السابقين.

آخر أعمال إدارة الدوق دوروفيقو Le duc de Rovigo، المتمثلة في إعدام مسعود و العربي، زادت من الحيلة لدى العرب و لم يعد أي أحد منهم يتجرأ على المجيء إلى الجزائر. أصبحت أسواقنا خاوية بدأ اللحم ينقص لدى قواتنا، و للحصول عليه اضطر السيد دولامورسيار M. de Lamoricière أن يمر على العديد من القرى و سعى جاهدا من خلال خطباته و صراخه حتى تمكن من جلب بعض عرب الساحل إلى الجزائر. الطريقة التي تم استقبالهم بها، و الرعاية التي أبدتها دولامورسيار M. de Lamoricière منذ الأيام الأولى لإدارته، المبادئ

الجزء الأول

المعاكسة للذين كانوا يسرون الأعمال قبله، و فوق كل ذلك، غير مغادرة دوق دو روفيقو، قد طمان أولئك من لم يكن لديهم ما يخشونه، و كل من كان مركزه مضعه في الواجهة استمر في التنحي جانبا و لم يستعيدوا ثقتهم سوى عدة أشهر بعد ذلك.

تم إصدار العديد من الأحكام الإدارية خلال الفترة الانتقالية للجنرال أفيزار Avizard. ففي الثاني من أبريل تم إصدار مرسوم مشترك بين الجنرال و الحاكم المدني يعدل القوانين الخاصة بالغابات السارية المفعول بموجب مرسوم 4 نوفمبر 1831، هذا المرسوم كان قد منع قطع الأشجار. و بما أنه يشير إلى قوانين و أنظمة قليلة التوافق مع البلد فقد تم إبطاله بالمرسوم الذي نتكلم عنه مع الاحتفاظ بمبدئه. يمنع مرسوم 2 أبريل كل الملاك و المستوطنين و المزارعين، من قطع أو اقتلاع الأشجار الغابية أو المثمرة في الهواء الطلق أو في حقل مسيج، دون ترخيص من مدير الأملاك، تحت طائلة غرامة أو مصادرة الأشجار المقطوعة أو المقتلعة. تستثنى من ذلك الأشجار الواقعة في الحدائق والحقول المغلقة بأسوار و تلك التي لا يصل محيطها و كذلك طولها إلى ثلاثة ديسيمتر فوق سطح التربة. تدوم صلاحية التراخيص ستة أشهر و يتم تسجيل المخالفات في محاضر الدرك و الحرس البلدي. و يقرر الإدارات مدير الأملاك، فيما عدا تلك القابلة للاستئناف في محكمة الشرطة الإصلاحية.

تم إصدار عدة مراسيم أخرى في نفس اليوم تنظم وظيفة: السمسار و الحياز و الجزار ؛ من أجل تأسيس وظيفة قيم أو أمين لملا الفراغ وسط الأوروبيين في كل من مدن الجزائر، عنابة و وهران. و أصدر عدد من المراسيم في عدة مواضيع أخرى.

تم الإعتماد على قائدي أحياء القبة و دالي ابراهيم في ضبط المخالفات الريفية، اللذان كانا يشغلان، في عدة جوانب، وظيفة رئيس بلدية. في أواخر شهر أفريل وصل اللواء بارون فوارول Voirol Baron إلى الجزائر كقائد و مفتش للقوات⁽¹⁾. كان من المفروض أن

(1) السيد فوارول Voirol هو الأصغر سنا بين كل جنرالين، كان يتمتع بمسيرة عسكرية حافلة. فحين كان لا يزال برتبة عقيد سنة 1815 قام بدفاع رافع عن نوجنت Nogent فكانت واحدة من أجمل حلقات تلك الحملة بالرغم من كونها مؤسفة. فقد قل الجنرال بوتورلين Boutourlin، المساعد الشخصي للإمبراطور ألكسندر، في المذكرات التي سجلها حول الأيام الثلاثة من الدفاع عن نوجنت Nogent: "هذه الأيام الثلاثة من حياة العقيد فوارول Voirol كفيلة بأن تزين كل مسيرته". و هذا شأن مستحق وخاصة إذا كان يصدر من العدو فإنه يصبح ذو قيمة أكبر.

كان للجنرال فوارول Voirol بالجزائر منتقدون، قد يكونون قليلين و لكنهم موجودون. لستوبه المتفتح و الصريح مكن من التعرف بسرعة و بسهولة على باطن الرجل، مما مكن العديد من الأشخاص الذين كانوا يريدون إنشاء سمعة طيبة عن قدراتهم على حساب سمعته، لكنهم وجدوا أنفسهم في وضع سيء حين انتبه الجنرال لذلك، فلم يرد تقديم نفسه كأمنحية لأطماعهم.

لقد انتقد الجنرال فوارول Voirol في عدم وجود قوة إرادة كافية لديه. لكن هل كان يوجب مهاجمة شخصيته أم منصبه الانتقالي؟ فمن المسموح طرح هذا السؤال. وفيما عدا ذلك، يتوجب على أعداء السيد فوارول Voirol أن يقللوا من شكواهم من ضعفه لأنه سلوك أكثر صرامة كان سيمنحهم بكل سهولة. و كان بإمكانه أن يزيل عنهم كل إشغالاتهم عليه، إذا ما ليس معطف القائد عوض كونه صريحا و متفتحا مثل ما كن أثناء عمله ككاتب بالمتفجرات. بهذه الطريقة كان سيخلق كل نفائس طبيعته أو

يتسلم منصب القيادة العليا مؤقتا إلى غاية استبدال الدوق دوروفيقو le duc de Rovigo الذي توفي ببافيس بداية شهر جوان.

كانت أولى اهتماماته إنشاء الطرقات التي تم إقرار مخططها في عهد الدوق دوروفيقو le duc de Rovigo وإنشاء أخرى جديدة. كانت الأشغال التي تم البدء فيها وقرية الانتهاء في عهده جبارة و يمكن ترتيبها كالتالي:

1- طريق البلدة عبر دالي إبراهيم والدويرة، أنشأه الدوق دوروفيقو le duc de Rovigo، وأوصله إلى غاية أعالي حصن الإمبراطور على امتداد ميل فقط و لكن على أرضية جد وعرة. و مدده الجنرال فوارول Voirol إلى غاية القرية العربية ولاد منديل في مدخل سهل النتيجة بستة أميال إضافية.

2- طريق البلدة عبر بئر خادام وواد الكرمة: قام الجنرال فوارول Voirol بتمديد كليا حتى جسر واد الكرمة و أبعد من ذلك قليلا. يوفر للمستوطنين متقدا سريعا و سهلا على السهل. كان التمديد بأكثر من ثلاثة أميال نحو الشرق و كان من المفروض أن ينشق عنه طريق فرعي من بئر خادام نحو بن شعاعة، لكن هذا المسلك الذي افتتح لم يتم

بالأحرى العيوب المشتركة للجبل الذي ينتمي إليه. استخدم خصومه وسائل لانتحال شخصية رجال كبار و غامضين بساء فهمهم و اضطهادهم من طرفه. و هناك من تصرفوا بأنفسهم في إفريقيا و تحت أعيننا. فمادنا نتج عن ذلك؟
كان الجنرال فوارول Voirol يمتلك من بين صفات أخرى متانة رائعة و لطفًا كبيرًا. لقد أعجب به الجميع منذ وصوله إلى الجزائر العاصمة، حتى أولئك الذين أطلقوا عدائهم في وقت لاحق.

إكماله.

3- طريق الثغرين (ناقارا): يؤدي من باب الواد إلى باب القصبة و غير بعيد عنه يلتقي بطريق حصن الإمبراطور. بحيث يمكن للسيارات الآن أن تتجول عبر المدينة. لم يتعد تمديد الطريق نصف الميل.

4- طريق القبة: تم تمديد هذا الطريق الذي يقطع سهل مصطفى باشا بميل و نصف تقريبا. و من المفروض تمديده إلى غاية النتيجة.

5- طريق الحراش Maison Carrée: يتفصل عن السابق أسفل القبة، وصل التمديد إلى حوالي ميل تقريبا، ولم يتم إكماله بعد. يتم التواصل بين العاصمة و الحراش عبر الطريق الساحلية القديمة و هي طريق سالك.

6- الطريق المار أمام الحراش: يوصل إلى أوطان الخشنة و تم تمديده بميلين تقريبا.

7- مسلك من البرج البحري إلى الحراش: هو مسلك ذو عمر واحد ولكنه جيد.

أنشأت كل هذه الطرق من طرف أفراد الجيش تحت إدارة قسم الهندسة العسكرية. أما أشغال رصف الطريق فقد قام بها قسم الهندسة المدنية. و من أجل إكمال هذا الصرح الهائل حارب الجنرال فوارول Voirol صعوبات عدة: المنافسات بين قسمي الهندسة و معارضة رؤساء القبائل الذين بشكل عام لا يحيدون أن تُغير عادات الجنود في

الثكنة، حيث لعلنا أعطنا هؤلاء الضباط بتركيز أفكارهم. و عندما قرب انتهاء الأشغال، أراد كل واحد أن يتبنى المشروع. فوضعت في كل الجهات أحجار تحمل أسماء الجنرالات والعقدا، حيث إذا ما وصلت إلى أجيال المستقبل فإن علماء الآثار سيجدون صعوبة في إرفاق التذكار التاريخي لكل تلك الأسماء. لكن اثنان من تلك النقوش ستبقى يقينا وستكون مفهومة، وهي: اسم الدوق دوروفيغو *le duc de Rovigo* الذي وضع حجر أساس المشروع و اسم الجنرال فوارول *Voirol* الذي قام بتوسيعه. يمكن قراءة ذلك على عمود رخامي أقيم يوجد على طريق بئر خادم على أعلى نقطة من تلال مصطفى باشا.

لم تكلف أشغال تسوية الطريق التي قام بها الجنود الكثير، فيما عدا الحصص المضاعفة من النيذ التي كانوا يكافؤون بها و الأدوات التي استخدموها. أما أشغال الترسيف فقد كانت أكثر كلفة من فرنسا، ومجمل القول أن النفقات الكلية كانت أقل بكثير مما كانت ستكون عليه في واحدة من الدوائر بفرنسا. تم حساب جميع المنحدرات بالجزء من العشرين وهذا يعني أن كل طريق متسلقة لا ترتفع إلا بـعشر على عشرين. يبدو أن هذا التوفير مبالغ فيه في بلد لا يخوف فيه من الجليد، وبذلك يمكن للمنحدرات أن تكون أكثر حدة دون عيوب خطيرة، وأدى ذلك إلى ضرورة تطوير أكبر في المسار وبالتالي زيادة كبيرة في العمل، وبما أن المهمة

قد تمت وطرقنا أصبحت جميلة جدا لدرجة أننا لم نندم على الوقت والجهد المبذولين فيها. و لكن ما يجب الندم عليه ربما هو أن قسم الهندسة أراد تجديدا كلياً ولم يعمل على الاستفادة مما كان موجوداً أصلاً.

فالتاريخ القديم للقبّة مثلاً كان عريضاً جداً من جهة السهل مما يسمح بمرور عربتين وهذا أمر جيد عموماً، لكنه تقرر توسيعها أكثر فتم قطع الأشجار الجميلة والنباتات التي كانت تحفه و تجعل منه نزهة ممتعة. يمكنني ذكر أمثلة أخرى. من المعروف أن قسم الهندسة سواء كان عسكرياً أو مدنياً قليل الشاعرية فيما يخص الطبيعة و يقوم بالتضحية بكل سهولة بما هو ممتع لما يظنه ضرورياً. و لكن الظل هنا مهم بقدر ما هو ممتع، فهل لم يكن باستطاعتنا التملص من قواعد الهندسة للحفاظ عليه؟ إن التطبيق المطلق لتلك القوانين أدى بنا، دون ضرورة واضحة، إلى الحصول على أراضي مردومة ستفقد صلابتها بعد 10 أو 12 سنة، بحيث أنه في موسم الأمطار تصبح الطرق غالباً غير عملية في مواضع كثيرة، فيصبح المسافر مضطراً للبحث عن اتخاذ الحقول المجاورة مسلكاً له.

في العهد العثماني، كانت طرق الجزء الجبلي من الجزائر العاصمة معبدة في معظمها، لم تكن عريضة جداً، لكنها تكفي لاحتياجات حركة المرور في بلد كل عمليات النقل فيه تتم بواسطة الدواب. هذه المسالك المحفوفة بالأشجار والنباتات ستبقى وسائل للتواصل الجوي إذا ما تمت صيانتها.

ولكن منذ خمس سنوات لم تعد كذلك، علينا أن نأمل بأن تكون إحدى
المزايا المترتبة عن تشكيل البلديات الريفية التي جرت في عهد الكونت
ديرلون d'Erlon هي ترميم وتحسين سبل الريط تلك.

في عهد الجنرال قوارول Voirol، تم القيام بأشغال أقل استعجالا
من أشغال الطرق، لكنها لا تقل أهمية و أعني بذلك أشغال التجفيف
التي قام بتفليدها قسم الهندسة العسكرية في شتاء 1833 و 1834
على أراضي المزرعة النموذجية و بالحراش. هذين الموقعين، كما تعلم،
هما مستقعان تنشر منها روائح مفرقة، فكانت عملية التجفيف إجراء
زراعيا و صحيا في آن واحد. و تمت عبر تفريغ مياه الحراش في لارات
Arath و مياه المزرعة النموذجية في واد الكرمة و لارات. عمل قسم
الهندسة بحماسة و براعة، وبالرغم أنه لا نستطيع حاليا الثبات على
رأي محدد عن جودة التنفيذ بما أن العملية لم تنته بعد، إلا أنه بإمكاننا
أن نستشر خيرا حسب ما يظهر من النتائج الجزئية المتحصل عليها. في
هذه الأشغال تم استخدام العرب المحكوم عليهم بالأشغال العمومية
و بعض الشركات المنضبطة. كان يُدفع للعرب 26 فلسا لليوم، فتقدم
الكثير منهم للعمل، مما جعل المبالغ المخصصة لا تكفي للدفع، فاضطر
كولونيل قسم الهندسة إلى ردهم و الاكتفاء بالمحكوم عليهم. لقد تم
كذلك القيام بعمليات تجفيف بعناية.

بعد فترة وجيزة من وصول الجنرال فوارول Voirol، تم توجيه حملة ضد أهالي بوعقاب و قرواو في أوطنان بني خليل الذين رفضوا الاعتراف ببوزيد بن شعاعة المعين بمنصب قائد عوض حمود الذي نخل عن منصبه. كما أن أهالي بوعقاب و قرواو قاموا بأعمال نهب في حق العرب الخاضعين لنا. قاد هذه الحملة الجنرال تريزيل Trézel. حدثت مناوشات مع العرب تم خلالها إطلاق نار و ضربات سيوف، تم نهب قرى الثمردين و سلب عدد كبير من المواشي، تم توزيعها على العرب الذين عانوا من عمليات النهب من طرف أولئك الذين تمت معاقبتهم. هذا العمل الحازم و العادل في آن واحد كان بداية جيلة لإدارة الجنرال فوارول Voirol و أعطى للأهالي انطباعا جيدا حول شخصيته. و بعد بضعة أيام تم إنشاء معسكر على ضفاف الحمير لحماية عملية سقي المروج الجميلة التي يرونها و التي يبدو أنها تكفي احتياجات فرق فرساننا. لم يعارض عرب المنطقة هذه العملية، بل على العكس كانوا يأتون كل يوم لتموين سوق المعسكر. السيد فولامروسيار de la Moricière كان دائم التواجد أينما كانت هناك مناعب لتهديتها أو الحصول على بعض المكاسب المعنوية.

(١) كان تصرف ابن الدوق دوروفيفو - le duc de Rovigo el - الذي كان ملازم
مخرج الأول لقاصي إفريقيا. جينا في تلك الواقعة، لكنه أوشك على الموت عند
سفره وسط الأعداء بعد مقتل حصانه، لولا تدخل الطبيب دوكولون de Cologne
من قصر العليق، الذي قل بطفلة بنقله عربيا كان يضع البطعان فوق رأسه.

القش الذي تم جنيه في الحمير وفير و ممتاز الجودة. تم نقله بحرا إلى العاصمة، لكن لم يصل منه إلى المخازن سوى نصف ما حصد، لأن الطريقة التي تم نقله بها ضيقت الكثير، و نظن أنه لا يتم عامة التصريح بكل ما نتحصل عليه، و نتج عن ذلك أن المصاريف قد خصصت لكمية معينة، وبما أن هذه الكمية انخفضت لأكثر من النصف عند تسجيلها الإداري في المخازن، بدت المصاريف ضعف ما كانت عليه بالفعل. فاستتج البعض استتاجا غير معقول و هو أن القش المحصود على بعد ثلاثة أميال عن العاصمة أغل من ذاك الذي يرسل لنا من نانت Nantes.

قام بوزيد بن شعاعة قايد بني خليل - وهو رجل ذو نشاط غير مألوف - بعدما رأى مساندتنا له، يضم موطنه تحت سلطته وأعلن نفسه خادما وصديقا لنا بصراحة لم تصدر من أي شخص قبله. تم استبدال قايد بني موسى - الذي رفعت ضده بعض الشكاوي - بعلي بن الخزناجي، رجل حازم ومقتدر، كان لوقت طويل عدوانا ولكن منذ تعيينه خدمننا بإخلاص رائع. كان الجنرال فوارول Voirol يفكر بمنطق أنه من الأفضل كسب الأعداء عوض قتلهم و أن الضراوة التي حاربونا بها لا يمكن اعتبارها أساسا للاستبعاد عندما يعودون إلينا. بدأت الأحقاد بالاضمحلال شيئا فشيئا. و الانطباع السيء الذي تركه في الأذهان إعدام مسعود والعربي زال أمام الإخلاص المعروف للجنرال الجديد. فتم التفكير في تنظيم قوة عمومية عند العرب من خلال إعادة إنشاء الصبايحية القدامى مع التعديلات التي تتطلبها للوضعية الحالية.

تم البدء بالفحص. عبر مرسوم 24 جوان 1833، الذي نص على تكوين عدد معين من الفرسان في هذه المنطقة و تسميتهم صبايحية الفحص، مهتهم تقديم يد مساعدة قوية لقوات الدرك و المشاركة في الدفاع المشترك. كان عليهم تنظيم و تجهيز أنفسهم بنفقاتهم الخاصة و تم تزويدهم بالأسلحة، و حدد راتب ثابت بـ 60 سنتيم لليوم، و تعويض 2 فرنك لكل يوم خدمة. كان هذا الراتب الذي نصت عليه تعليمة 17 نوفمبر 1831 التي سمحت بتشكيل هذه الفرقة، لكن وضعتهم تابعين لفيلق قناصي إفريقيا. و في 5 أوت صدر مرسوم يمدد هذا الإجراء على المناطق الثلاثة التي اعترفت بسلطاننا. كان التطبيق أكثر صعوبة، لأن المقاطعات المختلفة لهذه المناطق لم يكن لها شيوخ معترف بهم مثل الفحص. بالإضافة إلى ذلك قام الجنرال فوارول Voirol بتشكيل فرقة مشاة في الفحص لحراسة الحصون في فصل الصيف و كل المراكز التي يجعل منها موقعها الغير الصحي خطيرة على الفرق الأوروبية. هذا الإجراء ساهم بقوة في التقليل من عدد المرضى تلك السنة. كل فرد من هذه الميليشيات يتحصل على 1 فرنك لكل يوم خدمة.

حيثما تمكنا - بكل الوسائل المختلفة - من قسمان هدوء و خضوع المناطق المحيطة بالجزائر، تم التفكير في تطبيق ذلك على الباقي. لم البدء بالسبت أين يتواجد المحجوبون و هم ناس مشاغبون و مولعون بالقتال، فأردنا ضمهم إلينا. كان للسيد دولامورسيار de la Moricière مقابلة معهم و التقى ألباشاوش قويدر بن رباح الرجل الأكثر نفوذا في القبيلة، ولكنه لم يتمكن

من الحصول إلا على ضمانات السلم دون تعهد بالخضوع. وكما في القبائل طالب الحجوطيون بإلحاح إطلاق سراح مرابطي القليعة المحتجزين بالعاصمة منذ عشرة أشهر. وبما أن الجنرال فوارول Voirol كان راضيا من وضعية البلاد فقد قرر أن يمنحهم جزءا من مطالبهم وبذلك تم إطلاق سراح سيدي عبد الله و وعد بأن لا يتأخر في تحرير ابن عمه سيدي محمد إذا ما لم يتم تعكير السلام. قام السيد دولا مورسيار باقتياد سيدي عبد الله إلى القليعة.

على الرغم من الوضعية المرضية لعلاقتنا مع العرب، كان لدينا إحساس بوجوب الحرص. تم إنشاء معسكر الدويرة مهددا بذلك البلدة والقليعة في آن واحد. ولم يصبح المعسكر دائما إلا في السنة الموالية. الطرق الجميلة التي يتم فتحها من كل النواحي ستوفر لنا قريبا منافذ متعددة وسهلة على السهل. أردنا كذلك التأكد من الممر المشجر والمستنقي ليوفاريك وهو مسلك إجباري للتدخل في البلدة والجزء الجنوبي لبني خليل. تم تشغيل عمال من الأهالي لكسر الشجيرات الغابية وتقوية دهامة الجسور وتقليل المياه بالمستنقعات. بعد وقت قصير، ترك السيد دولا مورسيار de la Moricière إدارة مكتب العرب لمنابعة حملة بجاية التي سبتهى هذا الكتاب سردها. ولكنه من واجبتنا أن نستبق ذلك بوصف قصر لبلد الذي كان مركز الأحداث.

هذه المنطقة جبلية تطل على البحر، يعبرها من الشمال إلى الجنوب نهر مشار إليه في خرائطنا باسم أدوس Adouse، يتفرع عنه في الجزء العلوي

من مساره مجرى الصومام و بالقرب من مصبه واد بن مسعود. تسكنه قبائل من القبائل، لا نعرف هذا البلد من الداخل ولكننا نعلم من خلال تقارير الأهالي أنه من الصعب الوصول إليه. ولا يمكننا أبدا اختراقه مع مجموعة من القوات إلا بإتباع واد الصومام. هذا هو المسلك الذي استخدمه الأتراك في حملاتهم التي لم تكن كلها ناجحة بل على العكس من ذلك.

تقع بجاية على ساحل البحر، على بعد ميل من الصومام، تم تشييدها بشكل مدرج على منحدر من جبل قوراية الذي يصل ارتفاعه إلى 670 متر. بقسمها منحدر عميق لحد ما إلى جزأين و الذي يتشعب إلى أعالي المدينة. في القديم كانت الأسوار واسعة جدا كما يدل على ذلك بقايا حائط قديم لا يزال يعطي بعض الاستمرارية من الجهة اليمنى، أما من الجهة اليسرى فلم يتبق منها سوى الأساسات مما جعل المدينة مفتوحة، تحميها ثلاثة حصون، يدعى الأول حصن موسى وهو في أعالي المدينة على يمين المنحدر. يسمى الثاني القصبة وهو مشيد على ساحل البحر على يمين المنحدر، أما الحصن الثالث فيسمى حصن عبد القادر يتواجد على يسار المنحدر على ساحل البحر. توجد أيضا عدد قليل من المدفعيات قليلة الأهمية. هكذا كانت بجاية قبل الاحتلال الفرنسي، لكن عندما استولينا عليها أضفنا إليها الكثير من الإنجازات.

هناك سهل على امتداد ميل، تحيط به على شكل نصف دائرة الجبال والبحر، يلمع بين بجاية والصومام. وتسقي جداول صغيرة التي تكون

بعض المستقعات. كل باقي المنطقة عبارة عن جبال.

خليج بجاية محصور بين رأس كاربون و رأس كافالو. المرفأ شاسع وآمن لحد ما، لكن ليس بالدرجة التي كنا نظنه عليها في البداية. الخروج والخروج منه ليس سهلا نظرا للرياح التي تهب عادة على سواحل بلاد البربر. الميناء المعتاد هو بقرب المدينة، هو خليج واسع بين رأس حصن عبد القادر و رأس بجاية، يقع جهة الشرق ليس بعيدا عن رأس كاربون و يوجد إلى أعلى رأس بجاية حصن صغير مهجور يسمى بوهك Bouhak.

قبائل بجاية كثيرة العدد و محبوبون للقتال. تحيط بالمدينة قبائل المزاب التي تعتبر من أقوى القبائل. إلى شرق الصومام و بالاتجاه نحو جيجل نجد بني مسعود، بني ميمور، بني عمرو، ولاد ورت أو علي، بني محمد، بني حسان، بني مغروال، إلخ.

إلى غرب بجاية و المزاب و باتباع الساحل نجد بني عمران، بني كسيلة، بني عيادل، إلخ.

و صعودا بمحاذاة النهر و أعلى من بني مسعود نجد على الجهة اليمنى ولاد عبد الجبار، الصنهاجة، بني لصال، إلخ. وعلى الجهة اليسرى نجد قبائل: توجة، بونجامن، الفناية، بني أورغليس، إلخ.

في الأراضي الداخلية تسكن قبائل ولاد عمرو، بني برياش، بني سليمان، بني غرايب، الكيفسر، بني جليب، الميسنة، العجاسة، بني شبانة، بني وجان، بني اسماعيل، بني عباس و الغريولة.

القبائلين الأخيرتين هما أبعد القبائل عن بجاية. هما كثيرتا التعداد وقويتان. نجد على أراضي بني عباس مدينة القلعة المشيدة على صخرة عالية لا يمكن الوصول لها سوى بممرين وهرين و صيقين. هذه المدينة محاطة بسور جيد و محمية ببعض قطع المدفعية. و لا تبعد سوى بأربعة إلى خمسة أميال عن سلسلة جبال البيان.

الحكم بها مشترك و تقطنها من خمسة إلى ستة آلاف نسمة. يصنع بني عباس بنادق لها قيمة كبيرة في البلد، و يجلبون الحديد من عند بني برياش الذين يملكون مناجم عديدة مستغلة بشكل جيد.

غريولة أيضا قبيلة قوية جدا، تضم العديد من القرى من بينها أغريب ذات كثافة سكانية معادلة لتلك الموجودة في عنابة.

في الشمال الغربي لبني عباس، بين هذه القبيلة و قبيلة قلية، نجد الزواوة و هي قبيلة قوية و كبيرة العدد، و كانت قديما مضي مركز مملكة كوكو القديمة.

يمكن لقبائل القبائل التي قمنا بذكرها أن تجمع أكثر من 20.000 رجل مسلح. كل واحدة منها تنقسم إلى أحياء أو قراروية Graroubas و تنقسم كل قراروية إلى مداشر أو قرى. و تتمتع بحرية مطلقة. القراروية لها مشايخ متخين معينين من طرف مجلس عام و لمدة قصيرة. يدير مجلس المشايخ العدالة الجنائية في كل قبيلة، أما القضاة و الطلبة أو العلامة فيديرون العدالة المدنية. و حين تقدم قبيلة أو عدة قبائل على الحرب، فإنها تقوم بتعيين قائد مشترك تكون

مهامه ذاتها لمدة قصيرة. يتم البث في المسائل المهمة في المجلس العام، ولا يوجد مثيل في أي مكان آخر لحكومة ذات ديمقراطية مطلقة من حكومة القبائل. وهم مرتاحون في هذه الوضعية للأمور وللبنات الفضة التي يعيشون بها إلى حد أنه من غير الممكن إيجاد شعب أكثر تعلقا بأعرافه مثلهم. ومع ذلك فإن أغلبهم تقريبا يسافرون للعمل في باقي مدن الوصاية حتى أنهم يمتنعون وظائف الخدم بالمنازل. وآخرون يدخلون الخدمة قوى بربرية وعند تجميعهم للقليل من المال يعودون إلى جبالهم للعيش أحرارا ومستقلين.

طموحاتهم محدودة، تنحصر في أغلب الأحيان في الحصول على زوجة، كوخ، بندقية، بطفان (سيف)، مجرفة، بغل و كلب وبهذا هم أسعد الناس. ومن أحد عناصر سعادتهم كذلك مزمار صغير يعزفون عليه ألحانا وطنية بإيقاع بطيء ورتيب. ويعتبر أولئك الذين يملكون بيوتا من حجر وحصان و محاريت و ثيران للعمل قد وصلوا إلى ذروة السعادة البشرية.

ديانة القبائل هي الإسلام. لديهم مساجد ومدارس في أغلب مدنها، لكنهم يخلطون مبادئ القرآن بالخرافات. ولقد قلنا سابقا أن لغتهم تختلف تماما عن العربية ورغم ذلك فإن أغلبهم يتكلمونها بطلاقة⁽¹⁾. كانت بجاية وسواحيها تابعة لإقليم قسنطينة بالاسم أكثر منه فعليا. تم

(1) - الذين يخطئون كثيرا في ذكره عن قبائل بجاية السيد دو لا موريلير.

احتلالها سنة 1510 من طرف الإسبان بقيادة بير دوتافار Navarre Pierre de و انتزعها منهم الباشا صالح رابيس سنة 1555. ويبدو أنه منذ المغامرة المأساوية لمراد في عهد الفاريزال دويورمونت de Bourmont، نسي الفرنسيون هذه المدينة و قرر ثلاثة أشخاص ذوي أهراق ومراكز مختلفة تذكيرهم بها، بغرض تحقيق مصالح شخصية في عهد إدارة الدوق دو روفيقو le duc de Rovigo. هؤلاء الرجال الثلاثة هم: وليد أورباخ أحد الرجال النافلين لقييلة ولاد عبد الجبار، بومست و هو أحد مغاربة بجاية و قبطان ميناء المدينة، و السير جولي Joly le sieur الفرنسي المقيم منذ سنوات بالجزائر العاصمة. كان مشروعهم وضع قنصل لنا ببجاية (رشحوا السير جولي لذلك)، و فتح الميناء للسفن الفرنسية. كانت مهمة بومست تسليم السير جولي سلع التصدير التي تأتي إلى المدينة تحت رعاية وليد أورباخ. و بهذا سيتقاسمون احتكار التجارة المتعقدة في الخشب المقطوع و خشب البناء، الشمع، الزيت و بعض السلع الثانوية الأخرى. هذا المخطط كان مصمما بذكاء و كان من الممكن اعتياده باستثناء الاحتكار. و كان من الممكن التعامل ببندية مع قبائل بجاية فهم شعب حر و مستقل قانونا و فعليا، و يستحق ان يكون كذلك. و مجرد سلطة مراقبة ثابتة بالمرفأ كانت لتكفي لحماية التجارة الفرنسية والأوروبية. و كان باستطاعتنا مع مرور الوقت وضع حامية في أحد الحصون مكونة

الجزء الأول

في البداية من بعض الجنود الأتراك أو من الأهالي تدفع المدينة أجورهم،
و الذين نملك ألف طريقة لجعلهم تابعين لنا بصفة كاملة. وجه الدوق
دوروفيقو le duc de Rovigo أفكاره نحو هذا الهدف، و رحب
بالترتيبات التي قدمت له في هذا الاتجاه من طرف بوسنة و وليد أورباخ.
و لكن بتضخيم الأهمية السياسية لهذين الرجلين⁽¹⁾ تأمل الوصول عبر
مساعدهم إلى الاحتلال الفوري للمدينة بقوات فرنسية، و بهذا عوضت
مشاريع الغزو مشاريع العلاقات التجارية. و في غضون ذلك، تمت إهانة
سفينة بريطانية في ميناء بجاية. الحكومة البريطانية قدمت شكوى بذلك
قائلة أنه إن لم تكن فرنسا تعرف كيف تفرض احترام سفن أصدقائها على
سواحل تعتبر ملكا لها، فإنها ستضطر إلى استخدام أساليب أخرى حتى لا
تتكرر الإهانة التي وجهت لها. الوزارة التي رأت في هذا التلميح تهديدا
باحتلال بجاية و خشيت أن يكون لها بالقرب من الجزائر جيرانا مزعجين
قررت الوقوف و التصدي لذلك. فتم أولا التعرف على المكان و كان
السيد دولا مورسيار de la Moricière مكلفا بهذه المهمة. و قد دخل
بمساعدة بوسنة، بيد أنه لم يتم استقباله جيدا و أحرق به خطر كبير، فلم
يتمكن من البقاء طويلا. فاضطر بوسنة إلى مغادرة المدينة معه، و بمجرد
صعوده إلى السفينة، أضرم الناس النار بمنزله.

(1) - أرسل وليد أورباخ قائمة طويلة لكل القبائل التي كان يزعم أنها تحت إمرة.

السيد دولا مورسيار de la Moricière الذي يعرف بشكل جيد البلد، لكن الرغبة الطبيعية لضابط شاب في حدوث عملية حربية دفعت به إلى المبالغة في تسهيلها و كذا الوثائق التي وفرها كانت سببا في سوء تقدير كبير⁽¹⁾.

(1) - الاحتلال العسكري لبجاية لم يكن ذو فائدة لنا. فهي محاطة بمنطقة جبلية صعبة اللغز إليها مما يعزلها تماما. و هذا الموقع دون أهمية للعمليات العسكرية التي يمكن محاولة القيام بها في المناطق الداخلية للبلاد. و يكفي إلقاء نظرة على خريطة البلاد للاقتناع بأنه لا يمكنها في أي حالة أن تساهم كفاءة عمليات سواء كانت رئيسية أو ثانوية، و بذلك لا أرى أي فائدة من غزو هذا البلد المسكين و الحر إضافة إلى كونه صعبا. و قيل أن احتلال قبائل بجاية سيمنعهم من التدفق على مقراتنا بالعاصمة. هذا التفكير خاطئ من كل الجوانب؛ لأن قبائل ضواحي بجاية لم يفكروا و لن يفكروا يوما في البحث عن أعداء بعيدا عنهم بل مكثفين بحياتهم الحرة في بلادهم و لا يهتمون بغيرهم. و ثانيا، أليس من الغريب أن يتم اعتراض سبيل 4000 رجل ببجاية حتى لا يواجهوا بالجزائر؟ معناه اعتراض سبيل لمجرد الاعتراض. و لكن ليس لنا ما نخشاه منهم بالجزائر، وحتى و لو توجب على القبائل القوم، فمن الأفضل أن يكونوا مستخدمين للدفاع المباشر و الفعلي لمركز مستعمراتنا على أن يكونوا هواجس خيالية. و بهذا التعزيز سنتمكن من احتلال مواقع ستجعلنا المتحكمين المطلقين في إقليم الجزائر و ربما في إقليم التيطري. من الواجب البحث عن كسب القبائل كحلفاء بربط علاقات جيدة بيننا و بينهم و علاقات تجارية إيجابية للكل عوض إزعاجهم بمستعمرة عسكرية تهدد استقلاليتهم. و الآن و قد قلنا بذلك الخطوة الغبية فإن التخلي عن بجاية لن يكون ربما دون عواقب وخيمة. لا أعني بذلك عن الخوف الوهمي من رؤية المنبلة في أيدي البريطانيين الذين يملكون أصلا خارج أراضيهم أكثر من مستعمرة. لن نسمح لهم ومنعتهم المالية بالمحافظة عليها، و أمكن أنهم يعيدون عن التطلع إلى هذا الوضع السيئ. بل ما يمكن أن يحدثه انسحابنا من بجاية من أثر موسف لدى الأهالي الذين سيرجعون ذلك إلى العزيمة التي يملكها القبائل و التي مكنتهم من عزلتنا منذ أكثر من ثلاث سنوات.

الجزء الأول

في الـ 26 ديسمبر 1832، أعلن وزير الحرب للدوق دوروفيقو بأن احتلال بجاية فكرة راسخة في ذهنه، ولكنه لم يتم الاهتمام بوسائل التقبل إلا في عهد الجنرال فوارول. فهذا الأخير كان يرى الأمور بطريقة صحيحة. فالحملة - بالنسبة له - لا تبدو ذات فوائد مثل ما كان متظرا، ولم يُبد حماسا كبيرا لها، لكنه لم يرد معارضة رأي الوزير أو رئيسه بهيئة الأركان وبعض الضباط الخائعين. ولم يبحث عن معارضة الحماس الحقيقي أو حماس قيادة بعض الأفراد الذين يتوجب عليهم أن يكونوا أكثر نضجا نظرا لعدم صغر مستهم. إلا أنه رفض محاولة إقناعه بأن 600 رجل منطلقين من الجزائر سيكونون كفاية لإحتلال بجاية وأصر على أن يرسل الوزير دعما من جيش إفريقيا لهذه الحملة.

عندما كان الوزير مقتنعا بأن كتية واحدة كافية للاستحواذ على بجاية، قام بتسليم القيادة لرئيس الكتية دوفيفي Duvivier وهو الضابط الذي كان يبدو الأكثر قدرة في جيش إفريقيا. وبعد أن توضح أنه يتوجب إرسال قوات أكثر مما ظن في البداية، قرر بأن تقاد الحملة من طرف ماريشال معسكر وإختار الجنرال تريزيل Trézel. كان من المفروض على هذا الأخير وبعدهما يتمكن من الاستحواذ على بجاية أن يعود إلى مهامه كرئيس هيئة الأركان العامة و يسلم للسيد دوفيفي Duvivier قيادة المدينة.

تلقى الجنرال تريزيل Trézel خلال شهر أوت الأمر بالتوجه إلى تولون Toulon لتسلم قيادة الحملة و الانطلاق من ذلك الميناء إلى بجاية. تشكلت القوات من الكتيبتين الأولى والثانية من الصف 59 و كل كتية تم خفض أفرادها من 800 إلى 600. هذا التخفيض لم يكن له سبب سوى إرادة قائد الحملة في حد

ذاته، الذي بالغ في تصوير العملية بالبسيطة، رغم أنه لم يكن يعرف إلا القليل عن هذا البلد، لدرجة أنه خلال الزيارة التي قام بها ضباط الصف 59 إليه، ألقى عليهم هذه الكلمات التي أعطتها الحقائق في وقت لاحق إنكاراً رسمياً: "جنودنا مطلوبون لتنفيذ مهمة زراعية أكثر منها قتالية، وسيستعملون أغلب الوقت المعول و المجرفة أكثر من البندقية، فبعرض فوائد حضارتنا للقبائل وتعليمهم كيف يلبسون و كيف يسكنون بطريقة أفضل ستتمكن من كسبهم تحت لوائنا".

في العشرين من سبتمبر، انطلقت كتيبتين من الصف 59 بقيادة الكولونيل بوتي دوتريف Petit d'Autrive، و فوجين من المدفعيين و سرية خبراء متفجرات و قسم للمعدات و قسم عمال الادارة. و أخيراً الجنرال تريزيل Trézel و هيئة أركانه و استقلوا السفن التالية: لافيكوار la Victoire: فرقاطة تحت قيادة السيد بارسفال Parseval قبطان السفينة، لاسيرمي و لاريان: la Circée et l'Ariane: طرادات مسلحة، لواز l'Oise: طراد هجومي، الدورانس و الكارافان Durance et la Caravane la: سفينة شراعية، و سين le Signe: سفينة شراعية بصاريين.

لم يتمكن السرب الذي ضابفته الرياح من مغادرة ميناء تولون إلا في الثاني و العشرون من الشهر، و وصل إلى بجاية في التاسع و العشرين، و سرعان ما بدأ إطلاق النار من الحصون، لكن السفن الفرنسية تمكنت من إسكاتهم على الفور. بدأت عملية الإنزال بين الساعة الثامنة و التاسعة صباحاً و تمت أمام باب البحري، بين القصبة و حصن عبد القادر. كان

هناك برنامج رتبته من خلاله كل التفاصيل، و كما هي العادة دائما لم يتم تنفيذ ما تقرر. تمت عملية إنزال القوات الأولى تحت إطلاق نار شديد للبنادق و رغم ذلك تمكن الفرنسيون من الولوج بسهولة إلى المدينة. في الجهة المقابلة لباب البحرية - الذي سرعان ما أصبحوا متحكمين فيه - يتفرع واد سيدي تواتي الذي يقسم المدينة إلى صفتين. على يسار الواد توجد بريجة و على اليمين هضبة موسى المتوجة بالحصن الذي يحمل نفس الاسم. هذه الأخيرة كانت الوحيدة ذات أهمية و باحتلالها تجبر الأعداء على إخلاء الثانية و بهذا تم توجيه الفجوات الأولى نحوها عكس نوايا الجنرال. تم انتزاع حي البريجة واحتلال حصن عبد القادر من طرف الفرق التي يقودها الرائد ايسلين Esselin الذي تعرض لإصابة في هذه العملية. إلى اليسار قامت سرايا أخرى بمهاجمة هضبة موسى و تمكنوا من احتلال القصبة و حصن موسى. و بهذا دخلنا في معركتين عوض واحدة كنا منتصر فيها إذا ما قمنا بمهاجمة هضبة موسى فقط التي باحتلالها كنا سنوقع البريجة بين أيدينا. أضفنا إلى هذه الغلطة الأولى، خطأ عدم احتلال المكان المحاصر بين باب اللوز و الحائط الغربي و قبة سيدي تواتي، و هو المكان الذي يتواجد به حاليا المعسكر المطوق العلوي. و بهذا بقي العدو مسيطرا على مدخل الوادي حيث يمكنه النزول لقطع الاتصال المباشر بين البريجة و موسى. وهذا ما قاموا به في الليل و وصلوا حتى السرية القابعة بباب البحرية وقتلوا ثلاثة رجال. كما أنهم

كانوا يحتلون كل المنازل في الأحياء العلوية. و بهذا و بعد اليوم الأول، لم يكن الفرنسيون أسياد بجاية تماما.

في 30 من الشهر، تواصل إطلاق النار في كل النقاط و كان القبائل يظهرين عند كل مداخل الأحياء، كانوا يدخلون إلى المدينة بسهولة عبر الوادي و عبر باب فوكة الذي تم إهمال احتلاله بسبب جهلنا لتواجده حسب ما قيل. بعض قطع المدفعية التي كنا نقوم بنقلها إلى حصن موسى تمت مهاجمتها بشدة. فقمنا بالتمركز في منزل بمحاذاة الشارع الذي كان القبائل يصلون إليه من باب فوكة و لكن هؤلاء مروا عبر الشوارع الموازية و استمرت المعارك من شارع إلى شارع. في أول أكتوبر، سمح الجنود المغتاضون من تلك المقاومة الضروس بتجاوزات مؤسفة. تم ذبح بعض البجاويين الذين ظلوا ببيوتهم. تم قتل 14 امرأة و طفلا في دار القاضي. و ترأس بوستة هذه المذابح حسب ما قيل لتصفية حسابات إنتقامية لديه. و سرعان ما تحصل على جزاء عادل حيث قتله أحد جنودنا بالخطأ ظاننا أنه واحد من القبائل. أصبح من الواضح أننا أخطأنا في طريقة التخطيط لحملة بجاية. لم يتم الدفاع عن الحصون من طرف عدو يريد البقاء سيذا و لكن كل قطعة من الجدران و كل منزل ذو مخرجين أصبحت حصونا له. نعتزف بأننا لم تكن نملك القوة الكافية. فتم إنزال الفرق البحرية و تم طلب إغاثة من الجزائر.

في الأول من أكتوبر، تقرر احتلال قمة سيدي تواق. بعد أن انتبه الجنرال إلى أن احتلال منزل باب فوكة لم يحقق هدفه المنشود، فقام بالاستيلاء على منزل آخر رأى أن موقعه أكثر فائدة، ولكن الضابط الذي أرسله إلى هناك عاد إلى الموقع الأول خوفاً من الانقطاع السريع للاتصالات. فأعاد الجنرال إرساله إلى الموقع الثاني. وفي كل ذلك الذهاب والإياب تم أخيراً اكتشاف باب فوكة الذي تم سده. أصيب الجنرال في ذلك اليوم في قدمه، لكن إصابته لم تكن خطيرة إلى حد يجبره على تسليم القيادة التي احتفظ بها.

في ليلة الثاني إلى الثالث، تم احتلال موقع المعسكر المطوق العلوي من طرف أربعة فرق بقيادة السيد دولا مورسيار. تم إنشاء حصن و تم نقل القطع الموجهة إلى حصن موسى. بهذا الأسلوب سيطرنا على أعالي المدينة و مدخل الوادي. في اليوم الثالث، تلقت بعض الفرق أوامر بالهجوم على الموقع المسى الأبراج غرب المدينة وتمكنوا من احتلاله بسهولة. ثم تلقوا أوامر باحتلال موقع الأطلال و تم ذلك أيضاً. وفي الأخير تلقوا أوامر بالهجوم على قوراية و هناك تخطمت عزيمتهم القوية أمام صعوبات لم يكن في مقدورهم تجاوزها، فراجعوا إلى المدينة، و هناك لم يفكر الجنرال تريبيل لبضعة أيام سوى في استعادة القوى. تم بناء حصن في الرابع من أكتوبر بيو على شرق المدينة. وفي نفس اليوم وصلت إلى بجاية أعدادات من الجزائر متمثلة في كتيبة الصف 4 و سربين من القليل الثاني لأفريقيا. و بهذا أصبح الجنرال أكثر قوة لتتمكن من الاستحواذ على قوراية و لم يتم ذلك سوى في اليوم الثاني عشر من أكتوبر، قبل طلوع الشمس بدأ الهجوم

بثلاث دعامات. إستولت اليمنى و الوسطى على قمة قوراية دون إيجاد أية مقاومة كبيرة. أما الدعامة اليسرى المكونة من كتيبة الصف الرابعة بقيادة رئيس الكتيبة جنتل Gentil، فقد هاجمت معسكر القبائل الواقع بمطحة الداموس. هذا الموقع تم احتلاله و طرد العدو إلى قرية دار ناصر المتواجدة في الأسفل. و دعمت هذا التحرك سرايا بحرية. قام السيد دوبار سوفال de Parseval و انضم داخل المرفأ، و ساهموا في عمليات ذلك اليوم مساهمة بطولية. عادت القوات إلى المدينة مع حلول الليل. تم احتلال مركز قوراية بشكل جيد و بدأ قسم الهندسة بتحصينه على الفور. العقيد لومارسي Lemercier مدير التحصينات قام بعمل جميل.

ظل القبائل المشاؤون من انتصاراتنا في 12 أكتوبر دون رد فعل لعدة أيام. وفي الـ 25 من نفس الشهر و أثناء إنشاء معقل سالم لحماية الاتصالات مع قوراية، تقدموا للهجوم و تم صددهم متكبدين خسائر، و في الـ 26، تم إنشاء المعقل الثروماني. و في أول نوفمبر، عاد العدو إلى مهاجمة مراكزنا. أدخل بعض أفراد الكتيبة الثانية لأفريقيا في التقدم منساقين وراء فرط الحراس، فقتلوا. و في الـ 4، حدث هجوم جديد، لكن القوات بقيت داخل جبهتها نظراً لانتهاؤ الأشغال بالمراكز الخارجية و اكتفت بصد العدو بطريقتي الدفاع.

انتهت مهمة الجنرال تريبيل، و أصبحت بجاية تحت سلطتنا، لكنها خالية من سكانها و مدمرة من الحرب و عدم مراعاة الحفاظ على المنازل

التي كان جنودنا يهدمونها للحصول على الخشب. لقد احتلنا مجموعة من الأطلال، و زدنا عدد أعدائنا ودفعنا من صعوبات و نفقات الاحتلال لابد من القول، أن هذه هي نتائج حملة بجاية. من وجهة نظر عسكرية لم يكن لها من شيء مميز بل على العكس تم ارتكاب أخطاء كثيرة، كما أن جنرال الحملة اعتمد الاستقلالية عن القائد العام بطريقة قطعية لن تريد سوى من صعوبات مركزة الموقت.

استلم السيد دوفيفي Duvivier في 7 نوفمبر القيادة العليا بجاية، وترك له كتيبة الصف 59 و الكتيبة الرابعة و الثانية من مشاة إفريقيا الحظيفة و سرية من الفوج الثالث لقناصة إفريقيا الذي كان في عناية عاد الجنرال تريزيل إلى الجزائر أين بقي مريضا لمدة طويلة جراء التهاب إصابته. عم الهدوء كل ضواحي عناية بعد الحملة ضد ولاد عطية. و كان العرب يأتون من كل صوب نحو سوق المدينة و كل الانطباعات التي أدخلوها كانت لصالح الجنرال أوزير Uzer و السلطة الفرنسية. هذا الجنرال كان محبوبا و مرهوبا في نفس الوقت من طرف الأهالي الذين كانوا يعلمون أنه مهما عاملهم بلطف، فإنه لا يترك أية إهانة أو ظلم دون عقاب. و في شهر سبتمبر 1833 جاءته فرصة لتطبيق جديد و مدعش لنظامه. فقد سمحت قبيلة مرداس لنفسها، و هي قبيلة كبيرة العدد تعيش على الضفة اليمنى للمغرب شرق عناية، بنهب و سلب بعض التجار المتوجهين إلى المدينة، فطالبهم الجنرال بإصلاح الاساءة التي ارتكبوها. و حتى أنه

أرسل لهم عشرة من مواطنيهم الذين كانوا يستخدمون عناية كرهائن لكي لا يجرؤوا على استخدام السلاح، و لكن المرداس أظهروا أننا صماء لتعليماته، وبدا من الواضح أنهم كانوا يضعون الحق العادل ضدنا، مما جعل الرهائن العشرة يعودون إلى عناية لكي لا يشاركوا في ظلم قبيلتهم. أجبر الجنرال أوزير User على استخدام القوة و سار بقوات عسكرية ضد المرداس و عند وصوله إلى الضفة اليسرى للمغرب أمام قبة سيدي عبد العزيز، أرسل لهم تحذيرات جديدة لم تكن أكثر فعالية من الأولى. و بما أنه استطاع كل وسائل التسوية، أطلق العنان لكل فرسانه على الضفة الأخرى فتمكنوا في لمح البصر من سحق الحارجين عن القانون و سلبهم ما لديهم. فهاؤوا يطلبون المغفرة جالسين على ركبهم، و منحهم إياها الجنرال بعد توبيخ شديد. و قد أفرط ريبا في كرمه عندما لم يبق من الغنائم الموزعة لهم سوى ما كان ضروريا لتعويض التجار الذين تعرضوا للنهب. و منذ تلك الفترة، أظهر المرداس، الذي كان جزء صغير منهم يعيش منذ البداية تحت هيمنة، ولاية لفرنسا.

أثناء هذه الحملة، حظي النقيب موريس Morris من الفوج الثالث لقناصة إفريقيا، بنزال فردي جد نادر في هذا البلد، ضد عربي ذو قامة عملاقة. فبعد أن فقد المتخاصمان سلاحهما في التصادم تحليا عن الخيول، تصارعا جسديا و تدحرجا على التراب. دامت المصارعة دقائق عديدة و لم يتمكن أي أحد من الطرفين إطلاق النار على تلك المجموعة المحتدة فيما

بينها خشبة إصابة محارب من صفه. و أخيرا مرور أحد الضباط مسدسا لموريس الذي بدأ يتقهقر و أفرغه على عدوه الذي مات بين يديه. هذا المشهد التاريخي و الجدير بالذكر كان من النزالات الفردية النادرة و الأكثر ثميرا التي حدثت بإفريقيا.

السرية التي يسمي اليها موريس الباسل انطلقت على الفور إلى بجاية، أين وجد أكثر من مناسبة للتميز.

الكتاب 12

بداية الاضطرابات بين عرب المتيجة - اغتيال قائد بني خليل - جولة لجنة إفريقيا في السهل وفي البليدة - حملة ضد بني زكري الحجوطيين - حملة الخشنة - إقامة السيد فرجي Vergé بين العرب - المفاوضات مع توقرت - حملة حافظ حاج Havey Hadj - الحملة الثانية ضد الحجوطيين - استسلام الحجوطيين - الأمن العام - انتشار الأوروبيون في المتيجة - معسكر الدويرة - سوق بوفاريك - الاعتراف بمزارع البيلك - مكائد و ضعف - المفاوضات مع التيطري - ثورة شرشال.

أثناء تواجد السيد دو لامورسيار ببجاية، كُلف الضابط جايار Gaillard من طرف الجنرال فوارول Voirol بتسيير أمور العرب. و لكن لأسباب صحية و شخصية، تم استدعاه إلى فرنسا. فقام القائد العام بتعيين السيد دو لا بورت De laporte المعين حديثا رئيسا للمترجمين، على رأس مكتب العرب. كان السيد دو لا بورت - الذي كان سابقا نائبا للقنصل الفرنسي بطنجة - رجلا مستظيا و من المشرقين المميزين و لكن تقدم منه منعه من النشاط الذي كان يتطلبه منصبه الجديد.

كما قد وصلنا إلى هناك عند تنصيبه. و في هذه الفترة من السنة يكون العرب قد ألوا حصاد زرعهم و لم يبدؤوا بعد بزرع البذور، فيكونون أكثر استسلاما لأهوائهم المغامرة و روح التجوال. فكان من الضروري على الرجل التكلف بتسيير أمورهم التواجد بينهم، لكن لسوء الحظ تعلم ذلك على السيد

الجزء الأول

دو لا بورت، لأنه لم يكن بإمكانه امتطاء الحصان. تعرض عمال جسر بوفاريك، أواخر شهر أوت إلى الهجوم و التفريق. و اتهم ناس بوعقاب و حوش بن خليل بهذا العمل العدواني، الذين وجهوا بدورهم الاتهام إلى الحجوطيين الذين كانوا كبش فداء منطقة السهل.

تزامنت هذه الضجة مع وصول اللجنة الإفريقية إلى الجزائر، و التي ستطرق لمهامها و أعمالها في أحد الكتب المقبلة. كان ممكنا إصلاح الضرر إذا ما استطعنا معاقبة المذنبين. و لكن لسوء الحظ، كان من المستحيل التعرف عليهم لأنه لم يتم إرشادنا بشكل جيد، حتى لا نقترف ظلما في حق أولئك الذين قيل عنهم للقائد العام أنهم الفاعلون دون دليل يذكر. قامت الكتيبة الرابعة لجند المشاة بعملية استطلاع في مكان الاعتداء ولكنها لم تتوصل إلى أية معلومة. حتى أن الكولونيل المشرف على الكتيبة لم يكن على علم بما كان يجري في البلاد منذ أربعة أشهر، فقام بإطلاق النار على أفراد من الصابحية⁽¹⁾ Spahis، الذين كانوا محتلين خيولهم للالتحاق به و قام بتوقيف آخرين، هؤلاء لم يستوعبوا هذا التصرف و كيفية مكافأتهم على تفانيهم في أداء مهامهم. إنها ليست المرة الوحيدة التي تنزعزع فيها علاقاتنا مع "العرب" بسبب جهل و قسوة بعض القادة العسكريين.

نظرا لعدم جدوى الاستطلاع الذي قامت به الفرقة الرابعة للمشاة، كان من الضروري وضع فرق عسكرية ببوفاريك و استئناف الأشغال تحت حماية أسلحتنا، لأنه لا يجب أبدا التراجع أمام العرب أو التنازل لهم

(1) فيلق من الفرسان العرب تابع للجيش الفرنسي.

في أي شيء، خاصة في كل ما هو جيد و شرعي و يساهم في الحفاظ على
السيادة. عوضا عن ذلك قام الجنرال فوارول بتوقيف المشروع المنطلق،
مخافة عدم استقرار الأوضاع، وهي مخاوف أثبتت التجربة منذ ذلك الوقت
أن لا أساس لها من الصحة، فكبرت وقاحة أعدائنا و قلة عزيمتنا مسانديننا،
وبدا أن ذلك الموقف الضعيف ستظهر ثماره قريبا. و فعلا تعرض أنشط و
أخلص الخادمين " قائد بني خليل بوزيد بن شعاعة " إلى السب و التهديد
و من ثم اغتياله في التاسع من سبتمبر في سوق بوفاريك. لقد مات شجاعا
حيث لم يخضع أو يذعن للمتشقين و أسمعهم حتى آخر نفس له صوت
قائد ساخط. و عشية وفاته، تم تحذير " بوزيد " من الخطر الذي كان يحيط
به و لم تتمكن دموع أفراد عائلته من ثنيه عن الذهاب إلى السوق. ولكن
بمجرد وصوله إلى بوفاريك، حاصره أعداءه و وجهوا له اللوم بسبب
صداقته مع المسيحيين. فأجابهم بقوة و حزم أنه كان صديق القانون و
النظام و أن المسيحيين لم يكونوا فوضويين و قتلة مثلهم و أنه يشرف
بخدمتهم لأنه بذلك يخدم العدالة و الصواب. بعد ذلك انسحبوا و تركوه
لمشاغله. عمت هدنة بسيطة إلى أن هم بالانصراف، و لكن أعداءه وجهوا
له اللوم من جديد و رد القايد بنفس الإجابات و القوة. إن الأشخاص
الذين قصوا علي هذه القصة المؤسفة و التي جرت بحضورهم، لا يفتنون
بأن أعداء بوزيد كانوا يريدون قتله، و كان من الممكن أن ينجو بنفسه
لو توقف عن إثارة غضبهم بكلماته. لكن القائد الشجاع كان من أولئك

الرجال الأقوياء الذين لا ينحنون إذا كان لديهم الحق. كان "بوزيد" محاطا على رياطة جاشه و محاطا بنفس الرجال. عندما تمكن من الوصول إلى أقرب جسر من السوق وتجاوزته، ونظرا لاستمرار مطاردتهم ومضايقتهم له، بدأ بتهديدهم من غضب الفرنسيين. حينها بدأ إطلاق النار، من طلقة واحدة إلى اثني عشر طلقة أوقعت من حصاته. مات المسكين وقد وضع أمانة ثأره بين أيدي من أخلص لهم. تقاسم القنلة الغنائم وابتعدوا. سكان بوفاريك لم يكن لهم ضلع في هذه الجريمة الشكراء التي كانت صبيح من يسميهم العرب بالكبار وبعض من قطاع الطرق. فالذين أقدموا على إطلاق الضربات الأولى أصبحوا الآن معروفين. سيدي علال مبارك الذي عرف لفترة طويلة أن له يد في عملية اغتيال بوزيد، تأكد فيما بعد أنه لم يفعل ما في وسعه من أجل منع ذلك، إما خوفا أو نظرا لشعوره بالضعف.

بينما كانت أرض بوفاريك تروى بدم الشجاع بوزيد، كانت جماعة من لجنة إفريقيا وعل رأسها الفريق بوني Bonnet رئيس اللجنة، تتأهب لزيارة البلدة بمرافقة فيلق من أربعة آلاف (4000) جندي تحت قيادة الجنرال فوارول شخصيا. في طريقهم، وصل خبر مقتل القائد إلى القائد العام وأعلم أعضاء اللجنة بذلك. كان ذلك في اليوم الموالي لحدوث الجريمة. لم يتم استكمال الاستطلاع و مروا على بوفاريك دون الالتقاء بأحد. وليس بعيدا عن البلدة التقوا بوفد ترجى من الفرنسيين عدم دخول المدينة. ظن

كل من السادة الجنرال بوني و الجنرال فوارول أنه من الواجب التبول عند رؤية هذا الوفد فتوقف عدد كبير من اللجنة الموقدة نتيجة لذلك. وتقدم الجنرال فوارول و السيد بيكتوري Piscatory أحد أعضاء اللجنة، مرفقين ببعض الضباط وبعض الفرسان و تمكنوا من الوصول إلى المدينة، ولم يتمكنوا إلا بضع دقائق، وعادوا أذراجهم إلى باقي أفراد الجيش الذي أخذ طريق العودة إلى الجزائر على الفور، لأن السادة أعضاء اللجنة لم يريدوا رؤية المزيد. و بمجرد بداية طريقنا دخل الثبات من العرب في مناوشات وإطلاق نار مع مؤخرة الجيش ولكن من مسافة بعيدة، وجنودنا حسب عاداتهم السيئة أطلقوا رصاصا أكثر من اللازم. فمن جهة كان من المفروض أن ينحصر دور الجنرال بوني في الملاحظة ومن جهة أخرى قام المارشال الذي كان يتحكم في القوات تحت أوامر الجنرال فوارول بحركات متناقضة ودون هدف. بما أنه لم يكن هناك عدو بمعنى الكلمة ولكن ذلك أدى إلى بلبلة واضطراب في وسط القوات مما أعطى الطباعا لبعض المدنيين الذين كانوا يرافقنا أنهم يشهدون معركة ما، وقلنا أننا منهزمون نظرا لمواصلتنا لحركة التراجع. هؤلاء الأفراد كانوا من الأوروبيين الجزائريين جاؤوا لزيارة البلدة وحاولوا إقناع أنفسهم وإقناع الآخرين بأنهم تعرضوا لخطر كبير و مثلوا تلك المناوشات كحادثة مهمة. وهو الشكل الذي وصفته الجرائد.

الجزء الأول

في الواقع لم يكن هناك في أية لحظة إخلال بالنظام في حركة التراجع أو بالأحرى العودة من جولة كنا نعرف من الأول أنها ستكون قصيرة. لم يصب رصاص العدو قافلتنا، حيث لم يتلق إلا اثنان من الرماة وضوضا خفيفة. كان السيد بوني يستمتع بالسيطرة على حركات السلاح، في حين كان الجيش يرى في تمضية الوقت هذا، عمل متعب له و وسيلة لاسترجاع هؤلاء الشيوخ لذكريات شبابهم.

في هذه الظروف، لم يكن الجنرال فوارول معفى من التوبيخ. لقد نسي تماما أنه كان من المفروض أن يكون المتحكم الوحيد و أن كل المسؤولية تقع على عاتقه.

فمن وجهة نظر عسكرية، هذه الحادثة التي أسالت حبر الجرائد وقتها لم تكن إلا بسيطة، ولكن من ناحية سياسية أخذت منحى خطيرا، فعند مرور الجيش ببوفاريك في طريقه إلى البليدة وجدوا جثتي صاحب مطعم وزوجته مقتولين من طرف عرب في مؤخرة القافلة عند توجيهها نحو البليدة⁽¹⁾. هذه الجريمة المزدوجة وتلك المفترقة بالأمس ضد القايد المسكين، كان يجب معاقبة مرتكبيها على الفور و بطريقة مثل: قرى مدينة بوفاريك، أين كان يتواجد

(1) نشر في الجرائد أن ولدين، هما ابني المعتقلين تم شنقهما في أشجار بوفاريك من طرف العرب و أن كل الجيش شاهد ذلك. إنه من المؤكد أن الخبر قد انتشر في الصفوف، بشكل جعل السكان قلقين بهذا الشأن و ظنوا أنهم ردوهم. لقد اعترف لي أحد السكان أنه رآهم لعدة دقائق. لقد كان خطأ بصريا، صعب تفسيره على كل حال، لكن من الثابت أنه خطأ. لم يكن لمصاحب المطعم المعتقل سوى فتاة في العاشرة من العمر، هربت إلى الغابة أثناء ذبح والنيها، ثم اختبأتها من طرف نساء عربيات فمن يأخذها إلى الجزائر العاصمة بعد أيام قليلة. تم شنق

المذبذبون بكل تأكيد، لم تفرغ من كل سكانها. انضج لنا ذلك من قبل
أوروبيين اثنين تم توقيفهما واقتيادهما من طرف العرب في إحدى القرى،
و لم يتم إطلاق سراحهما إلا بعدما تأكدوا أن مدفعيتنا كانت ستطلق النار
على منازلهم، أين يتجمع نساءهم وأطفالهم وكل ما يملكون.

كان من الضروري الاستقرار ببوفاريك ومحاصرة القرى والاستحواذ
على القطعان والقيام بتحقيق ميداني فعال وثمر، لأنه إذا لاحظ الموالون
لبوزيد إصرارنا على التحرك بحزم، كانوا سيفيدوننا بالمعلومات اللازمة
لتحقيق العدالة. وحتى غير المبالين أنفسهم كانوا يسلموننا المذبذبين
خوفا من أن يتم الخلط بينهم. كان أفراد الجيش يتوقعون شيئا مماثلا
لأنه من غير اللائق التغاضي عن تلك الأفعال الإجرامية. كان الجيش
ينوي التوقف ببوفاريك ولكن ازداد غضبه عندما واصل طريقه نحو
"الدويرة" حيث وصلوا هناك مساء منهكين من التعب، غير راضين لا
عن يومهم ولا مسؤوليهم. لقد انطلقوا صباحا بمؤونة يومين، لذلك
كان من الممكن المكوث "ببوفاريك" دون خشية من نقص المؤونة لذلك
اليوم واليوم الذي يليه، ومن غير المعقول أن يكون المكان يخلو تماما من
الموارد، بالإضافة إلى أن معسكر الدويرة لم يكن يبعد إلا بثلاث أميال⁽¹⁾.

هذه التهمة المستكينة من طرف السيد سابيتي Sapity مدير مستشفى شارلوت
Caroline

(1) وحدة قياس قديمة تساوي تقريبا 4 كيلومترات.

الجزء الأول

كانت القيادة جد منقسمة في اليوم العاشر من سبتمبر، مما أدى إلى أن تكون المسؤولية المعنوية كذلك، بالرغم من أن المسؤولية القانونية لا تقع إلا على عاتق الجنرال فوارول، فالسيد بولي يتحمل جزءا كبيرا من المسؤولية. في هذه الأثناء قامت اللجنة بإصدار بيان في الجزائر العاصمة بحجة توضيح أنواع أشكال التظلمات الممكن توجيهها إليها، وأعلنت الناس أنها لا تساهم في العمل السياسي أو العسكري و بأنها تكتفي بمتابعتهم والحكم عليهم.

كانت هذه الوثيقة موجهة بالطبع ضد الجنرال. لقد كانت بدون أهمية وكذلك صحيفة لأنها في الوقت الذي كان كل شيء ينذر باندلاع حرب، لم تكن تهدف إلا لفقدان الجنود الثقة بالقائد العام. كان باستطاعة فوارول معاقبة الذين وقعوا على الوثيقة، ولم يكن فقط باستطاعته بل من واجبه إنهاء مهام مسؤول الشرطة الذي سمح بنشر ذلك البيان الذي يعتبر داخل الجيش مثيرا للشقاق. في حين أنه ما كان يسمى في تلك الفترة مستعمرة الجزائر لم تكن عبارة سوى عن جيش.

و كما ذكرنا آنفا، لم تكن الفرق راضية عن جولة العاشر من سبتمبر، و لكن بسبب تقديرها للجنرال كان لديها إحساس كبير بالعدالة، لم تلق عليه أي لوم آخر، الذي تفرضه علينا حيادته المؤرخ بتوجيهه إليه رغم العاطفة التي تكنها لشخصه. وقع جلّ مسخطهم و استيائهم على الذين أرادوا إنكار

فضله، و في ذهنهم، كان يمكن للأمور أن تأخذ مجرى آخر دون هذا الجنرال، لم يتأخر الجنرال فوارول، في الإعلان أن الثأر قد تم تأجيله فقط وسيتم معاقبة كل الجرائم التي تم اقترافها.

قام مكتب العرب - خلال الأسابيع القليلة التي مضت و الممتدة بين نشر الإعلان والحملة المعلن عنها - بالبحث عن التفاصيل المتعلقة بمقتل بوزيد و لم يتمكن من الحصول إلا على معلومات غير كاملة. كان يبدو أن الحجوطين هم المذنبون الفعليون تم توجيه الحملة نحوهم بقيادة الجنرال تروبريوند T'robriand.

لقد انطلق من العاصمة بقوات حاشدة، جاوز مزفران إلى مقطع خيرة و اخترق معاقل الحجوطين الذين فروا عند اقترابه، تم حرق قراهم ولكن لم يتمكنوا من اللحاق بهم.

في طريق العودة، حدثت مناوشات من بعيد و لم يتضرر أحد. عاد جيش الحملة عبر طريق الغرب و بوقاريك بعد أن بقي خمس أو ستة أيام في الريف.

أثبتت هذه الحملة عدم نسياننا لحادثة اغتيال بوزيد، ولكن نظرا لأنها ضربت خطأ أناسا لا يمتون بأية صلة لعملية الاغتيال، فلقد أثارت غضب الحجوطين الذين لم يتوقفوا منذ ذلك الحين عن مهاجمة أراضي بني خليل.

حاول الجنرال فوارول تقديم دليل آخر على أن خدمات بوزيد لا يمكن تجاهلها، فعين في شهر نوفمبر ابنه علال كقائد لبني خليل. هذا الأخير لم يكن بنفس نشاط و قوة أبيه ولكنه كان مخلصاً. ومن أجل مساعدته في هذا المنصب الحساس، تم تعيين بعد مدة، الرقيب فارجي Vergé من كتية الزواف⁽¹⁾ les Zouaves و هو شاب يتمتع بالشجاعة والمؤهلات، ويعرف جيداً لغة و أعراف العرب. اتبع بن بوزيد قدومه و استلهم من خطباته فتشجع بعض الشيء و ذهب لرئاسة سوق بوقاريك. قام السكان بتعويضه عن قيمة الأشياء التي كانت بحوزة أبيه عند اغتياله. و منذ ذلك، بدا و كأن الجريمة قد نسي. طلب الجنرال فوارول من الحكومة دفع منحة بسيطة بمائة ستم 100 écus لعائلة بن شعاعة الذي لم يكن غنياً ولكنه ضحى بدمه من أجلنا. و نأسف لرفض هذا الطلب خاصة إذا علمنا أنه كان يدفع لبن عمر منحة تقدر بـ 6000 فرنك و أخرى مماثلة منحت لبن زكري.

بن زكري هذا، لاجئ غامض من مدينة قسنطينة، و الذي بسبب ظروف كانت لصالحه، بدا للقائد العام، وكأنه شخص مهم قد يكون مفيد. إنه رجل مقدام قد يذهب إلى النار، و في ما عدا ذلك تافه. تم تعيينه بالبرج البحري مع بعض من المشاة و الفرسان من السكان الأصليين، و خلال سنة انتحرت مهامه في دور رقيب، فكان هو و أتباعه فقط يكلفوننا 18,000 فرنك. و هذا مبالغ فيه نظراً لقلّة أهمية البرج البحري.

(1) فرقة مشاة من الجيش الأجنبي التابع للجيش الفرنسي.

بقي السيد فرجي لمدة طويلة بالقرب ابن بوزيد، و كان من الممكن التوصل إلى نتائج أهم من التي ذكرناها لو تم الاعتناء على بعض الفرسان المحترمين و لكن تم التخلي عن الصياحية Spahis المهمين منذ شهر أكتوبر. ظننا أنهم غير مفيدين لأننا لم نحسن استغلالهم، الفكر الذي أدى إلى إنشائهم لم يعد نفسه الذي يسير أمور العرب. السيد فارجي لم يضع حدا لخرجاته إلى مواطن بني خليل بل تعداها إلى جبال الخشنة أين تم استغلاله جيداً.

قائد الكولونيل شومبورغ Schaumburg قائد الفيلق الأول لقناسي إفريقيا في وقت سابق، حلة على تلك العروش بسبب أن أحد سكانها قد اختطف - بمحض إرادتها - عشيقه أحد فرسان بني زكري. ووفقاً لسوء التقدير الذي يميزنا قمتا بمعاقبة تلك الخطوة الغرامية بدقة مطلية أكثر من جريمة مقتل المخلص بوزيد. استحوذ الكولونيل شومبورغ على الكثير من قطعان الماشية مما جعل القائد العام في حيرة مما سيفعل بها. وبعدها علم بتفاصيل عملية اختطاف العشيقه استغل أزمة الاستقبال اللطيف الذي حظي به الرقيب فرجي في المقاطعة، لكي يرد لهم تقديراً قيمة الماشية كعربون رضا و دون أن يبدو متراجعا مما يدر من السلطة. تحمل السيد فرجي و لمدة أشهر، ثقل الجزء النشط من الشؤون العربية الذي انغمس فيه بقدر كبير من الشجاعة الواضحة و عقل سليم و تبر. بعد أن تبين أن الابن الصغير لبوزيد لم يكن يتمتع

بالمميزات المؤهلة للقيادة، فكر الجنرال فوارول في تعيين السيد فرجي قائدا لبني تحليل. وقد ترك حرية اتخاذ القرار المناسب في ذلك للوزير. ولكن نظرا للنتائج التي كان من الممكن أن تؤثر على كل المستويات الهيكلية، لم ير ضرورة لتجسيد تلك الفكرة، في ظل المرحلة الانتقالية التي يتواجد بها. وقد تم لاحقا ترقية الرقيب فرجي إلى رتبة ملازم ثاني لمكافأته على خدماته.

شهدنا خلال شهر جانفي من سنة 1834، وصول مبعوث من أمير تقورت إلى الجزائر العاصمة - و لقد قمنا بالتعريف بموقع و ثروات هذه المنطقة التي تعتبر مركز ولاية مزدهر بالفعل عند تطرقنا إلى مقاطعة قسنطينة - أمير تقورت هو واحد من أعداء أحمد باي قسنطينة. في الأشهر الأولى لسنة 1833 زحف ببعض الكتاب عليه فهزمها الباي بفضل مدفعيته. و قد احتفظ الأمير بحقد عميق، وتبعاً لنصائح فرحات بن سعيد قرر أن يتحالف مع فرنسا. الهدف من هذا التحالف الإطاحة بأحمد و تنصيب أمير تقورت بدلا عنه و الذي بدوره سيعترف بالسيادة الفرنسية و يدفع لها جزية.

وصل مبعوث تقورت إلى الجزائر عبر تونس، و عند تقدمه إلى مقر قنصل فرنسا هناك كان في حالة رثة وفسر ذلك بتعرضه للسلب من طرف قبائل أهالي القيروان، و بما أنه كان يحمل رسائل اعتماد مضبوطة قام القنصل بإرساله إلى الجزائر في أول باخرة متجهة إلى

هناك. كان العرض الذي تقدم به باسم سيده سعييا إلى درجة مبالغ، لذلك تم الرد عليه بطريقة تسمح بمواصلة المفاوضات. عاد السفير راضيا من الاستقبال الذي حظي به، و جاء مرة أخرى تحت إدارة الكونت ديرلون d'Erlon. و بها أن قضية قسنطينة لازلت عالقة و أن الدبلوماسية العربية مثل غيرها يجب أن تمتع بالسرية، سيفهم القارئ أنه لا يجب أن أدخل في تفاصيل المفاوضات التي لم تصل بعد إلى نهايتها و التي من خلالها قد تقرر الحكومة فرض سيطرتنا على مقاطعة الشرق.

لم يكن أمير تقورت العدو الوحيد لأحمد باي الذي كان على علاقة بالجنرال قوارول بهدف الإطاحة بهذا الرجل الشرس والخابث والرهيب. فقرحات بن سعيد المستقر بالصحراء بولاد جلال، والحاج عبد السلام شيخ مرجانة و الذي بفضل موقعه شغل عمر البيان أو أبواب الحديد و الحزنناوي شيخ الحنانشة قبيلة قوية تحت مقاطعة تونس، و أبو الضياف بن حمد شيخ القبيلة القوية لبدو ولاد ماضي الذي كانوا يقطنون سهل حمزة، و أخيرا بن قاسم شيخ سكيكدة أو سطورا، هذه النقطة الجدة مهمة من الساحل. كل هؤلاء توجهوا بعرض تعاونهم للقائد العام في حال القيام بحملة ضد قسنطينة و ترجوه من أجل دعم جهودهم بشؤونهم ببعض المدفعية و وضع

خطط للهجوم، و مساعدتهم بخبرة البعض من ضباطنا. حتى وإن خفضنا إلى النصف فرضية نجاح هذا النوع من عروض الصداقة وإن أعطينا للمزاج العربي مساحة أكبر. و أن نقر أيضا أن البعض من الاقتراحات التي عرضت علينا كانت بهدف استكشاف نوايانا، فإن الذين تابعوا هذه المفاوضات و الذين قاموا بمقارنة الأقوال والأفعال، و سوابق الحالة الراهنة و تحليل المصالح المتوفرة، انضح جليا أنه لدينا فرصة كبيرة خلال عام 1834 لفرض سيطرتنا على مقاطعة قسنطينة.

لم تستطع الحكومة التورط في شراكة من هذه الأهمية دون أن يكون لديها إلا تعهدات فقط، بل كانت تريد ضمانات و كان لها الحق في ذلك، هذه الضمانات كانت معروضة و لكنه استلزم أن تكون من عناصر قرار التدخل.

أما القائد العام بالطبع لم يكن باستطاعه إعطاء كل الأطراف مهلة - دون تسليمهم شيئا في المقابل - ليس احتمالات مداولات مجلس الوزراء و لكن قرارا و نصا يتوقف تطبيقه على الضمانات نفسها. و بالفعل هذه الضمانات لم تكن سوى: تسليم الأسرى، معدات الماشية و الأغذية و أخيرا إبداعات الأموال⁽¹⁾. ولكي تكون المساعي ذات معنى يجب أن تضع كل من تعنيه في وضعية عدائية ضد أحمد و أتباعه. كانت الحرب مستتلق مباشرة و بذلك

(1) عرضت عليه

كان يجب عدم تأخير مساعدات فرنسا مهما كانت توعيتها أو حجمها. كان هناك حلقة مفرغة في تلك المفاوضات المطلقة أفقدتها معناها. اضطر الجنرال فوارول استخدام مراوغات مع الذين كانوا متسرعين لحتم الصفقة و الذين قد يبدوون بالتشكيك بقوة فرنسا أو على الأقل في نيتها بالاستمرار في إفريقيا.

كل شيء كان هادئا بضواحي العاصمة خلال شتاء 1833 - 1834 باستثناء الحجويين الذين لم يتوقفوا عن القيام بعمليات نهب متواصلة ضد سكان بني خليل و خاصة على حساب سكان الساحل الذين اعتبروهم أتباعا المباشرين. هؤلاء وجدوا أنفسهم دون دفاع منذ أن تم رفع معسكر الدويرة نظرا لقسوة موسم الأمطار و لافتقاره للمباني. كنا نظن أن بعض رسائل التهديد و الوعيد ستكون كافية لإيقاف عمليات النهب و السلب، لكنها لم تأت بأية نتيجة. في منتصف شهر جانفي تقرر الانطلاق نحو مزرعة حوش الحاج أين قيل أنه يتجمع فيها قطاع الطرق الأكثر عزيمة. تم تشكيل ركنية بقيادة دولا مورسيار و متكونة من أربع 4 فرق من الزواف و من مئات الأحصنة، انطلقت ليلة العشرين لهذه المزرعة التي تبعد بـ 14 ميلا⁽¹⁾. كان يجب على فرقة مشاة أن تدعم الفرسان الذين يقودهم مساعد معسكر الجنرال فوارول. لكن هذا الضابط لا يزال محتفظا بأفكار الحرب النهجية قليلة الاستخدام في هذا البلد. اضطر هذا الضابط إلى أن يترك

(1) أي 65 كم تقريبا حسب وحدة القياس القديمة.

كان يجب عدم تأخير مساعدات فرنسا مهما كانت نوعيتها أو حجمها.
كان هناك حلقة مفرغة في تلك المفاوضات المنطلقة أفقدتها معناها.
اضطر الجنرال فوارول استخدام مراوغات مع الذين كانوا متسرعين لحتم
الصفقة و الذين قد يبدوون بالتشكيك بقوة فرنسا أو على الأقل في نيتها
بالاستمرار في إفريقيا.

كل شيء كان هادئا بضواحي العاصمة خلال شتاء 1833 - 1834
باستثناء الحجوطيين الذين لم يتوقفوا عن القيام بعمليات نهب متواصلة
قد سكان بني خليل وخاصة على حساب سكان الساحل الذين اعتبروهم
أتباعا المباشرين. هؤلاء وجدوا أنفسهم دون دفاع منذ أن تم رفع معسكر
الديرة نظرا لقسوة موسم الأمطار و لافتقاره للمباني. كنا نظن أن بعض
رسائل التهديد و الوعيد ستكون كافية لإيقاف عمليات النهب و السلب، لكنها
لم تات بأية نتيجة. في منتصف شهر جانفي تقرر الانطلاق نحو مزرعة
حوش الحاج أين قيل أنه يتجمع فيها قطاع الطرق الأكثر عزيمة. تم تشكيل
ركبة بقيادة دولا مورسيار و متكونة من أربع 4 فرق من الزواف و من
مئات الأحصنة، انطلقت ليلة العشرين لهذه المزرعة التي تبعد بـ 14
ميلا⁽¹⁾. كان يجب على فرقة مشاة أن تدعم الفرسان الذين يقودهم مساعد
معسكر الجنرال فوارول. لكن هذا الضابط لا يزال محتفظا بأفكار الحرب
السهية قليلة الاستخدام في هذا البلد. اضطر هذا الضابط إلى أن يترك

جزءاً من جيشه عند أحد المستنقعات الصعبة المروءة ولم يستخدم في حرى ثقله العجلة اللازمة، فلم يصل إلا في الصباح ولم يتمكن من الإمساك بالصوص الذين تقطعوا لمقدمه و تمكنوا من الفرار، ولم يبق في حوش الحاج سوى النساء والأطفال الذين لم يتم إيداعهم. وفي طريق العودة من المزرعة أين أخذنا أسلحة وبعض الإبل، تعرضت الفرقة لهجوم من الحجويين، لكنها استطاعت العودة دون التعرض لخسائر في الرجال، فقط جرح بعض الخيول.

هذه الحملة الصغيرة، حتى ولم تحقق هدفها المسطر جعلت الحجويين على الأقل وبعض الوقت أكثر احتراساً و طالبوا أكثر من مرة بالهدنة التي اشترطنا دوماً لتحقيقها إعادة الماشية المسلوكة من بني خليل، ولكنهم لم يذعنوا أبداً. فاستغلينا حاجة هؤلاء إلى تأسيس هيكل إدارية للمنطقة، فقمنا بتقسيمها إلى مقاطعات و على رأس كل واحدة تم تعيين شيخ و تم توسيع هذه الإجراءات على كل من الخشنة و بني موسى. كان الهدف إحياء فكرة النظام الضائعة منذ أربعة أعوام. كان القياد بحاجة لقرض سلطتهم لموظفين أدنى منهم. كان الجنرال فوارول يتوي أن يمنح القياد والمشايع معاشاً و يمددهم شخصياً ببعض الفرسان الأشداء من أجل تبني خطة الموقف السياسي الذي وضعناه تحت أمين القارئ في القسم الثاني من المجلد السابق. تم رفض طلب تخصيص منحة للقياد المعتمد على قرار

رسمي من الجنرال كلوزيل Clauzel، من طرف الوزير. وفيما يخص تشكيل قوات عمومية في المواطن تم صد الفكرة لأنها غير حكيمة دون أن يتنازل فخامته بشرح ما يجعلها كذلك. و الشيء الوحيد الذي وافق عليه للقياد والمشايع المعينين حديثاً هو السماح بامتلاك بندقيات و تم فتح قرض خاص لهذا الشأن.

رغم رفض الوزير لم يتم إيقاف التنظيم الذي شرع العمل به، فتحصل القياد و جزء كبير من المشايخ على راتب. وفيما يلي تفصيل كيف تم ذلك: تم إنشاء - حسب المرسوم الصادر في 17 نوفمبر 1831 و بالرجوع إلى نص القرار الرسمي الصادر في 5 أوت 1833 - قسم كبير من الصبايحية الذين يعتبرون في خدمة دائمة عما يشكل رصيذاً بـ 80 فرنك في الشهر لكل رجل. و تم تسجيل أسماء القياد و المشايخ في ملفات. كل الحسابات المجمعة تم توزيعها بالطريقة التالية: 80 فرنك للقياد، 60 للشيخ و 30 للفارس البسيط و الذي تبين أن عددهم أكثر من المسجلين بالملفات. كان الجميع راضياً بهذا الترتيب والذي لم نر منه غير النتائج. إذا لم يكن هناك رتب للقياد و المشايخ كان سيوجد واحداً للصبايحية. فبمجرد تغيير في الأسماء تحصلنا على ما كان يمكننا الحصول عليه بتحكيم العقل. فيما عدا ذلك، على الرغم من رفض الوزير لاعتماد خطة العمل المقترحة، كان بوده أن يقوم أحد بعمل الشرطة في البلاد، بما أنه سمح بتشكيل الصبايحية. تم

تحقيق الهدف ولكنه كان سيصبح أحسن لو أعطيتنا امتدادا أكبر للإجراءات. ولكننا لم نرد تغطي بعض الحدود على أرضية صلبة من الجانب المعنوي والسياسي ولكنها خطيرة من الجانب الإداري. في سنة 1834 لم تعد المصاريف لهذا المشروع 3,000 فرنك للشهر بالجزائر العاصمة وعادة لا تصل 2,000 فرنك. بعناية أين يوجد منذ وقت طويل العصائحية منظمين حسب مرسوم 17 نوفمبر 1831 تفوق 15,000 فرنك.

بعد دفع مستحقات القيادة والمشايخ في المقاطعات المهمة بالنسبة لنا وتمكنهم من استخدام بعض الفرسان المدفوع أجورهم أيضا، بدأ إحساسهم بالارتباط الثام بقضيتنا وقاموا بأداء واجبهم بنشاط أكبر. ألقوا القبض على المجرمين وكانوا سببا في دخول البوليس للبلاد. تم احتلال معسكر الدويرة ثانية وسط شهر ماي، نهائيا⁽¹⁾ وبصفة دائمة واستعاد الحجوطيون نشاطهم، قرر القائد العام إنهاء الأمر معهم. بما أن ناس بني خليل وبني موسى وافقوا الانضمام إلينا، تلقى قيادهم الأمر بالتواجد في ليلة 17 ماي بجسر بوقاريك مع أكبر عدد ممكن من الأفراد. توجه الجنرال برو Bro نحو نفس النقطة بـ 2000 رجل من المشاة والفرسان وبعض المدافع. كان العرب ملتزمين بالموعد، وفي صبيحة الثامن عشر اخترقنا أراضي الحجوطيين، مسبقين بـ 600 فرد تابعين لنا بالبرنوس. توجه جيش

(1) هذا المعسكر تم وضعه في منطقة دون ماء، و تم تطويره بطريقة مبالغ بها جعل الخدمات فيه متعبة. هذا ما فعلته، بطريقة ليست جيدة، الهندسة العسكرية في إفريقيا.

الحملة إلى غابة كورازا Koraza المتواجدة بين واجر وبوزومي أين علمنا أن الأعداء قد قادوا قطيعهم. وصلنا هناك مساء، و تحصلنا على غنائم مهمة تركناها للتابعين لنا كتعويض عن الخسائر التي تكبدوها منذ أشهر. الحجوطيون الذين اعترفوا منذ البداية بعدم جدوى المقاومة لم يفكروا حتى في المواجهة. بعض القبائل وسكان شنوة المتواجدين بمساكنهم أطلقوا بعض العيارات على أفرادنا عند فرارهم. تقدم ابن سيدي علال، وهو مرابط، للتفاوض على السلام باسم الحجوطيين، و بما أنه لم يلتزم بتسليم رهائن ولا إعادة الماشية المسروقة، أكمل الجنرال برو هجومه. وفي الغد، عندما كان يهتم بتمشيط غابة كورازا، تقدم فارس إلى مقدمة الجيش طالبا التشاور. تكلم معه السيد فرجي و السيد بيليسي Pellissier - المعين حديثا بمكتب العرب -. قال باسم مواطنيه أنه إذا ما أردنا منحهم السلام فإنهم يتعهدون بتعويض بني خليل بشرط أن تنقص الماشية المسلوقة بالأمس من هؤلاء المطلوب منهم إرجاعها و مرابط القليعة سيكون حكما في المسألة. وتعهد كذلك بأن الحجوطيين سيقبلون بتعيين قائد يترأسهم من طرف القائد العام، هذا الأخير الذي قد عين أنقا "قويدر بن ربيحة" لهذا المنصب. نقلت الاقتراحات إلى الجنرال برو. هذا الأخير أراد أن يرى المبعوث شخصيا، و بما أنه تردد في العودة ذهب السيد فرجي إلى الحجوطيين من أجل

تخفيف ثقله. وبقي هناك طيلة فترة المحاصرة التي جمعت الجنرال بالمقاومين العرب. هذا الاجتماع كان دون نتيجة. لأن الجنرال أراد رهائن و الحجوطيين قالوا أنه نظرا لحالة الفوضى التي يتواجد فيها مواطنوه لا يمكنه فعل ذلك. لأنه وكما هو معلوم ليس لديهم قائد لتعيينهم ولا أحد سيتقدم تطوعا، فلما السب استأنفت العمليات الهجومية. تم تمشيط غابات كورازا بكل امتدادها ونحصل الموالون لنا على غنائم كثيرة فاقت قيمة تعويضات خسائرهم. ثم حرق بعض القرى كما حاولوا حرق المحاصيل الزراعية ولكن لحسن الحظ كانت لا تزال خضراء فلم تشتعل.

في اليوم الموالي تقدم مفاوض آخر ليس للتحدث عن السلام بل أحسن من ذلك، عن الاستسلام. اعترف الحجوطيون بقويدر بن ربيحة و تعهدوا بتحرير كل طرق الغرب. ولم تعد مسألة الرهائن واردة. تم الاتفاق على أن جيش الجنرال يروح إلى الجزائر، أطلقت عشرات العيارات على مؤخرة الجيش من طرف سكان حجوط المتعززين والذين كانوا يجهلون ما يحدث مع القبيلة، ولكنهم بمجرد أن تم إبلاغهم بذلك انسحبوا وأرسلوا شخصا للاعتذار.

إن هذه الحملة هي الأولى التي تنتهي بمفاوضات مستمرة مع المنهزمين والتي كان مساعدونا فيها عربا و استعمال الغنائم كان استخداما مطابقا للسياسة الحكيمه التي تبناها الجنرال قوارول منذ البداية أوضح ذلك أن العنالة وحدها هي من كانت تدفعه لرفع السلاح. هذه الحقيقة الملموسة

من الجميع زادت من مساندتنا.

أيام بعد عودة جيش الحملة إلى معسكره، تم تنظيم حفل كبير في البلدة، حضره كل من الحجوطيين و بني خليل لتقوية روابط السلام بينها من خلال كل المعاملات المكرسة في الدين و العرف. لذلك قام القائد العام بإطلاق سراح سيدي محمد، أشهر مرابطي القليعة المسجون بالجزائر منذ معركة بوفاريك لدى الدوق دو روفيقو ومن حينها عم هدوء شامل كل السهل. ولتوقع الاضطرابات المحتمل حدوثها في مواطن بني خليل، أراد القائد العام تعيين مندوب لفترة، يتمتع بصلاحيات تفوق صلاحيات القايد. فتم اختيار الباي السابق للبطري "بن عمر" الذي استقر بحوش كلاجي قرب الدويرة.

اعتبر الجنرال قوارول أن لا شيء يكفي لتعميم السلام بين العرب ولكنه كان يجب تعويدهم على رؤيتنا كأصدقاء بينهم. فقام بإرسال ضباط تابعين لمكتب العرب، دوريا إلى نقاط مختلفة من السهل من أجل معاينة وضعية البلاد، الاستماع إلى الشكاوى و دراسة حاجيات السكان. توجه مدير مكتب العرب و السيد إليجرو Allégro و هو شاب تونسي يتمتع بالشجاعة والذكاء، إلى سوق بوفاريك، لأول مرة منذ ظهور سيدي محمد بعد القبض عليه. كان قويدر بن ربيحة موجودا مع عدد كبير من الحجوطيين، هؤلاء السادة عرضوا عليه التوجه إلى الجزائر التي لم تطأها قدماء منذ ثلاث سنوات. عند ذلك ردد

الجزء الأول

الحجوطيون إسم "مسعود" الذي قطع رأسه في عهد دوق دوروفينو. فأخذ السيد البحرو الكلمة ليقتراح البقاء بينهم حين يذهب قويدر إلى الجزائر. فلقى كلامه استحسانا. استقبل قويدر بحفاوة من طرف القائد العام الذي كان معجبا بحكمته ووقاره وأسلوبه في الكلام. بقي لعدة أيام بالجزائر ثم تم نقله من طرف رئيس مكتب العرب إلى مقطع غبرة أين تواجد مرابط القليعة وخمسين من الحجوطيين. لقي السيد البحرو أحسن احتفال من مضيفيه.

هكذا أصبحت الثقة متبادلة بين الطرفين و كل شيء بدأ ممكنا. و الآمال المبنية - بحسبي أنا - للاستفادة من خدمة العرب للدفاع و النمو المادي للبلاد أدى بالقائد العام لإجراءات مستقبلية تم التخلي عنها في الأوقات التي تكرر فيها تفهقر العزائم و أقول أنها طبيعية عندما نعمل على دراسة عناصر جد صعبة مثل هذه الشعوب.

تم تفويض حراسة الحصون إلى السكان الفحص و تم تجميع قبائل العرب البدو المتفرقين في قبائل مختلفة من النتيجة في مزرعة لليلك براسوطة Rassoutha والتي تبعد بشيالي كلم عن الحراش لتشكل مستوطنة عسكرية. سطر الجنرال فوارول مشروع هذا التجمع في صيف 1833، لكن تطبيقه لبين زكري و الذي فشل تماما في ذلك.

إن العرب، كما تم التطرق إليه في المذكرة الإحصائية للجزء السابق، هم عرب أصولهم من الصحراء. جاءوا للاستقرار في سهول حمزة أين

تم طردهم من طرف أولاد ماضي منذ بضع سنوات. الكثير منهم لجأ إلى النتيجة. و بما أنهم لم يجدوا وسائل شرعية لمعيشتهم، أصبحوا في أغلبهم يمتنون قطع الطرق و بشكل عام أصبح تواجدهم بشكل كارثة حقيقية. و بتجميعهم في نقطة واحدة و إعطائهم أراضي لزراعتها على عاتق المصلحة العسكرية، تمكنا من وضع عناصر نظام فؤلاء المشردين الخطيرين. تم ذلك في شهر جوان 1834 وسمح للبدو بالزراعة لحسابهم في الأراضي الشاسعة لرامسوط، و بشكل أقل مراعي حدود الحاميز و تم تمويلهم بالمحارث و سلفة على شكل بلور. كان مشروع الجنرال فوارول يتمثل في إدخال طرقنا الزراعية شيئا فشيئا و جعلهم قبيلة مثل بفضل الرفاهية التي تحظى بها فتعطي للآخرين الدليل على تميز طريقة عملنا و سلاسة قوانيننا. تم تعيين بن زكري قائد للعريب تحت إشراف مكتب العرب، تعهدوا من جهتهم بحمل السلاح كلما تطلبت حالة الدفاع المشترك و إقامة الحراسة بالبرج البحري و الحراش والقيام بدور الشرطة في هذا الجزء من السهل بواسطة إقامة دوريات بانتظام.

لدى غاية الآن، قاموا بالالتزام بعهودهم مما جعلنا نهلل لذلك، و لكن من أجل التخلص من ماضيهم كان من الواجب العفو عن كل أعمال النهب الماضية و منع كل متابعة للأعمال السابقة لهم.

رغم أن استقرار البدو يراسوطة لم يحصل على التوسع المرجو والمسطر حسب وجهة نظر الجنرال فوارول، إلا أنه يعتبر من بين الأعمال المميّزة لإدارته. بينما بعض الأشخاص ذوي الأفكار الضيقة تمكنوا لفترة من التشكيك في قناعته من حسن هذا الإجراء. هؤلاء الأشخاص لم يفهموا كيف يستطيع الطموح من جعل أناس من لصوص العرب أشخاصا مستقيمين. إنه لمن المؤكد أنه بالنظر إلى ما يحدث في أوروبا فإن التغير في الاتجاه يتقبله العقل بسهولة أكبر.

نظرا لتوطد السلام والثقة أكثر فأكثر، أعلن في قرار رسمي أنه من الممكن للأوروبيين زيارة هذه المروج للترفيه أو للأعمال دون مخاوف وأنه بالرغم من ذلك يجب عليهم التقدم إلى مكتب العرب الذي سيمنحهم برسائل تركية لمشايخ الأقاليم الذين سيمنحونهم بدورهم بمرشدين مسلحين. هذا الإجراء رحب به الأوروبيون والعرب. قام الكثيرون منهم بالتجول في السهول في كل الاتجاهات، وقادت سيارات فرنسيين حتى سفوح الأطلس أحجار الرخى لمُرابط كان بصدد بناء مطحنة.

قام ناس من مواطني الحشنة بعملية سرقة، أدت بالدرك للتوغل بعيدا لإيقاف المذنبين. وأخيرا أراد النائب العام لملك الجزائر التنسيق في السهل، فقام بعملية اعتقال بنفسه في موطن بني موسى.

فاق كل ما توصلنا إليه منذ تعميم السلام مع المحجوبين كل

التوقعات، ففكرنا في إقحام بعض الأوروبيين في الأسواق العربية. نتيجة لذلك، قضى رئيس مكتب العرب ليلته في الدويرة يوم 22 جوان لينتقد في اليوم الموالي إلى سوق بوفاريك مع الكثير من المدنيين. ولكن هذه الخطوة لم ترق لبين عمر الذي كان يتطلع إلى منصب الأغا، الذي لقبه به أتباعه بشكل مسبق. كان يعاني من رؤية التأثير المباشر للفرنسيين على العرب، لذلك كتب للقائد العام بأنه يعرف بطريقة مؤكدة، أن الأوروبيين الذين يذهبون إلى الأسواق معرضون إلى خطر كبير، و تبعاً لهذا التقرير الخاطيء، أرسل الجنرال إلغاء للقرار، تلقى رداً عليه من طرف رئيس مكتب العرب الذي ذكر فيه معلومات إيجابية عن الأجواء السائدة وعن النوايا السيئة لبين عمر.

كان محاطاً منذ الرابعة صباحاً بأكثر من 100 فارس عربي خرجوا لملاقاته ولكنه انصاع لأمر الجنرال وعوض ذهابه إلى السوق توجه إلى مزرعة قائد بني موسى أين قضى ليلته. خلال السهرة، جاء قايد بني خليل وثلاثين فارساً ليخبروه بانتظارهم له مطولاً ببوفاريك وحين تقدم لهم بين عمر، تم استقباله ببرودة. وهو الذي ظن أن العرب سيعجبون به بعد الرسالة التي وجهها إلى الفرنسيين ولكنهم ردوا عليه بأنه كان مخطئاً لأنه يمان المسلمين مرحب بهم في أسواق المسيحيين فلم لا يحدث العكس وهذه النتيجة المنطقية أحبطت بين عمر. ولكن لسوء الحظ، أولئك العرب

الذين استسلموا الفكرة رقيتنا وسطهم، بعد أن رأوا ترددتنا وكذلك عند أهم أعواننا ميولا عدايتنا للنظام الذي نحن بصدد تبنيه، استعادوا الأمل في إبعادنا من جديد. هؤلاء المعارضين كانوا عامة من كبار القبائل الذين كان من مصلحتهم أن لا نكون شهودا على بعض المضايقات التي كانوا يعملونها لأفراد شعبهم. لذلك في الاثنين التالي و بعد تأكد القائد العام من هتان تقارير بن عمر، توجه رئيس مكتب العرب إلى سوق بوفاريك مع بعض الأوربيين⁽¹⁾ الذين تم استقبالهم بشكل جيد. دام هذا لفترة.

أظن أن القارئ الذي وصل إلى هذا الجزء من كتابي قد تعرف بما يكفي على العرب لكي لا يتعجب من الأهمية التي أوليها بسبب التردد الحر والودي لأسواقهم من طرف بعض الأوربيين.

خلال شهر جويلية الجاري، بدأ الجنرال فوارول بعملية جد فعالة و هي الاعتراف بمزارع البيلك في مواطن بني خليل و بني موسى و الخشنة. إنها عملية أسفرت عن تحديد موضع 19 ملكية رائعة كلها قادرة على العطاء الكبير. قام بهذه العملية كل من السيد بيرنادي Bernadet مراقب الأملاك و رئيس مكتب العرب. موقع كل مزرعة تم تدوينها و الإشارة إليها على خريطة للبلاد من طرف المسؤول الطوبوغرافي. تم كراء أغلب

(1) هؤلاء الأوربيون من المدنيين كانوا: السيد فيلار realaiV، تولناك Tolnac، غريلي Grillet، مونثلي Montagne و كوردوني Cordonnier. أنكر أسماءهم بكل سرور خلاصة السيد فيلار Vialar الذي كان ملقبا و مستوطنا نشيطا و الذي كانت أفكاره و أفعاله ترمي لمصلحة البلاد.

هذه المزارع بأسعار زهيدة للعرب الذين كانوا يسكنوها سلفا دون وثائق رسمية، لمدة عام فقط من أجل تثبيت ملكيتها لها في أعين الجميع، ومن المهم الإشارة، إلى أن سيعا من المزارع التسعة عشر تشغل منطقة تمتد على نحو 20 كيلومترا وسط النتيجة، و الذي يتمركز في وسطهم سوق بوفاريك و هي من الشرق إلى الغرب: حوش بن صالح، حوش بن خليل، حوش بوعاقب، حوش شاوش، حوش سوغالي، حوش بولاجورة، حوش ميمون و الذي لا يملك البيلك إلا نصفها، تتميز تربتها بخصوبة مميزة، مخضرة و غنية بالماء و كلها ذات حداث شاسعة و مزارع يرتقال بمنازة. و هل تضاهي تلك المحلات و الأكشاك بالجزائر العاصمة و الممتلكات الوحيدة التي تطرق إليها من سبقوني للإحصائيات الجزائرية هذه الخيرات؟ وبالتأكيد، هذه هي طريقة تأسيس مستوطنات عسكرية و زراعية جميلة و هذا دون التعدي على مصالح السكان المحليين، لأن هذه الأراضي ملك للحكومة فلا يستحسن انتزاعها كما حدث في القبة و دالي إبراهيم.

غير أنه من بين هذه التسع عشرة مزرعة، يملك البيلك حسب علمي، أربعة منها في حجوط و ثلاث (03) بسوماتا و واحدة شاسعة ذات بناء حجري ضخيم في بئر. لا ميل للشك بوجود أخرى في نقاط مختلفة من المقاطعة مستكشفها مع توسعنا داخل البلاد و يوجد قدر كبير للبيلك بوهران، من جهتي، رأيت الكثير منها كان عبد القادر يستغلها لفائدة ملكيته. كان الأتراك

يستفيدون كثيرا من هذه الأملاك التي كان لهم فيها قطعان الماشية وكل ما يحتاجه الاستغلال الزراعي على العموم. كان للحكومة على كل واحد من هذه الأملاك وكيل أو مسير. هذه الوظائف كانت أشرف وأحسن منح تقاعد للقياد القدامى.

طوال هذه العملية التي قمنا بذكرها وما نتج عنه من استبعاد لرئيس مكتب العرب، استطاع بن عمر الذي كان لا يزال يشغل منصبه في مواطن بني خليل أن يقبل ابن بوزيد بن شعاوة الذي كان غير مؤهل، وعين بدله العربي بن إبراهيم شيخ بني صالح، الذي كان قائدا فيما سبق. لقد كان رجلا ذو جدارة ولكنه كان يتمتع باستقلالية زائدة كان من اللازم أن تبعده من وظيفته. أول عمل لإدارته كان إعلائته للفرنسيين الذين توجهوا إلى السوق لأول مرة يرأسه فيها، أن تواجدهم ببوفاريك يعتبر إعلائنا للحرب وأنه لا يمكنهم التواجد هنا إلا كأعداء. دعم مئات الفرسان كلام القايد، باستعراض أقل ما يمكن القول عنه، أنه كان عدائيا. يومين بعد ذلك كتب إلى القائد العام يشرح له أنه كان مجبرا على الظهور متبنيا شعور الأغلبية من أجل إنقاذ الفرنسيين ونفادي سوء أكبر. كان العربي يقصد بالأغلبية مشاعر بعض الكبار ونفسه. وفي الباقي أضاف أنه إن أردنا أن نواصل التردد على سوق بوفاريك كل اثنين يجب إرسال فرق لتعمل عمل الشرطة. هذا ما كان يجب فعله ولكننا فضلنا التراجع خوفا

من نفور بعض العرب المدعومة بمكائد بن عمر. قام هذا الأخير، عندما تم بحفة غير مباشرة طرد الفرنسيين من السوق، بلقاء سري مع العربي في الجسر الأول في بوفاريك. بعد عامين متتاليين، أفقدتنا الشتائم التي لم نتقم منها كل ما توصلنا له بواسطة السياسة السلسة والمقنعة والتي أصبحت عاجزة منذ اللحظة التي أصبحت فيها بحاجة إلى استخدام القوة.

لما حدث في بوفاريك وصبرنا على تحمله قد أضحك أعداء تفوقنا، وأوقفوا بكل بساطة بحركتهم اللافتة للانتباه الذين كانوا من المتوقع انضمامهم إلينا. تحجج قويدر بن ربيعة من أجل عدم القدوم إلى الجزائر. كان من المحتمل كذلك استئناف الحجوطيين لقطع طرق الغرب لولا تدخل المرباط محمد و تهديده لهم بلمعتهم و انسحابه إلى الجزائر إذا ما تسبوا بأي شيء. قد يقضي على السلام السائد. لم يتجرأ الأوروبيون على التوسع داخل البلاد، مما يعني حدوث تفهقر محسوس. وأخيرا فهم القائد العام نوايا بن عمر الخفية، الذي اختفى من جديد عن الأنظار ولم يظهر، ولكن الأسوأ كان قد حدث.

وطلب من السكان عين القائد العام، العربي بن قاية قايد الخشنة، بدلا عن الموكلي، الذي تزامنت وفاته مع هذه الأحداث.

(1) السيد جنتي دو بيسي Genty de Bussy الرجل العاقل الذي تميز في بعض الأحيان بالحكمة حينما لا تضيقه أهواءه، سمي هذه الواقعة واترلوو Waterloo نسبة العربية وكان على حق.

مرشهر ألوت وسبتمبر دون أحداث مهمة في ضواحي الجزائر، وبالتيطري، بدأت بعض الجهود للخروج من حالة الفوضى، و لكم ما حدث في تلك المنطقة. بالمدينة، تمكن مناصر وأحمد باي ذوي الأغلبية المشكلة من الكراغلة من الاعتراف بحاكم للمدينة وهو محمد الحاجي الذي كان برتبة ملازم لدى باي قسطنطينة. أما الموالون لفرنسا فقد كانوا محبطين فلم يعترضوا علانية على هذا التنصيب ولكنهم أعلموا القائد العام كما كان هذا عدائيا لنا وتأملوا في أن نوضح وبشكل نهائي إذا ما كانت فرنسا تريد أو لا تريد المدينة. ولقهم هذا الكلام، من الضروري معرفة أن بن عمر، الباي السابق للتيطري، الذي وضعناه نحن، لا يزال لديه علاقات مع أصدقائه القدامى في المدينة والذي راعي توجيه أفكارهم نحو أن الفرنسيين لم يتخلوا عن فكرة فرض سلطتهم وسلطانهم على هذه المدينة. في الشتاء السابق، كانت قد بدأت فعلا بعض المفاوضات في هذا الاتجاه ولكنها لم تتوصل إلى شيء ولا يمكنها ذلك بالعودة إلى الأسباب التي شرحناها بالتفريق إلى قضية قسطنطينة.

أياماً قليلة بعد وصول رسالة ناس المدينة، تلقى الجنرال فوارول رسالتين من صاحبتين تابعتين للإقليم. الأولى من العباددة والدوائر من البرواقية، الذين يشعرون إقحامهم مع القبائل الأخرى فلم يعودوا يتمتعون بالمزايا التي تستحقها مرتبتهم عند البايات السابقين، فعرضوا لخدمتهم على فرنسا في حالة ما إذا أرادت تشكيل حكومة من اختيارها

في التيطري. الرسالة الثانية كانت من عودة المختاري، شيخ أولاد مختار الذي اشتكى من حاكم المدينة محمد الحاجي وقدم عروضاً في نفس السياق بالاشتراك مع: جللول شيخ أولاد عيد، بن شارة شيخ النبان وهو نسيب الباي السابق بو مزراق، و جديد شيخ أولاد شايب، كل قبيلة مستقلة من وسط إقليم التيطري. تم الرد عليهم بضرورة الاتفاق للخروج باقتراحات يمكن استعمالها كقاعدة لمفاوضات رسمية. كان التفكير يصب من جانبنا في أن بن عودة المختاري هو من كان يجب تنصيبه بايا على التيطري، لأنه الشخص الذي يملك القدرة الفعلية مسبقاً وهو من سبلاقي أقل الصعوبات. لكن هذا الرجل يعتبر أن هذا اللقب سيخلق غيرة عند الذين لا يزالون في نفس رتبته وأن ذلك سيجبره على الاستقرار في المدينة أين كان يخشى وجود أعداء. وربما أيضا عدم رغبته في الالتزام معنا ما جعله يقرر في اجتماع أقيم في بني بوعقاب واقتراح فيه على القائد العام "بن عمر" بايا، حيث أنه قد سبق له أن تعين في هذا المنصب من طرف الجنرال كلوزيل Clauzel مما لا يستدعي إثارة للغيرة، وأن هذا الباي سيستقر بالمدينة وأنه لا يمكنه التكلف بالأمور الخارجية إلا بواسطة بن عودة الذي سيكون آغا تابعا له. ونتج عن هذا الاجتماع كذلك أن قبائل الدواير والعباددة يستأنفون وظائفهم السابقة وأنه سيتم تسليم رهائن لضمان هذه الاتفاقية. وأخيرا، توصلنا للفرنسيين أن يأتوا

إلى مزرعة حوش شاوش بموزاية، من أجل استلام الرهائن و البقاء في هذا الموقع أثناء مجرى الثورة، بغية القرض على المنشقين عن طريق هذا العرض.

لم تتم أبداً مفاوضات مع الأقاليم بهذا الشكل الواضح، و لكن كان يجب توفر المال لإعطائه لبن عمر الذي بطبيعة الحال لن يخوض في هذا الأمر دون مبلغ مقدم. يُعرَف أن العرب يدفعون العشور و لكن كبدية، كان من اللازم تسليم دفعة أولى و هذا ما لم يكن متوفراً. بن عمر أراد اقتراض 30,000 فرنك باستعمال بعض الإمضاءات التي لم تكن تسمح بها تشريعاتنا المالية إعطاءها بهذا الشكل. هذا ما أعاق إتمام هذا الأمر. نحن على أبواب شهر سبتمبر، كان الكونت درلون d'Erlon الذي عين محافظاً للممتلكات الفرنسية بشمال إفريقيا، على وشك الوصول و كان من الطبيعي أن يسلمه الجنرال فوارول مقاليد القيادة و أن يترك له استمرارية المفاوضات بالطريقة الملائمة بالنسبة إليه.

سأقوم هنا ببعض الملاحظات الجديدة عن علاقاتنا الدبلوماسية مع العرب، القارئ يمكنه إضافتها إلى تلك التي قدمناها آنفاً. التعلق الكبير بهذا النوع من المفاوضات يؤدي غالباً إلى التعرض إلى أوهام، و لكن صدقاً كلياً يسمح بمساوئ أكثر خطورة، وهي خسارة أسباب ظرفية

و مفيدة معروضة بنية طيبة من أجل فك ما هو زائف عن ما هو فعلي. يجب وضع أعوان في الميدان مخلصين، ذوي كفاءة، تيرين و ماهرين في تغيير الرغبات الضعيفة للعرب في بعض الأحيان إلى قرارات راسخة و إظهار بطريقة واضحة و دقيقة فوائد التحالف معنا، و لكن للحصول على هؤلاء الأعوان و لتمهيد الطريق لهم و وضعهم في مكانة تسمح لهم بالتقدم بجدارية إلى الأقاليم التي سنرسلهم إليهم، يجب توفير الأموال، و في إفريقيا لم تتوفر لمثل هذه الأشياء⁽¹⁾. صحيح أننا ندفع للإدارة المدنية التي تكلفنا 500,000 فرنك كمعاشات من أجل تجمع سكاني لا يفوق الـ 50,000 فرداً، و لكن المصاريف الدبلوماسية يجب أخذها من رصيد بسيط بثلاثين أو أربعين ألف فرنك و الذي يجب أن يغطي حاجيات علاقاتنا مع القبائل الخاضعة. فبقليل من المال كان بإمكاننا تثبيت بالمدينة و مليانة حكماً تابعة لفرنسا، و تفادي تسلط عبد القادر و الابتعاد عن كل مصاريف تدفعها الدولة للتهجم على هذا الأمير.

(1) في الصف الأول من الأعوان الممكن استخدامهم اذكر السيد فرجي و ألجرو Allegro. هؤلاء لن يقبلوا سوى بالرتب و الأوسمة و لكنهم لا يستطيعون القيام بالدبلوماسية على حسابهم الخاص. معهم ستكون متأكدين من حسن نية العلاقات. و بالنسبة للأعوان النصارى الدبلوماسيين و أنصار المفاوضات فيجب فصل الأمور حسب مكانة كل واحد. و لعدم فعل ذلك، تم تظليل الكونت ديرلون d'Erlon من طرف اليهودي توراند Durand. هذا لا يعني أنه ما كان يجب توظيف هذا الأخير فقد كان رجلاً حاذقاً. أحمد بو ضربة أيضاً ممن يمكن استخدامهم إذا ما تعلق عن كل المعاكسات التي ستقضي عليه. و السيد بوشناق Busnac إسرائيلي، فرنسي أكثر منه جزائري و هو أكثر واحد من السكان المحليين الذين يمكنه إقناعنا

ولكن لا يجب استباق الأحداث بل بالعكس يجب العودة بخطواتنا لتعريف القارئ بالأحداث التي عرفت شرشال صيف 1834.

استلم قائد هذه المدينة محمد بن عيسى البركاني منصبه من الجنرال كلوزيل Clauzel. كان رجلا عاقلا وله علاقات طيبة معنا و يدعم التجارة بين شرشال والجزائر، أما بالنسبة لنا لم نهتم به كفاية، لأنه كان هناك شيء نستطيع القيام به في تلك الناحية وجعل العلاقات مكثفة وأكثر ودية. كان للبركاني أعداء رغم تعقله واعتدال حكومته. هؤلاء كانوا يتظرون بشغف بعض بذور الاستياء وجدوا واحدة صيف 1834 : قام القائد نظرا لاستعجال حاجيات الإدارة وخاصة بالإصلاحات على مستوى الميناء، بفرض ضريبة صغيرة على البواخر المعبأة التي تخرج من هناك وبسرعة انتشرت البلبلة بين الرياس⁽¹⁾ وعمت الفرحة عند أعداء القائد. تم دفع السكان إلى الثورة ولكنهم لم ينصاعوا فغير أعداء البركاني من عطلتهم ونشروا شائعات عن إقالته من طرف قاضي الجزائر ولم ينخدع بهذه الكذبة النكراء إلا القليل، ورأى القوضويون أن لا وسيلة لديهم من أجل النجاح سوى إجبار عدوهم ببعض الحيل على التخلي بمحض إرادته عن الحكم. لذلك همسوا لبعض الأشخاص بفرض نشر الخبر أن شكاوى خطيرة قد قيدت ضد القائد العام. عندما

(1) لمملكة البحر.

انتشرت هذه الشائعات جيدا و انتهى الوقت الضروري لتحصلنا على إجابة من الجزائر أذاعوا أن الجنرال قرر إرسال باخرة حرب إلى شرشال لإيقاف القائد. بدأ البركاني بالارتباك وفي هذه الظروف أرادت الصدفة أن تمر باخرة بخارية كانت تعمل على خط الجزائر - وهران، ظهرت على طول الساحل وأقرب من العادة توحى و كأنها متجهة إلى شرشال ومن هذا المنظر لم يشك القائد في حقيقة تأكيدات أعدائه فلاذ بالفرار إلى قبيلة بني مناصر التي ينتمي إليها وهو رئيسها. وجد المشاغبون أنفسهم التحكمين في المدينة فطالبوا بإزاحة محمد البركاني من منصبه. وخشية من غضب قبيلة بني مناصر أين كان موقرا عندهم قاموا بتسمية فرد آخر من هذه العائلة كقائد. هذا الترتيب لم يوقف غضب بني مناصر الذين جاءوا لحصار المدينة. سكان شرشال دافعوا عن أنفسهم ولعدم توفر الذخيرة اللازمة أرسلوا إلى الجنرال فوارول للاعتراف بالقائد الجديد. لم تلق هذه الأحداث الصدى الإيجابي في العاصمة، ورأوا فيها عملية إغصاع للمدينة لم يكن لهم معنا أبدا علاقة من هذا النوع. في المقابل وعلى العكس، تم طرد القائد الذي اخترناه. تم تموينهم شيئا فشيئا بالذخيرة التي وُعدوا بها. كان الجنرال لودوقرو Doguereau، المفتش العام للمعدات، موجودا في ذلك الوقت بالجزائر. وتدخل في هذه القضية،

الجزء الأول

لا أدري بأية صفة، ولكن بما أنه كان سيقضي بضعة أيام بوهران، كان متيقنا أنه عند عودته سيتوقف بشرشال من أجل معالجة الأمر كما يراه مناسبا. هذا الضابط العام الذي كان يتوهم أن هذه الأحداث تعتبر ثورة لصالحنا. أخذ من وهران قطعتي مدفع ليقدمهم لحلفائنا الجدد كهدية. ولكن عندما رست السفينة البخارية بمرفأ شرشال، رفضت السلطات الجديدة للمدينة التي جاءت إلى طرف السفينة أن يرسل الضابطين اللذان أراد إرسالهما على الأرض من أجل استطلاع الأمور في المدينة، تغيرت نواياه و تراجع عن فكرة عمله السخي.

بعد وقت قصير، عم السلام بين شرشال و بني مناصر المتعين من انقطاع أعمالهم التجارية. كان البركاني أول من دفعهم شخصيا إلى وقف الأعمال العدائية. مع إبقائه لإتباع له بالبلدة لاستخدامهم و تغليب الفرنسيين. كتب في هذا السياق للجنترال فوارول رسالة متعلقة أين شرح فيها تصرفه و أنه كان بعيدا عن كل ملامة. جاء القاضي و مفتي شرشال اللذان رحلا من البلدة في نفس الوقت معه، شخصيا إلى الجزائر للدفاع عنه. اقترحا بأن قرارا صارما من الجنرال و مجرد عرض يكفيان لإعادة فرض سلطته.

وصلت الأمور إلى هذا الحد عندما وصل الكونت ديرلون d'Erlon للمستوطنة، و حسب التقارير المقدمة له، أصدر على الفور أوامر بإعادة البركاني إلى منصبه بشرشال بكل الوسائل اللازمة. لكن تم دفعه إلى تغير

قراره و تم الاتفاق على إرسال ضابط إلى عين المكان من أجل معرفة
 التواقيع الفعلية للأهالي. فتم إبلاغ سكان شرشال بذلك و أعلمناهم أن
 عملية تموينهم بتلك الذخيرة لا يجب أن تؤثر على القضية الأساسية.
 كان المتحكمون بالمدينة قد غيروا القابض الحديد و عينوا مكانه قائد ثالث
 عند وصول الضابط⁽¹⁾ المكلف بجس نبض السكان. كانت الأشياء
 مهيأة بصفة تكون الغالبية المكثفة تشكلت ضد البركاني داخل المدينة.
 كنا نعلم مسبقا أن الحملات كانت لصالحه و لكنه استسلم عندما اختار
 أهل المدينة غريمه. كان ذو ثقة زائدة في هذه القضية بحقه الشرعي، فلم
 يعرف كيفية يجند أتباعه اللذين كان عددهم كبيرا في الأصل و تقلصوا إلى
 ثلث مجموع الأهالي. أظن أنه كان بإمكاننا استغلال حاجته إلى دعمنا من
 أجل التمرکز بشرشال بوضع بعض الكتيبات بالقصرين، بموافقة بني
 مناصر. فهذه المدينة ستكون نقطة إنزال مميزة لفرق تستطيع الانطلاق
 من هناك لأجل التغطية الكاملة لكل غرب إقليم الجزائر و كل الحملات
 المنطلقة من العاصمة يمكنها التوقف لإعادة التزود بالمؤن.

لقد قمنا - على حساب الأجزاء اللاحقة من هذا الكتاب - بالتطرق
 إلى الأشياء التي حدثت في حقبة الكونت دبرلون d'Erlon و لكننا
 أردنا إتمام ما له علاقة بشرشال.

لقد قمنا بتقديم الأعمال السياسية و العسكرية لقيادة الجنرال فوارول

وكل ما حدث تحت قيادته في إقليم الجزائر. في الكتايبين التاليين مستكمل عن أحداث بجاية وهران، اللتان بقيتا غريبتان عنه وعن دور الأعمال الإدارية المدنية.

رغم كثرة الأخطاء، لا زالت تعتبر إدارة الجنرال فوارول من سمحت بالتقدم في علاقاتنا مع العرب مقارنة مع إدارة الدوق دو روفينو، أثبت أنه إن كانت مهالفة في الصرامة أو الضعف فإن الثانية هي التي تحقق النتائج الأقل لئلا سلطنا. هذه الحقيقة - التي لا يمكن نكرانها إلا من طرف الذين لم يتبعوا الأحداث - هي مواسية للإنسانية و تشرف الطابع العربي للشؤون بطريقة غريبة. ولكن يجب استنتاج أن الطريقة ليست وحدها ما يجب استعماله؛ عقل، طيبة، قوة و عدالة يجب أن يكونوا أسس سياستنا.

الكتاب 13

الجنرال ديميشال Desmichels بوهران - حملة ضد الغرابة les Grabs - معركة تحت أسوار وهران - احتلال ميناء أرزيو - احتلال مستغانم - حملة طغراوي - لجنة إفريقيا بوهران - الغدر بقندور بلرزيو - حملة تامزورار Temezourar - مراسلات الجنرال ديميشال مع عبد القادر - معركة 6 جانفي - مفاوضات الصلح - معاهدة الصلح مع عبد القادر - حرب عبد القادر ضد الدواير و الزمالة - أثر الكتلستان - طموح عبد القادر في إقليم الجزائر و التيطري - أحداث بجاية.

وصل الجنرال ديميشال Desmichels، خليفة الجنرال بوير Boyer لقا وهران يوم 23 أبريل 1833 أثناء تولي الجنرال أفيزار Avizard الحكم بالنيابة بالجزائر، يعني في ظروف جد ملائمة لإتمام نظام الاستقلالية الذي اعتدده سابقه و الذي تبناه ما عدا ذلك فلم يقد الجنرال بوير Boyer إلا في ذلك، لأنه بعد بضعة أيام من وصوله أثبت أن نوابه لم تكن انتظار التعرض لمخومات من العرب في وهران و لكنه مصمم على الذهاب لبحث عنهم في عقر دارهم. فذهب في ليلة 7 إلى 8 ماي بما يقارب 2000 جندي و 4 مدافع للجيال، و توجه نحو قبيلة الغرابة في الجنوب الغربي لورهران. وصل عند بزوغ الفجر إلى وسط بعض عداشر هذه القبيلة و عندما بالغتوا العرب على حين غفلة، هؤلاء لم يبدوا أية مقاومة. وقد تم

الجزء الأول

٤١ - بغداد

أخذ كمية معتبرة من الماشية، وبعض المساجين و بعض النساء اللواتي تم أخذهن إلى وهران و عوملن بالاحترام اللازم. في الوقت الذي كان الجيش يتأهب إلى الانسحاب تمت مهاجمته من بعض مقاتلي المداشر المجاورة اللذين هبوا لنجدة رفاقهم، و لم يتم إرباكها و لكن العرب تابعوها حتى مشارف وهران أين ولجت بالمساجين و الغنائم التي كسبتها. لقد ساهم لحم الماشية في التموين حيث كانوا يفتقدون للحم الطازج، منذ شهرين. بعد سماع عبد القادر بالجولة التي قام بها الجنرال الفرنسي، جمع أكبر قدر من الأفراد و تمركز بمكان يسمى "الكرمة" يبعد حوالي 12 كيلومترا عن وهران. أين قمنا منذ ذلك الحين ببناء معسكر ذو خندق. لقد كان برفقة والده سيدي محي الدين، الذي كان - كما عرفناه سابقا للقارئ - ذو قيمة و مكانة معتبرة عند العرب. و فور إعلام الجنرال ديميشيل بهذا، قرر التحرك ليلا لمباغته معسكر الأفارقة. فخرج من الميدان في 26 ماي قبل الصباح من أجل تحسيد مشروعه الجريء و الذي كان من الظاهر أنه سينجح. ولكن الأشخاص الأقل شجاعة أو دعنا نقول الأكثر حذرا قاموا بشية عن ذلك. و بها أنه كان جديدا في البلاد كان يظن وجوب الرجوع إلى نصائح الذين يُظهرون معرفتهم الكبيرة بالعرب بها أنهم كانوا يحاربونهم منذ مدة أطول. في الأخير، نتيجة لذلك تخطى عن مهمة كان من الممكن أن توقفت التطور الذي بدأ يأخذه عبد القادر و أخذ مكانا في مقدمة الميدان على

طريق الكرامة و كأنه يتقدم لمنازلة الجنرال الإفريقي (الأمير عبد القادر).
هذا الأخير اكتفى بإرسال عناصر استطلاع عند طلوع الصباح. فحدث
تبادل إطلاق النار. كان الموقع الذي يشغله الفرنسيون تلاً عالياً أمام برج
سانت اندريه في الجنوب الشرقي للمدينة، يغطي كل السهل مما يجعله جد
مهم و ملائم لإبعاد العدو عن الميدان. لقد درسه الجنرال ديميشيل جيداً
ثم قرر أن يضع حصناً هناك. شرعنا على الفور بالأشغال التمهيدية و لما
انتهت، عاد إلى وهران مع فرقته.

قام في صباح 27 من نفس الشهر بإخراج عشر فرق مشاة و فيلق قناصة
و اثنين من المدافع الجبلية من أجل حماية المعقل الذي بدأ المهندسون في
بنائه. لم يتأخر المحاربون العرب في الظهور و الدخول في مشادات عنيفة مع
هذه الفرق. منذ الطلقات الأولى، نزل الجنرال ديميشيل إلى أرض المعركة
أمن لاحظ أن جيش العدو يتقدم في ركيزتين نحو الموقع الذي يشغله
الفرنسيون، واحدة منها كانت تبحث في الحقيقة الإحاطة بها و الاقتراب
من المدينة. على إثر ذلك، أرسل إلى الجنرال سوزات Sauzet - الذي بقي
بوهران - أمراً بعمده بكل الفرق التي لم تكن ضرورية لحراسة الحصن و
هذا ما تم تطبيقه مباشرة. و بمجرد وصول هذا الدعم حتى بدأ الهجوم
الذي كان شديداً وقوياً، لكن هجمات العرب كانت من دون جدوى و من
السهل قمعها. بدأت إحدى الكتائب باللف يميناً عن الخط الفرنسي ثم

قطع طريقها من طرف فيلق القناصة. دام الاشتباك ساعات طويلة ولم يكلف سوى ثلاثة قتل وأربعين جريحاً من الجانب الفرنسي. تكبد العرب الكثير من نيران أسلحتنا. دفع عبد القادر خلالها بشخصه ككل مرة، لكي اضطر للتنازل بسبب تفوق الأسلحة والعتاد.

خلال المعركة تمّ الإسراع في بناء الحصن، وكان جاهزاً قبل حلول الظلام و عاد الجيش إلى وهران بعدما ترك فيه كتيبة تتكوّن من أربعين رجلاً، كما انسحب العرب إلى معسكر الكرامة. أثناء الليل، أرسلوا من يستكشف هذا الحصن المرتجل والذي رأوه يعلو بطريقة ساحرة ولم يجدوا له تفسيراً لاستخداماته. اقترب الذين تم اختيارهم لهذه المهمة، أولاً بحذر من السياج الذي كان يحمي الحصن و قاموا بفحصه من كل الجهات، و أخيراً قام أحدهم الأكثر دهاء من الآخرين بتسلقه و تقدم لرؤية ما يحتويه هذا البيت الخشبي أين كان كل شيء صامتاً لأن الجنود تلقوا الأوامر بعدم إحداث أي صوت و انتظار أن يكون عدد معين من العرب بين السياج و المعقل من أجل إطلاق النار. و في انتظار الوقت المناسب كانوا كلهم منبطحين على لوائح البناء بشكل لم يمكن للعرب رؤيتهم، وبدأ بالضحك و مناداة رفقاته و لكن في هذه اللحظة، قام أحد الجنود بإطلاق النار عليه فقتله، تبعته 39 رصاصة أخرى، مما جعل العرب يفرّون. بذلك عرفوا دور المعقل.

ألفت الأمطار الغزيرة في الـ 28 و 29 كل عملية عسكرية. وفي ليلة الـ 30 هاجم العرب المعقل بقطعة مدفعية صغيرة لم تتمكن إلا من إطلاق ضربة واحدة فقط و هذا الهجوم كان دون نتيجة. في الـ 31 رفع الأمير عبد القادر معسكره بالكرمة و أخذ طريق العودة نحو معسكر مقتنعا بعدم جدوى تقدمه نحو وهران.

رغم إنشاء المعقل الذي تحدثنا عنه و الذي أخذ إسم معقل "أورليون" و رغم النتيجة الايجابية لمعركة الـ 27 ماي، أكملت بعض الفرق العربية الجولان حول وهران من أجل إبعاد الذين أرادوا جلب بعض المواد الغذائية و كذا القبض على الأفراد العزل. و بعد مقتل جندي من طرف أحدهم في طريق المرسى الكبير الذي يتواجد داخل أراضي قبيلة الدواير، أمر الجنرال ديميشيل، رئيس هذه القبيلة مصطفى بن إسماعيل بتسليمه المذنبين. و لعدم استجابته خرج الجنرال في الـ 11 من جوان ببعض من كتيته بهدف الحصول على ما بدا أنه تم رفضا لأوامره، عسكر في العراء ببريدية التي تعتبر محلا يقام به السوق لمدة يوم بغرب وهران باتجاه تلمسان. عاد في اليوم التالي إلى وهران نظرا لعدم التفاهة إلا ببعض الفرسان الذين لم يتبادل معهم سوى بعض العيارات القليلة و هذه الحملة لم تعط أية نتيجة. لم يتم تسليم القتلة و لم تصبح ضواحي وهران آمنة مثل السابق، و لهذا لم يتجاهل الجنرال ديميشيل أي شيء مما كان يظن أنه سيجعله محبوبا و مهابيا من طرف الأهالي المحليين؛ قام بتسريح الكثيرين ممن كانوا يقيمون

الجزء الأول

خطط للهجوم، و مساعدتهم بخبرة البعض من ضباطنا. حتى وإن خفضنا إلى النصف فرضية نجاح هذا النوع من عروض الصداقة و إن أعطينا للمزاج العربي مساحة أكبر. و أن نقر أيضا أن البعض من الاقتراحات التي عرضت علينا كانت بهدف استكشاف نوايانا، فإن الذين تابعوا هذه المفاوضات و الذين قاموا بمقارنة الأقوال و الأفعال، و سوابق الحالة الراهنة و تحليل المصالح المتوفرة، اتضح جليا أنه لدينا فرصة كبيرة خلال عام 1834 لفرض سيطرتنا على مقاطعة قسنطينة.

لم تستطع الحكومة التورط في شراكة من هذه الأهمية دون أن يكون لديها إلا تعهدات فقط، بل كانت تريد ضمانات و كان لها الحق في ذلك، هذه الضمانات كانت معروضة و لكنه استلزم أن تكون من عناصر قرار التدخل.

أما القائد العام بالطبع لم يكن باستطاعه إعطاء كل الأطراف مهلة - دون تسليمهم شيئا في المقابل - ليس احتمالات مداولات مجلس الوزراء و لكن قرارا و نصا يتوقف تطبيقه على الضمانات نفسها. و بالفعل هذه الضمانات لم تكن سوى: تسليم الأسرى، معدات الماشية و الأغذية و أخيرا إبداعات الأموال⁽¹⁾ و لكي تكون المساعي ذات معنى يجب أن تضع كل من تعنيه في وضعية عدائية ضد أحد و أتباعه. كانت الحرب مستتلق مباشرة و بذلك

(1) عرضت عليه.

بقيت الكتيبة الفرنسية بالمرسى، والذي نطلق عليه اسم "أرزير" من الآن فصاعداً، حتى 13 جويلية. هذا المكان وُضع في حالة تأهب للدفاع، فترك فيه 300 رجلاً وباقي الفرق عادت إلى وهران.

لذلك كان عبد القادر - دون أن ييأس من مغامرته الأخيرة بوهران - يعمل بفعالية جديدة على تجميع كل قوى العرب. لم يكن حكمه معترفاً به إلا في محور 15 ميلاً من معسكره، فقرر تمديده حتى حدود الإقليم. وفي هذا الصدد وبعد أن تأكد من تعاون بني عامر، اتجه إلى تلمسان. هذه المدينة المقسمة إلى جزأين: الأتراك والكراغلة كانوا يشغلون القلعة المسماة الشور و كل الأحياء التابعة لها و باقي المدينة كان للبرابرة أو الحضرة. الأولون كان على رأسهم تركي يدعى بورسالي و الآخرون كانوا يعترفون بسلطة بن نونة رجل ثري، مثقف و جدير بالاحترام. هذين القسمين كانا في حالة نزاع دائم و لكن بما أنه كان عليهم التعايش فالأعمال العدائية كانت قليلة و غير ذات أهمية. هذه الظروف شجعت طموح عبد القادر فسار ببعض الفرق إلى تلمسان وأمر بن نونة بالاعتراف به كأمير، لكن هذا الأخير فضل المقاومة، و نتج عن ذلك معركة صغيرة انهزم فيها بعدما ساهم الأتراك و الكراغلة في خسارته بالهجوم عليه من الخلف أثقل معركته مع عبد القادر. كانت هزيمته كاملة إلى حد تخوفه من السقوط في يد عدوه، فانسحب إلى زاوية قريبة من تلمسان و هو ملجأ لا يمكن اقتحامه. و

خرج منها مراراً في الليلة الموالية، فارا إلى المغرب للتواجد بالقرب من السلطان عبد الرحمن، الذي كان على علاقة به منذ مدة. عندما تمكن عبد القادر من تلمسان، عامل سكانها بإحسان و لم يتأخر في كسب ثقتهم و حبهم، و عين على رأسهم قائداً من بينهم يدعى "سيدي حمادي" الذي لا يملك جدارة و قوة تأثير بن نونة، لكنه كان رجلاً مميّزاً. نظراً للأسلوب الذي اتبعه سكان "مشور" أثناء المعركة التي حدثت تحت أسوار تلمسان، كان يأمل أن يعترفوا بسلطته و لكن لم يحدث ذلك و تعهدوا فقط بالعيش بسلام معه و لم يقبلوا بفتح أبواب القلعة له. و بما أنه لم يكن يملك المعدات الحربية اللازمة لإجبارهم على ذلك، اكتفى بتأكيداتهم للسلم و تفادي الدخول في مواجهة غير ضرورية و عاد أدراجه إلى معسكره.

في الطريق، علم بوفاة والده سيدي محيي الدين و تأثر كثيراً بذلك. فبغض النظر عن تعلقه به فإنه لا ينكر بأنه يستمد جزءاً كبيراً من قوته بفضل، نظراً للاحترام الكبير الذي يكنه العرب لأبيه. إنه لمن النادر سواء في إفريقيا أو أوروبا على العموم عدم ربط موت شخصية سياسية بجريمة قتل، فقد انتشرت شائعات بأن محيي الدين قد تم تسميمه من طرف عميل من بن نونة، لأنه كان يأمل في القضاء على قوة عبد القادر بضرب مصدر النصيحة و الدعم له، ظناً منه أنه غير قادر على الحكم. إن كان هذا حدث فعلياً، ولا شيء يشبهه، فقد

قام بن نونة بتقديرات خاطئة، لأن عبد القادر بالرغم من فقدان للذي وجه خطواته الأولى، أظهر كفاءته لتقلد هذا المنصب الذي كان مقدر له.

أثناء تواجد الأمير بتلمسان، اتجه الجنرال ديميشيل نحو مستغانم كانت هذه المدينة مأهولة منذ عام 1830 ببعض المئات من الأتراك العاملين لحسابنا وعلى رأسهم القائد إبراهيم الذي تكلمنا عنه سابقا. هذه الشخصية دخلت في الكثير من المعارك مع القياثل التي تسكن ضواحي مستغانم والتي قامت بمهاجمته في العديد من المرات. لكنه منذ بعض الوقت يعيش في سلام معها. فتحجج أعداءه بذلك لانهامه بيع البارود الذي يتحصل عليه من وهران للعرب، الشيء الذي لم يثبت قط. ولكنه كان له تأثير على الجنرال ديميشيل الذي اعتبره من حيثها رجلا خطيرا، مشبوها ولا يمكن الوثوق به وأنه يمكن ترك منصبه لصالح قيادة عبد القادر. تعززت هذه الشكوك برفضه استقبال ضباط فرنسيين والذي أردنا إرسالهم في فترات مختلفة من أجل فحص المكان، وتحجج لرفضه ذلك بأنه لا يضمن سلامتهم. ولكن الجنرال ديميشيل استنتج بطبيعة الحال أنه كان إما ذو نية سيئة أو أنه لا يملك أية سلطة فعلية في مستغانم. وفي كلتا الفرضيتين، يمكن للمدينة الوقوع في أيدي عبد القادر بين الحين والآخر. نتيجة لذلك اتخذ القرار باحتلالها بواسطة كتيبة فرنسية.

في الـ 23 جويلية، انطلقت السفينة الحربية la Victoire واست باخبرات تجارية من المرسى الكبير لهذه الحملة معبأة بـ 1400 رجل من المشاة ومدفعيتين للجيال. لكن حالة البحر السيئة أجبرت هذا الأسطول على الرسو بأرزيو وبقيت هناك ثلاثة أيام كاملة، لتستعيد سيرتها في يوم 27. ولكن الرياح التي عاكستهم أجبرت الجنرال ديميشيل على الوقوف بمرسى الدجاج (Port aux poulet) عند مصب المبرة. تم الإنزال دون صعوبات. في الخامسة مساء توجه جيش الحملة نحو مستغانم ووصل هناك ليلا إلى ساقية سديديف، أين انتظر طلوع الصباح للانطلاق فورا. تقدم أفراد عرب نحو الجانب الأيمن من الركيزة، لكن هجماتهم كانت ضعيفة ولم تبطئ من سيرتها ولو للحظة. عندما علم السكان بوصول الفرنسيين تخلوا عن بلدتهم مازاقران، التي تبعد بضع كيلومترات عن مستغانم وقروا منهكين. ولم نجد سوى امرأة مسنة عمياء، قام جنود - لا يستحقون أن يكونون كذلك - برميها في بئر بعد انتهاكها.

كان القائد إبراهيم قلقا لأنه كان يعلم أن سمعته قد تم تشويهها لدى الجنرال، وبما أن وصوله لم يعلن عنه رسميا فكان متخوفا بأن تنصب له مكيدة، إلا أنه لم يفكر في المقاومة لأنه كان مخلصا لالتزاماته مع الفرنسيين. وبعد أن أرسل أحد ضباطه إلى الجنرال الفرنسي من أجل تأكيد استسلامه، تقدم إليه شخصيا وبهذا دخلت القوات الفرنسية

إلى مستغانم في الـ 28 جويلية. أراد قائد البرج الشرقي الأقل جاهزية منه، أن يظهر في وضعية دفاعية، فأرسل له الأمر بفتح الأبواب. وهكذا اضمحلت الشكوك التي حامت حول القائد ابراهيم. وعلما أن عبد القادر قدم له عروضاً جدد مغرية ولكنه رفضها بكل عز، ما عدا ذلك، فإن أحسن دليل قدمه لإظهار إخلاصه لنا، كان طريقة تصرفه في الظروف التي تشغلنا، فهو سيد مدينة مغلقة و مدججة بالدفعات ذات العيار الثقيل و كان بمواجهة 1400 رجل فقط لا يملكون مدفعيات للحصار، فكان بإمكانه وضع الجنرال ديميشيل في موقف حرج، فبغلق الأبواب فقط كان بإمكانه إجبار الفرنسيين على التراجع بسرعة إلى مرسى الدجاج (Port aux poulet) أو إلى أرزيو و التي لن يصلها دون أن يتعرض له فرسان سهل سبرات الذين بدؤوا فعلاً بالتجمع.

بعد سيطرة الجنرال ديميشيل على الأبراج ركّز جنوده بمعسكر خارج المدينة، وأخبر السكان أن السلطة الفرنسية ستقوم بحمايتهم وأنهم أحرار إن أرادوا ترك المدينة و أخذ ممتلكاتهم. الكل فضل الاختيار الثاني و في أيام قلائل أصبحت مستغانم خالية تقريباً و الملة التي بقيت من الأهالي اضطروا إلى التمرّك بالمدينة. و بذلك أصبح حي "المطمور" ذو الموقع الاستراتيجي مخصصاً للحامية العسكرية.

في اليوم الموالي لوصول الفرنسيين إلى مستغانم جاء العرب للتشويش عليهم. ففي 29 و 30 من هذا الشهر كانت هجماتهم غير ذات أهمية، لكنها يوم 31، أصبحت جدية على يمين المعسكر و حدثت يومها مشادات قوية خسر فيها العدو خمسون رجلاً. وفي 2 أوت، اليوم الذي عاد فيه عبد القادر من حملته على تلمسان، تقدّم شخصياً إلى أسوار مستغانم بقوة معتبرة. ظن الجنرال ديميشيل حينها أنه من الأحسن رفع المعسكر التحصن في حي المطمور وفي الأبراج. تم تكليف حراسة مستغانم للأتراك. أما الجنرال فقد استقلّ سفينة لا فيكتوار التي كانت راسية بالقرب من مستغانم و عاد إلى وهران بنية استغلال ابتعاد عبد القادر للقيام بتمويه في وسط الإقليم. ترك قيادة مستغانم للمقدم ديباراي Dubarail الذي وُضع تحت تصرفه منذ فترة قصيرة. لكنه سرعان ما أرسل بعد ذلك الكولونيل فيتز جيمس James-Fitz كقائد عام. أخذ إلى وهران القائد ابراهيم و جزء من الأتراك. دخل هذا الضابط في الحياة الخاصة و لم يخرج منها إلا تحت إدارة الكونت درلون.

هكذا تمّ احتلال مستغانم من طرف القوات الفرنسية التي قادها الجنرال ديميشيل بدون إبلاغ الجنرال فوارول الذي كان يستحق منه على الأقل تقريراً عن الأحداث الجارية و كذلك دون إذن من وزير الحرب. كان هذا الجنرال واثقاً من نفسه وهي ميزة معتبرة في الحكماء و لكن هذا لم

يته من اللوم. كان احتلال مستغاثم في نظر البعض غير ضروريا وبغير الاعتراف بكونه كذلك إلى حد الآن. رغم هذا فإن المدينة كانت ستكون قاعدة لعمليات جد مهمة من أجل التحرك في واد الشلف وهو اللمة الوحيد الممكن أخذه للاختلاف حول سلسلة جبال الأطلس. من وجهة نظر زراعية، تسمح أراضي مستغاثم و مزغران للاستيطان. إنه بلد ريع و لكننا جعلناه قاحلا و الذي تقوم بسلب خيراته الخضراء الغنية كل يوم. فإينا استقرينا في إفريقيا، يهرب الأفراد و تخفي الأشجار.

في اليوم الموالي لعودته إلى وهران، في 5 أوت، أرسل الجنرال ديمبيل من هذه المدينة إثني عشر إلى ثلاثة عشر مئة رجل من المشاة و الفرسان للهجوم على قبيلة الزمالة و إيدالهم بشكل كبير من أجل تهريب القبائل الأخرى و إجبارهم على سحب مقاتليهم الذين أرسلوهم لمساندة عبدة القادر في مستغاثم خوفا من تلقي نفس المصير. سلمت قيادة هذه الوحدة العسكرية إلى الكولونيل ليشانغ L. Etang من القليل الثاني لقناصين إفريقيا. هذا الضابط السامي وصل في 6 من نفس الشهر، عند بزوغ الفجر بقرب العديد من مدائن الزمالة الغير بعيدة عن جبل يدعى طقراوي الذي بعد من أهل القمم بالبلاد. هيا فرق المشاة و قطعني المتاريس التي كان يتوفر عليها و بدأ عملية هجومه على المدائن مع الفرسان المقسمين إلى ثلاثة أقسام و الأتراك التابعين لنا. تفاجأ العرب، مثل ما حدث في 7 ماي، فسحروا بسلب عدد كبير من الماشية و الكثير من النساء و الأطفال

الذين تم اقتيادهم من طرف القناصين بعد تخريب كل المنازل. بمجرد بداية الانسحاب، احتشد عدد من العرب الذين فروا من قراهم و قاموا بإطلاق النار على فرساننا الذين تراجعوا مع الرد عليهم للانضمام بخطى صغيرة إلى فرق المشاة. و بعدها عادت كل ركيزة الجيش إلى وهران بعد زيادة مضايقات العرب الذين أصبح عددهم يتضاعف من دقيقة لأخرى. كانت الشمس تملأ الأفق و الحرارة الموسمية ترتفع مع هبوب رياح الجنوب الرهبة و التي أصبحت لا نطاق. أصبح أفراد المشاة - الذين و من قصر نظرنا أرسلوا دون مؤن و لم يجدوا قطرة ماء لشربها منهكين من التعب - يتقدمون ببطء. و تعطلت سيرتهم كذلك بسبب الجرحى الذين كان من الواجب حملهم على الأذرع لقلة الوسائل اللازمة. العرب من جهتهم كانوا يفعلون المستحيل لأجل منع المجموعة من التقدم لإعطاء الوقت اللازم لقتال القرى البعيدة للتجمع. سبق الكثير منهم إلى مقدمة الطريق الذي كانت تبعه من أجل إشعال النار في الأعشاب و الحشائش التي كانت تغطي مساحة شاسعة مما ولد حريقا مهولا جاء للرفع من درجة الحرارة الساحقة للجو. فبعد أن التهمت النار بسرعة الطبقة الخفيفة من العشب الشوفرا، حدثت ألسنتها لوحدها و لكن جنودنا كانوا مضطرين للسير لمدة طويلة فوق رماد ساحن الذي كان يفرز دغائبا خائفا. وبدأت عزائم أفراد المشاة تنقص و رأيتنا رجال يرمون أسلحتهم و يرفضون المشي رغم توصلات مسؤوليهم بل كانوا يستلقون على الأرض طالبا لقسط من

الراحة على حساب حياتهم التي لن يتأخر السيف العربي عن نزعها. أما الذين لازالت لديهم القوة على المشي فلم تنبثق لديهم للقتال، فما كان على فرقة الفرسان إلا أن تواجه العرب لوحدها و فعلت ذلك بكل شجاعة و وفاء يستحقان الثناء الكبير. و بعد عناء وصلت المجموعة أخيرا إلى نبع الكرمة و لكن خطرا آخر كان يهدق بهم حيث أنه بعد شربهم ماء غير نقي و راكد سقطوا تحت الأشجار المجاورة و أصبح من الصعب تحريكهم في هذا الوقت العصيب و الذي ازدادت فيه شجاعة الكولونيل لبتانغ، أعلن لضباطه أنه يجب التأهب سواء للموت مع أفراد المشاة أو لإنقاذهم. الكل رحب بهذا الإصرار النبيل. و على الفور قام القناصة بإحاطة هؤلاء الرجال شبه موتى الذين كانوا يترامون تحت أشجار الكرم و تأهبوا للتصدي بكل قوة للعدو. خشي العرب من رباطة جأشهم فلم يجرؤوا على القيام بأي عملية فعلية. لقد أتى الكثير منهم من مسافة بعيدة و بسرعة فائقة لدرجة أن أحصتهم كانت غير قادرة على الزحف، ثم فرضت سيطرتها عليهم ضربات المدفعية التي ألحقت أضرارا كبيرة بهم. في ذلك الحين، قام السيد دوفورج Deforges - الضابط المنسق للجنرال ديميشيل - الذي كان قد لحق ب لبتانغ بالتضحية من أجل الصالح العام وذهب لإعلام جنتراله بسوء تطور الأحداث. فتمكن من الوصول إلى وهران بفضل شجاعته و حظه. و فوراً ظهر الجنرال ديميشيل بمؤونة معتبرة من المشروبات و وسائل النقل.

تفرق العرب عند قدومه، وتمكنت فرقة لبتانغ بعد الأكل والشرب من بلوغ وهران رغم المعاناة، ولكنها استغادت بنقل كل ما غنمت من أموال و أسرى. بعد ذهاب الجنرال ديميشيل، ضرب عبد القادر بقوة ما يمكن أن نسميه حصارا على مستغانم. استقرت أغلبية فرقه في الضاحية المخربة بمكان يدعى تسيد و وجه ثلاث هجومات على المراكز الخارجية. و شكلت الزاوية التي تقع على شاطئ البحر و المحمية من قبل الفرقة 66 للمصف هدف جهوده الرئيسية. كانت خطته دون شك قطع كل الاتصالات بين البر و البحر و لكنه لم يتمكن من تحقيق ذلك كليا. الفرق التي أرسلها إلى هناك تمكنت الفرقة 66 من صدها بعد تدعيمها بثلاث كتائب من البر و حملوهم خسائر معتبرة. في 5 من نفس الشهر تمت مهاجمة هذا المزار من جديد. كانت في ذاك اليوم سفينة شراعية في المرفأ، سحقته العرب بتيرانها و أجبرتهم على الانسحاب إلى مواقعهم ب "تسديد"، لكنهم خرجوا منها ثانية لمهاجمة الجيش الموجود بالميدان ذاته. قاموا بذلك ببسالة غير مألوفة. و بما أنهم كانوا دون مدفعية لهدم أسوار المدينة، فقد حاولوا تسليقها من الجانب الذي لن تصله نيران جنود الميدان إذا ما وصلوا إلى بداية السور. كان من الممكن نجاح الفكرة لولا تدخل الملازم "جيرونندون Gérandon و بعض من رماة القنابل بامتطاء الحائط لمهاجمة المخترقين الذين لم ينسحبوا إلا من بعد خسارتهم لعدد كبير منهم. و في 7 من الشهر

أصبحت هجوماتهم أضعف. أما في 8، و بعدما اضطرت السفينة التي كانت بالمرقا على الابتعاد في البحر نظرا لسوء حالة البحر، تمت مهاجمة الزاوية دون فائدة. و في 9، ابتعد العرب عن الميدان ورفعوا الحصار. عاد عبد القادر إلى معسكر و كل مقاتل إلى قبيلته مخافة هجوم غير متوقع مثل الذي حدث ضد الزمالة.

هؤلاء لم يتأخروا في المطالبة بالسلام من أجل استعادة نساءهم ماشيتهم المسلوبة في السادس من أوت. من أجل هذا، أرسلوا وفدا من بينهم للجنترال ديميشيل، الذي قبل سماعتهم. و بعد مناقشات، تم الاتفاق على عدم إبقاء "الزمالة" تحت إمرة عبد القادر و أن يستقروا تحت الحماية الفرنسية في ضفاف وادي مسرغين الرائع الذي يبعد اثنا عشر كيلومترا من وهران. ولاظهار حسن نواياهم، سلموا رهائن. و بهذه الشروط، تم إعادة المساجين و قطعان الماشية.

حوالي نهاية سبتمبر، وصلت لجنة إفريقيا إلى وهران، وفي الأول من أكتوبر قامت بزيارة وادي مسرغين بمواكبة جزء من الكتيبة. قام عدد كبير من العرب بمهاجمة الفرقة الفرنسية و تم صدهم بشراسة، مما أدى إلى خسارتنا لبعض القتل و ثلاثين من الجرحى. لم يسع الجنترال بوني للاستيلاء على السلطة كما فعله بيوفاريك بل قدم بنفسه مكتفيا بإعطاء دلائل على ميزاته الثمينة التي مجدته خلال شبابه. و في 2 أكتوبر

قامت اللجنة بزيارة موقع الكرامة. لم يظهر سوى قلة من العرب و لم يبادلونا سوى بعض الطلقات.

أثناء ذلك، لم تجد القبائل متدفقا لمحاصيلها و بدأت تعاني من هذا الوضع ومن التعب من مخلفات الحرب. بدأ أهل "بجار" بالتردد على سوق مستغانم، و أصبح سكان منطقة "البرج" يموتون أرزويو و حتى الزمالة و الدواير أصبحوا يظهرون علنا في وهران. حتى عبد القادر لم يكن بعيدا عن السلام و لكنه أراد أن يكون صاحب المبادرة بذلك، فقد اتخذ إجراءات صارمة لأجل إيقاف هذه العلاقات الجزئية المعاكسة للوحدة الحكومية التي أراد تأسيسها عند العرب. استسلمت القبائل لتنفوذه و حتى الزمالة أنفسهم لم يتمكنوا من تحقيق التزاماتهم معنا. من بين العرب الذين جذبهم المكسب إلى أسواقنا "قدور تيان" أحد شيوخ سكان منطقة "البرج" الذي كان يعلم أن الأمير يعتبره أحد المتمردين عن حركته التجارية التي يحاول تطبيقها، فقرر إهداء بعض المسيحيين لإسكات غضبه، لذلك توجه إلى أرزيو ببعض محاصيله أين كان معروفا هناك، وبعد بيعها أظهر مخاوفه من بعض قرسان عبد القادر الذي زعم رؤيتهم يحومون في النواحي، وطلب بتأمين مرافقة له إلى مكان حدده ليس يبعيد. انصاع قائد أرزيو لطلبه و وضع تحت تصرفه أربعة قناصين برتبة مشير و لكن على بعد

بضع كيلومترات من أوزيوه وقع المساكين في كمين مديرة، قبل من طرف
قصور نفسه، واحد منهم قتل و الأربعة الآخرون تم اقتيادهم إلى السجن
بمعسكر. كتب الجنرال ديميشيل إلى عبد القادر من أجل المطالبة بهم
لأنهم أسروا ظلماً.

أجاب عبد القادر أن هؤلاء الفرسان قد تم أسرهم خلال الحرب و
برفقة أفراد عرب لم يتصاعوا لأوامره، وذلك بتوجيههم إلى أسواقنا، وإن
تم استغلالهم من طرف تعساء ينكرهم فهذا ليس من شأنه تماماً ولن
يغير شيئاً في المسألة، وأنه سيستبدل كل أسير بـ 1000 بندقية. وبما أنه
لا يمكن قبول العرض لم يتم النظر في هذه القضية لحد الآن.

لام الأمير - في رسالته - الجنرال ديميشيل على قيامه فقط بمباغثات إلى
حد الآن ونحشاء بأن يأتي لمقاتلته بعيداً عن وهران. بعد تلقي هذه الرسالة
بشهر واحد، علم الجنرال أنه بعد عودة الأمير من مطاردة بتلمسان،
معسكر بسهل "مليطة" على أرض الزمالة بمكان يدعى "تيمزورار". بهذه
المعلومة، انطلق بكل قواته على السادسة مساء في الثاني ديسمبر و توجه
هذا الكائن ووصل إليه قبل الصباح. عوضاً عن مهاجمة عقيم عبد القادر
هاجماً بعض المداشر حيث فوج الكثير من العرب و اقتيدت لحسن
امرأته و طفلاً. فتراجعت قواتنا و استراحت على بعد مسافة دون أن يتم
للاهاجمة من القلة القليلة من العرب. و لكن سرعان ما تأهب معسكر

عبد القادر، و عندما تحركت ركيزة جيشنا وجدت نفسها محاطة بحشد
من الفرسان. و قبل أن يبدأ الجنرال ديميشيل حركة التراجع قام بإرساله
للعندو كل النساء و الأطفال الذين وقعوا بين أيدي جنودنا. لا أعري
إن كان العرب قد رأوا هذا كإقرار بالضعف ولكن هجوماتهم ازدادت
شراسة، وخرجت فرقنا بوهران لأول مرة بمدفعيات الخريف، فلحد
الآن لم يكن لديها سوى مدافع للخيال. هذه المدفعية الموجهة بشكل جيد
سحقت العدو الذي رغم الخسائر التي كان يتكبدها كل لحظة، ظل متابعاً
للفرق الفرنسية حتى الليل. افتخر كلا الطرفين بالنصر المحقق ذلك
اليوم، فالفرنسيون قاوموا ببسالة هجومات العرب و العرب لأنهم رأوا
الفرنسيين يتراجعون أمامهم باستمرار. و الشيء المميز في هذه الحادثة، أن
رهائن الزمالة الذين كانوا يرفقتنا حاربوا في صفوفنا ضد رفقاتهم. ساهم
الفايد إبراهيم كمعتلوع و تصرف بشجاعة.

لم يحدث شيء مميز بوهران حتى السادس من جانفي 1834. في هذا
اليوم، لاح للأنظار من الساحة حشد معتبر من العرب فضلعت فصيلتين
من القناصة بقيادة ثوريني de Thorigny و امتاطوا أحصتهم
لاستكشاف ذلك. تقدم هذا الضابط المتحمس بشجاعة بأسلحة و التقى
جمعا من الأعداء و قاومهم بجدارة، لطبع الوقت، لكن الكولونيل
أودينوت⁽¹⁾ Oudinot الذي وصل خلال هذه الأحداث متبوعاً بثلاث

(1) منذ فترة قصيرة حل محل الكولونيل ليتانج L'Etang الذي تم استبعاده بقرار
المروري إلى فرنسا.

كتاب من قصيدته، ظن أنه يتوجب التراجع. تمت العملية بقلعة نظام و
تسرع كبير كلفت كتيبة السيد دي ثوري de Thorigny 17 رجل
منهم ضابط.

لم يتوقف العدو إلا عند رؤية كتيبة ضخمة من فرق المشاة متجهين
نحوهم. كان له الوقت لنقل رؤوس القتلى الذين قُتلوا، وفقا لطريقة
بربرية، والتي أخطأنا في تقليدها في كثير من الأحيان. كانت هذه
أخر حادثة مؤلمة. كان الجنرال ديميشيل - بعد معاينة النتائج المريعة
للحملات، حتى تلك الناجحة منها من وجهة نظر عسكرية - يرغب
في السلام. بدأت الحاجة لمس وهران التي لم يعد يصلها شيء عن طريق
البحر. جعلت الاحتمالات التي اتخذها عبد القادر كل اتفاق جزئي⁽¹⁾
مستحيلا، فقرر القيام بعروض للأمير مباشرة من أجل الوصول إلى
سلام عام. دعم قراره السيد بوشناق M. Busnac - الذي كان
رجلا مؤثوقا فيه بشكل كبير ومتطلع على أمور البلاد - لكن من
الصعب الشروع في ذلك دون دفع عبد القادر إلى التأكد من قوته و
خلق لديه الشعور بالتفوق المبالغ فيه. و من أجل تجنب هذا الإزعاج
قرر المستطاع، أرسل الجنرال ديميشيل رسالة من جديد لعبد القادر
عن موضوع سجناء أرزيو. وبعد التطرق إلى المسألة التي كانت شكليا
هي الرئيسية، قال له في نهاية الرسالة أنه بإمكانها الالتقاء ببعضهما

(1) الجنرال ديميشيل حاول التفاوض مع مصطفى بن إسماعيل رئيس قبيلة
الشواري و ابن أخيه الشواري و لكن دون التوصل إلى نتيجة.

ليضع الوقت من أجل التوصل ربما إلى اتفاق و إيقاف إراقة الدماء. في نفس
الوقت، كتب أحد يهود وهران المسمى "عمار مردوشي" لـ "بن حراش" أحد
الضباط الأساسيين لعبد القادر، للقول بأن الفرنسيين في أوج استعدادهم
لمواجهة الأمير و أن أفضل قرار لقواته يجب اتخاذه هو الاتفاق معهم. رغم
المراوغات التي قمنا بها، تبين عبد القادر أننا نطلب منه السلم و أنه سيكون
سيد أروحية المفاوضات. رد على الجنرال الفرنسي بأن دينه لا يسمح له بطلب
السلام من المسيحيين و لكنه لا يمنعه من منحه لهم و بذلك فإنه يوافق على
تلقي هذه العروض. و تجاهل عرض اللقاء الذي قدمه له الجنرال ديميشيل،
و أرسل تحت أسوار وهران "ميلود بن حراش" و ضابطا آخر لكي يعرفوا من
الجنرال - بوساطة من عمار - على أي أسس يريد التفاوض. نال هذا الأسلوب
إعجاب الجنرال ديميشيل لأنه بدا و كأنه يضعه على قدم المساواة بينه و بين
الأمير. وبالفعل، فمن جهة، إن كان هو من مهّد لهذه المفاوضات نستطيع
القول أن عبد القادر اتساق إلى الاقتراح. و بما أن المسألة كانت بالغة الأهمية،
جمع حوله أهم موظفي الدولة بوهرا من أجل طرحها عليهم. و تم الاتفاق
في هذا الاجتماع بأنه لا يمكن التفاوض إلا وفق الأسس الثلاثة التالية: 1
خضوع العرب لفرنسا دون قيد 2 حرية التجارة التامة و الكاملة 3
التسليم الفوري للسجناء. قدمت هذه الأسس لمبعوثي الأمير لتبليغها
له. هذا الأخير طلب أن تكون مقترحات الجنرال الفرنسي مصاغة بطريقة

2° تكون التجارة بالمرسى⁽¹⁾ تحت إشراف حكومة أمير المؤمنين كما في الماضي وفيما يخص كل الأعمال، تحميل السفن لا يتم إلا في هذا الميناء، وفيما يخص مستغانم وهران فلن تنطبق سوى البضائع الضرورية لسكانها ولا أحد يمكنه الاعتراض. والذين يريدون تحميل البضائع يجب عليهم التوجه إلى المرسى.

3° إعادة الجنرال كل القارين مقبدين بالسلاسل. لن يتحصل كذلك على المجرمين، الجنرال القائد بالجزائر لن تكون له سلطة على المسلمين الذين يلجؤون إليه بموافقة حكامهم.

4° لا يمكننا منع مسلم من العودة إلى دياره متى أراد. هذه هنا شروطنا المختومة من طرف الجنرال القائد بوهران.

شروط الفرنسيين.

1° ابتداء من اليوم تنوقف الأعمال العدوانية بين العرب والفرنسيين.

2° احترام دينية وأعراف المسلمين.

3° تحرير الأسرى الفرنسيين.

4° حرية الأسواق.

5° إعادة العرب لكل القارين الفرنسيين.

أوضح، ومن أجل هذا أرسل "بن حراش" وكلفه بجلب مشروع اتفاق، فقام الجنرال بتحريره وتسليمه لـ "بن حراش" الذي غادر برفقة "بوشناق" والرائد "عبد الله الشبون"، مسجعي سوري في خدمتنا منذ حملة فرنسا على مصر. كان عبد القادر مستقرا بالهجرة أين استقبل بحفاوة مبعوثي الجنرال الفرنسي، فרא بعناية المقترحات المعروضة ثم أعطى توجيهات لـ "بن حراش" وأعاد إرساله إلى وهران بكامل الصلاحيات من أجل إتمام الاتفاق. و لأنه أراد إعطاء الجنرال ديميشيل عربونا مسبقا للصدقة وربما إبهاره بفعل بالغ الكرم، أرسل مع مبعوثه أسرى أرزيو. وفي 26 فيفري، وبعد عدة أيام من التشاور - تارة مع الجنرال ديميشيل وحده وتارة أخرى بحضور المجلس - أقر "بن حراش" الأحكام التالية مع الطرفين والتي تمخضت عنها معاهدة السلام.

معاهدة السلام

شروط العرب من أجل السلام.

1° للعرب حرية بيع وشراء الذخيرة، الأسلحة، الكبريت، أي كل ما يتعلق بالحرب.

الجزء الأول

6* كل مسيحي أراد السفر برا يجب أن يحصل على تصريح مختوم من قبل
قنصل تابع لعبد القادر و قنصل تابع للجنرال.
على هذه الشروط يوجد ختم أمير المؤمنين (1).

هذا الاتفاق ابتعد كما نرى عن الأسس التي حددتها المجلس وكان
كلياً لصالح عبد القادر، و ضمن ظروف لا أسعى لتفسيرها تم إبلاغ
الحكومة بالجزء الثاني فقط منه.

الجنرال فوارول الذي كان يجهل تماماً هذه المفاوضات، تم إعلامه بها
حصل بواسطة برقيات للجنرال ديميشيل أوصلها ضباط عبد القادر برا.
و كانت مرفقة برسالة من الأمير الذي يبدو أنه تذكر قبل قائد وهران أنه
يوجد جنرال مسؤول بالجزائر.

وعلى الفور بعد إبرام الصلح، أرسل الجنرال ديميشيل إلى معسكر
الرائد عبد الله داسيون Abdalla d'Asbonne كممثل للمصالح
الفرنسية و أرفقه بضابطين من القيادة العليا، الأمير من جهته عين وكلاء
أو ممثلين بوهران، مستغانم و أرزيو، الوكيل الذي أرسله إلى أرزيو كان
خليفة بن محمود، و هو واحد من أكثر الرجال نفوذاً في قبائل الغرابة.
المنصب الذي منحه إياه عبد القادر كان ذو أهمية بالغة بما أن التجارة
بأرزيو كانت من حق الأمير بصورة حصرية حسب بنود الاتفاق.

(1) هذا الاتفاق كما هو موضوع أمام أعين القارئ تمت ترجمته عن النسخة
العربية التي بين يدي عبد القادر.

في هذه الأثناء، انتشرت أخبار الهدنة في إقليم وهران بسرعة كبيرة في كل الناحية. القسم الثاني للاتفاقية هو الوحيد الذي أعلم بها العامة الأوروبيون كان يجعلهم يظنون أن التجارة أصبحت حرة و بهذه القناعة اتجه بعض التجار من الجزائر ووضعوا متجرا بأرزيو و كم كان مفاجئا لهم عندما وجدوا أنفسهم خاضعين لاحتكار عبد القادر الذي مارسه هناك. لقد عين الأمير نفسه المفاوض الوحيد لدولته على غرار باشا مصر الذي درس سياسته أثناء سفره لمكة. كان من المحظور على العرب التعامل مباشرة مع الأوروبيين، كان يتوجب عليهم البيع لوكيل عبد القادر بأسعار يحددها بنفسه و هذا الأخير يبيعها للأوروبيين الذين يخسرون بذلك كل مزايا الأسواق المباشرة. أصبح السير العام للتجارة معاقا بسبب نقص حرية المنافسة. رفع ممثل الشأن الفرنسي بأرزيو شكواه إلى الجنرال ديمشيل الذي أجاب أن التجارة كانت حرة في القانون و الاتفاقية تنص على ذلك و أن هذه الشكاوى تتبع عن سوء فهم دون شك. نتيجة لهذا التصريح قام التاجر الفرنسي بالتعامل مع عربي من قبيلة حيان من أجل حمولة كبيرة من الشعير و التي تم تحميلها إلى باب مخزنه، و بعد إخطار خليفة بذلك نزل إلى عين المكان، أمان العربي و استحوذ على كل الشعير و دفع حقه حسب ما حددته عبد القادر. إثر هذا، طالب الفرنسي بالحماية من السلطات المحلية التي

صرحت أنه حسب أوامر الجنرال ديميشيل لا يمكنها الاعتراض عن الإجراءات التجارية التي يجدها وكيل الأمير مناسبة. هذا الأمر خطير، وتم إخطار القائد العام عنه. في نفس الوقت تقريرا، وصل تقرير من السيد صول M. Sol نائب الحاكم المدني لوهرا إلى السيد جتي ديوسي M. Gentil de Bussy ندد فيه بشدة بالاحتكار المطبق من طرف أعوان عبد القادر بأرزيو و ربطوه بالتنازلات المتهورة و السرية للجنرال ديميشيل لصالح الأمير. كما قيل أنه على عكس التشريعات الموجودة على الحبوب في المنطقة و التي تحظر التصدير، فإن عبد القادر سمح بشحن باعترين من الحبوب نحو إسبانيا بميناء أرزيو. لم يستطع الجنرال فوارول بطبيعة الحال السكوت عن تلك التجاوزات فكتب مع كل التحفظات الملائمة للجنرال ديميشيل، الذي فند وجود احتكار و نلاري وزراء تجاهله للقانون⁽¹⁾ الذي يمنع تصدير الحبوب فيما يخص الباعترين. لا بد من وجود شيء غير مفهوم في هذه القضية لأن الجنرال ديميشيل أنكر وجود احتكار طول مدة إدارته و لكن إنكاره هذا كان يصطدم باستمرار بواقع الأحداث.

بينما كان هذا الجنرال يتحمل نتائج قلة تفكيره في المصادقة على الاتفاقية مع عبد القادر، كان الأمير الشاب على وشك رؤية انهيار سلطته التي لا تزال هشة.

رغم الحب الكبير الذي يكنه له الشعب الذي يعتبره نوعا ما متبجحا منهم، إلا أنه كان لديه الكثير من الحساد على غرار كل الذين يمتلكون الشرف و الهبة عندما يضحك لهم الحظ صدفة. في واد الشلف، لأمه سيدي العربي رئيس القبيلة التي تحمل نفس الاسم عن تعامله مع المسيحيين رغم أنه شخصا لم يأخذ إلا الجزء غير المباشر تماما في حرب كان الثقل فيها واقعا على كاهل عبد القادر. أما مصطفى بن اسماعيل رئيس الدواير الذي كان أقام تحت حكم الأتراك فلم يكن يمنحه لقب السلطان دون امتعاض و هو اللقب الذي منحه إياه اعتراف الشعب. في حين كان قدور بن المرفي، رئيس البرابجية الذي كان متعودا على حياة المجون و الترحال الدائم كان حزينا لرؤية النظام و السلم يسودان. هؤلاء الرجال ذوي النفوس المريضة كانوا ينتظرون المناسبة السانحة للانفجار و التي لم تتأخر في المجيء. بعد الهدنة، توقفت قبيلة بني عمر، و هي القبيلة الأكثر كثافة في المنطقة عن دفع العشور بحجة أن انتهاء حالة الحرب جعلت الضريبة غير لازمة. فأمر الأمير على الفور قبائل الزمالة و الدواير بالتأهب للسير نحوهم عند أول إشارة، و لكنه رجل لا يحب استعمال العنف إلا في حالة فشل الحكمة فقبل الحرب كان يبحث عن إقناعهم. كان العديد من شيوخ بني عامر لا يزالون في معسكر و يوم تجمعهم في المسجد، ذهب إليهم بنفسه و من أعلى المنبر الذي يعتبر لديه منصة وطنية ألقى خطابا حول إلزامية مشاركة كل المواطنين في مصاريف الدولة للمصالح العام. بلاغته لم تذهب هباء فقد وعد بني

عمر يدفع العشور و هذا ما قاموا به فعليا. و لكن الدواير و الزمالة -الذين كانوا من قبل لصوصا و الذين تعودوا تحت حكم الأتراك- على استخدامهم كأداة للنظام في عمليات السلب -بدأوا بالعمليات العدائية. أرسل إليهم عبد القادر الأمر بالتوقف عن ذلك و لكنهم لم يعيروا اهتماما، و نظرا لجاهزيتهم قام رئيسهم بإسقاط القناع عن وجهه و شجعهم على التمرد على الأمير. سار عبد القادر نحوهم و أنشأ معسكره على أراضيهم، و نظرا لثقتة الزائدة في قوته تمت مباغتة من طرف مصطفى في ليلة 12 من أفريل و تمت هزيمته كليا، تلقى بنفسه عدة أضرار و قتل حصانيه أمامه. كان بإمكانه الهلاك أو الوقوع في الأسر كونه كان مترجلا و مجردا تقريبا من سلاحه، لولا تدخل ابن عمه و نسيه مولود بن سيدي بوملال -رجل ذو قوة هائلة - لسحبه من البلبلة و وضعه فوق حصانه و عاد إلى معسكر تقريبا لوحده و لم يتجرأ عدوه اللحاق به. تعجب مصطفى من انتصاره، و سعى إلى التفاوض مع الفرنسيين و الحصول على تحالف معهم بنفس شروط عبد القادر و تم رفض عرضه. كتب الجنرال ديميشيل إلى الأمير لطمأنته حول تواصل صداقتهم و دفعه إلى عدم الانكسار بعد هذه الانتكاسة الأولى. و أرسل إليه 400 بندقية و كمية معتبرة من البارود و التي دفع عبد القادر قيمتها في وهران. لقد سبق أن قدم له مجانا هدية من هذا النوع في فترة إمضاء معاهدة السلام.

و نتيجة لأخبار انهزام الأمير، رفع سيدي العربي راية العصيان، و قام قدور بن المرفي بنفس الشيء، أما القوماري رئيس قبيلة الأنجاد فقد انضم إلى مصطفى بشكل جعل عبد القادر محاطا بأعدائه. تفاوض قائد تلمسان سيدي حمادي من جهته مع مصطفى و كادت هذه المدينة المهمة أن تفلت منه. الكثير من التكتيات هزت روحه للمحظة و لكن سرعان ما استعاد نشاطه الطبيعي. كانت الظروف جد خطيرة و تتطلب إرادة شديدة و يقظة. بعد صد الجنرال ديميشيل لمصطفى بن اسماعيل فكر هذا الأخير في التوجه للجنرال فوارول. و كان من المخرج للأمير أن تصل عروض خصمه إلى الجزائر في الوقت الذي عم فيه الانزعاج من التنازلات المقدمة لعبد القادر و أن يتلقاه الجنرال المسؤول و يوجه أنظاره إلى مصطفى لتكوين قوة موازية لابن عمي الدين في ذلك الإقليم. الجنرال ديميشيل و حيا في إقرار الأمور التي صنعها، كانت له نفس الهواجس، لذلك دفع الأمير بشدة إلى القيام بحملة و راح ليضع معسكره بنفسه في مسرعين للتصدي لمصطفى من خلال هذا الاستعراض.

بعد تجميع القبائل التي لا تزال مخلصه له خرج عبد القادر من معسكر و حط رحاله على ضفاف سيق. كان من المنتظر رؤيته يهاجم مصطفى، لكنه فجأة غير مساره إلى الشرق و هاجم البرابجية متحديا ليأهم كليا. استولى على القرية القوية للمرج و أجبر في أيام قليلة

الجزء الأول

كل هذه المنطقة على العودة إلى الرشد، و بعد إتمام ذلك توجه نحو مصطفى و التقى الحصان في الـ 12 من جويلية. مجرد طليعة جيش الأمير تحت قيادة الأغا عبيد بوعلام كانت كفيلة بهزم جنود مصطفى و الذي أصيب بدوره إصابة بالغة. انهزم و مرض و تولى عنه أتباعه، فتوسل بن اسماعيل الرافة من غالبه الذي ساعده بكرم. آثار صرامة الأمير امتدت دون تمييز لتشمل كل المتمردين الذين لجأ جزء منهم إلى أسوار وهران لطلب الوساطة الفرنسية. لم يكن لهم إلا أن يندموا على الدم الذي أراقوه في المعركة، إذ لم يحصل أي تصرف انتقامي يقطع انتصار الأمير.

مباشرة بعد انتصاره، انتقل عبد القادر إلى تلمسان. كان بجانبه منذ بضعة أيام بن نونة حيث صالح بينهما سلطان المغرب. و كان غاضبا بوجه حق من سيدي حمادي، فأقاله و أعاد بن نونة إلى منصبه السابق. سكان تلمسان استقبلوا الأمير بنشوة كبيرة و لكن أترك المشور رفضوا دخوله إلى القلعة كما في زيارته الأولى. تألم وأحس بالإهانة لعدم استطاعته حتى إمكانية إجبارهم و بما أنه كان متمسكا بإخضاع الذين يتحدون سلطته بوقاحة، طلب من الجنرال ديميشيل مدفعين من أجل قصف المشور. قائد وهران لم يظن أنه من حقه إصدار قرار تقديم هبة كهذه، فوجه طلبا إلى وزير الحرب الذي سمح له بتوفير المدفعين إذا ما تم طلبها من جديد و لكن عبد القادر كان قد ابتعد

عن تلمسان قبل وصول الجواب إلى وهران. عاد الزمالة و الدواير إلى طريق الصواب و تمت معاملتهم بعطية على غرار القبائل الأخرى. حتى أن أحد قادتهم و هو المزارقي ابن أخ مصطفى تم تعيينه آغا؛ أما بالنسبة إلى مصطفى نفسه فلم يعد قادرا على العيش تحت حكم عبد القادر و انسحب بقرب أتراك المشور.

كان الجنرال ديميشيل يريد مقابلة الأمير عند عودته من تلمسان فعبّر عن ذلك في رسالة يتعابير متملقة لهذا القائد الشاب. لكن هذا الأخير لم ير أن بإمكانه القيام بذلك و تحجج بأمور مستعجلة تضطره إلى العودة إلى معسكر على الفور. و كرر الجنرال نفس الطلب عدة مرات دون أن يحظى به. عبد القادر كان بعيدا عن الاحتراس من حليفه و تجنب الالتقاء به، كان تمسكا بمظاهر اللباقة (الايثيكييت) فقط. هذا الحاكم المؤمن، و بتلقيه هذا اللقب، كان يود لو أن الجنرال الفرنسي يقف تجاهه في منزلة دنيا. و بما أنه كان يعلم عدم استطاعته إظهار ذلك دون صدمه و هو ما أراد تجنبه. فكان إذن من مصلحته التهرب من مقابلة حسب ظنه ستوقعه في ضرورة إصدار تصرفات من الممكن أن تفضح أفكاره الخفية⁽¹⁾ مبكرا.

كحاكم لكل إقليم وهران الممتد من الشلف إلى مملكة المغرب، لم يضع عبد القادر حدا لطموحه و بنى فكرة إخضاع الجزائر و التطري

(1) هذا التفسير لرفض الأمير لقاء الجنرال ديميشيل قدمه الأمير بنفسه إلى شخص تحصل منه الكاتب على هذه التفاصيل.

قيمته. و من أجل جس نبض الجنرال فوارول، أرسل له معلنا بأنه
يعون الله قد تمكن من هزم كل أعدائه ونشر السلم في كل القسم الغربي
للمنطقة وأنه في وقت قريب سيتوجه شرقا من أجل تنظيم قبائل هذه
المنطقة. هذه الرسالة ثم تسليمها إلى الجنرال فوارول بواسطة سيدي
علي الكلاوي من مليانة، هذا الرجل الذي ينتمي إلى عائلة مرابطين
قديمة جدا، تمكن من الحصول على كل السلطة في المدينة لصالح عبد
القادر الذي كان من أشد المخلصين له. و زاد حماسه بصفة خاصة
حينما كتب من جهته إلى الجنرال متفاخرا بقوة و حسن صفات عبد
القادر، كما تشرف حسب قوله بقدرته على إخماد غضبه الذي اشتعل
بعد الحملة التي وجهوها ضد حجوط و التي تكلمنا عنها في الكتاب
السابق. وقال بهذه المناسبة أنه إن أساء الحجوطيون التصرف تجاه
فرنسي الجزائر كان من المفروض على الجنرال فوارول عوض أن
يحقق العدالة بنفسه أن يشتكي إلى الأمير عبد القادر الذي يعتبر
الحجوطيون رعاياه. رد الجنرال فوارول كما يجب على هذه الرسالة
الوقحة و الخرقاء. و فيما يخص عبد القادر فقد كتب له بيته على لسانه
من استباب النظام لدى القبائل المفوض له حكمها، و دون شك فإنه
بتأسيس مشروع للتوجه نحو ما أسماه قبائل الشرق لم يكن في تطلعاته
تجاوز الشلف التي كانت الحدود التي سطرها الجنرال فوارول بصورة

لائقة. بينما كان بعض الأشخاص يقولون أنه مصمم على القضاء
أبعد من ذلك و كان هو يظنه أكثر حكمة على القيام برحلة قد تغير
من طبيعة علاقته مع فرنسا، و ما عدا ذلك فإن إقليم الجزائر كان يعمه
الحدود بعد العقوبة السلطة على الحجوطيين. هذه الرسالة الصارمة
و المعتدلة في نفس الوقت كبحت لبعض الوقت أطباع عبد القادر و
لكن لسوء الحظ طموحه الذي كان بحاجة للإشباع باستمرار تشجع
بفضل أولئك الذين كان من واجبه إيقافه.

تأثر سيدي علي الكيلاوي كثيرا من الطريقة التي عامله بها الجنرال
فوارول، أراد بشدة أن يلعب دورا في الدسائس السياسية في ذلك
الوقت و انتقل إلى معسكر و قام بإقحام الأمير إلى أي مدى سيكون
من صالحه التشويش بين الجزائريين الاثنين معا، بتشجيع كبيراء
الأول للترويج لنظام كانت حكمة الثاني ترفض التطبيق الواسع
له. و بالتالي، فإن سيدي علي الذي يعتبر رجلا متملقا و يقظ الذكاء
رغم حماقة رسالته للجنرال فوارول، بدأ بالبحث عن محاليس خبيثات
الوفد الفرنسي بمعسكر محاولا إقناعهم بأن الجنرال فوارول يغار
بشدة من السلام الذي حققه الجنرال ديميشيل مع عبد القادر و فإنه
يبحث مدفوعا بإحساسه الخائف عن كل الوسائل الممكنة لهدم العمل
التيهوماتي لقائد وهران.

وعندما تمكن من تغليب هؤلاء الضباط، كتب إلى الجنرال ديميشيل رسالة⁽¹⁾ مطولة أعاد فيه ذكر تلك الافتراءات مع فائض من الكذبات.

(1) ها هي الرسالة: "سيدي علي بن الكيلاشي، إلى الجنرال ديميشيل. الحمد لله الذي لا إله إلا هو

إلى سيادة الجنرال قائد القوات الفرنسية بوهران.

وصلت رسالتك إلى ميعوثك عبد الله فتصل معسكر. وحسب الأعراف القنينة المعترف بها بين الحكام، قام بإعلامنا بمحتواها. الله وحده سيجازيك عن الخير الذي قلموه لنا. وقد رأينا فيها حكمتكم وحيطنتكم. فإنت رجل تصوح و ذو أفكار كبيرة و قيمة. و سلوككم أثبت ذلك. أنت رجل شريف و تصرفات بقدر كبير من النزاهة.

عندما رأينا أنه في بلادنا يوجد بين القبائل المختلفة أشخاص ذوي نوايا سيئة، و أن هذه القبائل تتناحر فيما بينها و تعترض سبيل المراسلات مع الجزائر و تشب و تخرب أملاك الأفراد المرتبطين بفرنسا، و عندما رأينا معارك مع جنرال الجزائر، معارك متكررة منذ الاحتلال (و لكن الله لم يصبر هذا الجنرال، و بقيت كلماته و كلمات أتباعه من العرب دون صدق) عندما رأينا كل ذلك، أخذنا المبادرة بالمجيء لملاقات الحاج عبد القادر و التوصل إليه لتقديم الهدية، و بوساطتكم عقد صلح بيننا و بين جنرال الجزائر كما تم في هذا الاقليم. لقد كتبنا عدة مرات إلى الأمير قبل مجيئنا لدعوته إلى بلننا. أرسل رسالتك لكل القبائل التي تسكن الجبال و التي سكان المدن في اقليمنا لا علمهم بأنه خلق هدنة مع كل الفرنسيين المتواجدين بإفريقيا مع الالتزام بأحكام شريعتنا. و قد تبهم بأن لا يقطعوا سبيل المراسلات، لا تسلبوا و لا تقتلوا أي فرنسي و لشكروا حينما هذه الكلمات التي أكررها في كل رسالتك.

و حسب هذه الأوامر تولفنا عن الحرب مع الفرنسيين و لم تعد تسلب أو تشب و المراسلات كانت حرة. و على الرغم من هذا خرج جنرال الجزائر عنده و أجبروه على العودة إلى الجزائر. نتيجة لذلك قام كل القبائل برفع السلاح و ساروا إلى نواحي الحدود إلى الجزائر.

بعد التفكير من أجل إعلامه بتصرف الجنرال. كتب الأمير للجنرال دون أن

و الأحداث و التفاصيل المفترضة، حيث يصعب علينا تصور كيف حدث و أن تم استغلال الجنرال ديميشيل.

يلوم على خرجته للحجوبيين، و لكن أعظمه بنيت في زيارة تلك القبائل و أنه ينظر إلى الاتفاقية من ناحية الدين، و أضاف بعدم الاستماع للأشخاص ذوي النوايا السيئة الذين يريدون نشر الخلاف بينهم. رسالة الأمير كانت تحوي الكثير من الأقوال الأخرى الحاملة للسلام. لقد أجاب جنرال الجزائر و هذا ملخص رسالته: (ملخص مشابه لرسالة الجنرال فوارول إلى عبد القادر و لكن أضاف سيدي علي إليه الجملة التالية: حكومة إفريقيا لا تنتظر إلى أحد غيري الجنرال ديميشيل ليس شيئا و غير مسموع به عند الملك الأعظم بباريس). هذا باختصار ما جاء في رسالة جنرال الجزائر. أنا، سيدي علي، عبد الله، كتبت للجنرال و أوصلت له رسالة الأمير بنية الوساطة بينهما. هذه إجابته) ملحق نسخة من رسالة الجنرال فوارول إلى سيدي علي، لقد قام هذا الأخير قام بإيلاج الكثير من جمل الادراء للجنرال ديميشيل) هذه هي الإجابة على رسالتي أنا سيدي علي.

وفي الوقت الراهن، سيدي علي و جه الأشياء التالية للجنرال ديميشيل و أتم الذين يتمتعون بالحكمة و البلاغة افهموا ما أكتبه لكم و عطفوا على أقوالنا كلمة بكلمة.

يمكنني القول لكم أن جنرال الجزائر يغار منكم لأنكم أنتم من توصل إلى الصلح و ما بثت ذلك هو نيته بالكتابة إلى ملك الفرنسيين من أجل طلب التصريح لتفاوض مع الأمير. يريد أن يفعل منكم أو بالأحرى إلغاء ما فتمت به و لكنه يستحيل أن ينجح لأن سلوككم معروف من الشرق إلى الغرب و لولا أن الحاج عبد القادر لم يرسل ثلاث أو أربع رسائل إلى العرب عبر و ساطتي لقتلوا الآن لا يزالون في حرب مع الفرنسيين في منطقة الجزائر و كانوا كل يوم و كل لحظة يعرفون معارك جديدة.

في كل رسالة كل عبد القادر يقول بأنه سيأتي إلى بلادنا و كل القبائل

حشرون و منتظرة بكل فرح وصوله. و نقول لكم أن أحمد باي قسنطينة، يرسل

لقد تم ذلك إلى درجة أنه لم يعد يشك في تفوق النظام الذي كانوا يقولون أنه يشعل لدرجة كبيرة غير خصمه و لم يعد يفكر إلا في دفعه

في كل شهر رسائل إلى قبائل ضاحية الجزائر لحثهم على محاربة الفرنسيين. على أية حال هو بنفسه يتحضر كما يقول على مهاجمتهم، و أكد أن محمد علي ولي عهد مصر سيدعه بأسطول و لكن لا أحد في بلدنا يصدق أقواله. و لذلك كان من واجبي إعلام رجل مثلكم، تستحقون معرفة ما يحدث من أجل ألا تتم مفاجنتكم من الماكربين. ذاع صيتكم لدينا كرجل عاقل و شريف، لم يتمكن أحد منذ الاحتلال من القيام بما قمتم به و هذا ما يثبت حكمتكم. و ما يثبتها كذلك هو إرسالكم لعبد الله و ضابطين إلى معسكر. عبد الله رجل يعرف العديد منهم و يعامل كل واحد كما يستحقه و تكليفكم لهذا الضابط بهذه المهمة يثبت حيظتكم. كونوا متأكبين بأن سلوككم مع عبد القادر ألهب غيرة الجنرال فوارول، و أن لكم الكثير من الأعداء نظرا للصداقة التي تربط بينكم و بين الأمير. هذا قولي. علي بن الكيلاني مرابط مليانة".

ها هي الرسالة التي قال عنها الجنرال ديميشيل في كتابه أنها كانت جد مميزة و أن التقاليد العسكرية تمتعه من وضعها أمام أعين القارئ. لا يوجد ما يعبر هذه الرسالة سوى وقاحة سيدي علي و سذاجة الجنرال ديميشيل. إنه لمن الحزين لفرنسا رؤية استغلال أنصاف الوحوش و تلاعبهم بأهواننا. وقبل إرسال هذه الرسالة إلى الجنرال ديميشيل، أخبره سيدي علي بواسطة أحد ضباط البعثة بمعسكر بأن الجنرال فوارول و بنية الانقاص من قيمة ما صنعه بوهزان أراد أن يكون له عبد قادر من جهته أيضا، فاختار للعب هذا الدور الحاج محي الدين الصغير، المعين من طرفه أغا على العرب و لكن بما أن هذا الأخير لم يتم الاعتراف به فقد فر من الجزائر بالأموال التي منحها إياه الجنرال فوارول. هذه الكذبة كانت كبيرة لدرجة أنه لم يتجرأ على تكرارها في رسالته. و لكن الجنرال ديميشيل سجل ذلك و هو بدون شك ما لمح به في

إلى أغرب النتائج: فصرح لعبد القادر بأنه سيجعله أكبر مما تجرأ حتى على ثمنه، و كان لا بد من أن يحكم في كل مكان من المغرب إلى تونس، لا بد من أن عبد القادر قد ابتسم بصمت عند سماعه لضمانات مماثلة تخرج من فم الضابط الذي جاء ينقلها له باسم الجنرال و لا بد أنه كان غير قادر عن تصديق هذا الإفراط في الغفلة. وفي انتظار تحقيق هذه الوعود المتملقة التي قدمها الجنرال ديميشيل و التي أجلها إلى غاية قدوم المحافظ في زيارته المعلن عنها منذ مدة، إهتم عبد القادر بالإدارة بعد صخب الأسلحة. عين القياد و القضاة لكل القبائل التي كان ينقصها ذلك و رتبها كلها في خمسة أقسام رئيسية و على رأس كل قسم منها وضع أغا. ثبت كل هذه النشاطات بأنه كان يرمي إلى تحسين المجتمع العربي دون الاقتباس من المجتمع الأوروبي. و يبدو أنه لم يكن يحسد هذه الأخيرة إلا في تطورها التقني.

ربما أنه عند رؤيته عن كثب للمشاعر الرقيقة لبعض الرجال الذين وضعتهم الظروف السياسية في علاقة معه، كون فكرة غير إيجابية عن حضارتنا أو ربما يكون كبرياءه الوراثي يبعده عن ذلك. مهما يكن، من

كثفه بالتسويات العرضية التي تم شراؤها بالأموال. إننا نعلم الآن بأي ثمن تم شراء أرتقبات الجنرال ديميشيل.

الأكيد أنه لم يسمي قط للتشبه بنا. ولا بد من القول أنه لم يكن إلى جانب الأوروبيون قادرين كفاية وفي نفس الوقت أكثر تحكما في اللغة العربية لمنح شروحات و أشياء كثيرة كان بإمكان ذكائه البقظ و اللامع من فهمها.

و إلى غاية أن تأخذنا روايتنا إلى إدارة الكونت ديرلون، نحيد نظرتنا عن وهران و معسكر لتوجيهه قليلا إلى بجاية. لقد قلنا في الكتاب 10 بأن الجنرال تريزيل Trézel عند مغادرته المدينة منح القيادة إلى السيد دوفييه Duvivier الذي عينه الوزير قائدا عاما عليها. السيد دوفييه كان قد عاد إلى فرنسا بعد حل الكتية الثانية للزواف Zouaves أين تم وضعه في الفرقة الـ 15 للصف. بعد فترة وجيزة فهم الوزير بسرعة بأنه ليس بالرجل الذي يترك مطولا على الحامش فوضعه في موقع يمكنه من خلاله استعمال مواهبه و خبرته. هذا المنصب لم يكن سهلا إذ كان من الضروري القيام بالحرب من أجل الحصول على السلام. سائر القائد الجديد هذه الحرب و لكن الحرب لم تجلب قط السلام.

كان من المقرر إنشاء تحصينات على مداخل السهل. في الخامس من جانفي، بينما كنا نعمل على ذلك، قام الأعداء بإرهاب العمال. هذه الهجمات كانت أكثر في السادس و لكن بعد عدة ساعات من المعارك انسحب العدو بعد التأكد من عدم جدواها.

في ليلة السابع إلى الثامن عشر من جانفي، هجم القبايل بحوالي 4000 رجلا على السفوح الناحية لمواقع الأمامية و التي هاجمها عند مطلع

الشمس. الاشتباك دام إلى غاية الثانية بعد الظهر، انسحب عندها العدو همتلا بالصايين و عند المرور من السهل وجدت الكثير من فرقهم نفسها تحت نيران البارجة لو لواري Le Loiret التي كانت في الميناء و التي كبدتهم خسائر كبيرة.

في الخامس من مارس، قرر القائد العام الأخذ بزمام المبادرة بعدما تم إبلاغه بأن القبايل يحضرون هجومات عامة، كما أن معرفته الجيدة بطبع الجندي الفرنسي جعلته يعمل على عدم تركه في موقف دفاعي دائما. فخرج من مقره بكل الفرق التي في متناوله و توجه نحو قلايلنا Klailna بقرية المزايا Mzaïa التي لا تبعد بكثير عن بجاية، فوجدها مهجورة من سكانها الذين فروا قبل قدومه، و ظن أنه يجب إحراقه. بعد قليل ظهر القبايل من كل جهة مطلقين صيحات عالية حسب عاداتهم و استعدادا لمهاجمة الفرنسيين الذين بدأوا بالتراجع. أمر الرائد دوفييه Duvivier انسحابا تدريجيا و الذي تم تطبيقه بنظام باهر. ألحقت الفصيلة الثالثة لقناصي افريقيا ضررا كبيرا بالعدو. و عاد الجيش إلى مقره دون التعرض إلى أضرار محسوسة. الطريقة التي ناور بها السيد دوفييه Duvivier في هذا اليوم و الأمثلة الكثيرة عن شجاعته الشخصية جعلته يكسب أكبر قدر من ثقة و حب جنوده.

حاول السيد دوفييه في الكثير من الأحيان الدخول في مفاوضات مع السكان المحليين عن طريق أخ بومست، السيد جولي Sieur Joly الذي

كان يلعب لوحده وسط القبائل و كان على علاقة مع وليد أورباخ، ومع
المسمى بن غرابدن إمام مسجد بجاية، هؤلاء الأعوان - في حقيقة الأمر
كانوا يعملون لصالحهم أكثر من الصالح العام - ولما لم يتحصل على النتائج
المتوقعة، قام بطردهم وخسر بتسرع أعوانا كان من الممكن الاستفادة منهم
لو وجههم جيدا.

في 18 و 19 و 24 من أبريل، قام القبائل بهجمات على مواقعنا بأصرار
كبير. ولعاقبتهم خرج القائد الأعلى في 23 و أحرق قريتي ديار نصار و
قومرام. خسر القبائل 60 رجلا في هذا اليوم الذي لم يكلفنا سوى قتيلا و
اثني عشرة جريحا.

في 29 أبريل أظهر العدو قوته بمطحنة الداموس أين كان القائد الأعلى
يقف على أشغال تنظيف رأس جدول صغير تتدفق مياهه في البحر قبالة
الحصن المقام في السهل. وسرعان ما نزل القبائل إلى السهل وقاموا بإرباك
العمال. قام القائد الأعلى بضدهم بفضل كتيبة القناصين، نفذ النقيب هيرين
دوسو Herbin-Dessaux، الذي كان يقود هذه الفصيلة، هذه العملية
بقوة وذكاء. هذا الضابط الباسل كان له شرف القيام بالعملية الأكثر تألقا
والأكثر إبهاجا في إفريقيا حيث قتل 50 من القبائل و لم يخسر سوى ثلاثة
رجال.

قام القائد الأعلى بدعم هذه الحملة ببعض فرق المشاة وهو احتياط يتوجب

القيام به دائما في إفريقيا لأن خوف الفرسان من إصابتهم أو سقوطهم من
أحصتهم يقضي على همهم ان لم يحسوا بالدعم. السيد دوفييه Duvivier
الذي يعتبر ربيما الرجل الأكثر معرفة بالحرب في إفريقيا لم يغيب عنه هذا المبدأ
أبدا. هذا الضابط الممتاز استخدم في كل معاركه في بجاية مواهب تستحق
التقدير.

في الثامن ماي جاء القبائل لمهاجمة التحصينات العليا و بعد ساعات من
الاشتباك، فرقهم الأمطار الغزيرة.

في الخامس من جوان جاء العدو للتجمع أمام بجاية في تنظيم حسن
على العموم. الجانب الأيمن يستند إلى البحر و الأيسر إلى مطحنة الداموس.
كانت دعوتهم للمقاتلة مفتوحة، لكنه لتفوقهم العددي كان من الطائش
قبول ذلك. فاكفى الرائد دوفييه Duvivier بصد استفزازهم بضربات
المدفعية. على التاسعة ليلا، قام البعض منهم بتسليق حواجز شرفات حصن
السهل فجرحوا و قتلوا جنود المدفعية فوق أسلحتهم. لكن تم دفعهم إلى
الخندق و إلقاء قنابل تم إضرارها يدويا فقضت على الكثير منهم.

في 23 جويلية، جاوز قطيع ماشية الإدارة أسوار مدينة بجاية و تقدم
لبعد من الحدود المسطرة للرعي فتم اختطاف جزء منه من طرف فرقة كبيرة
من الفرسان كانت تتربص وراء سفوح مطحنة الداموس. فلاحقهم القائد
الأعلى بكتيبة من القناصين مدعومة ببعض المشاة. وصلت هذه الكتيبة إلى

خطافه واد بومسعود ووجدت نفسها أمام 150 فارس وهي لم تتعدى 40 في تلك الأثناء فاضطرت إلى التراجع خاصة وأن القطيع قد تم إتيانه إلى مكان بعيد. ثم دعم حركة التراجع هذه من قبل صف من المقاتلين المشاة بقيادة نقيب القيادة العليا لانتور دو بيان La tour du Pin. تكبدت هذه الحامية العسكرية بجاية في هذا اليوم 5 رجال و 13 جريحاً وخسرت قسمها من أبقارها بما يعادل 357 رأس، واكتفت لبعض الوقت باللحم المقتد، والأسوأ من ذلك أنها احصت في وقت قريب أكثر من ألف مريض.

أما الزائد الذي كان يقود حصن السهل فقد تمت متابعته أمام مجلس الحرب بنهضة عدم فعل كل ما كان في وسعه من أجل حماية القطيع، وتمت تبرئته. كان رجلاً شريفاً وعائياً أثناء هذه الحادثة من البؤس أكثر من الاتهام. قام مجلس الحرب بإرجاعه حين تبرئته وكذا الأمر بالنسبة للقائد العام حين قام باتهامه. لقد عانت الحامية العسكرية بجاية خلال سنة 1834 من الفاقة والارهاق بشئ أنواعه. لكنها أثبتت تماسكها بشكل رائع. كانت المعارك بالنسبة لها أيام الاحتفال والتولية الوحيدة.

لقد تلقى السيد دوفيفيه Duvivier دعماً رائعاً من أغلبية الضباط الذين هم تحت إمرته، فالنقيب دولانتور دو بين La tour du Pin الذي كان يشغل منصب رئيس القوات العليا، قد تميز لدى رئيسه بمهامه الذكي و لدى الجميع بشجاعتهم.

تم تأسيس حصنين من طرف قائد بجاية. الأول أمام باب اللوز والمسمى الحصن الأعلى، والآخر في الأسفل عند مدخل السهل والمسمى الحصن الأدنى. أدى السلوك العسكري الجيد للسيد دوفيفيه بجاية إلى استحقاقه رتبة ملازم - عقيد وهذا جد قليل إذ كان من المقروض أن يرقى لدرجة أكبر.

الكتاب 14

طبيعة العلاقات بين الجنرال فوارول و السيد جتي دويوسي
Genty de Bussey - هذا الأخير جعل نفسه المتحكم بقرارات
مجلس الادارة - الأعمال الإدارية - العدالة، الأملاك، المالية، التجارة،
الزراعة، الأشغال العمومية، الشرطة، الطرقات.... الخ - لجنة الجزائر
- لمحة عن أشغالها - خلاف الجنرال فوارول و الحاكم المدني - قضية
صوفار - ارتداد مغربية إلى الديانة المسيحية و تبعات هذه القضية -
تعيين الجنرال درويي كونت ديرلون Drouet comte d'Erlon
محافظا عاما للممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا والسيد لوباسكي
Le pasquier كحاكم مدني - مغادرة السيد جتي Genty - المغادرة
الظاهرة للجنرال فوارول.

رغم أن الجنرال فوارول لم يهتم أبدا إلا بصيغة غير مباشرة بالعلوم الادارية،
إلا أن حسه اليقظ و ذكائه السهل أعطوه مفاتيحها بسرعة. و لكن للأسف
إحساسه الدائم بأنه في منصب مؤقت منعه من الدخول إلى ميدان غريب عنه.
و كان هذا عسارة كبيرة لأنه كان رجلا جيدا و ذو ضمير و لو أنه تحصل على
العارف الخاصة التي كانت تنقصه لكان استحوذ على منصب المحافظ بيد
صلية و دون تردد و لكأن من المحتمل أن تمنحه إياه الوزارة و لا كان لا
والد على رأس المشوطة و لم تكن مروت على الإدارة المؤسفة للكونت ديرلون
comte d'Erlon.

لقد رأينا في الأجزاء السابقة كيف أن الأخطاء والأعمال الضعيفة وخشية القيام بتجاوز منصبه الانتقالي أدت بالجنرال فوارول إلى التعامل مع العرب. أما في العمليات الإدارية، فقد جعله الانشغال بتلك الصفة المؤقتة في وضعية تبعية مطلقة للسيد جنتي دوبوسي. لو أن هذا الأخير كان ينقاد سوى بحسب فعل الأفضل بدون التفكير في حب ذاته أو مكاسب شخصية لكان فعل الكثير من الأشياء الجيدة مع هذا الرجل المتواضع الذي أحس بحاجته لأن يتم توجيهه في مهنة جديدة بالنسبة له. لكن رغم نقص معارفه المتخصصة إلا أنه كان يتمتع ببعده النظر وبتفطن عندما ينحرف عن الطريق المستقيم. ول سوء الحظ، كان هدف السيد جنتي الرئيسي من أعماله هو وضع نفسه في أعين الكل أعلى من رتبة ملازم جنرال أمام الرأي العام، رتبة لم تتحقق بعد في الحقيقة لكي يسهل الانتقال بعد ذلك من الخيال إلى الواقع. ولو أن جدارته كانت تفوق تلك التي يتمتع بها رئيسه لكان من الممكن الاكتفاء بعلو الشأن الفعلي، لكنه لم يكن يتميز على السيد فوارول في العلوم الإدارية سوى بالأفضلية التي استمدتها من روتين المكتب ومصطلحات المهنة وميزة الإسهاب بالكلام المطول في نفس الموضوع وبشكل محتمل. كل هذا لا يشكل تفوقاً مميزاً للسيد جنتي على العموم والذي كان رجلاً ذو دهاء ومن المؤكد أنه كان باطلياً يعرف نفسه جيداً ومليء بالرضا، فهم بأنه إذا كلف نفسه عناء التحدث مع الجنرال فوارول وطرح عليه مشاريع القرارات وحاول تلقينه مبادئ ومناهات الإدارة لحسن هذا الامتياز، لأنه لم يكن عليه

تلقينه الإجراءات الأساسية والحيوية والتي يعود شرف إعدادها إلى الذين ابتكروا فكرتها الأولى. لذلك، عمل كل ما في وسعه لتركه جاهلاً لكل هذه القضايا ولم يفكر سوى في الحصول على إمضاءات موثوقة.

خضوع السيد فوارول لإرادة السيد جنتي كانت مبررة بخضوع مجلس الإدارة الذي انساق خلفه. هذا الرجل البارح رتب الأمور بطريقة لم يتم فيها أبداً وضع جدول أعمال للفصل في أشغال هذا المجلس فكان الأعضاء يصلون إلى الجلسة دون تحضير المواد التي كان من المفروض مناقشتها. وبما أن السيد الحاكم المدني الذي نظراً لمنصبه كانت له المبادرة بكل الإجراءات فقد بات المتحكم الوحيد في القرارات وكان يمرر كل ما يريد، وتعود كثيراً على فكرة سلطته المطلقة على فعل كل شيء لدرجة أصبح يتضابق حتى من الاعتراضات المحتشمة وكان دائماً متحضراً لقول مثل رويسبير Robespierre في المؤتمر الوطني: "هناك تهامس، أظن". لم يكن لديه نفس الوسائل التي كان رويسبير يرد بها على معارضييه، لكن ما كان يحصل عليه هذا الأخير بالترهيب كان السيد جنتي يستحوذ عليه من خشية زملاءه من تحمل الإسهاب في فصاحته الإدارية بخصوص القضية الواحدة.

لو أن السيد جنتي قد نجح بتواضع ولو أنه لم يظهر علانية التفوق الثقافي الذي كان يظن امتلاكه عن الجنرال فوارول وتفوق نفوذه الإداري الذي لسوء الحظ كان حقيقياً والذي وضع يده عليه كلياً، لما فكر هذا الأخير في

إراحة ثقل أهلكه. ولكنه عندما رأى أن الحاكم المدني لا يعمل إلا لصالحه الخاص دون الأكرات البتة برئيسه، تفتت حساسيته كرجل و كقائد و نتج عنها رد فعل كانت نتائجه وخيمة بعض الشيء على السيد جتتي و هو ما لن نتأخر في رؤيته.

سقوم بتعريف القارئ، حسب كل فرع من الخدمات، على أهم التطورات الإدارية التي تمت تحت قيادة الجنرال فوارول.

العدالة: كثير من الأسباب خففت من عدد القضايا في الجزائر. مرسوم 22 جوان 1833 خفض عدد قضايا المحكمة الجنائية إلى خمسة و كانت الأحكام تصدر بأغلبية أربعة أصوات. كان هذا المرسوم مؤقتا و لكن إجراءاته أصبحت دائمة بمرسوم 2 أفريل 1834 في كل الحالات أو إذا كان عدد القضية أقل من سبعة تحت أي عارض ما.

الأملاك: لقد رأينا في الكتاب الخامس لهذا العمل، أن الجنرال كلوزيل صادق في 8 نوفمبر 1830 على مرسوم يمنع بطل الملكية لكل الأراضي و لا يسمح بالكراء إلا لثلاث سنوات. هذا الاجراء كان صائبا فالسيد كلوزيل كان يفهم كل المزايا التي يمكننا الاستفادة منها من خلال هذه الأملاك لصالح الاستيطان. ولم يكن يريد أن تتنازل الدولة عنها لأي من المضاربين. السيد جتتي فور تغيير هذا التشريع و لا تدري لأي سبب. وبناء على ذلك جاء مرسوم 2 أفريل 1834 يسمح بالكراء أو التنازل

من المباني الريفية بالتراضي أو بموجب حكم قضائي يمكنه أن يمتد إلى 99 سنة. وفعل نفس الشيء بالأكواخ و المباني المهذمة و المحلات الأخرى ذات القيمة المتدنية. أما المنازل و المتاجر و المحلات فلا يمكن كراءها إلا لـ 6 أو 9 سنوات و بموجب حكم قضائي. و لقد رأينا في الكتاب الثاني عشر أن الدولة تملك عددا كبيرا من المزارع الجميلة في النتيجة و من الأفضل ألا يتم منحها لسماسرة عقاريين و لكن إلى تعاقدات عمالية لن يكون من الصعب تشكيلها.

في 28 أفريل 1834، جاء مرسوم للتذكير بأن أي عملية نقل ملكية أو كراء المباني المحجوزة كان باطلا، و حدد عقوبة العزل ضد الموثقين، القضاة و الخاضعات الذين يصادقون على عقود من هذا النوع غير صادقة عليها من السلطات.

المالية: بموجب مرسوم 2 جانفي، حددت رسوم الاستيراد بـ 8% لعدد كبير من السلع الأجنبية الخارجة من المستودعات الفرنسية والمستودعة تحت راية فرنسية. هذا المرسوم الذي خفض إلى 2% رسوم الاستيراد على هذه السلع كان بموجب قرار من وزير الحرب. في 27 فيفري حددت رسوم الأرشاء بكل موانئ المنطقة بـ 75 سنتيم للبرميل للسفن التي تحمل راية اجنية و 50 سنتيم للبواخر الفرنسية.

التجارة: لقد أثارت التجارة العديد من الشكاوى الموجهة للسلطات من أجل التشريعات المطبقة على الحبوب و التي كانت تمنع التصدير لبعض الوجهات و التي أخذها السيد جتتي بعين الاعتبار و قرر بأن

يكون التصدير مسموحا بعد التأكد من توفير الاحتياطي منها، و
سيكون فقط ربع من الأجمالي المحدد بـ 2,734 قنطارا للجزائر.
تم القتل اجراءات في نفس الفترة تقريبا لمنع احتكار سلع الاستهلاك
اليومي.

في 9 جويلية 1834 تم تحديد ضريبة إضافية بـ 15% على
الرخص الروسية من أجل تغطية المصاريف المتعلقة بغرفة التجارة.
في 18 أفريل من نفس السنة تقرر أن تدوم هذه الغرفة ستة واحدة.
الرسوم التي أنشأها أثناء عهدة الجنرال كلوزيل حدد مدة تجديدها
بـ ستة أشهر.

الزراعة: أسس السيد دويشي بالقرب من الجزائر بالحي المسمى
الحامة حقلية يقال عنها للأقلعة والتكيف تقام بها تجارب استنبات
مختلفة، وهي فكرة سديدة شتمكن من حل الكثير من المسائل المهمة
والمعلقة بمستقبل البلد. في الواقع أثبت التجارب أن كل من القطن،
نبات النيلة indigo وقصب السكر تنهش مع تربة المستوطنة. القطن
الذي تحصلنا عليه يهاهي في نوعيته أجود أنواع القطن الأمريكي.
الحاصل التي تم جنبها سنة 1833 أعطت متوجا أعلى من المستوى
الأصلي ما هو إلا دليل على أن القطن بعيد عن الخسارة بالجزائر. النيلة
التيغالة والنيلة التحصيل عليها مماثلة لتلك بكاراكاس.
السيد دويشي كان لديه حملة نشر الحنظل cochénille والتي

حلبها من الأندلس وخصص لها مستودعا بالقرب من الجزائر تحت
إدارة عون خاص مكلف بالترويج لها. تشير هنا بإيجاز للأعمال المقيدة
للسيد دويشي لدرجة أنها قد تبدو في بعض الأحيان للقارئ غير
مواتية.

الأشغال العمومية: لقد رأينا في الكتاب الثاني أن بعض أشغال
التجفيف بدأت تحت إدارة الجنرال فوارول؛ هاهي الإجراءات
الإدارية المتخذة في هذا المجال. مرسوم 17 أكتوبر 1833 يلزم كل
أصحاب الأراضي السبخة أن يصرحوا إلى مكتب الأملاك بالحجم
الذي يملكونه وبنيتهم في القيام بأشغال التجفيف بأنفسهم.

إذا لم يتم القيام بهذا التصريح في أجل أقصاه 15 يوما وفي حالة ما
إن لم تبدأ الأشغال خلال مدة شهر من الإدلاء بالتصريح، ومهما كانت
الظروف الممكنة تسجيلها فإنه تم تقرير أنه سيتم المزايدة على الأراضي
السبخة من خلال مزاد علني على حساب و مجازفة أصحابها ويمكن
بموجب أحكام قضائية للحكومة أخذ هذه الأراضي بالسعر المحدد
للمزايدة. الحكومة أو من رسا عليهم المزاد المعوضين لأصحاب
الأراضي الذين لا يريدون القيام بأنفسهم بأشغال التجفيف يمكنهم
استغلال هذه الأراضي مدة 15 سنة ابتداء من اليوم الذي تنتهي فيه
الأشغال.

ومسلحا بهذا المرسوم تقدم قسم الهندسة العسكرية و المكلف
بالأعمال بتجارب التجفيف و بدأ الأشغال بالمزرعة النموذجية و بـ

Maison Carrée و لكن ما حصل هو أن الإدارة لم تفي بشروط الإجراءات المحددة بالمرسوم الصادر منها، فقام أصحابها بنقض الجزء المتعلق بالسنوات الخمس عشر من الاستغلال و بما أن هؤلاء الملاك لم يكونوا من الأهالي البسطاء و الممكن صدهم بأسباب واهية كعدم التأسيس و لكن كانوا من الأوروبيين الذين يعرفون كيف يُسمعون أصواتهم فكان لابد من إيجاد تسوية، و بذلك لم يتم تطبيق مرسوم 17 أكتوبر كما هو شأن مراسيم أخرى.

مرسوم آخر بنفس التاريخ نظم أشكال المصادرات لأجل المنفعة العامة. هذه المصادرات كان يجب الإعلان عنها بقرار من الجنرال المسؤول و الحاكم المدني و يتم تطبيقها خلال 24 ساعة. يجب أن يتم تحديد التعويض المقدم للمالك المجرد من ملكيته قطعيا و دون نقص من طرف خبير مشترك، و تم تقرير أن كل ما يخص أشغال الطرق فإن القيمة المضافة للأراضي المتبقية نظرا لهذه الأشغال ستعتبر كتعويض كافي للتي كانت ستغزو الطريق. رغم أن هذا المرسوم يبدو قاسيا إلا أنه تمكن من إعادة النظام لأنه لحد الآن قمنا بالمصادرات دون أي شكليات أو إجراءات تحافظ على حقوق الملاك المجردين من أملاكهم. علاوة على ذلك، فمن الواجب القول أن الإجراءات الطويلة و المزعجة للمصادرات لأجل المنفعة العامة ستجعل كل لحسين بالجزائر غير ممكن. فكما قلنا سابقا يوجد كم

مائل من الأوروبيين الذين لا يشترون إلا بنية ابتزاز الإدارة. عندما قمنا بإنشاء الطريق الجميلة لبئر خدام كل الناس العقلاء تعجبوا من المغالطات التي أثارها أحد الأشخاص الذين أردنا أخذ قطعة أرضية صغيرة منه. هذا الشخص كان موظفا عموميا براتب كبير. لا يجب أن نترك الإدارة تحت رحمة جشع بعض الأفراد عندما يتعلق الأمر بالمنفعة العامة. هذه الحقيقة تم لمسها في فرنسا و في الجزائر. وفي هذا السياق تم تعديل التشريعات للمصادرات لصالح المنفعة العامة. و إذا لم يكن بإمكاننا لوم مرسوم 17 أكتوبر مبدئيا، إلا أن تطبيقه في غالب الأحيان تستحق ذلك. فالتعويضات الموعودة نادرا ما كان يتم دفعها قبل عملية المصادرة، و لولا بعض الملاك المعوزين من طرف قسم الهندسة العسكرية لكانوا في نفس وضعية السابقين أي أنهم ينتظرون و لكن منذ وقت أقل. كما تم طرد الكثير من الناس خارج منازلهم و لم يُترك لهم متسع من الوقت لإيجاد ملجأ جديد. فخلال سنة 1834 أراد السيد الحاكم المدني توسيع حديقة التجارب، مما جعل الجنرال فوارول يصادق على قرار تجريد أحد المغاربة من بستانه الصغير الذي كان يعيله و عائلته، وعند طرده السكن منه في اليوم الموالي حسب مرسوم 17 أكتوبر، جاء باكيا و الرمر مع أطفاله عند رجلي الجنرال الذي أرسله إلى الحاكم المدني.

وأجابته هذا الأخير بأن قوانين المحاسبة لا تسمح بدفع تعويضاته المستحقة على الفور وبأنه سيتكفل بذلك. ولم يستطع هذا البائس - الذي جرد من ملكيته والذي كان دون دخل - العيش مغلولاً إلا من إحسان الجنرال فوارول الذي ندم عقب إمضاء مرسومه له مثل هذه التبعات. هل كان من الضروري أن يتم توسيع حديقة التجارب على حساب عائلة أجبرناها على التسول؟ وهل لا بد من وجود لمأطل فيها يخص إجراءات التعويض بهذا ولا يكون كذلك عند المصادرة؟ نحن لا نظن ذلك⁽¹⁾.

نص المرسوم حول ملكيات الأراضي المورخ في 2 أبريل 1835 على أنه إذا ما دخل عقار جزئياً في مخطط البناءات المصادرة للمتفعة العامة فإن للمالك الخيار بين هجره كلياً أو الحفاظ على ذلك الجزء. الشرطة: الإجراءات الأمنية المتخذة من طرف الجنرال فوارول هي إلزامية حصول كل العمال على دفتر صادر من محافظ الشرطة؛ تشكيل لجان مكلفة بالحرص على النوعية الجيدة للمواد الغذائية إتلاف المواد النافقة أو المفسدة. وأخيراً بعض الإجراءات الخاصة بالجوازات.

(1) يمكنني تذكر عدد هائل من الحالات المشابهة ولكنني سألتخصر في الحالة التالية التي فيها من الضرورة أكثر من حالة مغاربي الحامة. استحوذت الإدارة على قطع حجارة جزء منه يقع في حديقة دون أن يتم الإعلان عن التصرف. و دون أن يتمكن المالك ليست القول بالحصول بل حتى الترتيب لأقل تعويض. كل هذه الإهانات تقع على رؤوس السكان المحليين. وبسبب الغاشي عن حقوقهم المهدومة بشكل مغزوي أصبح لدى أكثر من عدد حين كنت على رأس مكتب العرب.

وتقرر بمرسوم 27 جوان 1833 أنه لا يمكن لأحد الإقامة في المنطقة دون أن يكون حاملاً لجواز صادر من السلطات الفرنسية إذا كان فرنسياً ومن طرف أعوان القنصلية الفرنسية إن كان أجنبياً. كما قام هذا المرسوم بتلخيص و تعديل الإجراءات المتخذة مسبقاً في هذه المادة.

شبكة الطرق: أنشأ مرسوم 8 ماي 1833 مجالس لمصلحة الطرق⁽¹⁾ للجزائر، وهران وعنابة. في نفس اليوم جاء مرسوم ثاني حدد أن أصحاب المنازل التي تحتاج إلى ترميم و تهدد الأمن العام يتم أمرهم من طرف أعوان المصلحة بتصليحها وإذا لم يمثلوا إلى الأمر فإن هذه المنازل ستوضع للكراء في المزاد العلني لحساب أصحابها تحت رعاية السلطات البلدية. صاحب الصفقة يتوجب عليه تطبيق التصليحات للقيمة من طرف مهندس المدينة في الأجل المحددة بدفتر الشروط. مدة الاستئجار تكون حسب الوقت الضروري لكي يغطي سعر الكراء قيمة التصليحات بالإضافة إلى استغلال لمدة ثلاث سنوات يدفع خلالها الكراء للمالكها.

مرسوم 17 أكتوبر للمصادرات حدد فيها يخص مصلحة الطرقات، أنه إذا ما هدم منزل الطريق العام ولا يستطيع المالك هدمه على حسابه فيتم هدمه على حساب الإدارة التي تبقى القطعة الأرضية كرهن حتى يتم تغطية كل التسيقات.

(1) الذي قام بتأسيسه الجنرال كلوزيل لم يعد موجوداً منذ مدة طويلة.

الجزء الأول

كل هذه الاجراءات استلزمتهما حالة مدن المنطقة التي نشغلها. الفقر وعدم اليقين من المستقبل كانا متفشيان لدرجة أن السكان لم يستطيعوا أو لم يريدوا القيام بترميم مساكنهم. كل قطرة مطر و كل هبة ريح كانت تتردى بعض المنازل فالمباني في إفريقيا ليست متينة و هي بحاجة إلى صيانة دقيقة و دائمة، و أدى توقف الصيانة لمدة ثلاثة سنوات إلى تدهور الأمور إلى حد تهديد المدن بدمار عاجل و مؤسف. كانت عمليات الهدم من أجل توسيع الطرقات مستمرة و تتم بسرعة لأن الإدارة قامت باختصار كل الإجراءات المتعلقة بذلك و لكن إعادة البناء على العكس كانت تتم ببطء لأنه تم عرقلتها بالصعوبات الإدارية، و تجدر الإشارة إلى أنه في الجزائر دائما ما تسير الإدارة بخطوات عملاقة فيما يخص الهدم و بخطوات سلحفاة حينما يتعلق الأمر بالتشيد. لقد خسرنا وقتا معتبرا من أجل تحديد المسارات و وقتا ثميناً حتى يتم المصادقة عليها في باريس. إنه من الجيد أن نعلم أن تقرير الشكل الذي ستأخذه الجزائر الجديدة يتم بباريس. بعد ذلك يجب انتظار تصريحات البناء لمدة شهرين و أخيراً و بجهود مضيئة تمكنت هذه الصناعة الخاصة منذ نهاية 1834 من إعادة تشيد بعض الحطام الذي كدسته الإدارة.

تم تحديد أشكال الطلبات المتعلقة بالطرقات بمرسومين لـ 27 جوان و 27 نوفمبر 1833. هذا الأخير رتب الشوارع إلى شوارع ذات طرق كبيرة و أخرى ذات طرق صغيرة. القارئ سيلاحظ بأن السيد جوتي دويومي لا يصل أبدا إلى شيء كامل من الضربة الأولى في أي موضوع كان. و هذا يعود إلى أنه

كان يتوجب عليه دائما إعادة تكوينه الإداري و أن يستعمل كل العناصر ليس في دراسة البلاد و إنما في المجموعة الغليظة المسماة نشرة القوانين.

من بين الأعمال الإدارية للجنرال فوارول التي لا تدخل في الأقسام التي قمنا بسردها نذكر مرسوم 1 جويلية 1834 الذي ينص على إمكانية بيع البارود في مدن الإقليم المتواجدة به فرقنا العسكرية، و التنظيمات المؤقتة التي تمنع إلى إشعار آخر كل تحويل للملكيات المباني بين الأوروبيين و السكان المحليين ببجاية و مستغانم. ترتب مماثل من مدينة عنابة فور احتلالها من طرف السيد بيشون. هذه الإجراءات كانت متعلقة و ترمي إلى الحيلة من سوء الاستعمال و الاحتيال.

في منتصف شهر أوت 1833، شهدنا وصول لجنة مشكلة من الوصيفين Pairs⁽¹⁾ والنواب إلى إفريقيا، مكلفين من طرف الحكومة من أجل تفقد البلاد و تنوير فرنسا عن مزايا و مساوئ هذا الاحتلال. عند الوهلة الأولى من الفرح الذي سببه الاستيلاء على مدينة الجزائر لم يكن هناك إلا صرخة واحدة في فرنسا للحفاظ عليها و الاستيطان في مقاطعاتها البهية. يبدو أن الحكومة أرادت تحقيق هذه الأمنية المعبر عنها بغالبية الأصوات بإرسال الجنرال كلوزيل إلى هناك و الذي كان منذ البداية من أشد المناصرين لفكرة الاستيطان، لكن سرعان ما بدأت مضايقات الوزراء لهذا الجنرال و من ثم إعادة استدعائه إلى فرنسا مما أدخل الشكوك حول نوايا الحكومة. تم الحديث عن الالتزامات السرية المتخذة مع قوات أجنبية فيما يتعلق بإفريقيا. صدم الرأي العام بذلك

(1) يعتبر لقباً يمنحه الملك لموظفين ساميين لديه و هم في درجة الألقاب الملكية بعد الفيكونت.

والحفاظ على الجزائر أصبح قضية شرف وطني. ومع ذلك فإن بعض رجال الحسابات بدأوا بدراسة القضية من وجهة نظر أخرى، إذ تساءلوا عن المكاسب التي يمكن ربحها من الجزائر كتعويض عن الخسائر التي ستجر عنها. وانطلق أغلبهم من سوء تقدير قلم يتواتر عن التصريح بأنه عند الحفاظ عليها ستكون الخسائر أكبر بكثير من الأرباح. لم يتمكن أنصار الجزائر معارضة خصومهم في ميدان الحسابات المادية، وأصبحت القضية نوعا ما حسابية بحتة. الوزارة، التي كان معظم أعضائها لا يروا في الجزائر سوى إزعاجا إضافيا، فرحوا بأن يتم تصغير المسألة بهذا الشكل وأعلنوا عن إرسال لجنة معينة من طرف الملك للتقصي في عين المكان عن العناصر الأساسية من أجل الوصول إلى حل نهائي. تشكلت هذه اللجنة - التي كان يرأسها الجنرال الملازم بوني وصيف فرنسا pair de France - من السيد دوبارمار MM. D'Haubersart وصيف فرنسا والسيد دولابانسونيير de la Pinsonnière، والسيد لورانس Laurence، والسيد بيسكاتوري Piscatory والسيد رينارد Reynard أعضاء في فرقة النواب، والقيب دوفال دايي Duval d'Ailly قبطان سفينة، الجنرال مونتفور Monfort المفتش العام للتهمة.

قام أعضاء اللجنة بزيارة كل المدن المأهولة بفرقة باستثناء مستغانم، و تم تزويدهم بمذكرات من طرف كل رؤساء المصالح، وطرحوا الأسئلة على الكثير من الأشخاص و كل عضو عالج بهذه العناصر الجزئية الذي له علاقة بمعرفته وعاداته. كانت المسائل المبدئية المختلفة تناقش في جلسات. و كان

رأي الأغلبية يتم صياغته في محاضر. عمل السيد لورانس Laurence كان على العدالة والسيد دولابانسونيير de la Pinsonnière على الاستيطان والسيد رينارد Reynard على التجارة والجمركة. وكل هذه الأعمال تم القيام بها بحرص ومهنية.

بعد أكثر من شهرين من الإقامة بإفريقيا عادت اللجنة إلى باريس وسلمت عملها إلى لجنة ثانية تحت إشراف الدوق دوказ Decazes والذي في تقرير طويل ومتقن خرج بنتيجة الحفاظ على الجزائر بأغلبية 17 صوتا ضد اثنين. كانت هذه اللجنة مكونة من 19 عضوا. و تبعا للنتائج المنبثقة من عمل اللجنة قررت الحكومة الحفاظ على الجزائر.

و نتيجة لذلك بدأ البحث عن محافظ و توفر ثلاثة مرشحين، المارشال كلوزيل، الدوق دوказ Decazes والجنرال دامريمون Damrémont. كان ثلاثتهم يملكون ضمانات على القدرة التي تتناسب مع البلد. بالأخص الأول الذي كان مرغوبا جدا. ولكن اختيار الملك الذي وقع على اللواء الفريق الأول الكونت ديرلون أدهش الجميع، فهو مسن في السبعين من عمره والذي لم تفكر في رؤيته بالجزائر ولا حتى هو فكر في ذلك أيضا خمسة عشر يوما قبل تعيينه.

شهدت الأشهر الأخيرة لإدارة الجنرال فوارول خلافات مؤسفة بينه وبين الحاكم المدني. الجنرال كان متعبا منذ بعض الوقت من الاستقلالية المطلقة التي تصرف بها السيد جيتي، كما كان مستاء من بعض أفعاله. و جاءت حادثة

غير متوقعة للتفريق بينهما دون رجعة. أحد اليهود يدعى صوفار Sofar والذي كانت له أهمل ذات مصلحة مع شركة يهودية و تمت إدانته من طرف المحاكمات بدفع ما تبقى من الحساب و العقوبة تنص على القبض عليه في حالة عدم الدفع. قدم هذا اليهودي إلى القائد العام عريضة و بعدما اشتكى من المعاملة السيئة التي تعرض لها يأمر من رئيس العشيرة اليهودية، طالب بمراجعة الحكم زاعماً أنه تم الحكم عليه بدفع مبلغ افترض حكم الادانة أنه يدين به بعد تصفية حسابات الشركة اليهودية، ولكن على العكس كانت الحسابات المقيدة في سجلات الشركة تثبت أنه لا يدين بشيء، و أن المحاكمات أنفسهم الذين حاكموه كفضاة قاموا بتبرئة كلادارين بوضع إمضاءاتهم على السجلات في أسفل غلق الحساب بصفتهم أعضاء المجلس العبري. طلب صوفار rafoS كان بطبيعة الحال شكوى عن مواربة. و نتيجة لذلك تسلم الجنرال فوارول الشكوى بموجب نص المادة 10 من مرسوم 22 أكتوبر 1830 و هو كالتالي: "كل شكوى بسبب سوء استعمال السلطة، مواربة، كذب أو إنكار للعدالة ضد قضاة المحاكم الإسلامية و اليهودية ترفع لدى الجنرال المسؤول الذي يبت في ذلك". لكن ما رآه الجنرال فوارول متأسفاً فعله كان إلغاء تطبيق الحكم و تقديم السجلات أين وجد المترجمون المعتمدون الدليل على ما قدمه صوفار. و أعلم الجنرال الوزير بذلك، لكن السيد جتي دويوسي كان في كل هذه القضية ذو رأي معاكس تماماً لرأي الجنرال. و أصر أن لا شيء في المواد المدنية يمكنه توقيف تطبيق الأحكام الصادرة من المحاكم المحلية، فهاهنا مرسوم 22 أكتوبر

و كل السوابق التي ووجه بها و تمكن من أن يقاسم الوزير قناعاته فأمر هذا الأخير بتطبيق حكم المحاكمات ضد صوفار. السيد فوارول قاوم هذا الأمر. و ما جعله بالتأكيد يصل إلى هذا الحد هو أنه كان مقتنعاً بالظلم الذي كان يحيط هذا اليهودي. لقد جادل لصالح رأيه مع العديد من الخبرات القانونية فيما يخص الحقوق و لكن دون فائدة. الوزير أصر و كان لا بد من الانصياع. تم معالجة هذه المسألة المعقدة بحماس في المكاتب لأن الجنرال فوارول تم توبيخه رغم أنه بالنسبة إليه توجد الكثير من السوابق و أن روح التشريعات الجديدة التي سيتم تطبيقها في إفريقيا ستكون طبقاً لأعمال اللجنة.

الانتصار الذي ظفر به السيد دويوسي de Bussy على الجنرال فوارول في قضية صوفار، تلاه انتصار آخر؛ إذ تم الطعن في قضية مدنية أمام مجلس الإدارة طبقاً للتشريعات السائدة، و كان الجنرال فوارول مقتنعاً بأن السيد دويوسي له مصلحة ليست أقول عنها مادية ولكن ميل لجعل طرف يفوز على آخر، مما أدى بالجنرال فوارول إلى إقناع مجلس الإدارة برفض الحكم فيها بحجة أن قانوناً جديداً عن إدارة العدالة سيتم إصداره قريباً، و أنه حسب نصه فإن المجلس لن يكون له أية صلاحيات قضائية. هذا القرار بعدم القبول و الذي لا يمكن تصوره إلا في عقل عسكري كانت إنكاراً حقيقياً للعدالة و تم توبيخه عليها من طرف الوزير بوجه حق بعد تحصله على تقرير السيد دويوسي.

في الأيام الأولى من سبتمبر، جاءت حادثة جد مهمة لتزيد من حدة سوء التفاهم الحاصل بين الجنرال المسؤول و المحاكم المدني و وضعت هذا الأخير

في موقف سيئ فيه على كل المزايا التي لحظ الآن حققها على رئيسه في أحد الأيام ماء تقدمت امرأة مغربية مطلقاً إلى الجنرال فوارول وصرحت بأنها تنوي اعتناق الديانة المسيحية. وبعد أن تأكد الجنرال بأنها ليست على دمة أي زوج، أرسلها إلى مفوض الملك لدى المجلس البلدي مع توصيته بالسهر على ألا تتم معاملة من قبل المسلمين الذين يمكنهم عدم تقبل تحوّلها. وبعد تأكيدها من حماية السلطات بدأت المرأة بتعلم أولى مبادئ ديننا في انتظار تعميدها.

علم قاضي الجزائر السي عبد العزيز - وهو رجل مثقف ولكن متعصب - بما حصل فاشتكى إلى الجنرال المسؤول مدعياً أن المرأة لا تملك الحق في تغيير ديانته، وأنها تستحق العقوبة لمجرد التفكير في الأمر. استمع الجنرال بصبر كبير و أجابه أنه شخصياً لا يتم كليا إن كانت المرأة مسلمة أو مسيحية، ولكنه لن يسمح أبداً بأن تتعرض لأي عصف باسم الدين، وأن كل واحد حر في اتباع الديانة التي تناسبه، وأن هذا المبدأ احترامته السلطات الفرنسية التي لم تتعرض على دخول الكثير من المسيحيين إلى الديانة الإسلامية و بالموازاة لا يمكنه منع أي معتنق للديانة المسيحية، وبما أن القاضي لم يكن لديه ما يعارض به هذا ترجى الجنرال أن يسمح له على الأقل برؤية المرأة من أجل نصحتها ومحاولة إرجاعها إلى ديانة آبائها. ود عليه الجنرال بأنه حر

تالياً ولن يفكر أحد في منعه. رضي القاضي بهذا الجواب و يبدو أنه كان مقتنعاً بتأثير نصحه لها، لكن الكاهن المسيحي الذي كان يلقنها المسيحية كان يتنصع بدافعين قويين: انجذاب المرأة إلى التقاليد الأوروبية ورغبتها في الزواج من فرنسي و بذلك أخفقت كل محاولات السي عبد العزيز. فخل من قوة الإقناع و أراد استعمال القوة فقام باختطاف المرأة بواسطة الشاوش. تلقى الجنرال خبر هذا العمل العنيف فأرسل أحد مساعديه إلى القاضي من أجل تذكيره بما كان متفقاً عليه، لما رأى القاضي هذا الضابط - الذي تربطه به علاقة صداقة - يدخل مجلسه، قام من مقعده دون إعطاءه وقتاً للشرح و خرج معلناً بأعلى صوته بأن عدالة محمد لم تعد حرة. كانت المرأة على وشك تلقي العقاب فسارعت فور تحريرها من جلاديه إلى الفرار إلى الكنيسة الكاثوليكية أين تم تعميدها على الفور دون أن يتج أي رد فعل في المدينة. عند خروج القاضي من مجلسه توجه إلى المفتي المالكي السي مصطفى بن الكيابطي ليتفق معه حول ما يمكن فعله في هذه الظروف، ونقلاً كلامهما قراراً بوقف سير العدالة، و بالفعل في اليوم الموالي بقيت أبواب المحاكم مغلقة مما أثار في نفسية الأهالي أكثر من ارتداد تلك المرأة. و لكن الجنرال فوارول قام عاجلاً بكسر هذا الاعتراض اللاعقلاني والمثير للفتنة، قام بأمر القضاة المسلمين بالرجوع إلى وظائفهم على الفور و بعد

رقصهم الفلم و عين بذلك القاضي المالكي سيد أحمد بن جعدون قاضي
بيت المال و في منصب القني سيدي عاود بن عبد القادر قاضي البلدة
كلامهم جلال متفحان و متفق عليها. تمت الكتابة للشان من أجل إعلام
بصيته و الأول تم تصيه على الفور من طرف مفوض الملك لدى المجلس
البلدي. دعا هذا المرفق أعيان المسلمين لحضور حفل التنصيب و الذي
حضره كذلك كثير من الأشخاص غير المدعوين و الذين تلفظوا بكلمات
مستكرهة و منهم من شتم القاضي الجديد و ما لبث أن تم استتباب الأمن
بعد اعتقال ثلث أو ثلاثة أشخاص و انتهى الحفل بسلام.

في اليوم التالي و بعدما رأى القني مصطفى ما آلت اليه الامور، جاء
لتقديم اعذاره للجنرال المسؤول و طلب منه أن يسمح له باستعادة
منصبه و بما أن سيدي عاود كتب من البلدة من أجل الاستفسار حول
الأسباب التي أدت إلى إقالة زميله قبل قبول استخلافه، وبعد رضاء عن
سلوك السي مصطفى قبل الجنرال فوارول مطلبه بتركه في منصبه إلى حين
قرار وزاري، و أبلغ السيد عواذ بذلك. و قد علمنا فيما بعد أن هذا الأخير
قد استغل طريق الجزائر فور علمه بتنصيبه و لكنه عاد أدراجه في منتصفه
بعد تلقيه رسائل تهديد من بعض سكان هذه المدينة.

تم تعيين القاضي الجديد في العاشر من سبتمبر و ابتداء من الحادي عشر

مازالت العلاقة سيرها العادي و لم يبق أي أثر للاضطرابات
تخرج الآن الدور الذي لعبه السيد دويوسي في هذه القضية في اليوم
الذي انطلقت فيه المحاكم الإسلامية، استدعاء الجنرال المسؤول و قال له: —
"شكركم سيدي الحاكم المدني، من أجل إعلامكم بحدث اليوم" —
"في حدث سيدي الجنرال؟" — "تسأل السيد دويوسي" — "و لكن سيدي"
أضاف الجنرال، لأبد و أنكم على علم، اعتناق المغاربية للمسيحية و تبعات
هذا الحادث" — "كيف هذا سيدي الجنرال، توجد مغاربية دخلت في
السجبة؟ أؤكد لكم أني لم أكن أعلم شيئاً"، غضب الجنرال فوارول من
هذا الظاهر الساخر بجهل شيء كل من في الجزائر لم يسمع به و طلب منه
الاهتاف ببرودة و قال له أنه سيعلمه بأوامره لاحقاً. ورغم ذلك كتب له
عند المساء للاستفسار إذا ما كان لديه مرشحون لتقديمهم لمنصب القاضي
و القني، و بما أن إجابته كانت سلبية صادق الجنرال على قرار تعيين سيد
أحمد و سيدي عاود و أرسله إلى الحاكم المدني.

في ساعة مبكرة من نهار الغد توجه السيد دويوسي إلى الجنرال فوارول
لتحيايم بعض الملاحظات حول هذا القرار و بعد بضعة دقائق أخذ القناش
مركباً أدى بالجنرال إلى التخلي عن موقفه كقاتل و وقف تجاه السيد دويوسي
لمرحل ظهور على الشرف و يحس نفسه مهاناً من طرف شخص ليس له

نفس أفكاره في هذا النوع من القضايا، هذا الموقف الصعب أنهى إدارة هذا الموقف بطريقة غريبة بالنسبة للسيد دويوسي.

وجد الأهالي الساعطون على الإجراءات التي اتخذها الجنرال فوارول دوما صريحا من السيد دويوسي و بدأوا بتنشيط أعمال الشعب التي ذكرناها منذ قليل، وعند رؤية عدم نجاح الشعب، قدموا عريضة ضد الجنرال فوارول قائلينها عريضة مضادة لأنه كان محبوا لدى أغلبية الأهالي، وبذلك فشل الجدل والشعب وتحليل المشايخون.

وجهت إلى الوزير تقارير كبدية ولم تكن كلها من قبل الأهالي فقط فيما يخص هذه القضية وثبت الرئف رسميا من طرف إدارة الكونت ديرلون، الشيء العجيب أن السيد دويوسي الذي كان يجد ما قام به الجنرال فوارول سيئا لعدم منعه ارتداد المراءى غير في كتاب له عن الجزائر عن رغبته في أن يقوم المبشرون بشر عقيدتهم بين العرب.

لم يتم إدراج السيد دويوسي ضمن التنظيم الإداري الجديد للمقاطعة، فعاد الجزائر أيام قليلة بعد وصول حليف السيد لوباسكي Lepasquier الذي وصل الجزائر في 28 سبتمبر 1834 مع الكونت ديرلون. ترك القليل من الخسرة في إفريقيا أين لم يكن محبوا، أما الجنرال فوارول فقد رفض بشدة قيادة الجيوش الفرنسية و سلمها إلى الجنرال راباتيل Rapatel و غادر الجزائر في شهر ديسمبر، و كان دعاه انتصارا عظيما، كل قبايل القبائل اجتمعوا لتوديعه و

إعذاته باسم أفراد القبائل أسلحة من بلادهم. رافقه أغلبية السكان إلى البيت معبرين له عن أسفهم لذهابه و أخيرا تم تقليده بميدالية ذهبية كشهادة اعتراف من مستوطنة سيقي إسمها و ذكرها دائما غاليين و محترمين.

الكتاب 15

القانون التأسيسي للإدارة العليا للأملاك الفرنسية في شمال إفريقيا -
تنظيم العدالة - وصول الموظفين الجدد - مؤامرات الأهالي - تأسيس
المحاكم - التنظيم الجديد للمجالس البلدية و الشرطة - تشكيل الدوائر
الريفية - عقود إدارية.

صدر في 2 جويلية 1834 القانون الذي نصب حسب قواعد جديدة،
والتي نظمتها دائمة، الإدارة العليا لمحافظة الجزائر و التي حصلت على
التسمية التي تعني الأملاك الفرنسية في شمال إفريقيا. و سلم القيادة
العامة و الإدارة إلى محافظ عام يمارس مهامه تحت أوامر و توجيهات
وزير الحرب.

تُكلف كل من القائد العام للفرق، الحاكم المدني، القائد العام للبحرية،
النائب العام، الحاكم العسكري و مدير للمالية، بمختلف المصالح المدنية
و العسكرية تحت قيادة المحافظ و في حدود صلاحيات كل واحد منهم.
يشكل هؤلاء الموظفون مع المحافظ مجلسا يستدعى إليه رؤساء
المصالح المدنية و العسكرية الذين يخصصهم موضوع المداولات و لهم فيه
رأي استشاري.

يجب تسير الأملاك الفرنسية في شمال إفريقيا بموجب الأوامر إلى غاية إجراءات أخرى. يحرر المحافظ العام مشاريع الأوامر الضرورية للبلد في المجلس ويرسلها إلى وزير الحرب، ولكن في الحالات المستعجلة يمكنه جعل الإجراءات تنفيذية عن طريق مرسوم.

في 10 من أوت، نظمت تعليمية من الملك العدالة بالطريقة التالية:

توجد محكمة ابتدائية في كل من إقليم الجزائر وعنابة وهران، ومحكمة تجارية في الجزائر ومحكمة عليا بنفس المدينة، ولكن نطاقها يمس كل الممتلكات الفرنسية.

تتكون المحكمة الابتدائية بالجزائر من قاضيين اثنين، مدع عام نائب عام للملك، كاتب الضبط و مساعد كاتب الضبط. يستمع أحد القضاة إلى جميع المسائل المدنية في النطاق الأول أو الأخير ضمن الحدود المسطرة للمحاكم الفرنسية. ويستمع الثاني في النطاق الأخير إلى المسائل المتعلقة بمخالفات الشرطة و الطعون في المخالفات الأخرى و الجناح الجزائية. هذا القاضي مكلف بالبت في القضايا الجنائية. و يقوم القاضيان بمختلف الوظائف التي تمنحها القوانين في فرنسا إلى قضاة الصلح.

تتكون المحاكم الابتدائية بعنابة وهران من قاضي، مئاوب، مدع عام النائب العام للملك و كاتب الضبط. في كل جلسة كان القاضي يجمع بين صلاحيات قاضي (2) الجزائر و يستمع لكل القضايا التجارية و إلى النطاق الأخير من

المخالفات و الجنايات أو الجناح التي لا تتعدى عقوبتها القصوى في القانون الجنائي. كما يستمع إلى الجنايات الأخرى تحت الاستئناف.

تتكون المحكمة التجارية من سبعة أعيان يعينهم كل سنة المحافظ و يحدد اللغة فيهم لأجل غير محدد، و لا يحصلون على راتب أو تعويض.

و تتكون المحكمة العليا بالجزائر من رئيس و من ثلاث قضاة، النائب العام للملك، المدعي العام، كاتب الضبط و مساعد كاتب الضبط. تستلم الطعون بالنقض في أحكام المحاكم الابتدائية و التجارية، وفيما يخص الجنايات، تصدر أحكام الاستئناف في المواد الجزائية و كل القضايا التي تعتبر في فرنسا من اختصاص مجالس القضاء و كذا كل طعون الأحكام الصادرة بعنابة وهران.

تنظر المحاكم التي قمنا بتعريفها في كل القضايا المدنية و التجارية العالقة بين الفرنسيين، وبين الفرنسيين و الأهالي أو الأجانب، و بين الأهالي من ديانات مختلفة، و بين الأهالي و الأجانب، و بين الأجانب، و بين الأهالي من نفس الديانة إذا قبلوا بذلك. في المواد الجنائية ينظرون في كل انتهاك لقوانين الشرطة و الأمن إذا كانت جنسية أو ديانة المتهم، و في كل الجنايات و المخالفات المرتكبة من طرف الأهالي المسلمين في حق الفرنسيين أو اليهود أو الأجانب و بكل الجنايات و المخالفات المقررة من طرف الفرنسيين و اليهود و الأجانب.

في كل القضايا التي يكون المسلم طرفا فيها، يساعد مستشار مسلم القاضي بصوت استشاري. هناك أربعة مستشارين للجزائر و إثنان لكل من عنابة وهران.

بحكم القانون الفرنسي الاتفاقيات والخصومات بين الفرنسيين والأجانب. أما الأهالي فإنه من المفترض أنهم يتعاقدون فيما بينهم حسب قوانين البلد ما لم توجد اتفاقية معاكسة لذلك. في المنازعات بين الفرنسيين أو الأجانب مع الأهالي، يطبق القانون الفرنسي أو قانون البلد حسب طبيعة النزاع وشروط الاتفاق وفي حالة عدم وجود اتفاقية حسب ظروف و النية المفترضة للمتاخرين.

في كل الحالات التي يقدم فيها المسلم للمحاكمة بسبب جناية أو جنحة، يساعد مستشار مسلم القاضي الفرنسي بتصويت استشاري فقط. وإذا ما استندت القضية إلى المحكمة العليا يتم تدعيم القاضي بمستشارين لها الحق في المناوئة على الإدانة وتصويت استشاري فقط على تطبيق العقوبة.

تعليمية 10 أوت تبقي النطاق القضائي للمحاكم الإسلامية و يسمح للمحافظ بتصيب محاكم يهودية أينما تطلب الأمر ذلك مكونة من واحد إلى ثلاثة محاكمات معينين من طرقه.

في القضايا الجنائية، لا يمكن تطبيق أحكام القضاة المسلمين إلا بعد أن تصادق بختم النائب العام بالجزائر ومن طرف المدعي العام بعنابة وهران. يمكن للمتهم وأطراف الإدعاء الطعن في قرارات القاضي المسلم، ويمكن للمحكمة العليا القيام بالإصلاحات إن وجدت ولكن فقط في حالة ما إذا كان الدافع للمتابعة تم النص عليه في القانون الفرنسي. إذا ما رفض القاضي

المسلم أو تجاهل المتابعة، يمكن للمحكمة العليا رسميا أو يطلب رسمي من النائب العام استدعاء متابعة للجنايات أو الجنح.

نظر المحاكم اليهودية في المنازعات بين اليهود فيما يخص شرعية أو بطلان الزواج والطلاق حسب شريعة موسى، وفي مخالفة القوانين الشرعية حين لا تعتبر جريمة ولا جنحة ولا مخالفة في القانون الفرنسي. تقوم هذه المحاكم بالصلح بين اليهود الذين يمثلون و تنظر في الاتفاقيات المدنية بينهم. و تحظر عليهم مهام أخرى قد تؤدي إلى تهمة سوء استخدام السلطة.

يمتد النطاق القضائي للمحاكم المنظم بتعليمية 10 أوت على الأراضي المحتلة حتى الحدود المسطرة بمرسوم من المحافظ. و تبقى مجالس الحرب مختصة بالجنايات و الجنح المرتكبة خارج هذه الحدود من طرف واحد من الأهالي بحق فرنسي أو أجنبي، و من طرف واحد من الأهالي بحق واحد من الأهالي أيضا حينما تكون التهم تخص السيادة الفرنسية أو أمن الجيش، و من طرف فرنسي بحق واحد من الأهالي.

لا يمكن تطبيق أي حكم بالإعدام دون الترخيص المكتوب و الرسمي من المحافظ، الذي يمكنه الأمر بتأجيل التطبيق لكل الأحكام أيا كانت، و لكن حق العفو يبقى فقط من صلاحيات الملك.

الرجوع للنقض مفتوح لكل الأطراف لكن ضد قرارات المحكمة العليا فقط.

تنظم تعليمية 10 أوت كذلك طريقة الإجراءات المتبعة في المحاكم التي نصبتها، و النطاق الإداري للمجلس الشكل لدى المحافظ بتعليمية 22 جويلية. يلتم هذا المجلس بكل المواد التي تمنحها السلطة في فرنسا للمجالس الولائية، والعقود الإدارية المتعلقة بمجلس الدولة. يمكن الموافقة على هذه المراسيم من مجلس الدولة ولكنها في جميع الحالات تكون قابلة للتنفيذ بصورة مؤقتة إلا إذا قام المحافظ بتعليق التنفيذ إلى حين صدور قرار نهائي. عندما تطرح السلطة الإدارية الخلاف، يتم الحكم فيه في نطاق الاختصاص الأخير من طرف المجلس الذي يجتمع تحت رئاسة المحافظ، يضاف إليه عضو جديد من الجهاز القضائي. كل القوانين المنصوص عليها سابقا حول الإدارة القضائية تم إلغاؤها بواسطة تعليمية 10 أوت.

بعدما وضعت شروط التنظيم القضائي في المكتبات الفرنسية في شمال إفريقيا، أرادت الحكومة الاهتمام بالقوانين التشريعية للبلد ولكنها لم تحصل على الوسائل اللازمة لهذا العمل المائل رغم كل ما قامت به لجنة إفريقيا، فقررت إرسال مفوض خاص إلى عين المكان مهمته البحث و جمع كل الأعمال و الوثائق التي توضح الوضعية الحالية للتشريعات بالجزائر وكذلك التعديلات و التحسينات الخاصة لإصلاحها. تم تكليف بهذه المهمة السيد لورانس Laurence عضو غرفة النواب و الذي كما رأينا كان عضوا مهما في لجنة إفريقيا. حضر السيد لورانس Laurence عند تواجده بالجزائر أن يشغل مؤقتا وظيفة النائب العام.

كما سبق و أن ذكرنا تم تعيين السيد الكونت ديرلون d'Erlon le comte محافظا عاما و تسلم السيد لوباسكي Lepasquier مهام المحاكم المدنية، و تولى السيد أميرال البروتونيير la Bretonnière قيادة البحرية. حددت تعليمية 10 أوت أن يكون تحت أوامره مساعد برتبة ريان لرئاسة أو طرادات¹ و مساعد ملازم، و ملازم مكلف بحركات الميناء. و تحت المصلحة الإدارية للبحرية إلى محافظ بحري مرفقا بمساعد رئيسي و مساعدين محافظين، دائما تحت أوامر العميد البحري. في كل من وهران و عنابة تم تكليف المصلحة البحرية تحت أوامر العميد البحري إلى ملازم مكلف بحركات الميناء و مساعد رئيسي مرفقا بمساعد محافظ.

تم تعيين السيد بلونداي Blondel مديرا للمالية. و بقي السيد بونديون Bondurand حاكما عسكريا إلى أن وافته المنية في فيفري 1875 خلفه السيد ميلونسيون دارك Melcion d'Arc. عين السيد فيل دوشوفيني Vallet de Chevigny سكرتيرا للحكومة و كان عليه المصادقة على كل المراسيم بهذه الصفة.

وصل المحافظ العام و الموظفون الجدد إلى الجزائر نهاية سبتمبر 1874 كان رفقة الكونت ديرلون comte d'Erlon عدد كبير من مساعدي العسكري و طباط التعليمات و أشخاص لتعيينهم. و كان بعضهم مهامهم أيضا. كل هؤلاء القادمون الجدد سواء كانوا مسؤولين

أو موظفين عاديين، كانوا مقتنعين بأنه لم يتم بعد القيام بشيء جيد ومفيد في الجزائر، وأنه كان مقدرا لهم تصليح أخطاء الماضي. لا بد للإدارة أن تكون وثقة من قدراتها، لكن الثقة العمياء تكون خطيرة، وولاء سوء الحظ حين تكون الأعمال غير متوافقة مع الادعاءات فإنها تتعرض لتوبيخ مضاعف بمزيج بعض السخافة.

عاد الأما السابق حمدان والمغاربي أحمد بوضربة منذ مدة إلى الجزائر بعد سماح الوزير بذلك. وكما نعلم كان بوضربة وجلا ذو حكمة كبيرة ولكن من ربط صداقات قوية بباريس. تكلم بطريقة مميزة أمام اللجنة الكبرى لأفريقيا برئاسة السيد دوكرز Decaze وأعترف بأن المعلومات القيمة التي زودها بها أعطت صورة جدا إيجابية عنه. لقد عاد من باريس وهو متأمل في الحصول على وظيفة بالجزائر. لكنه لم يكتف بذلك الضمانات فأراد استغلال جهل الإدارة الجديدة لكل ما يوجد في إفريقيا من أجل الحصول على القسط الأكبر منها ووجه هجومه بصفة خاصة على مكتب العرب الذي كان طامعا في إدارته. كان حمدان وبين عمر طامعين في السلطة كذلك، لكنها كانت أقل براعة منه. وبدأ يجرمان حول المحافظ، واستعملا لشدة انتباهه حيلا لفة تستحق أشد عتاب. وصلت بها الواقعة إلى درجة أنها قاما بتقديم بعض التكررة البؤساء على أنهم عرب من الأعيان الجدد مهتمين إلى المحافظ بعد أن أيسروهم شيئا مستعارة، وكان الكونت ميرلون أن يقع في الفخ لولا تدخل

الجنرال فورارول. لم يعاقب هؤلاء المشاغبين، لكن المحافظ تعلم كيف يحنط منها ووضع لها أنه سيقتى محتفظا بذكرى هذه المغامرة. استمرود للمحدث في الكتاب القليل عن أعمال شعب المغاربة حينما تفصل في قضايا العرب.

تم تعيب المحاكم الجديدة بوتيرة سريعة في شهر أكتوبر. ألفى السيد لورانس هذه المناسبة خطابا رائعا حيث تمت ملاحظة مقاطع عديدة مشجعة لتطيل المستوطنة. وتوسع كثيرا حول واجبات القضاة وأكد على أن صرامة اللوائح ضرورية للحصول على الاعتبارات الشخصية التي تتطلبها وظيفتهم أكثر من أي وظيفة أخرى.

تعود بصر القاضي بن جعدون - المعين من طرف الجنرال فورارول - إلى درجة عدم قدرته على فحص العقود التي يتم تقديمها له، فتم تعويضه بسيدني عاز من عبد القادر الذي خصص له الجنرال سابقا وظيفة المفتي التي لا تزال في يد سيدني مصطفى بن الكيايطي. غادر عبد العزيز القاضي الأسبق الجزائر لخدمة الاسكتلندي. كانت للوزير أو بالأحرى لمساعدته نية ضعيفة لإعادته إلى منصبه حيث أنهم كانوا مضللين ببعض التقارير الخاطئة فظنوا أنهم بإعادة اسمه سيعطي للإدارة الجديدة شعبية كبيرة على حساب القديمة. وبما أنه كان من السهل عدم رؤية الحقيقة الواضحة وضوح الشمس، فإن الكونت ميرلون رأى أنه من غير المناسب أن يكون رايه من رأي مكتب الجزائر.

سيد أحمد بن جعدون الذي هزل لوجوده تم تعيينه مستشارا لدى المحكمة

العليا، أما المغاربة الذين تم تعيينهم في نفس الوظيفة فلم يحترموا الثقة التي وضعتاها فيهم. وبن يقرو واحد منهم، قد أذنب بعد وقت قصير من تعيينه بعملية احتيال ارتكبها في حق بن مصطفى باشا، ابن الداي الذي يحمل هذا الاسم. هذا الرجل تم تعيينه بتركية من بوضربة، على الرغم من المعلومات المزودة عنه من طرف مكتب العرب الذي أعلم بمبادئه الفاسدة و سوابقه المخجلة والتي لا تليق بشرف من يجلس إلى جانب القاضي الفرنسي وبذلك وجهت إقامته.

مرسوم مطول من وزير الحرب في 1 سبتمبر 1834 حدد صلاحيات المحافظ العام وكبار المسؤولين المدنيين تحت إمرته وصلاحيات مجلس الإدارة. بدأ حجم صلاحيات المحافظ أكثر توسعا في الظاهر ولكن هذه الكلمات في مرسوم 10 أوت المكررة في هذا المرسوم: "المحافظ يمارس صلاحياته تحت أوامر وتوجيهات وزير الحرب، هل يعني هذا أن المحافظ يجب أن ينتظر في كل شيء" تحقيق باريس أو أن حدود صلاحياته قد تم تضييقها و يتوجب عليه التحرك في تلك الماترة فقط كما يشاء؟ والقراءة للمعنة التي قمت بها لمرسوم 1 سبتمبر الذي لم يتم نشره تؤدي بنا إلى الاقتراض التالي. في عهد إدارته لم يكن الكونت ديرون من أصحاب هذا الرأي لأننا غالبا ما سمعنا يشكو من كونه مقيدا، و هي فيها هذا ذلك حجة جد سهلة والتي غالبا ما تستخدم في الجزائر. فلة من الناس من يهلون لحمل مسؤولية أفعالهم و الأغلبية يجنون

الصلحية بالتخلي عن حرية مواقفهم عوض تحمل المسؤولية. و بمعنى آخر أن فلة من الرجال ولدوا ليفقدوا لم يكن لدينا في إفريقيا سوى القاريشال كلوزيل الذي تحمل الكثير على عاتقه. و مع ذلك يمكنك تأكيد أنه كانت لكل جنرالائنا حرية اتخاذ القرار لكي يقوموا بأكثر مما قاموا به، ولكنهم كانوا يهلون برؤوسهم إلى غطرسنة و ظلم المكاتب، لا شك أن هؤلاء المسؤولون قد سخرروا لأكثر من مرة لهذه السذاجة الذي حاولوا عدم إظهارها.

المرسوم الوزاري الذي تكلمنا عنه و آخر بنفس التاريخ ينظم أشكال الإدارة المدنية و الإدارة البلدية، استعملا كقاعدة في هذه المواد للأعمال الرئيسية لإدارة الكونت ديرون والتي لم تكن سوى إعادة صياغة لهم. في 20 أكتوبر، قام مرسوم من المحافظ بالتعريف بصلاحيات ثلاث كبار مسؤولين مقنيين، فالحاكم المدني له صلاحيات موازية لوالي بفرنسا، النائب العام مكلف بكل ما له علاقة بالعدالة أما مدير المالية فيجمع في صلاحياته كل من الأملاك، الجمارك، البريد، الضرائب، أي كل ما يخص الإيرادات العامة. لن ينسى القارئ بطبيعة الحال أن الجنرال كلوزيل قام منذ 1830 بتقسيم المصالح الإدارية للإقليم إلى ثلاث أقسام بنفس الشكل الذي نص عليه التنظيم الجديد.

المرسوم الوزاري لـ 1 سبتمبر يعطي للحاكم المدني جدولة كل النفقات المصروية ما عدا تلك المتعلقة بالقوات البرية أو البحرية، أو مصالح الإدارة

العسكرية أو البحرية و يفوض مدير المالية لتسيير الأرصدة المتعلقة بالمصالح التابعة لهذا الأخير.

الأعمال الثلاثة الأكثر بروزا للإدارة المدنية للكونت ديرون هي تأسيس تنظيم بلدي في المحافظة، تقسيم ضواحي الجزائر إلى دوائر وإنشاء مدرسة لهذه المقبة، كل هذا تم النص عليه في المرسوم الوزاري لـ 1 سبتمبر.

صدر المحافظ في 18 نوفمبر 1834 مرسوما ينظم بلدية الجزائر. تشكل هذه البلدية من رئيس بلدية و مجلس بلدي متكون من 19 عضوا: 10 فرنسيين، 6 مسلمين و 3 يهود. يتم اختيار المساعدين من بين أعضاء المجلس. و عددهم ثلاث أي واحد من كل عشيرة. يتم تعيين أعضاء المجلس البلدي من طرف المحافظ لمدة أجلها سنة.

المرسوم الوزاري المتعلق بالإدارة المحلية يحدد فروع إيرادات الدوائر و النفقات التي يتوجب عليها تحملها. تتكون الإيرادات من نتائج الرسوم المختلفة المماثلة أو المشابهة لتلك التي توجد بفرنسا وهي جزء من الدخل البلديات. مثل الضرائب وغيرها وإيرادات ثروات البلدية وبعض المنتجات الخاصة بالجزائر، مثل مزرعة مزوار وإيرادات التزويد بالينابيع. النفقات المحلية هي نفسها تقريبا الموجودة في فرنسا وتضم كذلك معاشات رؤساء البلديات و مساعديهم إذا ما فرضت صلاحيات المجلس البلدي هي نفسها الممنوحة في فرنسا للهيئة المشكلة تحت نفس الاسم حسب قانون

(21 يوليوز عام 8) وأحكامه اللاحقة، التي سبقت قانون 21 مارس 1831. وبلدية الجزائر هي الوحيدة التي لا تزال منظمة حسب قواعد المرسوم الوزاري لـ 1 سبتمبر.

يتم إعداد ميزانية هذه البلدية من طرف المجلس البلدي سواء فيما يخص الإيرادات أو النفقات، ثم تتم دراستها على مستوى مجلس الإدارة ويتم المصادقة النهائية عليها لدى المحافظ العام.

يعتقد بعض الأشخاص أن أكبر جزء من النفقات المدنية للمصايف هي تلك المتعلقة بمدينة الجزائر وباختصار فإن هذه المدينة وضواحيها تعتبر من بين الممتلكات الفرنسية الأكثر ايجابية في شمال إفريقيا قبل وطع بأن فصل ميزانية الجزائر عن الميزانية العامة سيكون اعتبارا لما هو تنوي، على أساس أنه رئيسي، وهو ما سيعقد دون فائدة من معاملات الإدارية. هؤلاء الأشخاص نسوا دون شك بأن هذه التركيبة ستوفر ميزة هائلة لإعفاء الجزء الأكبر من الأعمال المحلية من الرقابة، التي كانت دائما محرجة وقليلة الوضوح لباريس، وتسمح بتكريس جزء هام من الإيرادات التي كانت سابقا تدفع إلى الخزينة لاحتياجات البلدية. ولكن حصيلة مؤسسة هيئة بلدية الجزائر، وهي نتيجة علاوة على ذلك لا تتعلق بالمؤسسة، أدت إلى تفكير السيد لوباسكيي M. Lepasquier في إنشاء رسوم عديدة لم تكن موجودة قبله من أجل المطابقة الصارمة

(1) هذا التاريخ حسب التقويم الغريغوري ويقابله في التقويم الميلادي تاريخ 17 فبراير 1800.

الجزء الأول

لمصطلحات الإيرادات المحلية المنصوص عليها في المرسوم الوزاري لـ 1 سبتمبر، منحت هذه الرسوم مواد استهلاكية يومية وزيادة غلاء معيشة الحيوانات، والتي كانت غالية أصلاً. وبالفعل تم في عهد إدارة دبرلون فرض حقوق المكان في أسواق المواد الاستهلاكية الخشب الفحم القش والتبن وفي أسواق الماشية؛ حقوق وثاق دواب المزارعين الذين يموئون المدينة وحقوق ربط السفن التي ترسو بالميناء رسوم صحية مهنية زيارة المباني... الخ. وما نستنبطه هو أن المستهلك وحده من يدفع ذلك وأنه ليس بالأسلوب الجيد الذي يجذب الكثير من السكان إلى الجزائر برفع هذه الأسعار.

تم تقسيم ضواحي الجزائر إلى تسع مقاطعات ريفية، حسب مرسوم المحافظ لـ 22 أبريل 1835. هذا العمل تم تحضيره من طرف لجنة عينها المشرف المدني، والأغرب في الأمر أنها لا تحوي لا على رئيس القسم الطبوغرافي ولا أحداً من أولئك الذين درسوا الخريطة الجميلة لمرتفعات العاصمة. والمقاطعات التسع هي :

لابوانت بيسكاد وهي الجزء السفلي لحي بوزريعة⁽¹⁾.

بوزريعة وهي الجزء الأعلى لنفس المقاطعة.

دالي إبراهيم ويضم حي بني مسوس وحي زواوة وجزء من حي

أولاد قايت من الساحل.

مصطفى وهو نفسه حي الحامة وهي تسمية كان من المفروض الحفاظ عليها.

الأيبار ويضم الأراضي المحصورة بين حصن السلطان ، دالي إبراهيم وبثر مراد رايس .

بثر مراد رايس و تضم قسم بثر خادم المتاخم لحي مصطفى .
بثر خادم ومشكل من الجزء المتبقي من الحي الحامل لنفس الاسم .
قادوس الذي يضم الجزء الأكبر من حي عين زبوجة .
القبة وتحوي الحي الحامل لنفس الاسم .

حسب نص مرسوم 23 أفريل ، يوجد في كل مقاطعة ريفية رئيس فرنسي و نائبين من الضروري أن يكونوا من السكان المحليين . ومن صلاحيات رؤساء المقاطعة وضع سجلات الحالة المدنية ، شرطة البلدية الشرطة الريفية ، استخدام القوى العمومية للمقاطعة وكل التفاصيل التي تعتبر متعلقة بإدارة المقاطعات فعليا . ويجب عليهم مناقشة كل المسائل المتواجدة في فرنسا ، مع النائبين الاثنين وهي من صلاحيات المجلس البلدي .

لم يوفر تنظيم المقاطعات الريفية الضمانات الكافية للسكان المحليين . والتواب لا يمارسون سوى الوظائف التي يحددها الرئيس . ومن الواضح أنه لا يعتمد سوى على أولئك الذين يريدون التقليل من شأن نائب السكان المحليين . ولكي تكون كفتي الميزان متكافئتين فمن المفروض أن يكون له الحق في اعتراض قرارات الرئيس إذا ما كانت مخالفة لمصلحة

الجزء الأول

الأهالي، بغض النظر عن الحالات الاستعجالية إلى حين إعلان السلطات العليا رأيها في ذلك الشأن.

في الـ 23 من ماي حدد المحافظ خمس مقاطعات غير موجودة في الواقع، وهي حسين داي بئر توتة الشعاعية الدويرية ومزفران. وهذه المقاطعات لم تحافظ حاليا إلا على تسمياتها. لا يوجد من الجالية الأوروبية بحسين داي إلا القليل ومنعدمة بئر توتة والشعاعية، ولا يوجد بالدويرية سوى من يعاشرون المعسكر الذي لا يزال هناك منذ دخولنا في حرب مستمرة مع الحجوطيين، ويمكن القول أنه لا يوجد أحد من مواطنينا في مزفران.

في 29 أفريل صدر مرسوم من المحافظ حدد كون عمل الشرطة الريفية بالتوازي مع الحرس البلدي الذي يمكن لاحقا تشكيلهم بأعوان قائد الفحص (قائد الضواحي)، وعلاوة على ذلك هو ما كان حاصلًا من قبل⁽¹⁾.

تم تأسيس معهد الجزائر في شهر أفريل 1835. مشكلة من ثلاث أساتذة. يدرس بها التعليم الجامعي ورغم أن التعليم العمومي كان في الجزائر تحت إشراف رجل مثقف إلا أنه تمت متابعة كل الترتيبات القديمة للمعاهد الفرنسية. هذه الهيئة يتم تسييرها من طرف بلدية الجزائر التي تتلقى أجور الطلاب.

تم إعادة تنظيم الشرطة بموجب مرسوم 21 ديسمبر، الذي ألغى وظيفة رئيس قسم الشرطة الذي وجد تحت تسميات مختلفة منذ الغزو،

ونصب مفتشين عاديين للشرطة تم تقسيم مدينة الجزائر في هذا القطاع إلى دائرتين. ولقد تناولت عدة مواد من قوانين إدارة الكونت ديولون تنظيم الشرطة. والأكثر تميزاً هي تلك التي القوانين هي التي تنص على حظر حمل السلاح وقد تم في إحداها إعادة سنّ تعليمات بيان الويس الخامس عشر Louis XV في 1728 أمام تفاجي كبير لسكان الجزائر. ولسوء الصدف هذه القوانين ظهرت في فترة كان العرب العدائين يأتون لقتل المستوطنين داخل خطوطنا نتيجة للاتجاه الذي سبّرت به الأعمال. لا يقل ظهور بيان 1728 في المحاضر المطبوعة للحكومة وإن لم يعطى ذلك دليلاً على روح دقة توقيت السيد لوباسكي M. Lepasquier فعلى الأقل يثبت كفاءته الإدارية.

في السادس من ديسمبر ظهر مرسوم يأمر بإحصاء كل الأفراد دون وسائل إقامة محددة، للمقاطنين في مدن الجزائر عناية وهران بجاية ومستغانم، لأجل أن يتمكن المحافظ من إصدار الأمر بالطرد، كلها كان له الحق في ذلك. نفس المرسوم يضم إجراءات ضد ولوج أشخاص إلى المستوطنة ويمكن للسلطات أن تبعدهم في حالات الضرورة. ودون شك من أجل التخفيض من عدد الأفراد دون وسائل إقامة محددة، وعدم تطبيق مرسوم السادس من ديسمبر تطبيقاً شائعاً، أظهرت إدارة الكونت ديولون ميولها لصالح الصناعة البغيفية لبائعي المشروبات. نص مرسوم 5 جانفي 1835 على تخفيضات في الغرامات المفروضة عليهم لأجل المخالفات المتعلقة بمهنتهم ومنح الترخيصات

ثم بصفة دورية منذ وقبل هذا المرسوم، للذين أرادوا امتحان هذه الصناعة. ولا ظن أبدا أنه يوجد في الجزائر أقل من حانة أو مقهى لكل خمس منازل.

الألمان على الخمر والفجور الذي قمتا بالإشارة إلى الإفراط الحاصل فيه. أصبح متفشيا في المدينة، أين يحميه الإقرار الضريبي الذي يتحصل منه على الرسوم التي يدفعونها كحقوق البيع والرخصة. إنها مصدر لا يتوقف للقوى بكل أشكالها خاصة في أوساط الجيش. مجالس الحرب تكفي للسمع الجنج وحتى الجرائم التي كانت الشالة سببا في ارتكابها من طرف جنودنا الذين لديهم ميول نحو النيذ والمشروبات الكحولية الثقيلة والتي لحظها سهولة إتيانها. إنه لمن الصعب رؤية وللأسف شخصيات ذات أهمية يكون لها اهتمام بهذه الأماكن الغير الطاهرة أين كان جنودنا والعمال يحسرون حياتهم وحيهم للواجب والعمل.

في 3 جانفي 1835 صدر مرسوم من المحافظ ينصب بعناية ووهران لجان مقاطعات مكلفة بإعطاء رأيا حول مسائل البلدة وحتى حول مسائل المنفعة العامة وكذا تلك المتعلقة بالمنازعات الإدارية. هذه اللجان تتشكل من جنرال قائد للجيش رئيس نائب المشرف المدني نائب المشرف العسكري، قائم مقام النائب العام للملك، الوكيل العالي للأموال والوكيل العالي للجهاز مرسوم ثاني في 3 جانفي حدد شكل الطعون المقدمة لمجلس الإدارة ضد قرارات المشرف المدني أو نائبه.

مصلحة المياه كانت دائما في وضعية مزرية، هذه المصلحة التي كانت في عهد الأتراك مسيرة بشكل جيد وهذا بفضل أمين العيون ولم تتمكن نحن بعد من فعل ذلك. وتم من جديد تحرير مصلحة المياه من إدارة الجسور والطرق إلى يد ولاية الجزائر، ولكن هذا التغيير لم يرق بأي تحسين. في 1 جويلية، نصب مرسوم من المحافظ لجنة خاصة مكلفة بمراقبة وتسجيل كل أملاك الينابيع. نفس المرسوم يحمل عقوبات بالسجن وغرامات ضد كل المخالفات والجنح المتعلقة بالمحافظة على تلك الينابيع.

رفع مرسوم 30 مارس عدد أعضاء غرفة التجارة إلى تسعة بالجزائر، منهم 7 فرنسيين 1 مسلم و 1 يهودي. وحدد بأن يتم تجديد كل سنة من طرف ثالث وأن التعيينات تتم في مجلس مشكل من أعضاء من المحكمة التجارية، مكون من عشر مفوضين من طرف المجلس الولائي، وبأغلب من داخله أعضاء من الغرفة التجارية وسبع عشر من التجار العرب، عشرة منهم معينين من طرف المجلس الولائي، عشر من طرف المحكمة التجارية وسبعة من طرف غرفة التجارة.

أمر في صمت على بعض القوانين والمراسيم ذات الأهمية الثانوية، الصادرة تحت اقتراح من السيد لوياسكي، والقارئ الفضولي لهذا النوع من التفاصيل يمكنه قراءة الجريدة الرسمية لأعمال الحكومة الصادرة بمرسوم من المحافظ العام في 20 أكتوبر 1834.

قامت تعليمة 10 أوت بتنظيم إدارة العدالة بشكل كامل على العموم، مما أدى إلى عدم إصدار تعليقات جديدة لمدة طويلة فيما يخص هذه المادة المهمة. ومع ذلك كان من الضروري ضبط ممارسة وسلوك مهنة المحاماة. كان من المرغوب ربما إبعاد هذا الشرح المتواجد في المجتمعات الأوروبية عن هباتنا الجديدة بكل عناية كذلك التي نعطيها للقضاء على الطاعون، هذا البلاء الأقل خطورة بالشرق. وبما أن عاداتنا المؤسفة لم تسمح بذلك كان لابد على الأقل التقليل من سوء قدر المستطاع. كان يوجد بالجزائر عدد هائل من المحامين المزعومين الذين لا يتوفرون حتى على ضمانات المعارف الخاصة للأعضاء المحققين لنقابة المحامين ولم يكن لهم من نقاط مشتركة سوى شغفهم برؤية الجميع في دعاوى قضائية⁽¹⁾. هؤلاء الناس قاموا كذلك بتمثيل أنفسهم وكلاء أعمال من أجل شراء المباني وكان يحدث لهم غالبا شراء حقوق المنازعات أو تمكثوا من جعلها تبدو كذلك لعملائهم. وهذا المجال الواسع المفتوح للتدليس في هذا البلد أين كانت سلسلة الأخطاء التي قمنا بالإشارة إليها في الكثير من الأحيان، تلقي بفضلال عدم الوضوح في الملكيات وجلبت يوميا إلى إفريقيا حشدا من المحامين المتأملين في جمع على حساب المدعين، ثروة ومركزا لم تسمح به رذالة مواهبهم في فرنسا حتى يتمتبه. كل هذا لم يغيب عن السيد لورانس

(1) أرجو من القارئ أن يعذر بالنسي لا أتكلم هنا سوى عن المهنة وليس عن الأفراد. فكما يوجد فضائل للدولة يوجد ثمة رذائل. وهو خطأ المجتمع وليس خطأ الفرد.

M. Laurence. هذا القاضي المحنك في ساحات القضاء كان يعرف أكثر من أي أحد آخر تجاوزات هذه المهنة. ولم يكن أحد غيره قادرا على وضع الحد الفاصل المناسب لمنعها. وهكذا فإن العجائز المهلبات هن من كن يعرفن كيفية الحفاظ على فضيلة بناتهن. ونتيجة لذلك قام بتحرير مرسوم صادق لدى المحافظ العام في 27 جاتفي والذي يضم الإجراءات التالية:

رجال القانون المكلفون بتمثيل الأطراف أمام محاكم الممتلكات الفرنسية شمال إفريقيا لديهم لقب مدافعين. يجمعون صلاحيات المحامين والوكيل في الحدود المسطرة بنهج الإجراءات المستخدمة في تلك المحافظة. عددهم محدد بأش عشر للجزائر وأربعة لعنابة وثلاثة لوهراة معينين ومفوضين من طرف المحافظ العام. يجب أن يكونوا حاملين لشهادة أخلاقيات المهنة من سلطات الحل الذي كانوا يقطنونه قبل المجيء لإفريقيا. علاوة على ذلك يخضعون لسندات كفالة ب 8,000 فرنك بالجزائر و 3,000 فرنك بعنابة ووهراة. هذه السندات تبقى ملكيتها إلى أصحابها وينتهي سريان مفعولها بظهور ممول لاعتراض أو قرار قضائي يخص نزاعها. وتبقى سارية المفعول بالخصوص لعملاء الديون والتكرار الناتجين عن تجاوزات أو الغش في ممارسة المهنة.

عندما رفعت النقاشات المتعلقة بنسبة الأجور الواجب دفعها لهيئة الدفاع، لانه يسطر في غرفة المجلس من طرف المحكمة والتي تم ضم الوزير إليها. لا

يمكن نقل حقوق أو أي إجازات ناتجة عن تطبيقات الأسعار بفرنسا تحت أي مرور. كل سنة يجب على النائب العام تعيين بالتناوب لمحامي مكلف بمجان بتوفير الاستشارات للسكان المحليين والدفاع عن مصالحهم المدنية.

إنه من المحظور على المحامي بصفة مباشرة أو غير مباشرة جعل أنفسهم أصحاب الأملاك المنقولة أو الثابتة التي هم مكلفون بمتابعة عملية بيعها أو أن يحصلوا على حقوق المنازعات، أو من أن يقوموا مع أطرافهم باتفاقيات من أجل أي مشاركة في نتائج الأحكام أو تشكيل أي اتحاد من أجل الدفاع فيما بينهم أو مع طرف ثالث. العقوبات المنصوص عليها للمحامين حسب درجة خطورة الحالة هي: التوبيخ التعليق عن العمل لمدة ستة أشهر على الأكثر والإيقاف عن العمل. ومن أجل ترتيب بعض المواقف الفردية، سطر مرسوم 27 جانفي أنه لأول مرة فقط بغض النظر عن تحديد العدد، يمكن تقويض كمحامين الأفراد الذين يمارسون هذه المهنة في هذه المنطقة أثناء إصدار القانون إذا ما كانوا يحملون الشروط المطلوبة للقبول كوكيل دفاع في فرنسا أمام المحكمة الابتدائية، أو إذا ما كان امتن كقاضي أو نائب خلال ستة سنوات على الأقل في محكمة استئنافية أو محكمة تجارية.

مرسوم 27 جانفي نص كذلك على تحديد ممارسة مهنة المحضر القضائي وأخصها لستات كفاية ب 4,000 فرنك للجزائر و 2,000 فرنك لعتابة ووهران.

في الشهر الأول من إدارته، ظهر السيد الكونت ديرون جدمعارض لطموح عبد القادر والسياسة المثبناة من طرف الجنرال ديمبشيل Desmichels تجاه هذا القائد العربي. وعلى ضوء الشائعات المنتشرة عامة فإن أمير معسكر يريد ربط علاقات تجارية مع جبل طارق وإسبانيا عبر خليج رشقون، فأصدر في 27 نوفمبر تحت اقتراح من السيد بلوندا M. Blondel مدير المالية، مرسوم يمنع كل عمليات الاستيراد والتصدير للبضائع الفرنسية الأجنبية أو الإفريقية عبر موانئ غير التي يحكمها عسكرينا إلا في حالة ترخيص خاص. والمخالفون يكونون عرضة لمصادرة البواخر والبضائع تطبيقا لإجراءات قانون 21 ديسمبر 1793. قوات البحرية تم تكليفها بحراسة الموانئ التي يتم منها محاولة التجارة المتطفلة. وقد حافظت القوارب⁽¹⁾ المغربية على أخطيتها في الملاحة داخل المياه الإقليمية.

في 8 ديسمبر تم تكليف إدارة الجمارك بتحصيل كل الضرائب⁽²⁾ ضالة من 1 جانفي 1835. هذه الإدارة أخذت تسمية إدارة الجمارك والضرائب المختلفة. وفي 5 جانفي تم تنصيب الجمارك بحماية ومستغاث، وتم لتحديد أن كل الاستثناءات المتعلقة بالمصلحة المالية لمدين الموقعين تترك سريان مفعولها، وكل الحقوق يتم تحصيلها حسب القواعد التي عليها في النقاط الأخرى من ممتلكاتنا. وبما أن لا وجود لأي نوع

(1) هي بواخر صغيرة مشابهة لقواربنا الشراعية.
(2) لا يوجد في الجزائر سوى العرفية والضرائب الغير مستقرة.

من الحركة التجارية بمستغانم، لم تتأخر الإدارة عن الإدراك بأنه كان من التسهيل أن يراد إقامة إدارة للجهارك لا تتمكن من تحصيل ما يكفي لتغطية مصاريف موظفيها، وبقي مرسوم 5 جانفي لبعض الوقت دون تطبيق فيها يخص هذه المدينة. وجهارك أرزيو التي تم تأسيسها تحت إدارة الجنرال فوارول لم تحقق سوى 15 فرنك في الأشهر الثمانية الأولى لتأسيسها وتكلف ما يقارب 300 فرنك في الشهر ولكن توجد مواسم لا يكون فيها الميناء دون أهمية تجارية.

جعل مرسوم أول في 5 جانفي الضرائب موحدة لكل من وهران عنابة والجزائر، هذه الضرائب كانت لحد الآن تظهر بعض الفروق في النسب وطريقة التحصيل في كل واحدة من هذه المدن، وتم إرجاع الكل إلى القواعد المحددة للجزائر. وأخيرا في 23 أبريل أعلن مرسوم للمحافظ العام ساري القنول للممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا، التشريعات الفرنسية حول الجهارك فيما يخص الأنواع المختلفة للتزوير أو المخالفات، عملية رصدتها تحرير محاضر المخالفات، متابعة تلك المحاضر اختصاص المحاكم والغرامة أو في كل ما لم يسبق ذكره في مراسيم خصوصية. هذه الإجراءات لم جعلها مطبقة على الضرائب المباشرة.

وفي 4 مارس نظمت تعليمية من الملك نصت على أن سندات الخزينة يتم دفعها إلى صندوق الخزينة الدافع بالجزائر (ص 232)، وتكون

منتجة لقائمة 4 لكل مئة محددة بقانون 28 أبريل 1816 يتواصل دفع الإبداعات إلى إدارة الجهارك. هذه الإدارة التي خسرت بمرسوم 8 ديسمبر 1834 تحصيل الضرائب المختلفة ألزم عليها أخذ صفة إدارة التسجيلات والأموال عوض إدارة الجهارك والحقوق مجتمعة حسب مرسوم السيد بيثون Pichon.

آخر عمل لإدارة السيد الكونت ديرلون كان مرسوم 12 جويلية، الذي يأمر كل سكان الجزائر الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و 50 سنة بالتسجيل في مصلحة الحرس الوطني، دون التفريق بين أوروبيين وعلمين. هذا الإجراء الذي كان بحاجة للتحضير والدراسة، مر إلى المجلس باقتراح من السيد لوباسكي M. Lepasquier دون مناقشة مدى تأثير هذا الإجراء. ولقد خلق بعض الاستنكار في المدينة. وعندما تم التحدث مع الكونت ديرلون على الأثر الذي أنتجه ظهر متفاجئا من ملحق هذا المرسوم الذي صادق عليه والذي لم يكن يظن أنه ساري القنول على السكان المحليين. هكذا وللأسف يعالج الرجال ذوي المناصب الرفيعة باستخفاف الأمور الأكثر أهمية. أصبحت الآن عنابة إمامة تنظيم الحرس الوطني من مهام خليفة الكونت ديرلون الذي عادته الفكرة الأولى في ضم السكان المحليين سنة 1830.

الكتاب 16

الأعمال الأولى لإدارة الكونت ديرلون في علاقته مع العرب - مكائد
بعض المغاربة بالجزائر - إرسال كتائب إلى سوق بوفاريك - النتيجة الجيدة
لهذا الإجراء - الحالة المرفيعة للبلد - حل مكتب العرب - العقيد الملازم ماري
Matrey يعمّن آغا للعرب - تغيير السياسة العربية - حرب ضد الحجوةطين -
اضطرابات في نقاط مختلفة - أحداث بجاية - السلام المزعوم مع القبائل -
الجنرال ديميشيل يغادر وهران - عيد القادر يغزو إقليم التيطري وجزء من
إقليم الجزائر - التنازلات المقدمة من طرف الكونت ديرلون - جزء من الدواوير
والرمالة أتوا للدخول تحت حماية الجنرال تريزيل Trézel بـوهران - استئناف
الحرب - معركة مولاي إسماعيل - خسارة المقطع - مغادرة الكونت ديرلون.

أولى أعمال الكونت ديرلون تعطي الانطباع بأنه تبنى نهج العرب نظام
الصالحة للجنرال فوارول وتخلص مما أدخل هذا الأخير فيه من ضعف وتردد.
الأسف المحافظ الجديد كان رجلا سهل التحكم فيه، والتي كانت الأفكار
تغير باستمرار نتيجة تشوشها. كل واحد أراد الاستحواذ على عقله من أجل
أحد جزء صغير من العمال. كان ظاهرا أن الثقل كان ملائما للجميع ما عدا
أولئك الذين كانوا مسبقا محتملين.

لقد تكلمنا في الكتاب السابق على الخيل الفضة المستعملة من طرف
المغاربة من أجل إعطاء أنفسهم أهمية في أعينه. وبعد فشل الهجمات الأولى

الجزء الأول

الموجهة لمكتب العرب، بدأ المشاغبون بالتخلي عن القواد واستبدلهم
برجال لولائهم. حمدان الأغا السابق، أراد تعيين بورياح ببني موسى
وهو رجل فاسق تمت إقالته من طرف الجنرال فوارول واستبدله بعلي بن
الخنزناجي. تم القيام بكل شيء من أجل أحداث تغيير، ولكن الخزنناجي
قاوم كل الهجمات مدعوما بالجنرال فوارول وانتصر في الأخير على كل
مؤامرات أعدائه.

نتيجة لحدوث بعض الإنقطاعات في توريد زيوت "يسر" "آمال"
و"واد الزيتون"، تم استغلال هذه الظروف من أجل مهاجمة قائد الحنة
العربي بن قاية. وكل واحد قدم مرشحه على أنه الوحيد القادر على
تمكين هذه التجارة لاستعادة كل نشاطها. فوضع بن عمر للأمام رجلا
غامضا ودون نفوذ، طبيب انجليزي مقيم بالجزائر وكانت له بعض
الحسابات لدى الدوق دوروفيقو، أراد كذلك الدخول في هذه المسألة.
ولكن توريد الزيوت استعاد طبيعيا نشاطه فتوقفت الدسائس، المرشح
بن عمر قام بشتنم القايد فتم سجنه وعادت الأمور إلى طبيعتها.

الكونت ديبرلون الذي تخلص لبعض الوقت من هذه الهواجس بدأ
بدراسة البلد بعض الشيء. رأى هذا الطاعن في السن لا يزال سليما
عندما توفر له ذاكرته، التي بدأت تضعف عناصر التفكير تم إبلاغه بما
حدث ببوفاريك في جويلية الماضي، وتم إقناعه بضرورة فرض احترام
السلطة الفرنسية، فقام بإرسال كل يوم الإثنين بعض الكتابات التي

سهل تواجدها تردد الأوروبيين على السوق. وقرر عاجلا شغل هذه النقطة بصفة دائمة حيث لقي هذا الإجراء العديد من الاعتراضات. وصعب على الوزير قبول المصاريف التي سيجرها رغم قلتها حتى في الجزائر. والبعض كان يراه ماحقا للسوق وبذلك لتجارة بني خليل. لقد قدموا موقع بوفاريك أيضا على انه الأكثر علة في البلاد وأن الفرق العسكرية التي تستقر بها ستباد بالأمراض. الأحداث أثبتت أن كل هذه المخاوف لا أساس لها من الصحة ولا يتم هجر سوق بوفاريك، وتبين أن الموقع من أكثر المواقع معافاة من كل المواقع التي نشغلها. المعسكر الذي نصبناه هناك أخذ تسمية معسكر ديرلون، مشكلا من سور مستطيل محصن وكومات هائلة من قطع الحجارة التي تم استخدامها في بناء ثكنات وإسطبلات. تشييد هذا المعسكر لم يدم سوى أشهر قليلة. وهو الآن من أجمل منشآتنا العسكرية.

الإجراءات التي اتخذها الكونت ديرلون أوضحت للمغرب أنه ينوي معاملتهم بصرامة ولكن بليونة. كل تلك الاضطرابات البسيطة التي حصلت كتيعة طبيعية لأحداث شهر جويلية توقفت فجأة وعادت الأمور إلى مجاريها. كما كانت أشهرا من قبل وانتشر الأوروبيون من جديد في السهل، وأخيرا استقرت الأوضاع السياسية للبلاد لبعض الوقت. وللحفاظ على حالة الأمور كان من الواجب تعيين ألفا للمغرب.

فانتار السيد ماري Marey الذي تم من جديد تعيينه عقيد مقدم قائدا لفصيلة الصفاحي النظاميين، وهي قيد التشكيل والتنظيم. هذا الضابط استقر مدة ثمانية أشهر بباريس وتمت الإشارة إليه غير آراء أشخاص مهمين شاعده على أنه ممتاز لهذا المنصب، وهو ما حدد اختيار الكونت ديبرلون. هذا الإجراء أدى بطبيعة الحال إلى حل مكتب العرب الذي اختفى عن الوجود في 20 نوفمبر 1835.

استغل رئيس مكتب العرب الثمانية أيام الأخيرة من عمله في التجوال بالبلاد دون أي مرافقة سواء العرب أنفسهم، من أجل ملاحظة الحالة المسألة للقبائل. استضيف بالقلعة عند المراتب المحترم سيدي محمد واشتكى الحجوطيون الأساسيون من عدم فعالية قائدهم الذي أعماه عشق امرأة شابة عن واجباته. فتم التحضير لاجتماع جديد بمقطع خيرة بعد بضعة أيام من ذلك من أجل تقرير الوسائل الناجعة لمعالجة هذا الوضع، الذي ترك المجال مفتوحا للمجرمين وهو ما يلحق الضرر بكل القبيلة. وبالفعل تمت عملية سرقة الأبقار في منطقة الساحل ولا أحد كانت له سلطة متابعة المدنين الذين كانوا معروفين، وتم تحديدهم من طرف الحجوطيين أنفسهم. وبما أن حل مكتب العرب كان قد تم تطبيقه بالتزامن مع ذلك، فإن متابعة هذه القضية تعود بطبيعة الحال للأغا الجديد، ولكن الكونت ديبرلون ظن أن من واجبه تكليف السادة فارجي M.M Vergé والبغرو Allégro بذلك، لخروجهما تولا (حالا) من مكتب العرب. هذين الضابطين تقربا من الحجوطيين وبعد تأكدهم أن عدم فعالية قوير التي لا تسمح بمتابعة

مهامها، تم اقتراح استبداله بمحمد بن الحاج رباح صاحب جوش الحاج، وهو شاب كفؤ ومقدام وكان له العديد من المناصرين. القضية كانت على وشك أن تحل عندما تدخل أصدقاء للأغا، متحمسين أكثر من ذكائهم والخبروا الجميع أن هذان الضابطان يتصرفان دون أوامر ولا يجب الوثوق بكلامهم. وظن الحجوطيون أنه لم يعد يوجد قيادة في الجزائر وأنه توجد نزاعات حول قيادة القضايا العربية. وعمد البعض إلى الطلب من الضابطان ما يمكنهم تقديمه لهم من مزايا ليكونوا في صفهم ضد الأغا. هذه القضية كان من الممكن ودون شك أن تُساق بطريقة نظامية مما آلت إليه، ولكن المهم هو أن يتم حلها أخيرا بطريقة أو بأخرى. تم إبلاغ السلطات الفرنسية بها كانت اليد التي تحكمها، بأن الحجوطيين أصبحوا دون قائد في الوقت الحالي وأنهم يرغبون في الحصول على واحد حقيقي، وأنه من واجبها تزويدهم به، وهو الشيء الذي لم تقم به. الحجوطيون الذين كانوا متغطرسين ومتهمكين سمحوا بسخریات لا مبرر لها ضد الأغا، ومن جهة أخرى كثير من الأشخاص كانوا سائمين من الكون في سلام. فتم بسرعة كبيرة استغلال سرقة الأبقار في الساحل من أجل حل المسألة بالسلاح رغم أنه كان من الإمكان حلها بطريقة أخرى.

في 5 جانفي أربعة معارك من الزواف وصيادي إفريقيا والسباهيين النظاميين وأربعة مدافع للجبال وقطعتين للبراري، اجتمعت بأولاد متدبل ليل الدويرة. في نفس اليوم والذي كان يوم الإثنين توجه العقيد ماري الأسوق بوفاريك مع بعض الكتائب واعتقل شخصين من حجوط كانوا

هناك واحد منهم كان من الذين كانت له فرصة الحصول على خدمة من الجنرال فوارون والذي لم يفوت أية فرصة من أجل مساعدتنا. تم إقناعه إلى الجزائر مع رفيقه ووضعهما في السجن، وبعد شهرين من الحبس لمكتنا من الفرار.

عملية اعتقال الرجلين التي كانت تعتمد على مصداقية الاتفاقيات الموجودة، كانت قليلة الوفاء دون شك ولكنها نجحت أعمالا كانت ستكون أقل وفاء، بمعنى مفاجئة سلام تام لقبيلة في اللحظة السانحة. وبالفعل بعد أن علم المحجوبون بما حدث بيوفاريك إزدادوا تأمبا، وعند ولوج الفرق الفرنسية لأراضيهم في صباح السادس كانوا قد وضعوا كل قطعانهم وأفرادهم في مأمن. في اليوم السادس والسابع قسم الجنرال راباتال Rapatel قائد هذه الجولة قواته إلى ركيزتين، وحارب البلد في كل الاجتماعات. في ليلة السابع سار ليلا وداهم قبيلة موزاية التي قيل أنه من الواجب أيضا توبيخه. وعند مطلع اليوم، هاجم إحدى قرىهم الواقعة في إحدى مضائق الأطلس. وحدث تصادم شديد أين تم إصابة العقيد ماري Marey. ذهبت الركيزتين لقضاء ليلة الثامن على سفح الشفة للاحقة المحجوبين وأفراد من موزاية. وفي التاسع تمت عودة الفرق إلى بوفاريك من حيث تم إرسال في اليوم الموالي كل فرقة إلى معسكراتها.

وهكذا استأنفت الحرب ضد المحجوبين، حرب فيها ما نخسر

أكثر مما نربح، ومنذ تلك الفترة تحدث هذه القبيلة التي لا تضم سوى 400 فارس سلطتنا وصاروا يقتلون منا أكثر مما نقتل منهم. ويسلبونا ويسلبوا حلفائنا باستمرار ضعفت الماشية التي نسلبها لهم في حملاتنا. ولم ينقص ذلك بل على العكس كان يزيد يوما بعد يوم خاصة بتدعيم أفراد من قبائل أخرى للغاضبين والذين توجهوا إلى أراضيهم⁽¹⁾.

شهر بعد رحلتنا إلى المحجوبين أرادوا رد الزيارة لنا، وبذلك أرسلوا 150 فارس من بينهم هارب فرنسي. هذا الفوج مسح كالأعصار كل الطريق الرابط بين دالي إبراهيم والدويرة وقتل مسافرين وعسكريين وانسحب بعد تبادل إطلاق النار مع مخيم للعمال ببابا حسن من أجل أشغال الطريق. حصل بالساحل على غنائم معتبرة. وذهبت فصيلة استطلاع بقيادة الجنرال راباتال في ذلك اليوم لزيارة ضفاف المزفران أين تنوي إنشاء مقر هناك. الصدفة كانت قادرة على ملاقاتهم بالمحجوبين الذين كانوا سيقعون في الفخ الذي نصبوه بأنفسهم، ولكنهم كانوا جد عظماء باجتيازهم لمعبر مقطع خيرة ساعة قبل وصول الفرنسيين.

هذا الحدث وبعض عمليات النهب الأخرى التي قام بها العرب العدائيون، نشرت الرعب لدى المستوطنين الأوروبيين وما زاد ذعرهم، هو ذلك النشر الغير الحاذق للعديد من جداول الأعمال التي كانت توصي بإجراءات كانت توحي بأن الخطر أكبر مما هو عليه في الحقيقة.

(1) المحجوبون كانوا مادة عادية لنشرات الأخبار اليومية. المراقب الجزائري قد شاع في عشر أكثر مما وجد.

رأى الكونت ميرلون أنه تورط في مسلك خاطيء، وردود الفعل التي قام بها في هذا الموضوع كانت دون شك من تعداد الأسباب التي دفعوه إلى التنازل في كل شيء للعرب في كل النقاط الأخرى لحكومتهم. فهكذا يحدث عند الرجال الضعفاء، فالاعتراف الباطني بخطأ لا يصلح إلا لدفعهم للقيام بخطأ جديد في إطار آخر.

أوضحت حملات الحجوطين أن الطريق بين دالي إبراهيم والدويرة كان سيء الحراسة، ولتغطيته بشكل أفضل يتم تأسيس معسكر فصيلة "بمعلمة" ومع ذلك فإن أفعال الإدارة قامت بتغيير عدد كبير من الناس غير الحجوطين العرب الذين كانوا يعملون بطريقة لطيفة تحت إدارة الجنرال فوارول كأنهم أصدقاء أو رفاق، تعودوا على هذه الحالة ولم يعودوا يأبهون للشكليات التركية التي كنا نستعملها معهم. الكثير منهم توقفوا عن المجيء إلى الجزائر وأخذوا موقفا معارضا ضدينا. من بينهم قائد بني خليل العربي بن إبراهيم، الذي انضم إلى صفوف الحجوطين في حملة شهر جانفي. تم استبداله بعلي بوشيشة شيخ أولاد شيل. تقريبا كل فرسان المرجية والعديد من بني موسى اقتادوا بالعرب. ووقعت تقريرا في نفس الفترة حادثة غرق سفينة سردينية أمام رأس بانغي Bengu، والتي تكن طاقمها من الوصول إلى البر سالمين ولكنهم وقعوا بين أيدي ناس بئر D'Isse، الذين لم يريدوا إطلاق سراحهم دون دفع فدية كبيرة. هذه الوقاحة التي كانت تستحق عقوبة مثالية، مرت مرور الكرام على الكونت

ميرلون. دفع فتصل سردينيا المال المطلوب لتخليص أولئك المساكين، وتم نقله إلى ناس بئر D'Isse بواسطة ضابط من قيادة الأركان. من الإنسانية أن تقوم أولاً بتخليص المنكوبين ومن ثم تلقين قبلة بئر أنه لا يتم التنازل للمحافظ العام للمنطقات الفرنسية في شمال إفريقيا دون عقاب. ولكن المحافظ لم يتعلم ذلك وبينما كان يضيق الحجوطين من أجل سرقة أبقار، ترك ناس بئر بسلام وهم من قاموا بسرقة رجال.

قرابة شهر مارس جاء الحجوطين بعدد 200 أو 300 للقيام باستعراض أمام معسكر بوفاريك وبينما كان جزء يقوم بإشغال البناء القوات بصدها الشجاع لضربات المدافع بضربات بنادق، كان الآخرون يسلبون الماشية لناس بني خليل حلفائنا. وبعد يوم من حملات السلب والنهب التحيروا إلى ضفاف الشفة أين كان لهم معسكر صغير هناك.

في اليوم الموالي ليلا، توجه الجنرال راباتال Rapatel إلى ذلك المعسكر بضع كتاب، وعند وصوله إلى هناك عند مطلع الشمس وجدوه خاويا. السباحين النظاميين وصيادي إفريقيا بدؤوا بملاحقة الحجوطين الذين لم يكونوا في انتظارهم. وبعد ساعة من السياق عادت الفصيلة إلى ركيزتنا التي عاودت اندراجها إلى بوفاريك. والحجوطين عادوا لمهاجمة المؤخرة كعادتهم. وكانت هذه الجولة دون نتائج.

الأحداث العسكرية والسياسية الأكثر أهمية في عهد الكونت ميرلون

حدثت خارج منطقة الجزائر. تمت بجاية مهاجمة مقر قوراية في ليلة 9 أكتوبر، وتم صدّها بالقبائل البدوية التي أبدت العدو والاشتباكات الشديدة التي كانت في البداية توقفت بسرعة.

في العاشر ومنذ الصباح ظهرت الأفواج العديدة من القبائل من بعيد، وفي الساعة مساءً أطلقت مفرقات من معازل السهل ومعقل الرمان للإعلان عن اقتراب العدو. وسرعان ما سمعت أصوات وأبل من الرصاص الشديد في الحصن السفلي، ولكن بعد قليل من الوقت، نقل القبائل هجومهم إلى الحصن العلوي أين كان العقيد دوفيقي Duvivier موجودا. تصدت لهم مدفعياتنا فركزوا كل قواتهم على معقل سالم الذي تمت مهاجمته بشدة. صمد هذا المعقل أربع ساعات وشر المولى على الأراضي المحيطة به. بدأ القبائل بإشعال النار في الحشائش وأكوام التراب المحايدة للمعقل ولكن لحسن الحظ لم تصل النيران إليه، وعند الواحدة ليلا توقفت الهجمات وابتعد العدو، والعقيد دوفيقي الذي لم يكن يتوفر لديه سوى 600 رجل لم يجرؤ على محاولة الخروج، فقوى القبائل فاقطت 6000 رجل.

لم يحدث شيء، بمجرى بجاية منذ مهاجمة معقل سالم حتى الخامس ديسمبر، ففي هذا اليوم ظهر العدو بعدد كبير على السهل وعلى أعالي المطحنة. سار العقيد دوفيقي مع جزء من قواته لمواجهة الذين كانوا في السهل وأمر الفصيلة الثانية لقناصة إفريقيا بالتحرك بطريقة تشير للموجودين في أعالي المطحنة وترميهم عليه.

ولكن الأمور لم تسر على هذا النحو. القبائل الذين كانوا في مواقع أعالي المطحنة قرروا تحكيمهم في عملية تراجعهم والتي تم القيام بها من أعالي الموقع. أولئك الموجودين في السهل تم سحقهم من طرف العقيد دوفيقي بعد تكليف فصيلة الفرسان بها والتي قتل منها بعض الرجال.

وبعد ثلاثة أيام أوز في 8 ديسمبر، خرج العقيد دوفيقي من بجاية بـ 1500 رجلا تقريبا، وتوجه إلى واد بومسعود أين دخلها دون مقاومة. كان هذا الوادي رائع مزروع جيدا ومغطى بمساكن عديدة التي تم إحراق البعض منها. وبدأ القبائل المتمركزين في الضفة اليمنى من النهر بإطلاق نار شديد عند اقترابنا، ولكنهم ابتعدوا عندما قام الفرنسيون بعبور النهر. بعد استكشاف الوادي من الضفتين، بدأ العقيد دوفيقي يتراجع نحو بجاية. حيث تم ذلك بنظام رائع أعاد إظهار المواهب العسكرية لهذا الضابط المميز. ومع ذلك كسبتين من الفصيلة الثانية لقناصة إفريقيا لم تستوعب ما يجب فعله، إذ أوشكت على تعريض نفسها للخطر.

في هذه الجولة الصغيرة، لم يعرض العقيد دوفيقي ممتلكات القبائل إلا جزء بسيط من الضرر المسموح به في قوانين الحروب. لكي يثبت بهذا أن قوة الشر لديه لم تكن مقيدة سوى بإرادة فعل الخير. ومنذ ذلك الحين تقيدت الزاوية بنوع من الحياد. أظهر ابن أورياح القاطن بواد مسعود والذي أدرك أنه أمكان الوصول إليه ميوه إلى السلم، ولكن مسابرة كبرياته لم تسمح

له بطلبه من الكولونيل دوفيفي. فوجه أنظاره نحو شاب ببجاية يدعى لوواسي Lowasy مقروض الملك لدى البلدية وغريب كلياً عن المدينة. ودخل في علاقة مع هذه الشخصية بواسطة شخص يدعى مدلي وهو عربي محاذع. السيد لوواسي كان قشورا بإيجاد شيء بفعله أخيراً ببجاية، فأسرع بالكتابة للمشرّف المدني من أجل إعلامه بأنه يمسك بين يديه خيوط تهدة الناحية. وأنه لم يحدث ذلك من قبل بسبب أحاسيس الحقد والإبعاد التي كان الكولونيل دوفيفي يعطيها للقبائل. بلغ المشرّف المدني بهذا الاكتشاف المحافظ العام الذي سمح للسيد لوواسي ودون التعمق في المسألة بالتفاوض مع أوربا إذا أمكنه ذلك. عملاً بهذا الترخيص والذي من غير المعقول والغير اللائق أن لا يتم تبليغ قيادة الأركان ببجاية به. استغل السيد لوواسي قارياً من الميناء في 27 مارس وتوجه برفقة ذاك العربي إلى مكان من الساحل حيث كان أوربا ينتظرهما فيها. لم يتعدى اجتماعهما بضع دقائق حتى تمت مقاطعتهم بطلقات نارية من قبائل رافضين لما يجري. هاجمت الفرقة التي اصطحبها أوربا معه هؤلاء المقاطعين وقتلت ثلاثة منهم وقطعت رؤوسهم. في هذه الأثناء وبعد ارتباك السيد لوواسي M. Lowasy لعدم معرفته كيف سيكون المخرج من ذلك عاد إلى مركبه مبحراً. وعيناً أراد أوربا مناداته ملوحاً بجوازته الدامية والتي تعتبر ضمانات حسن نيته. ولكنه لم يسمع شيئاً وأسرع بتجديده إلى بجاية. ولكن

مراقباً آخر كان ينتظره هناك، إذ تم إبلاغ الكولونيل دوفيفي بأن مركباً غريب الميناء ورأى من بعيد أوروبا في اجتماع مع العدو دون تصريح وهو على عقوبة الإعدام في قانوننا. فأرسل على الفور مركباً آخر لاعتقال ذلك الأوروبي. قتم توقيف السيد لوواسي وحجزه لساعات بسقينة مراقبة، وعندما أبدى للعيان تصريح الكونت ديرلون، تم الإفراج عنه وذهب على الفور إلى الجزائر حيث وصل في نفس الوقت مع تقرير الكولونيل دوفيفي الذي كتبه حول هذه القضية للمحافظ.

وعندما تحصل الكونت ديرلون على تقرير كتابي وآخر شفهي دفعة واحدة ومتناقضين في نقاط عديدة أرسل إلى بجاية الكولونيل لومارسي Lemercier مدير التحصينات، والذي كانت الطبيعة الخاصة لمهامه تجعله حريصاً من مثل هذه المهمات. كلف هذا الضابط السامي بتفحص الأوضاع هناك والتفاوض مع ولد أوربا إذا ما ظلت استعدادات هذا الشيخ سلمية. وعند وصوله إلى بجاية تحاور معه عند مصب نهر الصومام. أعلن وليد أوربا أنه يريد بالفعل الدخول في هدنة إلا أنه يضع لها شرطاً أولياً وهو إبعاد الكولونيل دوفيفي عن بجاية دون التماس أي شكوى محلية ضد هذا الضابط. هذا الغرور كان جد مفرد ومعاكس تماماً للكرامة المنسب وضعها في علاقاتنا مع السكان المحليين، حتى أن الكولونيل لومارسي Lemercier لم يرد التفاوض على هذا الأساس الحقير وقضى

الاجتماع. ولكن الكولونيل دوفيقي الذي تم إبلاغه بما جرى، سخط على طريقة المحافظ وأعلن أنه لا يريد أن يكون عائقا في مسار السلام الذي تظهر رغبته بشدة، وطلب العودة إلى فرنسا مع تحذيره بأن هذا السلام لن يكون سوى خيالا والأحداث السابقة لم تفعل سوى إثبات ذلك. أرسل قارب بخاري على الفور إلى الجزائر لنقل طلب السيد دوفيقي والإنذار النهائي لوليد أورباخ.

وقام الكونت ديرلون في نفس الفترة باستدعاء الجنرال ديميشيل من وهران لأنه كان يلومه على اتفاقيته مع عبد القادر والتي كانت فيها كرامة فرنسا غائبة، ويتناقض مسبق وبمحجة مخزنة أذعن للشرط الوقح لوليد أورباخ. بمعنى أن ذلك المسن كان تعرض لعوامل تأثير مختلفة. العرض المقدم من طرف السيد دوفيقي لانسحابه إذا ما كان عائقا للسلام، تم تقبله وتم استبدال هذا الضابط السامي مؤقتا بالكولونيل لومارسي. من المؤكد أن السيد دوفيقي كان بعيدا عن إحلال السلام المرغوب فيه، بل كان ضد التصحية برفاهية وتماسك مقرنا بجاية. ولم يكن ملائما أن نقدمه كأضحية لطلبات العدو خاصة من أجل الوصول إلى نتائج جد سلبية كالتى تحصلنا عليها.

وبعد تخلص أرضية المدينة من كل العوائق، حضر شروطها السيد لووامي وأعطى كل من السيد لومارسي ولوليد أورباخ معاهدة التي بمقتضاها

ينقل هذا الأخير عن مدينة وحصون بجاية التي في الأصل ليست ملك له وسهول هذه المدينة المتواجدة على أراضي المزاية Mzaïa، وتعهدت فرنسا من جهتها بمساندة ولید أورباخ في حروبه ضد القبائل التي ستعاديها⁽¹⁾. وفي الحقيقة هذا ولید أورباخ الذي جعلناه أميرا لم يكن سوى شيخ لولاد عبد الجبار Oulad-Abdel-Djebar، كان جد غني إذ تمكن من إقناع بعض الفرسان لحسابه دائما ولكن ليس نافذا لدرجة فرض إرادته وحساباته مكان حقد ونزوات القبائل. إنه يزعم أنه سيستغل درجة نفوذه التي يقن أنه يتمتع بها. طول مدة قيادة السيد لومارسي بجاية قام بدفعه إلى الإسراع في الهجوم على أعدائه "سكان المزاية"، حسب بنود الاتفاق ولكن الكولونيل أعلن أنه لن يقوم بذلك إلا إذا رافق ولید أورباخ الفرنسيين في هذه الحملة ضدهم، وعندها كان مجبرا على الاعتراف على أن هذه الخطوة ستعرض عليه كل أهالي الناحية. ولكن هذا اعترافا بأنه لن يكون ذو فائدة لنا مثل ما قام بالتنبؤ به جيدا السيد دوفيقي. ومن جهته لم ينج من ثمار تحالفه معنا سوى بعض الهدايا الثمينة التي قدمها له الكونت ديرلون.

أعمل القور بعد مغادرة السيد دوفيقي، في الوقت الذي كنا نظن فيه أنه دعشنا في اتفاقية سلام مع أغلبية القبائل، تمت مهاجمة بجاية من طرف ثلاث إلى أربعة آلاف رجل. السيد لومارسي بحث مطولا على إقناع

(1) أنه ليس الواضح أن رجلا مثل السيد دوفيقي كان يعرف التنظيم السياسي للقبائل لم يكن لمعنى هذه المعاهدة التي كانت بلا معنى كليا (انظر الكتاب 14). 249

نفسه بأن هؤلاء الناس يخطئون وأنه مجرد سوء فهم. أرسل إليهم بعض المجموعات ومترجمي الذين تم استجابتهم بطلبات البنادق. فكان من الظروف الاعتراف بالحقبة. وفي اليوم الموالي قطعت رؤوس ثلاثة من جنودنا على مقربة من المدينة، وما كان ذا معنى أعمق أنه لم يكن بأي شيء إلى السوق الذي تكفل وليد أورباخ بتحويله. وتم توضيح منذ ذلك الحين بأن معاهدة السلام لم تكن سوى استعدادات مثلها أعلاه الكولونيل غومبلي. والأحداث كلها أبرزت ثبوت هذا الضابط السامي وكان قام من قبل بالالتزام معهم.

بعد بعض الوقت من الإقامة بيجاية عاد الكولونيل لاستعادة مهامه بالجزائر بعد أن رأى عدم تغير الأوضاع هناك، وحل محله السيد جيرو Girard وهو العقيد اللازم برئاسة الأركان ومساعد معسكر المحافظ. وتم تحت قيادة هذين الضابطين تشييد المبنى الممتد من قلعة عبد القادر إلى قلعة موسى. هذا الإنشاء جعل حراسة الميدان أكثر سهولة وأقل تعباً. لم يقم السيد جيرو derig بأية حملات واكتفى بالتصدي من وراء خطوط القناعات الناشئة للقبائل إتياعاً للتعليلات التي تلقاها. وكان لا يزال بيجاية عندما غادر الكونت ديولون المستوطنة.

بعناية وبعد وقت قصير من وصول هذا الجنرال إلى الجزائر، حدثت حملة جديدة في 18 نوفمبر إذ وصل فرسان من قبيلة العلمة إلى المدينة

بسرعة فائقة لطلب الحماية من الجنرال اوزار Uzer ضد عسكرياى لسطنة الذين هبوا أراضيتهم تحت قيادة بن عيسى جنرال هذا الذي في مساء تطلق الجنرال مع ثلاث كتائب مدفعية ثلاث أسراب من القصة ثلاثة لقناصة إفريقيا وجميع الكتائب. وصل في الصباح إلى فرق بن عيسى التي تولت الكتائب والقناصة القضاء عليها بحرم. قتل فرسان الباي عن المشاة فقتل منهم 150 وأسر منهم 15.

لم تدخل جنود المشاة الفرنسيين في هذه المسألة التي ظهرت فيها بالمخصوص كفاءة القائد جوزيف Josef وتقيب رئاسة الأركان الكومب Delcambe قائد الكتائب غير النظامية. وجدنا في معسكر القسطين 10000 رأس من الماشية والتي أعدنا الجزء الأكبر منها إلى العلمة التي سلبت منها.

لقد قمنا بالتعريف بالأحداث السياسية والعسكرية لإقليم غنية والجزائر تحت إدارة الكونت ديولون. وبقي لنا الآن التحدث عن أحداث إقليم وهران التي كانت في هذه الفترة ذات أهمية إلى حد التأثير الكبير على مستقبل البلاد دون شك.

كان أتياع ومعارضو سياسة الجنرال ديميشيل يتظرون بفارغ الصبر وصول الكونت ديولون، ويأمل البعض منهم إتجاح نظام كانوا يفتونه دون شك إيجابيا للمستوطنة، والبعض الآخر يريد تسيه الحكومة للنتائج

الوخيمة التي سيجريها بطبيعة الحال. الانتطاعات الأولى التي قابلت المحافظ العام كانت سلبية تجاه عبد القادر. فلقد اعترض مكتب العرب سبل رسائل أين كانت اعترافات الأمير الشاب ومشاريعه الطموحة واضحة. ولم يكن من الممكن رؤيته كما وآه الجنرال ديميشيل وسيلة سهلة الانتقاد، والتي يمكن لفرنسا استخدامها من أجل فرض هيمنتها في المقاطعة. وبمجرد إبلاغ الجنرال ديرلون بهذه الرسائل، وصل الجنرال ديميشيل إلى الجزائر مع ميلود بن حراش الذي قدم من أجل اكتشاف ترتيبات المحافظ الجديد. هذا الأخير لم يكن له بعد عن البلد إلا أفكارا مشوشة وكلتا تأثير الرسائل المكتشفة⁽¹⁾، والذي اختفى خلال لقاءاته مع قائد وهران والمبعوث العربي. تمت معاملة ميلود بقدر كبير من الاحترام وغادر الجزائر جذا راض عن نتائج مهمته ومحملا بهدايا ثمينة لحاكمه. استطاع الجنرال ديميشيل تصديق أن نظامه انتصر ولكن قبل أن يتحصل كليا على المصادقة كان مضطرا للعودة إلى وهران التي بدأ انتشار داء الكوليرا بها. وهنا وقع الكونت ديرلون في يد تأثيرات أخرى والتي وللأسف لم تكن الحيرة التي قادت وعذلت تعامله وأفكاره.

استعاد عبد القادر دون حيلة فكرة مشروع التوسع الذي أجبره الجنرال فوارول على تأجيله لشهرا من قبل وهذا بعد تحضير الجنرال ديميشيل له ظنا منه أنه لا توجد أي معارضة من المحافظ. وكتب إلى قبائل التيطري

(1) هذه الرسائل تم الحصول عليها في الأيام الأخيرة من إدارة الجنرال فوارول والذي أعطى الأمر بعدم فتحها حتى وصول الكونت ديرلون.

ورحى سواحي الجزائر لإعلان اقتراب وصوله. وأحس الكونت ديرلون بخطر كبير بعد علمه بذلك. فكتب بدوره إلى كل القبائل معلنا أنه إذا ما تجاوز عبد القادر مشروعه فإنه سيعامله كعدو لفرنسا وكذا كل من يتحالف معه. وفي نفس الوقت أنذر عبد القادر بالعدول عن فكرته ليس فقط لتجاوز منطقة الشلف بل حتى التقدم إلى ما وراء الفضة Fedda. الأمير كان بعيدا عن انتظار مغزى آخر كهذا. والغيبظ الذي أحس به هو ما كان سيدفعه إلى عدم الإكتراث به لولا أن داء الكوليرا كان يبيد قبائله. قد كان مجبرا على البقاء في حالة جمود جسدي إلا أن نشاطه الفكري كان يصب في تحليل طبيعة علاقاته مع الكونت ديرلون. فرأى أنها تقتضد إلى الاستمرارية والأداء الموحد وهذا جراء التأثيرات المستمرة التي كانت عليه والذي كان من الواجب مقاومتها بتأثيرات من نفس النوع. ونتيجة لذلك، قرر أن يكون له مكلف بالأعمال في الجزائر. واختار لهذا المنصب اليهودي الجزائري دوراند Durand وهو رجل مثقف رقيق وحاذق، تعرض في أوروبا ويتقن عدة لغات بكل طلاقة خاصة الفرنسية. في الوقت الذي لم اعتمد هذا الرجل لدى الكونت ديرلون، كانت التجارة الفرنسية رعت شكواى حادة ضد الاحتكار الممارس من طرف عبد القادر المخالفة حسب ما يقال - لبنود الاتفاقية. وطلب المحافظ تفسيرات من دوراند Durand الذي أجاب أنه حسب الاتفاق المذكور، فإن عبد القادر

كان حرا في إعطاء التجارة بأرزيو المنحى الذي يناسبه. هذه النقطة تم إنكارها وهذا طبعي بما أن الكونت ديرلون لم يطلع إلا على الجزء الذي تم الإعلان عنه رسميا. وكم كان تفاجئه كبيرا عندما وضع دوراند بين يديه الاتفاقية الكاملة مثلما قمنا بنشرها في الكتاب 13.

وبما أنه لم يستطع إيجاد تفسير يبرر تصرفات الجنرال ديميشيل الذي تركهم يجهلون وجود هذا الجزء، طلب على الفور من الوزير استدعاء هذا الضابط وأرسل إلى وهران الجنرال تريزيل ليحل محله كرئيس هيئة الأركان.

قبل هذه الحادثة بوقت قليل، بدأ الجنرال ديميشيل في البحث عن استبدال الاتفاقية التي كان وجودها الغامض يخلق الكثير من الشكاوى باتفاقية جديدة، لأنه كان يعلم أنه سيحين بالضرورة وقت للتقضى. فأرسل إلى الأمير أحد ضباطه الذي اقترح عليه التنازل له عن مستغانم، وبعض المزايا الأخرى مقابل تخليه عن الاحتكار ودفعه جزية بسيطة لفرنسا. وأجاب عبد القادر بتعالي أنه يتمسك بالاتفاق الأول وأنه في حالة ما إذا أردنا استئناف الحرب عكس كل حق أو عدالة فإنه مستعد لتحملها.

ورغم هذه الببرة الواثقة، كان عبد القادر يهاب الحرب وقد تأثر كثيرا عند علمه باستدعاء الجنرال ديميشيل وهذا ما وضح له التغييرات

(1) تفاصيل هذه العلاقة الدبلوماسية تطلب القصور ولكن نظرا لطبيعتها فقدما تظهر أفضل في مجموعة من النصوص السابقة عوثر عن كتاب هذا

المطلوبة في السياسة المتهجة تجاهه منذ عشرة أشهر. ولكن خلال وصول الجنرال تريزيل إلى وهران تحت تأثير الأسباب التي دفعت إلى تنحية سلفه كان اليهودي دوراند يعمل بنجاح بالجزائر على إرجاع المحافظ العام إلى المسار الحاطي لسياسة لم يتوقف عن إدانتها علنا. وبهذه الفرصة شجعت الظروف مهارة المكلف بأعمال الأمير. وكما قلنا في السابق فإن الكونت ديرلون قد أعلن أنه سيعامل كعدو سكان ضواحي الجزائر والتيطري الذين يشجعون المشروع الطموح لعبد القادر. وردة سكان المدينة على هذه التهديدات برسالة حكيمة قالوا فيها أنهم لم يرغبوا أبدا في حضور الأمير من محي الدين عندهم بل كانوا متأملين في أن يخرج الإقليم من الوحش التي كان يتخبط فيها منذ أربع سنوات، وإنهم توجهوا بنفس الطلب للفرنسيين وهم من ترفعوا عن مد يد العون لهم. ومن الغريب أن هؤلاء الفرنسيين بحجة ذاتهم وجدوا أنه من السيء البحث عن عون لهم بما أنه تم رفضه بإصرار. هذا التحليل كان من النوع الذي له تأثير وأحسن المحافظ العام باستقامته. ففكر بتشكيل حكومة بالتيطري ولكن عوص البدء في هذه القضية انطلاقا من النقطة التي تركها فيها الجنرال ديرلون ورفع اختياره لمنصب باي بالتيطري على القائد إبراهيم، الذي عاد إلى الظهور بعد إقالة الجنرال ديميشيل. وكان مخططة تخصيص له قيادة من الجنود الأتراك أو من الأهالي لتعيينه بالمدينة أين سيفي هناك

مع هذه الفرقة. وبما أن هذا المخطط لم يحصل على موافقة الوزير، فكر الكونت ديرلون أنه لم يبق له وسيلة لمواجهة أطماع عبد القادر وأن يستسلم للتناج التي ستخضع عن ذلك من الآن وصاعداً، وترك نفسه دون احتياط للانسيابات التي أراد دوراند إعطاؤها له. وهكذا فإن الجنرال تريزيل الذي أرسل إلى وهران كممثل لسياسة مخالفة للجنرال ديميشيل وجد نفسه في وضعية غريبة واستثنائية في تناقض مع الكونت ديرلون نفسه الذي وضعه لتحقيق هذا الهدف.

أثناء ذلك وبعد أن قام دوراند بإعلام عبد القادر بما يحدث في الجزائر، لم يتجاهل أي شيء يجعله لطيفاً عند الكونت ديرلون. كل الفرنسيين الذين كانوا يسافرون عبر أراضيه كانوا يُستقبلون بطريقة جيدة، وكان يضمن لهم الحماية الكاملة والفعالة. وكان يستخدم خاصة حكمته وأسلوبه المغربي في جذب الإرادة الطيبة لبعض ضباط رئاسة الأركان الذين كان المحافظ يرسلهم إليه في مرات متعددة والذي كان يعرف شغفهم ببعض الأرصدة. وسرعان ما لم يعد هناك كلام في الجزائر سوى عن الأمير عبد القادر. حتى أولئك الذين كانوا ناسفون على أخطاء سياسة لم يعودوا يتكلموا سوى بإعجاب عن خصاله الكبيرة. وبينما كانت شهرته تمتد بهذه الصورة وعبر اسمه البحار ووصل صدهاء في أوروبا، تمت مهاجمة قوته. فبعد أن أعلن سيدي العربي خضوعه تأمر ضده. بعد تقديم الآليات الكثيرة بيد الملك حكم عليه مجلس القضاة والعلماء بالإعدام. عبد القادر لم يسمح بتطبيق الحكم سواء بسبب كرمه أو خوفاً من

إثارة استياء أسرة قوية. ولذلك تم وضع العربي في السجن حيث وافته المية بعد وقت قصير بداء الكوليرا. وبعد رفض ابنائه الاقتناع بأن ميتة أبيهم كانت طبيعية، رفعوا السلاح وساقوا معهم تقريباً كل قبائل الشلف. مصطفى بن إسماعيل هذا العدو اللدود لعبد القادر وبعد أن انسأقت له هذه الأخبار أخرج رأسه من جحره في مشوار تلمسان، وقام بتقديم عروض للجنرال تريزيل إذ لم يكن بإمكان هذا الأخير قبولها تبعاً للتعليمات. حقد شخصي مسموم كان الدافع الوحيد لمصطفى والتعصب أعمى كان يوجه كل القبائل التي استجابت لنداء سيدي العربي. وهكذا بينما كان مصطفى يبحث عن دعم لثورته بالقرب من الفرنسيين، كانت قبائل الشرق تسرع إلى حمل السلاح معاتيين عبد القادر على تحالفه مع مسيحيين. حتى أخو الأمير نفسه القائد السابق للفليقة Flita الذي مجر الأعمال واستسلم لحياة التصوف، انضم إليها وراح يدفعها ضد من كان مقبرة العائلة وشموخ اسمها. وعاجلاً ما التحق بهم من هو أكثر خطراً: موسى عمدة الصحراء الذي كان يتقدم من جهة الوسط بقوات معتبرة معلناً له سيطرته على الفرنسيين وأتباعهم وأولهم ابن محي الدين. ساق معه قبائل الصحراء تلك المعروفة في عهد الأتراك باسم الدرقاوي أو الأحرار، والتي مزت البابات في حقب زمنية مختلفة. وبعد أن رأى عبد القادر بداية تكون العصاة قرر الانطلاق وخرج من معسكر في 12 مارس، ووصل عند أبناء سيدي العربي بخفة كبيرة أجبرتهم على الخضوع قبل أن يتمكنوا من محاولة استخدام أسلحتهم. عندما تقدموا أمامه عاملهم بلطف واحترام وأخبرهم

بأن موت والدهم أنساء جريمتهم، وعين الأكبر سنا بينهم قائدا للقبيلة. وبعد إتمام ذلك توجه إلى جسر الشلف. حاول الصيياح Sbiah مقاومة مسيرته ولكنه هزمهم كليا وأجبرهم على المجيء لطلب العفو. وواصل طريقه بعده فوصل إلى جسر الشلف. إذ كان اجتيازه ضرب عرض الحائط بحظر الحكومة الفرنسية، ولكنه فكر في أنه يمكن التجاوز على كل شيء. لذلك أرسل يعلم الجنرال تريزيل عبر قنصله بوهرا أن نيتهم كانت الذهاب حتى مليانة، وعند وصوله إلى الحدود المظرة له، تردد لحظة لأنها قد تكون اللحظة الحاسمة التي تقرر مستقبله السياسي. وبعد سماعه أن موسى الدراقاوي قد دخل إلى المدينة، استسلم لحظة ووصل إلى مليانة أين استقبله الأهالي ببهجة لا توصف. كان الأغا السابق للجنرال بيرتيزان Berthezen الحاج محي الدين الصغير ومحمد البركاني القايدين السابقين لشرشال جعلت منهم قلة الاحتياط أو الظروف المؤسفة أعداء لفرنسا، إذ تقدموا لم يد العون للأمير الذي لم يتوانى عن قبولها. سار معهم لمواجهة موسى الدراقاوي الذي لاقاه بالقرب من جرش عبودة على أراضي سومانة. بعض قطع المدفعية التي احتاط عبد القادر بحملها حددت هزيمة موسى. ووقعت أمته وبنائه الذي اتبعهم معه كلها بين يدي المنتصر. وتابع الحاج محي الدين الذي كان يقود مقدمة جيش الأمير موسى حتى البرواقية

دون القيض عليه. هذا المغامر عاد إلى الصحراء وبعد وقت قصير أعاد له عبد القادر النساء اللواتي عاملهن بكرم ولباقة. تم استقبال الأمير في الكبة مثلما كان في مليانة وعين بن عيسى البركاني بابا لإقليم التيطري. وبذلك وجد الكونت ديرلون نفسه في موقف حرج للغاية. أمام رجل قرر بحزم عدم التصرف بدون أوامر من باريس، ولكنه يتذكر مع ذلك تهديداته التي قام بها لعبد القادر من أجل منعه من تجاوز الشلف. كتب الجنرال تريزيل من وهران بطلب الترخيص للسير نحو معسكر من أجل إجبار الأمير على العودة داخل الحدود المظرة له من طرف الجنرال فوارول ومن طرف المحافظ عينه. ولكن الكونت ديرلون الذي كان خاضعا لهيمنة دوراند وبعد تردد، قرر أخيرا التنازل لعبد القادر عوض رفع السلاح. واليهودي دوراند تكفل بإتخاذ المظاهر ليس في عين العرب، فهذا مستحيل ولكن في عين العامة الأوروبيين الذين لا يمكن تضليلهم. ونتيجة لذلك انتشرت شائعات بأن الأمير لم يتحرك إلا بموافقة المحافظ، وفي نفس الوقت تمت الكتابة إليه لكي يمثل استقبال ضابط من هيئة الأركان سترسله الحكومة للتفاوض حول بعض المسائل وتقديم هدايا له. وبعد تلقيه هذه الرسالة لم يكن لعبد القادر سوى مباركة مهارة المكلف بأعماله، وبساطة المحافظ الفرنسي الذي لم يضع في الحسبان العواقب المؤسفة لهذه الخطوة. فرد

عليهم بطريقة تقع الكونت ديرلون أن هداياها وسفيره سيكون مرحبا به
والإلزام الإذلال كلف المحجوبين بإيصال الضابط الذي يريد إرساله إليه.
المحجوبون الذين أعلنوا عليهم حربا غير عادلة ودون ذنب، والتي لا يمكن
أو لا تعرف كيف تحلها قاموا وباعتزاز كبير ينقل المبعوث الفرنسي. هذا
الأخير كان مرفقا بالسيد دوراند ولم يكن لديه مترجم غيره. فكان من
الواضح أن مهمته ستحصر في نقل أقوال مسالمة وهدايا كان يراها إثباتا
على الاستسلام. وعند ذلك سيفكر بأن الفرنسيين متنازلين عن مشروع
الاستيطان، ولم يعودوا يفكرون على الحصول في إفريقيا سوى على بعض
نقاط البيع تحت حماية من يعترفون به حاكما للبلاد بكل الرضا. اشترط أن
يرفع الخطر على مائتي بندقية باقية من شحنة طلبها من تاجر أوروبي، وتم
توقيف عملية تسليمها بعد أن أعلن الكونت ديرلون عداوته له. وطلب
كذلك بضعة آلاف من الذخيرة. كل ذلك تم وعده بالقيام به. وبعد أن
أعلن الحاجي عمي الدين بابا على مليانة وعين قائدا للمحجوبين وآخر
ليس خليل عاد أدرجه إلى الشلف، حاملا معه المبعوث الفرنسي الذي كان
يشعر أنه لم يأل إلى جانبه سوى ليكون شاهدا على انتصاراته⁽¹⁾.

بينما كان الأمير على الضفة اليمنى لواد الشلف، تم اغتيال اثنان من
عياضه على أراضي قبيلة القليلة Flita. وعند عودته اتجه لهذه القبيلة.

(1) كتب هذا الفصل قبل سفره في تلك الفترة بين عرب إقليم وهران كمجرد
مستشار وسمع منهم عن وصول بعض الفرنسيين إلى معسكر عبد القادر وسمعهم
يتكلمون على هذا الحدث كحدث من عصور السطوة العظمى.

وبما أنها لم تتمكن من تسليم الجثث الذين قتل منهم في حالة فرار تم الحكم
عليها بدفع غرامة 150,000 قرشا (250,000 فرنك) التي تم دفعها
لجريدة الأمير بعد أن تم اقتطاع مبلغ معتبر لعائلات الضحايا. هذا المثال
للعادلة الصارمة قام باستعادة النظام في كل أرجاء البلاد، حيث توقفت
عمليات السلب والنهب لأن كل قبيلة أصبحت تراقب المجرمين، والطرق
أصبحت أكثر أمانا مثل ما يقال في المثل العربي: يمكن لطفل الجري فيها
معليا تاجا من ذهب. أدرك عبد القادر الذي لا يتوقف عقله عن التفكير،
أن الهدايا التي كانت تسمح بها الأعراف للقضاة من طرف المدعين كانت
تضر بالسير الحسن للعدالة، فأصدر تعليمة تمنعهم من قبول ذلك وحدد
فهم رتبها تدفعه لهم الدولة. تعليمة أخرى ألغت عقوبة الإعدام لجرائم الزنا
مع احتفاظ الأزواج بحق قتل زوجاتهم اللواتي يمكن بالجرم المشهود،
وهو ما تم فعله في جميع الأرجاء. والعسكرية الرائعة لهذا الرجل كانت تمس
الإنسان وبما أنه كان محاطا فقط بأناس متوسطي المستوى، فقد كان مجبرا
على الإلزام بكل التفاصيل، فقد نظم فرقة مشاة دائمة وبعض سرايات
للشرطة التي كان غالبا ما يعتز باستخدامها. كما جذب إلى معسكر بعض
صانع الأسلحة الذين تمكنوا من صنع بنادق جيدة مأخوذة من تصاميم
ألمانية حيث عرفت الأسلحة الأولى التي خرجت من هذا المصنع الحديد
لجرائم من الابتهاج العام. كان يقوم بصنع الذخيرة كذلك. كانت الصناعة

تأخذ وقتاً طويلاً لأن كل عمليات الحرم كانت تعمل باليد. إذ قدم له متعجب الثاني تصميم مطبوعة وأعجبه كثيراً، ولكن لم يسمح له الوقت لإعادة صياغته بحجم أكبر، وكان يفكر في إنشاء بحرية بأرشفون ونسب هذه المدينة اعترفت بسلطته منذ جولته إلى المدينة.

الأمر المالي كان يجذب اهتمام الأمير، وكانت كل القبائل تدفع له العشور وهي ضرائب شرعها القرآن وهو الوحيد الذي من حقه فرضها. ومن أجل الرفع من مداخيله قام يبحث دقيق لكل ممتلكات اليك القديمة، وسجلها على حساب الخزينة. وطمع بتلك الموجودة بوهران كذلك، ولكن الجنرال تريزيل قاومه كما يجب. وعبد القادر ككل أمراء المشرق كانت لهم أفكار خاطئة عن التجارة. كان يرى في الاحتكار مصدراً وفيراً للثروات، ونظراً لتأكد من عدم إزعاجه من طرف المحافظ العام في هذا الموضوع بدأ باستغلاله بحلة جديدة. اليهودي دوراند الذي قدم له خدمات كبيرة لحصل على الامتياز الحصري للتجارة بأرزيو وأرشفون، كما أنه عقد معه صفقة تخص بيع الخبواب المحصلة من العشور. وقام بتقديم عروض للتاجر الفرنسي من أجل التجارة بمنطقة تنس ولكن لم يتم الاتفاق على الشروط.

كان عبد القادر محظوظاً في كل مشاريعه وأحس بأنه أكبر مما هو عليه، ونجحاً على التعامل قوة فرنسا لأنها كانت موقفاً مثله في إفريقيا برجل هرم

لمعت شيوخه على نشاطه. بعد عودته من جولته الكبيرة إلى معسكر، أخذت علاقته الدبلوماسية مع السلطات الفرنسية تربة متعالية أكثر وصرحاً من ذي قبل. حيث كتب له المحافظ العام الذي زار وهران في الأيام الأولى من جوان 1835 معبراً له عن سروره بعودته إلى مملكته. وأرسل إليه في نفس الوقت بن حراش لطلب مدفوع ومدفع هاون لحصار حي المشوار بتلمسان. وقدم له احتجاجات كثيرة على طريقة تعامل العقيد ماري Marey مع عرب النتيجة. وعد المحافظ بالنظر في هذه الاحتجاجات عند عودته إلى الجزائر. وفيما يخص مدفع الهاون كان يظهر عدم اعتراضه للفكرة ولم يتراجع عن ذلك إلا بعد إدلاء الجنرال تريزيل بملاحظات كثيرة. بن حراش كان يحمل معه كذلك عروضاً لاتفاقية أكثر تناسقاً من الاتفاقية الموجودة، شرط أن تحوي عقوبة لمن يحاول اغتصاب سلطة الأمير وأن تعترف باستقلاله بوضوح أكثر مما في الاتفاقية القديمة. ونظراً للمعارضة الدائمة للجنرال تريزيل أجل المحافظ النظر في هذه القضية.

أثناء مسيرة الأمير إلى مليانة فكر الجنرال تريزيل أن هذا الحرق الخطر الحكومة الفرنسية سيحلب القطيعة، ولم يكن يظن أن الكونت ديرون سيضع نفسه في تناقض مع نفسه، فقام هذا الجنرال -كما كنا نقول- بالبحث عن إثارة الإزعاج لعبد القادر. وبالفعل عمل على فصل الدواير

والزمالة عن قضيته والذين لا تزال لديهم شعلة من الثورة ضد الأمير،
ويمكن من إقناع العديد من قرى هاتين القبيلتين باعترافهم أنهم رعايا
فرنسا تحت شرط حماية ناجعة. ولكن الكونت ديرلون الذي كان مصمما
على قبول كل شيء من عبد القادر، رفض قبول هذا الاتفاق. والأمير
الذي كان على علم بكل ما يجري فيها يخص هذه القضية، وحتى بما كان
يدور في المجالس المغلفة للمحافظ، علم بهذه المفاوضات وتوعد بعدم
السماح بإتمامها. وبمجرد صعود الكونت ديرلون على متن الباخرة التي
سقله إلى الجزائر، حتى أمر⁽¹⁾ قسم الدواير والزمالة المتواجدين في نواحي
وهران بالابتعاد عن المكان والذهاب للاستقرار في سفوح الجبال. وبعد
عدم امتثالهم لأوامره أرسل إلى هناك الأغا التابع له المزارى El-Mzary
ببعض الفرق، موجهها له تعليمات باستخدام القوة إذا اقتضت الضرورة.
وبعد إحساس الدواير والزمالة بالخطر المحدق بهم، أرسلوا على الفور
ممثلا عنهم إلى الجنرال تريزيل لطلب الحماية الفرنسية في 14 جوان. وعلى
الفور ودون تردد خرج هذا الجنرال من وهران بجزء من القوات المتاحة
له وعسكر بمسرعين معلنا للمعرب أنه جاء لمساندتهم ضد هجمات المزارى
d'El-Mzary. وفي اليوم الموالي تم إعلانه أن هذا الأغا يتواجد في
نواحي بريدية فأرسل لملاقاته مساعد المعسكر، مرفقا بسرب من القناصة

(1) لظن على العموم أن هذا الأمر تمت إقراره من طرف نورالد الذي رأى في ذلك
مسئلا باستقراره في التجارة التي ستتمكن الزمالة و الدواير من عطفها مباشرة مع
الأوروبيين رغم حظر الأمير

للتأكيد على وجوب انسحابه وترك الذين تحت حمايتهم في سلام. كان
الأغا قد بدأ مسبقا بتطبيق أوامر الأمير بكل حذافيرها. وقد اعتقل ووضع
الغلال لابن أخيه إسماعيل ابن القاضي الذي نجرا على مقاومته، ولكن
بعد اقتراب الضابط الفرنسي، أطلق سراح قريته وابتعد دون أن يتمكن
هذا الأخير من اللحاق به وبذلك تكلم معه. الدواير والزمالة الذين كانوا
مصممين على الانفصال عن الأمير جاؤوا للتجمع بالقرب من الجنرال
تريزيل. وعلى رأسهم عبدة بن عثمان وإسماعيل بن قاضي. وتبع الآخرون
الذين كان عددهم معتبرا المزارى عن قرب وتوجهوا إلى جنوب بحيرة
إيكابا Ibeka، لأنهم أرادوا البقاء أوفياء للذي كان في الثورة الأولى كرميا
ورحميا معهم. هذا الانشقاق تم في هدوء ودون أعمال عنفوية. كل
واحد راح يأخذ المكان الذي كان يظنه مناسباً دون أن يحاسبه جاره عن
اختياره.

في 16 جوان راح الجنرال تريزيل للاستقرار بموقع الكرمة في جنوب
وهران. من أجل تغطية الجزء الذي كان يتجمع فيه الدواير والزمالة
الذين انشقوا عن عبد القادر، وتم إضاءة الطاقة تعترف فيها هاتين
القبيلتين بسيادة فرنسا⁽¹⁾. في التاسع عشر انطلق الجنرال إلى ثلاث مناطق

هذا نص الاتفاق

الشروط المقررة في 61 جوان 1881 في معسكر الكرمة بين الجنرال تريزيل
وبين الدواير والزمالة

المادة 1: القبائل تعترف بمنطقة ملك الفرنسيين ويحتلون تحت سلطته

بعيدة وعسكر على طهقة خدير تلبلات، وكتب إلى عبد القادر لإعلامه بأن الفرنسيين سيقتلون في الموقع حتى الإفلاج التام عن فكرة اعتقال إسماعيل.

- 12: تتعهد بإطاعة الرئيس المسلم الذي يتم تعيينه من طرف المحافظ العام.
- 13: يدفعون بوهرا في القنارات المتعارف عليها الضرائب التي كانت تدفعها للسلطة السليطة للمقاطعة.
- 14: الاستقلال الجديد للفرنسيين عند القبائل وكذلك العرب في المناطق التابعة للقوت الفرنسية.
- 15: تجارة الأحصنة المواشي وكل السلع الأخرى، تكون حرة لكل واحدة من القبائل الخاضعة ولكن السلع الموجهة للتصدير لا يمكن إيداعها أو شحنها إلا في المواشي المحدة من طرف المحافظ العام.
- 16: تجارة الأسلحة وتطائر الحرب لا تتم إلا بواسطة السلطة الفرنسية.
- 17: لزود القبائل بالوحدات في كل مرة تستدعي فيها من قبل قائد وهران في بعض الحملات العسكرية في مقاطعات إفريقيا.
- 18: طول مدة هذه الحملات يحصل الفرسان المسلحون ببنادق وبالطمان (سيف تركي محذب) على راتب 2 فرنك في اليوم الرجال المشاة المسلحين ببندق يحصلون على 1 فرنك سواء هذا أو ذلك سيحصلون خمس خراطيش على الأقل وسيتم تزويدهم بعشرة إصغافين من ترسانتنا. أحصنة القبائل التي تقتل في المعارك يتم تعويضها من طرف الحكومة الفرنسية. وإذا ما كانت الفرق لتحصل على قوتها من المطاوعين الفرنسية، فإن الفرسان والمشاة لن يحصلوا سوى على 50 سنتيم في اليوم.
- 19: لا تقوم القبائل بأي عمل عدواني على القبائل المجاورة لها إلا في حالة ما إذا هاجمتها هذه الأخيرة، وعلى هذا يجب إبلاغ قائد وهران على الفور بذلك من أجل أن يستدعهم ويحسبهم.
- 10: عند مرور القوات الفرنسية عند العرب كل من يطلبونه لعنايات الرجال أو الأحصنة سيتم دفع ثمنه بسعر عادي وبمسن فيه.
- 11: الخلافات بين العرب يحكم فيها القائد أو القضاة ولكن الأمور الخطيرة بين قبيلة وقبيلة يتم الحكم فيها من طرف القاضي وهران.
- 12: كل رئيس مختار لكل قبيلة سيقيم في وهران مع خاتمة.

والشأن من كل حقوق السلطة على الدواير والزمالة وكتب في نفس الوقت إلى الجزائر لإعلام المحافظ بالخطوة التي ظن وجوب القيام بها، وطالب في حالة رفض هذه الخطوة بإرسال التعليقات مع الذي سيحل محله، معلنا أنه لن يكون من الممكن أن يحتفظ بالقيادة في ظروف لا يراها تتماشى مع كرامة فرنسا. أجاب عبد القادر الجنرال تريزيل بأن ديابته لا تسمح بأن يترك مسلمون تحت لائحة الفرنسية، وأنه لن يتوقف عن متابعة الفيلينيين المشتكين حتى ولو كانوا داخل أسوار وهران. وأبقى رسالته بطلب إعادة إرسال فضله بوهرا لنتم مبادته بقتلنا بمعسكر، وبهذا أعلنت الحرب ولم يعد من اللازم من جهة أو أخرى سوى التفكير في القتال. الجنرال الفرنسي الذي كان مترددا قليلا حول ما سيفعله، بدأ بتحسين موقعه بتلبلات لكي يتمكن عند الحاجة إعطاء الكتيبة والشاح. أما بالنسبة للأمير الذي أرسل في طلب كل العرب التابعين له، فتوجد نحو صفاف سبق أين حدد لهم موعدا هناك.

بدأ العدوان في الـ 22 بمهاجمة موكب كان متجها من وهران إلى تلبلات Tafala. هذا الهجوم كان فيها تبقى أقل حدة ودون نتائج. في الـ 23 تمت مهاجمة علف الناشبة بالقرب من تلبلات بفرقة مشكلة من 200 حصان. وأخيرا في الـ 24 عندما لم تبقى سوى أربعة أيام من المونة للجنرال تريزيل، قرر السير إلى عبد القادر الذي سمح له الوقت بتجميع قوى معتبرة. وجيش الجنرال لم يكن يضم سوى 25000 رجلا على الأكثر. كان يتشكل من كتيبة الصف 66 الكتيبة

الأولى للمشاة الخفيفة لأفريقيا، كتيبة ونصف من الفيلق الأجنبي، الفصيلة الثانية للقناصة إفريقية، مدفعي براري وأربعة قطع مدفعية للجبال، المركب كان يحوي 20 مركبة. وبدأ هذا الجيش الضعيف بدأ بالتحرك على الرابعة صباحاً في هذا الترتيب:

المقدمة: تحت قيادة الكولونيل أودينو Oudinot مشكلة من مريين من القناصة وثلاث فرق بولونية ومدفعي جبال.

المركب: محاطاً من اليمين بكتيبة الصف 66 وفصيلة، ومن اليسار بكتيبة إيطالية من الفيلق الأجنبي وفصيلة.

المؤخرة: تحت قيادة الكولونيل الملازم بوفور Beaufort مشكلة من الكتيبة الأولى للمشاة الخفيفة لإفريقيا وفصيلة ومدفعين للجبال.

ترتيب هذه المسيرة كان له بعض العيوب وهي أنه يشتت الكثير من الفرسان، ولا يمثل ركيزة قوية كفاية وهذا خطأ وجب تجنبه في إفريقيا.

على الساعة السابعة تغلعت أركان إلى غابة مولاي إسماعيل وهي عبارة عن أفعال كثيفة الأشجار على أرض غير مستوية مليئة بالوديان. وعلى الساعة الثامنة لاحظ لها مقدمة جيش عبد القادر التي هاجت مقدمتنا بعددها الكبير، وأخلت بها أضرار كبيرة دفعتها للتراجع الفوري. كتيبة الصف 66 التي افتقرت عن ركيزة الجيش نظراً لحوادث الطريق، تمت مهاجمتها وتراجعت كذلك. على اليسار تمكن الفيلق الأجنبي الأكثر انضباطاً من الحفاظ على موقعه وتصدى

للعُدوة ولكن بعد مقتل الكولونيل أودينو Oudinot الذي كان يبحث عن الالتحاق بالمقدمة تبعثر الفرسان الذين كانوا معه وعمت الفوضى في الفيلق الأجنبي الذي بدأ بالتراجع. وبما أن المركب رأى نفسه مكشوقاً من كل جهة، دب فيه الرعب وبدأت المركبات بالتراجع إلى الوراء باستثناء تلك التابعة لقسم الهندسة. وعلى الفور أرسل من المؤخرة إلى رأس المركب فرقة من كتيبة إفريقيا التي انتقلت إلى الأمام بسرعة فائقة. وعند ذلك قام الجناحان بشن الهجوم وبحيوية قصوى أساهما لحظات الضعف التي عاشتها، وتمكنت من صد العدو الذي كانت خسائره فادحة. كانت خسائرها 52 قتيلًا و180 جريح. وكنا مجبورين على إفراغ المركبات من الحياض ومن بعض المؤن للتمكن من تحميل المصابين.

عند منتصف النهار توقف الجيش لأخذ قسط من الراحة في سهل بين Sigi خارج الغابات. وهنا حدث عمل فوضوي، حيث قام الجنود بحرق العديد من براميل صاحب الإطعام المملوءة بالنبيذ والخمور الثقيلة وسقوا أنفسهم منها. جعلهم السكر في حالة يرثى لها لم تسمح لهم بالشيء لزم تكتيلهم على المركبات المملوءة سلفاً بالمصابين. وصل الجيش إلى سحر على الساعة الرابعة مساءً وعسكر في شكل مربع على ضفاف هذا الوادي. أشأ عبد القادر معسكره بمقرية ثمانية كيلومترات عن معسكر الفرنسيين. وفي الساعات الأولى من الليل تم تبادل قنصل الأمير بقنصلنا عبد الله. وحل هذا القنصل إلى حاكمه رسالة من الجنرال تروينيل

الذي أضاف فيها على شروطه الأولى : إن هذا الجنرال لا يفرض على عبد القادر الاعتراف باستقلال الدواير والزمالة فقط، بل كذلك قبيلة القرابا Garabas والكروغليس Kourougliis تلمسان، وكذا أن يتنازل عن كل الأطماع في الناحية الواقعة يمين الضفة الشلف. أجاب عبد القادر مثل إجابته الأولى، إلا أننا علمنا منذ ذلك أن الخسائر التي تكبدها في معركة مولاي إسماعيل كانت ستدفعه إلى إيجاد تسوية، لولا أن قنصله أعلمه بأن الفرنسيين كذلك خسروا الكثير وأن الجنرال خاصة مضطرب من كل المصالح. وبالفعل هذا الجنرال الذي وضع في البداية مشروعا للهجوم على معسكر الأمير، تراجع خوفا من زيادة عددهم. وبعد عبور نهر السيق في يوم 27 بدأ يراجع إلى أرزيو في اليوم 28.

كانت كتية المشاة الخفيفة لإفريقيا تصدر رأس الركيزة، يأتي بعدها الموكب المائي في ثلاث صفوف للمركبات ومحاطا من اليمين بالفرق البولونية وفصيلتين ومن اليسار الكتية الإيطالية وكتية المؤخرة تحت قيادة الكولونيل بوفور Beaufort كانت تشكل من كتية الصف 66 وفصيلتين. فعل هذا الترتيب كان الجيش يتقدم داخل سهل سيرات Ceirat محاطا بالمناوشين. فبعد القادر وبعد رؤيته لانسحاب الجيش أسرع للمحاق به بمثابة إلى عشرة آلاف فارس واثنا عشر إلى ألف وخمسة من المشاة. وعاجلا ما أحاط به، وبدأ الاشتباك على الساعة السابعة وأصبح شديدا. ولكن النظام السائد في قواتنا لم يتوقف حتى منتصف النهار.

عشي الجنرال تيريزيل أن يلقوا على الطريق المباشر إلى أرزيو صعوبات تصاحب المنطقة التي لا يمكن تجاوزها بمركباته. فقرر بعث الذين يعرفون البلد أفضل منه بالدوران حول تلال الحميان السهل الوصول إليها، والخروج من هناك في خليج مضيق الهيرة في المكان الذي يصب فيه هذا النهر خارجا من المستنقعات والمسمى مقطع MOCTA. بعد تقطع الأمير لخططه أرسل فرقا من الفرسان مدعمين بالمشاة لإشغال هذا الممر الضيق، أين وصلت القوات الفرنسية هناك في منتصف النهار ودخلت دون احتياطات، فلدتها على اليسار تلال الحميان وعلى يمينها مستنقعات للقطع. وبمجرد ولوجها حتى لاح لها بعض مقاتلي العدو فوق التلال وموسى أن تدفع قوات معتبرة لمواجهةهم، لم ترسل سوى فرقتين تم سددهما من قبل مئات الفرسان الذين كانوا يغطون عن المقاتلين وفرق أخرى وصلت كذلك وتم أيضا مقاومتها على التوالي. هذه الهجمات الناقصة والضعيفة لم تكن بالطبع تؤدي سوى إلى نهاية مؤسفة. وبعد أن دفع العرب بكل من أرادوا الصعود إلى التلال نزلوا بدورهم، والتفوا الحولب الذي أجبرته نوعية الطريق على المرور مركبة تلوي الأخرى. والمؤخرة التي رأت نفسها معزولة دب فيها الفرع والتحت برأس الركيزة للمروور بمسلك على يمين الموكب تم تحريره لبرهة من طرف الفرسان. وذلك بعبد العرب ودفعهم إلى منحدرات التلال يسارا. ولكن عاجلا ما هربت مركبات قافلة الطاقم ومركبات التهيئة مما كان يحدث

على اليسار فالتجهت يمينا وتورطت في الأوحال. في هذا الوقت مرّ الآلاف من فرسان العرب للجناح الأيمن للأمير بالمستنقعات، مما كان يهدد المركب على الجهة اليمنى. وباقتراهم قطع السائقون المرعبون المحركات بطريقة حقيرة وقروا على متن الأحصنة تاركين وراءهم المركبات تحت تحكم العدون وما كان أكثر فظاعة هو ما يخص المصابين. وتم إنقاذ مركبة واحدة فقط بحملة بعشرين مصابا بهمة من طرف المارشال ديلوجي فورنيي Des-logis Fournié الذي هدد بمسدسه السائقين لإلزام واجبهم والالتحام بالركيزة.

أما مركبات المدفعية التي كان يقودها ناس ذوي قلوب رحيمة لم يتورطوا في المستنقعات، وبذلك تم إنقاذها كلها رغم بقاء مدفع جبال بين يدي العرب.

أثناء ذلك عمدت قوضى عارمة كل ركيزة الجيش واختلطت كل الفرق فيما بينها، ولم يعد هناك شيء يشبه تنظيمًا منسقًا. لحسن الحظ أن العرب انشغلوا بسلب المركبات وذبح المصابين دون رحمة، مما أبطأ هجماتهم وأعطى الوقت لبعض المشيرين للعودة والتجمع فوق تلة صغيرة منعزلة، أين تم جلب مدفعية لم تتوقف عن إطلاق النار على العرب. الرجال المتجمعون في هذه النقطة أخذوا شكل مربع وبدؤوا كذلك في إطلاق النار بشكل عشوائي بشدة على العدو، مع إنشاد النشيد الوطني الذي أصبح في أفواههم نشيد موت لا نشيد انتصار. وكنل الرجال المحيطين

كلها وما بقي من المركبات تجمعوا وراء تلك التلة في خلفية كانت تظهر دون مخرج، لأن طريق أرزيو غير واضحة في هذا المكان وتتوجه فجأة إلى الغرب. الكثير ممن رأوا المقطع على يمينهم وفي البعيد شيء يشبه الطريق أسرعوا باتجاه النهر وغرقوا فيه. وآخرون ومعهم بعض المشولين كانوا يصرخون بأنه يجب الوصول إلى مستغانم. وكان صوت الجنرال يتلاشى وسط الضوضاء. وهناك غياب تام للقيادة فلم يتم إيجاد الطريق إلى أرزيو إلا بعد ثلاث أرباع الساعة من تحمل هذا التجمع الغير المتناسق من الأفراد. ولكن الجنود الذي بقوا فوق التلة لم يسمعوا أو لم يشعروا إلى الأوامر التي كانت تعطى لهم ولم يفهموا قط أنه يجب الامتثال لعملية الانسحاب. وأصبحوا يسمعوننا كلمات مفككة وغريبة تدل على أن القوة التي مازالت تمكنهم من المحاربة، ما هي إلا الشجاعة أكثر من الخماس العموم. والبعض كان يودع الشمس التي كانت مشرقة ويضيء مسرح القوسى والمجازر والبعض كان يقبل رفقاءه. وأخيرا الفرقة 66 للصف لم تكت أكثر تماسكا من الباقين تمكنت من التحرك، ولكن الآخرين لحظاها مسرعين حتى أنه تم التخلي عن القطعة المدفعية للحظة. مع ذلك تم جررها وتمكن الرجال الذين كانوا فوق التل من اللحاق بأولئك الذين كانوا على طريق أرزيو. وهكذا لم يعد الجيش يمثل سوى مجموعة من الناجين القلائق. ولم تعد المؤخرة مشكلة سوى من 40 أو 50 جندي من الأسلحة دون ترتيب ودون قائد، حيث بدؤوا بإطلاق النيران

بشجاعة و 40 من القناصة بقيادة النقيب بيرنارد Bernard، بعض قطع المدفعية المسيرة من طرف النقيب ألود Allaud والنقيب باستوري Pastoret كانت تدعم هؤلاء الصامدين الشجعان للقصف من فوق رؤوسهم. ولكن عددهم الذي انخفض إلى 20 وعودة العرب لمهاجمة مجموعة الهاربين مرة ثانية، فتصدى لهم النقيب بيرنارد Bernard الذي قاومهم بشجاعة ومقخرة كبيرتين دفعتهم إلى ترك فريستهم⁽¹⁾.

ومنذ ذاك الحين تمت عملية الانسحاب بسهولة أكثر وسرعان ما وصلنا إلى شاطئ البحر، حيث رفع منظر أرزيو من معنويات الجنود قليلا. وكان العرب متعبين من معركة طويلة ومثقلين بالغنائم فقلّت هجائهم وتوقفت تماما عند السادسة مساء. وعلى الساعة الثامنة وصل ما تبقى من جيشنا إلى أرزيو بعد 16 ساعة من المسير و 14 ساعة من القتال.

لقد خسرنا في هذا اليوم المميت 300 رجلا و 200 جريحاً وخسرنا جزءا كبيرا من معداتنا. وتم أسر 17 رجلا فقط عند العرب وباستثناء هؤلاء، فإنهم قد ذهبوا كل من وقع بين أيديهم خاصة المصابين.

عسكر جيشنا بأرزيو في فوضى عارمة ومرعبين من فكرة معاودة مهاجمتهم من عبد القادر، وعند رؤية الجنرال تريزيل لإحباطهم، لم يفلح أنه يمكنه إرجاعهم إلى وهران برا. فأصدرت الأوامر بأن تأتي لأخذهم كل البواخر المتوفرة بالمرسى الكبير. وقد أثبت هذا الإجراء حجم الضرر الكبير.

(1) السيد مومسيون Maussion قائد فصيلة هيئة الأركان و رئيس هيئة أركان

خلال تلك الأثناء، تلقى الكونت ديرلون رسالة من الجنرال تريزيل يخبره فيها بمسيرته نحو تلييلات. القضية كانت مستعجلة وتتطلب حلاً فورياً وبسيطاً، ولا تتطلب سوى الإجابة بنعم أو لا. وبهذا إما أن يكون الجنرال تريزيل مأذوناً له وبذلك مدعوماً، أو كان سيتم توبيخه وفي هذه الحالة يتم عزله. وعوض أن يدلي بهذا أو ذاك ضيع المحافظ ثمانية أيام في المداولات دون أن يقرر إن كان مع أو ضد هذه الفكرة، وبدأ أنه قرر ترك مسؤولية هذه الخطوة على عاتق المقدم. وبذلك أرسل إلى وهران الرائد لامورسيار واليهودي دوراند بهدف تفقد أوضاع الأعمال هناك، والدخول إن كان بالإمكان في تسوية مع عبد القادر. رسا المبعوثان بأرزيو وكانوا شاهدين على إحباط الجيش وكان معهم القايد إبراهيم. بعد التوقف لبضع ساعات بأرزيو واصلوا طريقهم إلى وهران. وبمجرد وصول الرائد لامورسيار حتى اتحد مع القايد إبراهيم، وجمع 300 فارس من الدواير والزمالة وتوجهوا مع النقيبين مونتوبون Montauban وكافينياك Cavaignac إلى أرزيو، حيث وصلوا في 3 جويلية دون الالتقاء بأي عدو. كان تحميل المدفعية والمشاة قد اكتمل وتم الشروع في تحميل الفرسان ولكن وصول لامورسيار أوقفه. فقد ارتأى أن الفرسان يمكنهم العودة برا وتم التخلي عن فكرة المسلك البحري، بشكل أن الجنرال تريزيل الشهم الغير الحذر والتعيس، لم يكن ملزماً على تخرج كأمس الثمالة المبررة لهزيمته، وعاد إلى وهران من الباب الذي خرج منه. كان تصرفه في الظروف القاسية

التي عاشها تيبلا، ولم يبحث عن إخفاء الضرر المتلقى أو تحميل فرقة مسؤولية ذلك في تقاريره وجداول أعماله، بل تقبل المسؤولية وأظهر تخضره لتحمل العواقب.

وقبل أن تصبح القطيعة مع عبد القادر معترفا بها في الجزائر، سمع الجنرال تريزيل بأن سفينة محملة بالذخيرة (البارود) والبنادق، موجهة للأمير انطلقت من هناك إلى أرشقون Harch-Goone حيث كان من المفروض تسليمها. بمعنى أننا كنا نزود عدونا بأنفسنا بالأسلحة، ولكن الجنرال قام بمصادرة سفينة المراقبة للمرسى الكبير وأوقف بذلك هذه التجارة القطيعة⁽¹⁾.

بعد وصول أخبار هزيمة المقطع إلى الجزائر، عاتب الكونت ديرلون بشدة الجنرال تريزيل بمجرد أن الحظ لم يحالفه، وهو الذي لم يرفض ولم يشجع كما رأينا في السابق تصرف الجنرال عندما كانت الأحداث غير أكيدة. وأمره بأن يعطي القيادة إلى الجنرال دارلونج d'Arlanges القادم حديثا إلى الجزائر، والذي جاء لقيادة الجيش الذي كان تحت قيادة الجنرال تروبريوت Trobriant. وأرسل مع السيد دارلونج d'Arlanges إلى وهران اليهودي دوراند Durand الذي أصبح غير مرغوب فيه لدى الرأي العام بالجزائر منذ الأحداث

(1) المعركة بالجزائر الثورت في دار رسي حلبة أرسل هذه الأسلحة والذخيرة ولكن الأمر شلت أكثر من أي شيء وهو كما دار منشوح عند العصور لقد تمت مصفورة السفينة من طرف السفينة دول Harch-Goone وداراند لم توارى le Laitet بل 276 وهران وأنت و سمعت بذلك وقاتل الآلة العسكرية والرسمية الموجودة

الأخيرة ولم يشفع للكونت ديرلون سوى شيء وإلا لكان حصل على استنكار صريح وعلمي كونه قبله في مركبته.

والكونت ديرلون الذي كان خاضعا لسحر هذا اليهودي البارع، أراد إعادة علاقته مع عبد القادر مهما كان ثمن ذلك، ولترك قبائل الشاير والزمالة لثأرهم لولا الأداء النشط لأغلبية أعضاء مجلس الوصاية وخاصة الجنرال راباتال Rapatel. وتقرر أن هاتين القيلتين أصبحتا تحت سلطتنا للأبد. فتم تعيين القائد إبراهيم رئيسا لها والذي يترددى الكثير عدوا لدودا لعبد القادر. ثم تجميع حوله الأتراك التي بقوا في مستغانم عند مغادرته المدينة في 1833 والذين جندهم بعنه، وذهب بهذه الفرقة للإقامة بمسرغين، ولكن سرعان ما أجبرته ليلة بني عامر على المجيء للاحتباء في ظل مدفع وهران.

ولم إضعاف القوات الحامية لهذا الموقع العسكري بمغادرة الفيلق الأجنبي الذي تنازلت عنه فرنسا لصالح إسبانيا في صيف 1835. وقد تم إعلام الكونت ديرلون أن الظروف كانت جد ملحة لكي يحاول إلغاء مغادرتها، ولكن دون جدوى لأنه لم يرد سماع شيء وقضى أن يئد أمن مؤسساتنا على أن يؤخر لبعض الوقت تطبيق قرار الوزير. إن الأمر الصحيح القول أن الكونت ديرلون كان يغذي أمل استعادة السلام مع عبد القادر. كان الأمير يخرجنا من انتصاره كان يحسن بأنه

من مصلحته أن يجعلها تنسى، ولم يكن يجهل أن فرنسا جد حساسة في هذا الموضوع ولا تبقى مدة طويلة دون معاقبة إهانة مست قواتها المسلحة، إذ أظهرت رغبته في التفاوض، ولكن المشهد تغير بعد ذلك. حيث تم استبدال الكونت ديرلون وكان اختيار خلفه يوضح للأمر بأن فرنسا قررت بأن لا تعترف في تلك الوصاية بحاكم آخر غيرها. فبعد وقت قصير من عودة الكونت ديرلون من رحلته إلى وهران، فكر في تنصيب بن عمر في منطقة البلدة ولا أدري بأي لقب، وتم إقناعه بأن لا شيء أصبح الآن مفيدا ولا سهلا. وتم اقتياد بن عمر إلى البلدة وسط دعامة قوية بقيادة الكولونيل ماري ولكن سكان هذه المدينة رفضوا استقباله. وقد فُكّر الأغا بأنه ليس من المناسب إجبارهم فأعاد بن عمر إلى الجزائر بهدوء. ومن خلال مثل هذه التدابير والأقل تمعنا يحدث إضعاف لميشتا عند العرب. ولكن الجانب الأكثر تعاسة من هذه القصة الحزينة هو أنه في نفس الوقت الذي كان يتم فيه صد بن عمر في البلدة، كانت رسالة في طريقها إلى باريس تعلمهم أن بن عمر تم استقباله جيدا وأنه بعد مدة من الوقت سيذهب إلى المدينة. وقد رأى الكونت ديرلون ما تم تقديمه له شيء سهل للقيام به.

بعد وقت قصير من هذا الحدث اخترق جزء من الحجوطيين منطقة الساحل وفاجأ عند مورد مائي سريا من قناسة حامية الدويرة فقتلوا

بعض وسلبوا بعض الأحصنة. وفي نفس الوقت تقريبا اختطف جزء آخر من الحجوطيين قطيعا من حوش بني مراد غير بعيد عن بوقاريك. وقام علي بن الحزناسي وهو الذي تم تغيير قيادته لبني موسى حديثا بقيادة لبني خليل⁽¹⁾ بمحاولة الالتقاء بالحجوطيين لمحاولة استرجاع ذلك القطيع ومحاولة عقدا هدنة. ومرّ اللقاء الأول بسلام وتم الاتفاق على الالتقاء مجددا. ولكن عند عودة الحزناسي أخبر بعض الأشخاص أنه سيتم تنصيب لفرقة من العرب في حوش بوعاقب لكبح لجام الحجوطيين. وتم نقل هذه الأقوال إليهم وظنوا أن الحزناسي يريد التلاعب بهم، لذا في اللقاء الثاني خطفوه وتركوه يقتل ببشاعة أمام أعينهم على يد خادم سابق له لطالما اشتكى منه.

هذا الحادث المأساوي تزامن مع مغادرة الكونت ديرلون. أخذ القيادة المؤقتة الجنرال راباتال Rapatel وبعد علمه بما حدث، سار بعض الفرق التي يقودها الكولونيل شاونبورغ Schauenbouerg. هذا الضابط السامي لم يجد أحدا لمقاتلته فاكل هرب باستثناء مزارعي المراط الكبير للقليلة سيدي محمد، المتعودون على رؤية مزارعهم سيدان محايدين. والكولونيل شاونبورغ Schauenbouerg الذي كان يجهل طبيعة هؤلاء الرجال وطبعهم المسالم أطلق عليهم النار وحلب قطعانهم.

(1) من سلة الخوف لبني موسى.

وقد تأثر بذلك محمد الكبير تأثرا كبيرا لأنه كان يحبهم كثيرا. هذه الحادثة والكثير من أمثاله جعلوه يظن أن مشاعر النية الطيبة التي أظهرها له الجنرال فوارول، قد تم التنكر لها لدى الإدارة الجديدة وخشي أن يتم احتطافه من القليعة كما حدث في عهد الدوق دوروفيقو، فقر من هذه النية للجوء إلى بوعلووان Boualouan، لكنه مات في الطريق من جراء التعب والإرهاق لأنه كان طاعنا في السن.

غادر الكونت ديرلون الجزائر في الثامن أوت، وعند رؤية هذا المسن الطيب والمحترم مغادرا لتست المستوطنة عجزه وكل أخطائه، إنه ملام لأنه وضع نفسه مؤقتا على مسرح لم يصنع له خاصة لأنه لم يصاحب أشخاص حكماة ومخلصين لتعنه من الصعود على خشبته.

الجزء الثاني

1.

من الديانة.

الديانة هي الرابط المشترك الذي يجمع بين أفراد المجتمع. هدف المجتمع مهما كان، لا يمكن أن يكون هذا الرابط لأن كل فرد من هذا المجتمع أيا كانت طبيعة هذا الأخير أو المكان المتواجد فيه، يظن باستمرار ثبوته من الوصول إليه بمجهود فردي وهذا ما يؤدي منطقيا إلى تشكيل الروابط.

هل هدف المجتمع هو الرخاء المادي لكل أفراد؟ في هذه الحالة، لن فرد سيتصرف بطريقة منطقية إذ بعد استغادته من العمل المشترك لتلبية تيسر إلى التقدم وحده إلى درجة أن الذين كانوا يشتغلون بعد يصبحون مجبرون على العمل لديه. أليس ما نسميه حرية هي نفس الحقيقة للمجتمع؟ وبما أن الوسيلة الحقيقية لجعلنا متحررين

كلها هي أن نصبح أسياد الآخرين، فكل رجل حيوي و مثابر يسعى إلى الطفيلان. كل ذلك سيؤدي إلى تدمير أو على الأقل تشويه الروابط إذا ما كان الأفراد الذين يشكلونها لا يفكرون بشكل مشترك إلا الرغبة في الوصول للهدف.

إن المدرسة المادية تخطأ على نحو مبتذل حين تؤمن بأنه يكفي الشرح الجيد للأفراد بأن جهودهم المنعزلة لا تنتج شيئا يسمح لهم بالعيش في أجواء من الأخوة والأخلاق، وبذلك علاقة شراكة حقيقية. وثبت لنا التجارب أنه دائما تقتنع فئة من هؤلاء بأنه من الأفضل العمل لحسابها الخاص من القبول بتقاسم الأرباح مع الآخرين. ولا يمكننا اعتبار الاحتيال في التجارة والجرائم في المؤسسات الصناعية والمكر السياسي والسرقه الموصوفة باستخدام العنف أو الاحتيال، سوى طرق مباشرة يتخللها بعض الأفراد للوصول بصفة منفردة لتحقيق أهداف المجتمع المادي. فإذا كانت هذه الأمثلة قليلة الشيوع وإذا كان المجتمع لم يحطم بعد بهذه الرغبة الجامحة للوصول إلى الهدف، فهذا يعني أن الأفراد يتداولون أفكارا عامة وسخية مستقلة عن هذا الهدف. هذه الأفكار هي العقيدة. هناك أصناف عديدة للعقيدة: عقيدة الصداقة، عقيدة العائلة، عقيدة الشرف، عقيدة الوطن، عقيدة الحرية والعقيدة الإلهية.

عقيدة الشرف عقيدة و راعة ففاعدتها الكبرياء، يمكن أن تؤدي إلى الجريمة وكذا إلى الفضيلة و إنما كل شيء فيها مبالغ فيه. العقائد

الأخرى تقوم على الإحسان، بمعنى انصهار الكثير من الأرواح في روح واحدة. العقيدة الإلهية هي من تضم و تحوي جميع العقائد الأخرى. إنها الفكرة الأكثر شمولاً والأكثر غنى. فالرابط الأقوى هو ذلك الذي يؤدي إلى التطبيق الأشمل للإحسان، وهو مكان للفضائل كما القصد مكان للأجساد.

العقيدة الإلهية، أو بكل بساطة الدين، معرض للعديد من التعديلات التي تعطي امتدادا للفكرة الأساسية، المتمثلة في الإحسان، والتي توسع أو تقلص الروابط الاجتماعية.

يؤدي الإيمان بألهة متعددة إلى تقسيم الأفراد إلى مجتمعات متعددة، والإيمان برب واحد يؤدي إلى توحيدهم في نفس المجتمع.

وبما أن الناس كانت تؤمن و لمدة طويلة بأن الشكل الخارجي لمعتقداتهم بالله كانت تقريبا بنفس أهمية الباطن، وبما أنهم أرادوا تفسير ما هو من مجال القناعة البدئية باستخدام لغة العقل الفاشلة، نتج عن تلك نقاشات مؤسفة حتى بين أولئك الذين يعترفون بوحدة الإله. تشكلوا في طوائف غالبا ما تكون متعادلة. ولكن بشكل فردي كل واحدة من هذه الطوائف تشكل مجتمعات كاملة، لأن أفرادها كان لهم رابط مشترك وهو الاعتقاد الديني.

وبعدئذ، مل الفكر من الصدمات غير المجدية والتي كانت ناجها في بعض الأحيان دموية، وبدأ بالتمرد على تعسف الاعتقادات

الجزء الثاني، 1.

الدينية. لكن الفلسفة المتكبرة لم تكتف بمهاجمة التعسفات بل وصلت إلى جوهر الاعتقادات، ونتج عن ذلك رد فعل معارض للمدين والذي كان يرمي لكسر الرابط الاجتماعي. تم ضرب كل العقائد في الصميم، فبغرض زعزعة العقيدة الإلهية، تتم زلزلة البنية التحتية لجميع العقائد حتى عقيدة الشرف التي تبدو الأكثر استقلالية. في فرنسا، كانت هذه الهجمات أكثر قوة و كان لها نجاحا كبيرا؛ ليست المعصية قناع الحرية من أجل تضليل الناس و كان لها سجلاً ناصعاً. فكل شيء تم زعزعت، هدمه و رفسه بالأرجل. و عندما وجد الناس أنفسهم أمام هذه الفوضى اتضحت لديهم صورة ما يسميه الفلاسفة بالواقع، و هلعوا و أرادوا الارتقاء فيما أطلق عليه الفلاسفة إسم الأوهام.

لكن لن تكون العقائد المقدسة أوهاما و هي تحمل في ثناياها الخصوصية و الحياة. الحقيقة هي الوجود، هي ما يتج و ما يتحرك و ما يتخلق، هي الدين. المادية هي النفي: لا تعيش و لا تتحرك و لا تخلق شيئا و معنى هذا الموت. فهل يمكنكم تفسير الموت بغير الخصائص السلبية؟ الحقيقة هي الديانة، و الأوهام هي المادية، أوهام سوداء و يائسة. لا ثم لا، فالحقيقة لا يمكن أن تكون مع الضعف و الموت. لا بد من وجود المعتقدات لصنع المجتمعات و للحفاظ عليها. فلا توجد مؤسسة اجتماعية متينة بشكل دائم إلا و كان أساسها المبدأ الديني. لا يوجد عمل كبير و سامي، و لا مؤسسة خالدة يستوجبها، إلا و كانت

الجزء الثاني، ١.

مستوحاة من الشاعر النبيلة، التي يدعوها رجال الأرقام بالبعيدة
المثال، لأنها تنتمي إلى صنف من الأفكار لا يمكنهم فهمها.

لا شيء يثبت غطرسة المادية أحسن من ضعف رجال الأرقام.
فكرهم يستسلم عبثا لحسابات هائلة تنطوي على كل الاحتمالات، و
عبثا ما يتكفل تفكيرهم بمعرفة كل الوقائع، إذ لا يمكنهم أن يدعوا
أو ينشئوا شيئا. و بفعل صوت بعض الأثمين الجاهلين غير العالم
ملاحظه؛ و بأي مكان و في كل زمان، فإن الرجال ذوي الإيمان الخي و
الشاعر الحيوية هم الذين يقودون أمثالهم إلى دروب جديدة^(١)، و إن
الشعوب التي لا تحسب أبدا لكنها تؤمن و تتحرك هي من تعاقب و
تطيح بالملوك.

فكل شيء عظيم حدث في دنيانا كان يقوم على أساس فكرة أخلاقية،
فالناس متعطشون للإيمان. و عندما تمكن الفيلسوف من تدمير معتقدات،

(١) السلطة الحكومية في فرنسا هي بين أيدي الذين كذا ندعوهم في الماضي
بأصحاب النكاه الثاقب، و الذين ندعوهم اليوم بالرجال الإيماني، رجال
الأرقام. يوجد البعض القليل منهم الذين لا يزالون محتفظون بما يتكلم من الشبهة
المفسدة من أجل الوصول - رغبا منهم - إلى نتائج فيها القليل من الأخلاق
و العلية الإلهية و لكنهم يشعرون بالعار من الخروج من الطريق المسطري
للمادة فيسرعون بالعودة إليهم فكانت لجنة إرفييا و مدفوعة بعدم هذا الموضوع
في بعض الأحيان في تقريرها على وشك الانغماس في أفكار من هذا النوع و
لكنها سرعان ما تتحلى على الركب أمام الشعب و تتوصل إليه إلا بصديق بأنها
قادرة على أن يكون لها مثل هذه الأفكار. هذا الشعور بالعار من الخير و أرساء
الذات من الواقع هي عيوب سقيمة و وخيمة

أصبح يرى باشمتراز وبذامة ذلك العدم الذي أغرق نفسه فيه، وحررها
الواحدة لثور الأخرى، وهذا ما تقوم به كل يوم في فرنسا. بدأ رد الفعل
الذي عند روبيار Robespierre، هذا الرجل صاحب الاسم الرهيب،
الذي تراكت لديه الكثير من الأحقاد، كان رجلاً كاملاً ومنطقياً. أدرك
أن الثورة لم تقم سوى بالهدم. كان يريد إعادة البناء فبدأ بالدين، ولكن
الأسقف كان محلياً فما كان بالإمكان إقامة الكنيسة الجديدة. تمت بعده
الكثير من المحاولات في نفس الاتجاه أي في مسار الديانة العالمية الشاملة
ولكنها لم تفلح بالتوصل إلى نتيجة. ولكن الكهنوت الجديد لم يتلق قط
الروح القدس فكان من اللازم العودة إلى المعتقدات القديمة والتي
ارتفعت ملائحتها في مامن من سيف قاطعة.

لقد كسر هذا السيف وهذا ما كان يجب فعله، عاودت السلطات
القديمة الظهور ومعها جزء من الاستغلال السيئ، وأصبح مقسود
الدين متواطئين معهم. عارض الشعب ديانة التحرر، هذه الديانة المشوهة
للديانة الإلهية من طرف القسسين الضالين. كان من الواجب الكفاح و
انصرفت الحرية. واستحوذ رجال الأرقام على النصر، لكن لفترة قصيرة.
تبادل العالون والمغلوبون النظرات متدعشين، وأوا أنه تم تغليبهم،
تسموا بمرارة وتصارفوا. فهمت ديانة التحرر الديانة الإلهية، لكن
الديانة الإلهية لم تفهم ديانة التحرر. ونتج عن ذلك في داخل كل القلوب
القوية أفكار مشوشة ذات امتداد واسع. ليس في فرنسا فقط ولكن في كل

مدن العالم كان في حالة من الترقب والانتقال والتي تسبق دائما وصول
شيء. الشيء هو الشخص الذي ترسله العناية الإلهية لصياغة الاحتياجات
التيمة والأفكار المشوشة التي تريك الأشخاص في زمن معين، ومباغتهم
بطريقة حلية إلى حد أن كل واحد يمكنه القول: "نعم، هذا ما كنت أريد".
وهذا ما لوم من به. الشيء واحد، تتنوع أشكاله فقط. الشيء قديم قدم حتى
التكون بما أنه ليس سوى أثر الإله على الإنسان المخلوق. الشيء سيعود
الذي الذي يجب أن نمهد له الطريق المستقيم قد ظهر، وهو يعيش بيننا.
من بين الأفكار الجديدة التي يجب على الشيء صياغتها، هناك واحدة
تبدو محددة و سهلة الاستيعاب. هي تلك التي ترمي إلى التقارب بين
الآيات ودعائها في دين واحدة. وفيما يخص ماهية هذا الدين الجديد فإن
الشيء هو من سيخبر بذلك. وستكون نتيجة توحيد العباد في كنف الله
برابط مشترك ألا وهو الإحسان.

المسيحية والمحمدية هما من أقوى الديانات التي تقاسم العالم و
الأكثر تنافسا. هاتان الديانتان التقتا في الجزائر، فهل تشكلان عائقا
لتقارب العرقين الذين تمثلهما؟ لا أظن ذلك. فقابلية التلاحم الديني جد
نموه حسنا للدرجة أنه لا يمكن تجاهلها، وانتظار الشيء ليست بالشيء.
العرب عند العرب والشيء الأكثر غمرا هو أنهم يتظنون عيسى المسيح،
عن أرواحهم تقول إحدى الروايات أنه سيحدث مرة ثانية في سوريا و

سيجول العالم مدة أربعين عاما و ينشر الغنى و الثروة. يجب عليه أن يجمع كل العباد في نفس العائلة، و هاهي إذن فكرة مشتركة بين المسلمين و المسيحيين الجدد. أما فيما يخص المسيحيين القدامى و المسلمين غير التقدميين فسرى إن كانت معتقداتهم تجعلهم بالضرورة أعداء.

الإنجيل يدعو إلى التسامح تقريبا في كل مقطع منه. بالإضافة إلى ذلك فإن الإيثار بالمسيحية القديمة قد ضعف، لدرجة أنه لا يمكن التصديق بأنه لدى المسيحيين القدامى كل اختلاف في الدين يجب أن يخلق مشاعر الحقد و التنافر.

أما بالنسبة للمسلمين، فلن يصعب أن نبرهن لهم بأن رمزهم الديني لا يرمي إلى الخصوصية التي يعتقدونها، فالقرآن يعترف بعيسى على أنه أعظم الأنبياء و يراه على أنه مسلم، و يعتبر أن الله و هبه معجزات يفتقدها محمد. وأن ولادته، كما في الإنجيل، محاطة بالمعجزات، كما أن الأخوة بين أتباع المسيح و أتباع محمد مسموح بها في الآيات الكريمة الآتية:

"ولا إكراه في الدين" سورة البقرة الآية 256.

"ولا تعادلو أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن" سورة العنكبوت الآية 46.

"آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه و المؤمنون كل آمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله لا نفرق بين أحد من رسله....." سورة البقرة الآية 285.

"قل آمنت بالله و ما أنزل علينا و ما أنزل على إبراهيم و إسماعيل و

إسحاق و يعقوب و الأسباط و ما أوتي موسى و عيسى و النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم و نحن له مسلمون" سورة آل عمران الآية 84.

"إن الذين آمنوا و الذين هادوا و الصابئون و النصاري من آمن بالله و اليوم الآخر و عمل صالحا فلا خوف عليهم و لا هم يحزنون" سورة المائدة آية 69.

الإنجيل هو شعلة الإيمان، وهو يضع الختم على الكتب المقدسة القديمة. هذا الكتاب ينير و يعلم الذين يخافون الله. المسيحيون سوف يحاكمون وفق الإنجيل، و من يحاكموهم بغير ذلك فهم مغالطون.

يمكننا الاستشهاد بما لا نهاية من الآيات في هذا السياق. لكنني أعرف جيدا أنه لدى المسلمين كما لدينا نحن، يوجد مفسرون لم يكونوا متسامحين مع الشريعة. هؤلاء المفسرون ليسوا معروفين من قبل عامة الناس الذين يقرأون القرآن و قليلا مل يفهمونه حق الفهم. و بذلك، عندما كنا لقمنا انتباه أحد العرب إلى هذه المقاطع الرائعة التي تدعو إلى التآخي بين الأديان كان يفكر لبرهة و ينتهي به المطاف إلى قول: معكم حق. السيد ألفيرو Allégro⁽¹⁾ الذي أمضى بعض الوقت عند الحجويطين دخل في مناظرات عديدة في هذا الموضوع و ضم أكثر من واحد إلى رأيه. سيكون من المفيد جدا نشر كتاب صغير من شأنه تسليط الضوء على كل هذه الحقائق للجمهور المسلم و الذي يهدف إلى نشر فكرة أن أتباع

(1) ألفيرو ألفيرو الذي تكلمنا عنه في مواضع كثيرة.

القرآن والسبحين إخوة فترق بينهما سوء فهم مؤسف لمدة طويلة. يجب أن يولف هذا الكتاب من طرف مسيحي، لأنه إذا ما كان بريشة مسلم سوف يُظن أنه استوحاه من إغراءات السلطة. لكن قبل إصداره، من المستحسن أن نمرره على بعض المراقبين الذين سنستخدمهم بوسائل ملائمة لدعم ذلك في الوقت المناسب ببراعة وحيطة. يجب أن يسلط الكتاب الضوء على فجر الإيمان الذي سيجمع كل الطوائف في عقيدة واحدة، و سيدعم هذا بنوّة عودة ظهور عيسى المسيح التي تكلمنا عليها قبل قليل، وبآيات عديدة من القرآن التي تثبت أن أنبياء آخرين يمكنهم إتباع الذين جاءوا قبلهم. هذه الآيات العديدة منها آية نتحدث عن التجمع العالمي، بمعنى اندماج كل الطوائف. نجدتها في السورة رقم 18 "بصورة غامضة بعض الشيء" ولكنها بالاقتران مع آيات أخرى ستعطي النتيجة المرجوب فيها.

هذا الكتاب سيكون عملاً جديراً بالتقدير، وسيكون طريقاً مستقيماً يجب تمهيدته للنبي، و كاتبه سيحقق العرفان من الناس، و سيتبع تعاليم القرآن التي تمنع البقاء مكتوفي الأيدي دون فضيلة و دون مجد. فالحكومة التي لديها العديد من المشرقين المميزين ينبغي لها أن تعطي دفعا لهذا الكتاب، ولكي نضمن تيارها كاملة لا بد أن يكون المكلف بالعمل رجل إيمان و مستقبل و منعم بأهمية و قدسية هذا العمل.

العرب هم رجال ذوي إيمان حي، و هم مقتنعون أنه من الأجدر اعتناق ديانة حتى ولو كانت سيئة على أن لا يكون للشخص ديانة أصلاً. و اللامبالاة التي تظهرها في هذا السياق تدهشهم، و حتى إن كانوا يروا في ذلك ضلالتنا للتسامح، فلا بد من القول أنه من جانب آخر هي أحد الأسباب التي تضعف تقديرهم لنا. و لكن لنقل أيضاً، و بالموضوعية التي تبحث عن وضعها في كل شيء، بأن هذه اللامبالاة المستكرة التي لا تقاسم فكرتها أبداً، هي التي أفرزت مع ذلك نتائج إيجابية في مصلحة العرب مع فكرة المسيحية نوعاً ما. لأنه عند تكلمهم عن الفرنسيين لا يقولون: "للأسف هو مسيحي". بل يقولون: "للأسف هو ليس حتى مسيحياً". أي أنهم يتوقعون لأن يكون لنا وازع ديني. هذا المبدأ يجب توثيقه لهم و بما أنهم وصلوا إلى نقطة نمني أن يكون هناك على الأقل مسيحية سوف تكون مفاجأة سارة أن يروا لدينا الظهور التدريجي لعقيدة التلاحم. العلاقات المستمرة التي حدثت لبضع سنوات بين العالم المسيحي و العالم الإسلامي وسعت من دائرة التفكير الإنساني. أدركوا باعتزازها العلمي لم تعد تؤمن بأنها الجزء الوحيد الأذكى من الكرة الأرضية، و شعوب المشرق باعتزازهم البربري لم يعودوا يفكرون أنفسهم أنهم الوحيديين الذين يستحقون أن يصونهم الله. يوجد من حلت و من آخر، حدس و حاجة إلى التقارب. و بتلاشي الضغينة و

العنف سيولد النبي من زواج مختلط وسيكون من أب مسيحي ومن أم مسلمة. وفي انتظار مجيئه لنصنع له درويبا مستقيمة. لا يجب أن نضدم بعد الآن الأهالي في معتقلاتهم، ولا يجب أن نظهر بعد الآن اللامبالاة التي أنتجت القليل من الخير الذي أم كنه إنتاجه والتي إذا ما تمادينا فيها أكثر أصبحت خطيرة.

2.

من الإدارة.

لا يجب البتة الخلط بين الحكومة و الإدارة. الحكومة هي القوة الاجتماعية و الإدارة هي تنفيذ هذه القوة. فالحكومة هي المبدأ و الإدارة هي التطبيق.

إن كان لدى الأفراد حكومات فهذا لا يعني أنهم يعيشون في مجتمعات. بل لديهم حكومات لأنهم يعيشون في مجتمعات. هذا التمييز جد ضروري. فهي تحدد فجأة درجة الأداء الذي وجب على الحكومة تمارسه. هذا الأداء يجب أن يكون هدفه الوحيد حماية التطور الاجتماعي الحر. ليس فقط أنه يجب أن لا تعيقه بشيء بل وجب عليها الخيطة لرفع القدرة على توجيهه. فلتكن كل السبل خالية من كل الحواجز وبذلك تسير المجتمعات بنفسها. فالإدارة المثل هي تلك الإدارة التي تقلل من التحكم و بالتقدير الكافي لكي ينعم كل واحد بالتمتع الأكثر بالحرية الكاملة لشخصه و بعمله.

لم تقم الإدارة الفرنسية على هذا الأساس؛ فهي كثيرة الانشغال، مزدحمة، مزعجة ومشتتة. ويبدو أننا لا يمكن أن نمشي أو نتنفس دونها. ليريد أن تتدخل في كل شيء، وأن تقحم نفسها في كل شيء، كأولئك الرجال المتعصبين الذين لا يجلبون في منازلهم سوى اليأس لزوجاتهم وأطفالهم وخادميهم بطبعهم الصعب والدقيق.

تواصلت عيوب هذه الإدارة في إفريقيا، بل أنها أخذت امتدادا أكبر. لم يقدم لنا جيل يعطائنا: حرس بلدي، دولة، رسالة، قوانين. لدينا: محافظ، سبعة وزراء⁽¹⁾، نواب الولاة، رؤساء البلديات، محافظي شرطة، مشرراء مراقبين، مفتشين، مساعدي المفتشين، مدققين، وأخيرا: لوائح وتعليقات متعبة. وكان ذلك لم يكن كافيا، تمت مكافأتنا بمدير للاستيطان وهي هيئة غريبة وعجيبة والتي من المستحيل تفسير وجودها.

تكلف إدارتنا المدنية 1.800.000 فرنك. و أدامها يشمل كثافة سكانية تقدر بـ 40.000 نسمة على الأكثر. فبمقارنتها مع تلك التي في فرنسا والتي تعطي 32.000.000 نسمة نجد أن التكاليف بإفريقيا تمثل بالنسبة لتلك في فرنسا ما يمثل 9 بالنسبة إلى 2 مع استيعاب كلا الجانبين كل المصالح التي ليست من اختصاص الدفاع والبحرية.

(1) الحكام المدني، وزير الداخلية، نائب العلم، وزير العدل، الجنرال القائد للقوات، وزير الحرب، أمراء البحرية، وزير البحرية، مدير المالية، وزير المالية، أمراء العرب الذي يمثل أطباء، وزراء العلاقات الخارجية، وأخيرا محافظ عام للشرطة، منصب جديد منظر هو وزير الشرطة.

يبدو قدر المستطاع ألا نقوم بهجمات شخصية على رجال لم يقوموا في الأساس سوى بأخذ ما يقدم لهم. و لن أدخل في تفاصيل كل الوظائف المعقدة التي تم خلقها بالجزائر. و مع ذلك، ولكي أعطي للقارئ فكرة عما تم في هذا السياق إنه لمن الجيد القول أنه تم تعيين مقومين للملك الذي يندب بأرزويو، و أرزيو لا يوجد بها أي أحد من السكان سوى أفراد الخلية والشخص الذي وجهت له هذه الوظيفة السلبية كان جد محتاطا من خلال رفضها.

كل ما قلناه في الجزء الأول يمكننا من معرفة تشكيلة الإدارة الخيرية. ربما ينفي فقط مناقشة التكاليف، بمعنى أن نتفحص إذا ما كان محافظ المستعمرات الفرنسية في شمال إفريقيا يستحق حقيقة 100.000 فرنك، الحاكم الذي 10.000 فرنك، وهكذا بالنسبة للباقي. بالإضافة إلى هذا، فإن هذا الإجراء يدخل في منطق الاستنتاجات بالأرقام والتي حسب مفهومنا لا تلت كفايتها بالدرجة التي يظنها البعض جيدة، بل تبدو أكثر شيعة بحصارة مباشرة. و مع ذلك، فإنه من المستحيل إنكار أنه سيكون من السهل تركيب الإدارة على أسس اقتصادية و أفضل على كل المستويات. بالتأكيد مع كثرة القوانين التي نريها يمكننا أن نجعل للجزائر قانونا إداريا، ميسمحا بسياسة قواعده من حيث جزء كبير من المساعدين و من المكاتب. لدينا في فرنسا ثروات خاصة أكثر أهمية من الموجودة في هذه الأثناء بالوصاية، والتي نسبها بتكاليف أقل.

الجزء الثاني، 2.

إذا ما كان مَلِكُنَا - المعروف بطبعه المقتصد و المنظم - يريد أن يعطي أمرًا لذلك فسيجد عاجلا قانونا لهذا الأمر. فبالتأكيد لا تكلفه إدارة أراضيه بقدر ما تكلف إدارة فرنسا للأراضي الموجودة بإفريقيا و هي الأكثر إنتاجية. و دون أن نكون أكثر دراية منه في هذا الموضوع، فإننا نتحدى أنه بإمكاننا أن ننصب الإدارة الجزائرية بأقل من 200.000 فرنك في السنة، مع الاحتفاظ بأشخاص متمكنين على رأس المصالح المختلفة. نحن في بلد جديد، في بلد يتبدى، فليكن لدينا رجال جدد و رجال يتدثرون كذلك. لن يطالبوا بأجور ضخمة و لا بقصور. سيقال أنهم دون خبرة إدارية و هذا أفضل حتى يكونوا أيضا دون أحكام مسبقة. و إذا ما أردنا الانحصر في النقاط التي نحتلها في هذه الأثناء، فإن كل ما يلزم لقيادة القوات هم: ماريشال المعسكر بالجزائر العاصمة، عقيد بوهران و عنابة و رئيس كتية بيجاية. و إن كل ما يلزم للإدارة المدنية بقواعد بسيطة و سهلة هم مشرف و مساعد مشرف مع بعض الكتاب.

الرجال الجدد، و الرجال في المناصب الصغيرة سيتعلقون بالبلد و يدرسونه بتعمق، بينما الرجال الكبار الذين ترسلهم لنا فرنسا يتطلبون مناصب عالية و وصلوا إلى مرحلة لا يمكن فيها تعلم أي شيء. و لكننا على أرضية جد زلقة لكي نتمكن من الثبات فوقها. فرنسا ستفعل ما تراه مناسبا، إذا ما كانت لا تلوم المستوطنة على مصاريف الترف الإداري الذي تفرضه عليها. فصرف 1.800.000 فرنك من أجل الإدارة لـ 40000 نسمة هذا قمة الجنون.

الجزء الثاني، 2.

ولكن غلطة من هذه ؟ لن أخوض هنا في مصاريف الاحتلال العسكري لأنه سيكون موضوع المقال التالي.

يوجد بفرنسا تجاوزات سيكون من الصعب اقتلاعها، و لكن هنا لم يسنح لها الوقت بعد لكي تنمو لها جذور عميقة. فعوض أن تعطينا إدارة صورة طبق الأصل عن إدارتها، وجب على فرنسا السعي إلى إبعاد المستوطنة عن الأشياء غير الضرورية للإدارة و التي هي مجبرة نوعا ما على تحملها في عقر دارها. كل شيء سيكون على ما يرام و ربما المثال البسيط للإدارة في المستوطنة سيتبع لاحقا في المدن الفرنسية.

فلو كانت الإدارة المدنية قد أنتجت أي شيء في إفريقيا لكنا سكتنا عن كل عيوب تنظيمها؛ و لكن في الحقيقة، مهما كانت مزاعمها فلا بد من الاعتراف أنها لم تصنع شيئا. فليس المهم أن تكون هذه المكاتب مشغولة بل ما هي أشغال هذه المكاتب ؟ لقد فرضت الإدارة معظم الوقت على نفسها الحاجة للتنقيد، و أبدا لم يكن هدفها التنمية و التقدم. فالإدارة تتدخل في كل شيء و لكن كأداة إحراج و إعاقة. فعندما يشارك بعض أصحاب الأملاك لتمهيد طريق مشتركة، يصل قسم الهندسة العسكرية لفرض شروطه ثم التهيئة العمرانية لفرض شروطها كذلك و المكاتب التي تكبح المضمون وراء الشكليات، و لا شيء يتم بشكل كامل. و الشيء الذي يستحق أن يشار إليه هو أن الإدارة تبدو و كأنها حضرت كل شيء. أعلم أن أفراد المكاتب يملكون تفسير لكل هذا و بحسن نية، فهل هذا هو الهدف من تنصيبها؟

كل شخص أراد خلق أي شيء بإفريقيا - ماعدا الملاهي و أماكن السوء - يجب عليه أولاً محاربة معارضة الإدارة. و سأذكر مثالا من ألف في شارع لامارين الذي لم يكن مرسوما في 1834 سوى بخط طويل من الانتقاض، أراد أحد الأوروبيين أن يرفع جزءا من هذا الحطام و يبدأ ببناء منزل. و بعد بضعة أيام أيسست البنى التحتية و ارتفعت جدران المبنى على بضعة أقدام فوق سطح الأرض. و في هذه الأثناء، مر السيد دوبوسي de Bussy الذي كان حاكما مدنيا آنذاك، من أمامه و رأى أن بعض الأحجار قد تحركات على الاصطفاف في شكل متناسق و تباينت مع الدمار الذي كان يحيط بها. و بسرعة كبيرة مد يده الإدارية و تم توقيف الأشغال لمدة ستة أشهر. كانت الحجة لمخططات يجب إتباعها و تراخيص يجب الحصول عليها أي بمعنى كل ما هو ضروري - إذا ما أردنا قول ذلك - و لكن كان من المفروض عدم المبالغة في ذلك. الإدارة المدنية في إفريقيا و حسب التعبير التصويري لتقرير لجنة الجزائر إدارة ليس لها سوى نشاط بدون نتائج ضرورية. لا تعرف البلد و لا تريد معرفته. تقوم بصياغة التقارير و القوانين و لا تبالى البتة بالباقي.

من الجيش.

جيش إفريقيا بتشكيل من فرقة مأخوذة لبعض الوقت من الجيش الفرنسي، و من فيلق خاصة، موجهة خصيصا للدفاع عن المستوطنة. و هذه الفيالق هي:

فيلق الزواف؛

فوج قنطرة إفريقيا؛

فيلق الصباغية النظاميين؛

كتائب المشاة الخفيفة لإفريقيا؛

سرايا حراس السواحل لإفريقيا.

تم تأسيس فيلق الزواف بموجب مرسوم من الجنرال كلوزيل على أسس مرسومة بتعليمته 21 مارس 1831، كان بتشكيل في البداية من كتيبتين مشكلتين من ثمانية سرايا لكل واحدة. الأفراد في الأساس هم من السكان المحليين و لكن يمكن قبول فرنسيين و أجانب. في نهاية 1832، تم دمج الكتيبتين في واحدة مشكلة من عشرة سرايا نظرا للضعف الذي واجهته بسبب صعوبة عملية تجنيد الأمتى. رتب تعليمته صادرة ب 7 مارس 1833 هذه العملية. إذ حسب هذه التعليمته، فإن فيلق الزواف يجب أن يحتوي على سريتين من الفرنسيين و ثمانية من السكان المحليين. كل سرية من المحليين يجب أن تحوي على اثنا عشر جنديا

فرنسا. وتم مع تجنيد أجانب أوروبيين في الفيلق. يتم التجنيد بصفة تطوعية ويمكن مع ذلك جلب عسكريين فرنسيين من قبائل أخرى عند الحاجة.

لقد حددت التعليم المذكورة آنفا أنه يتم التعاقد مع الجنود الفرنسيين حسب الأتماط والشروط المحددة في القانون.

التعاقد مع السكان المحليين يكون لمدة ثلاث سنوات، وهذا بعد اقتراح من مسؤول الفيلق وبعد موافقة الجيرال الذي يكون الفيلق تحت إمرته. ويتم استنياله من طرف نائب الحاكم العسكري المكلف بالمراقبة الإدارية للفيلق.

و بتعليم من الملك صادرة في 25 ديسمبر 1835، أتبغ فيلق الزواف إلى كتيبتين تحت قيادة مقدم وكل كتيبة مشكلة من ستة سرايا منها اثنتان فرنسيتان وأربع عربيات. ولكن عدد السرايا في كل كتيبة يمكن رفعه إلى عشرة إذا ما كانت مصادر تجنيد الأهالي تسمح بذلك. وقد أبتت التعليم على كل إجراءات تعليم 7 مارس 1833.

ضباط الصف والعريفين و جنود فيلق الزواف يلبسون البدلة التركية والضباط يحضفون بالزي الفرنسي. في المبدأ، البعض منهم تبثوا فكرة الثياب الإسلامية ولكنهم كانوا يجنون أنفسهم غريبين في هذا الزي فتخلوا عنه. وكانت السلطة متعقلة فتركهم على راحتهم في هذا الجانب، و منذ ذلك نرى ضباط الزواف يقومون بزيهم الأوروبي سراياهم إلى القتال. لقد كان لذلك وقعاً طيباً. لا يجب الظن بأننا نريد إغواء العرب

بشكليات صيانية للأزياء و الطبايع، بل على العكس: فبشكل عام الطريقة السبئية التي كنا نرتدي بها تلك البدلات كانت لا ترمي إلا لجعلنا محل سخرية في أعينهم.

قدم فيلق الزواف -الذي كان دائماً حاذقاً و متهيباً- خدمات كبيرة في إفريقيا و لسوء الحظ يتم التجنيد فيه ببعض الصعوبة في وسط الأهالي الذين يفضلون في الأغلبية خدمة سلاح الفرسان مقارنة بمصلحة المشاة.

صدرت تعليمة ملكية في 17 نوفمبر 1831 تأمر بتشكيل فوجين من قناصة على الأحصنة بإفريقيا. واحد بالجزائر و الثاني بوهران، و بعد احتلال عنابة تم تنظيم فوج ثالث من نفس السلاح في هذه المدينة. هذه الأفواج الثلاثة كانت تحوي في ذلك الوقت أربعة وحدات عسكرية حربية ووحدة لتدريب المجندين بفرنسا و التي تم نقلها إلى إفريقيا بإجراء حديث، ما لم يبق سوى على مركز تدريب واحد بفرنسا للأفواج الثلاثة. قناصة إفريقيا منظمون مثل الأفواج العسكرية الأخرى لسلاح الفرسان الفرنسي. تعليمة 17 نوفمبر 1831، تضمن الرتبة العليا بعد سنتين من الخدمة في إفريقيا للضباط الذين يلتحقون بها برتبة تصل إلى نقيب ابتداء من اليوم الذي يتم فيه استيفاءهم لشروط الترقية. و هذا الوعد لم يتم الوفاء به. صحيح أن هذه الميزة كانت باهظة، لكن لم يكن ضروريا تقديم عهود بذلك.

أي قناصة إفريقيا هو الزي البولوني (Polonais). وهذه إحدى المصدرات الغربية التي لا يمكن أن تنشأ سوى في المكاتب. تعليمة 17

الجزء الثاني، 3.

نوفمبر سلحتهم ببنادق. و لبعض الوقت تم استبداله بالرمح و هو سلاح غير ضروري في إفريقيا. ثم أعيدت إليهم البنادق التي يحملونها الآن.

يتم تجنيد قناصة إفريقيا من كل أفواج سلاح فرسان الجبهة و أفواج سلاح الفرسان الخفيفة من الجيش الفرنسي، إما بشكل تطوعي أو بشكل إجباري. قبل تأسيس الصبايحية النظاميين، كان من الممكن قبولهم للسكان المحليين و الآن الفوج الوحيد الذي يحوي هؤلاء هو فوج وهران.

تدين فيالق الصبايحية النظاميين بتواجدها إلى تعليم 10 سبتمبر 1834. يجب أن يتشكلوا من السكان المحليين و مع ذلك يمكن قبول الفرنسيين بنسبة الربع. و ما عدا ذلك فتتظيم هذه الفيالق لا يزال مبهما؛ فتعليم 10 سبتمبر 1834 اقتصر فقط على التشكيل دون الدخول في أية تفاصيل عن التنظيم. فلا يوجد لحد الآن في هذا الجانب سوى مشروع طويل من التعليمات غير المحررة و التي لم يبحث فيها سوى عن التنسيق بين ملائمت شخصية. يحوي جيش إفريقيا إثنان من هذه الفيالق واحد بالجزائر تحت قيادة مقدم و مشكل من أربعة أسراب و الآخر بعناية بقيادة رئيس فوج و مشكل من سربين. و لن نتأخر بالتأكيد عن تشكيل ثالث بوههران.

ذي الصبايحية النظاميين هو الزي العربي الأصيل. يلبسون برنسا أحمر و مسلحين مثل القناصة. الضباط الذين هم في غاليتهم فرنسيين يرتدون كذلك الزي المحلي. هذه الفيالق تشكل سلاح الفرسان الأكثر تحركا الذي حصلنا عليه في إفريقيا.

الجزء الثاني، 3.

صدرت تعليمة من الملك في 3 جوان 1832 تأمر بتشكيل كتاب مسماة سلاح المشاة الخفيف لإفريقيا، المخصصة لاستقبال كل العسكريين الذين لهم حكم قضائي بعقوبة غير مشينة، و شكلنا ثلاثا من هذه الكتاب على التوالي و هذا التنظيم كثير العيوب، فهو يثقل عاتق الخزينة بسبب التحويلات المستمرة داخله، لأن التجنيد في هذا الفيلق يتم بصفة مستعجلة، أين يتم تفريغ كل السجون العسكرية و كل ورشات المدائين، و للحفاظ على عدد أفراد مناسب للفيلق يتوجب إعادة إرسال كل العسكريين الذين في الجبهة الذين أمضوا بعض الشهور في كتيبة إفريقيا مع حسن السيرة و بشكل نظامي، و ينتج بالإضافة إلى ذلك أنه لا يوجد أي شكل من النظام لهذا السلاح. و إذا ما وجد فلن يكون سوى منبوذا لأنه لا يتكون سوى من الأفراد السيئين و الناس غير المنضبطين الذين نرى أنهم لا يستحقون التواجد في مكان آخر. و من حسن الحظ أن الضباط فيه يعتبرون عامة من النخبة المميزة و يستطيعون الحصول على بعض الخدمات من هذه العناصر السيئة، هذه الفيلق تساوي أكثر من هذا إذا ما كان المستخدمون فيها لا يتغيرون بصفة مستمرة. فمن بين هؤلاء العسكريين الذين يتعرضون لقسوة القوائين المتطرفة كثيرا في بعض الأحيان، يوجد رجال نشطون و أذكياء و هؤلاء هم من يدخلون إلى الجبهة دوريا، تم تنظيم سرايا المدفعية حراس السواحل بتعليمة صادرة في 1 أوت 1831. يمكن فيها قبول سكان الجزائر معها كانت أصوهم، و لكن بنسبة الثلث فقط من مجموعة المستخدمين، توجد خمسة من هذه السرايا و هي الثاني

الجزء الثاني، 3.

بالجزائر، واحدة بوهران، واحدة بعنابة و واحدة بجاية.

من الايجابى الحصول في إفريقيا على فيالق خاصة بالبلد. الجنود متأقلمون والضباط راضون عن المواقع التي أخذوها باختيارهم. أما الأفواج العسكرية التي تصل من فرنسا، فهي تعاني - على عكس الباقيين - من المناخ الصعب في كثير من الأحيان، والضباط لا يعرفون دائما الإذعان لموقف شائك إذا ما استسلمنا إلى أول نفور نحسه تجاهه. و مع ذلك - من جهة أخرى - فإنه لمن الأفضل أن تأتي الكتائب الفرنسية على التوالي لقضاء بعض السنوات في إفريقيا فهي مدرسة سيكسبون منها الكثير.

تنظيمنا العسكري مكلف للغاية، و التجاوزات التي تتج عنه بشكل عام تتكرر بإفريقيا. لكنه من المجحف اتهام المستوطنة بذلك فهي بريئة تماما. هذه التجاوزات جعلت الجيش بعيدا عن المعاملة الجيدة على الرغم من أنه يمثل عبئا ثقيلا على عاتق الخزينة. فليس عسكريا بميزة خاصة ذلك الذي، بالتأكيد في وظيفة أخرى غير وظيفة السلاح، لم يتحصل على مركز أكثر تميزا من ذلك الذي يشغله.

ليست هذه هي النقطة التي سنهاجم منها تجاوزات نظامنا العسكري، و لكن بما أن فرنسا قبلت بإنشاء فيالق خاصة بإفريقيا، فإنه من واجبنا أن تبين أن هذه الفياق يمكن تنظيمها بشكل اقتصادي جدا و وهب كل المزايا للذين يتمتعون إليها، و إذا كانت الحكومة الفرنسية تفكر فيها بعد، - كما أظن - أنه سيكون من الأفضل تكوين البعض من هذه الأفواج في إفريقيا، و هي ستدفع

الجزء الثاني، 3.

لهم بالجزائر مثلما ستدفع لهم بفرنسا دون التمكن من اقتطاعهم من ميزانية المستوطنة بشكل معقول.

يجب أن تشكل قوات المشاة الجزائرية من كتائب منفصلة تتكون من عشرة سرايا ذات مئة رجل لكل سرية. ويتم التجنيد فيها عن طريق:

- 1 - انتهاء تطوعي مفتوح للفرنسيين، للأجانب و للسكان المحليين.
- 2 - بفرق عسكرية مزودة من طرف فيالق المشاة الفرنسية سواء بشكل تطوعي أو بشكل إجباري.

3 - بالتسجيل بالإكراه للسكان المحليين.

سيتم تركيز كل السكان المحليين من نفس الكتيبة في سريتين بشكل حصري حتى إجراء جديد. و سيتم توزيع الفرنسيين و الأجانب الأوروبيون على السرايا الثمانية المتبقية و لكن بطريقة يشكل فيها الفرنسيون ثلثيها على الأقل لبعض الوقت. مدة الخدمة ستكون ثلاثة سنوات للالتزامات التطوعية للفرنسيين، للأجانب أو المحليين، و كذا المسجلين قصرا من الأهالي. أما بالنسبة للعسكريين القادمين من فيالق أخرى إما بشكل تطوعي أو بشكل إجباري فيجب عليهم إتمام مدة الخدمة المفروضة في القانون، ماعدا التخفيف الذي ستكلم عنه لاحقا.

يعتبر تشكيل المشاة في كتائب جدا عقلاي، فالكتيبة هي وحدة المناورة ويجب أن تكون وحدة تنظيم. في الجبهة، يختفي الفوج و لا نجد و لا نرى سوى كتائب. هذا التنظيم بالإضافة إلى ذلك أكثر اقتصادا و مناسبا

جدا لنظام الدفاع للبلد. ومع ذلك، إذا كانت الكتاب التي نقدمها متبني
مشكلة مثل تلك الموجودة، الاقتصاد سيكون أقل حساسية. لكنه يجب تغيير
هذا التكوين الداخلي بالتحديد بصفة مستعجلة. أولا، لا يلزم لكل مدينة في
المنطقة سوى متجر واحد للأزياء وورشة عامة لكل عمليات الخياطة التي
تغطي للمؤسسة. وستيقن أنه مهما كانت أرباح الخياط العام فلن تعادل أبدا
المصاريف التي تكلفها المتاجر والورش المنفصلة. تستلم الأزياء المصنوعة
باليد لجنان مكونة من خياط وخياط صف وجنود. سيكون في كل كمية
حارس أو مراقب عاص بالثياب برتبة رقيب أول تحت الأوامر المباشرة
للخياط المسؤول عن الدفع. هذا الأخير سيكون ملازما أو ملازما أول. و
سيكفل بكل وظائف أمين الخزانة. يجب تبسيط قواعد المحاسبة قدر الإمكان
فهي معقدة وكثيرة جدا في هذه الأثناء للدرجة أنها تمثل مجموعة هائلة لجهد كل
رجل وامر وتبعث اليأس في رؤساء القبائل. ففي نهاية المطاف لا يتطلب الأمر
سوى تسجيل ما تحصل عليه وما تنفقه. وكتابات مماثلة لتلك المستعملة لدى
التجار قد تفي بالغرض.

سيكون زي كتيبة المشاة لأفريقيا مماثلا لزي جنود بحرينا بمعنى السراة
الصغيرة المستديرة والقبعة من القماش المشمع، فهو خفيف ويتأقلم بشكل جيد
مع المناخ وجد اقتصادي.
يمكننا إن أردنا ذلك الحصول على قليل موسيقي في عاصمة كل إقليم ولن
يكلف ذلك سوى ما يقارب 10 ألف فرنك.

لنضع 16000 رجل لقوات المشاة التي من المناسب تركها في إفريقيا، هذا
يمثل تقريبا ستة أفواج من ثلاث كتائب و سيكون مجموع رواتب هذه الأفواج
التي مفصلا كالآتي:

رواتب كل الكولونيلات والمقدمين

والرؤساء..... 77.400 فرنك

رواتب 18 رئيسا للكتائب..... 64.800 فرنك

رواتب خياط المحاسبة⁽¹⁾..... 39.600 فرنك

رواتب خياط الصحة..... 53.622 فرنك

رواتب خياط الكتاب..... 717.000 فرنك

رواتب الفرقة العسكرية..... 2.223.394 فرنك

المجموع..... 3.175.816 فرنك

ويجب الإضافة إلى هذا:

الكل الفردية والعرض الأول..... 702.342 فرنك و 00 ستم

أسلحة، تسليح ومعدات..... 469.173 فرنك و 36 ستم

كلية الضيافة..... 90.000 فرنك

الطبية وتدفع..... 1.997.759 فرنك و 64 ستم

تعميمات ثابتة للخياط..... 93.240 فرنك

التكاليف..... 300.000 فرنك

المجموع..... 6.918.330 فرنك و 97 ستم

الجزء الثاني، 3.

و إذا ما نظمنا ال 15000 رجلا من المشاة في كتائب منعزلة يجب اقتطاع من ذلك المبلغ:

رواتب الكولونيلات، المقدمين و الرائدین.....	77.400 فرنك
رواتب ضباط المحاسبة.....	39.600 فرنك
الفرق بين الرزي الحالي و الرزي الذي نعرضه.....	117.339 فرنك
المجموع.....	234.399 فرنك

سيتبقى إذن 6.683.991 فرنك من أجل رواتب صيانة فرقة المشاة المشكلة من 16000 رجل، و لكن لا تنحصر إمكانية التوفير في الكتائب الخمسة عشر في هذا. بل أن نصفها فقط يمكن أن يكون في خدمة دائمة برواتب كاملة، أما النصف الثاني فيتم توزيعها بنصف الراتب على ملكيات الأراضي أو في أراضي غير محددة و التي يمكنهم استصلاحها و زراعتها لحسابهم الخاص. ستكون الفيالق الاحتياطية من كل العسكريين الذين أموا نصف المدة الواجبة عليهم في الكتائب في خدمة دائمة، و بعد نصف المدة الثاني سيجدون أنفسهم كلهم مستقرين و متعلقين بالبلد للمصلحة. نقتراح في المقال 9 طريقة جد بسيطة للقيام بتجارب في هذه المستوطنة العسكرية، التي حتى تكون جيدة يجب أن تكون مشتركة بين الأوروبيين و السكان المحليين. الضباط الذين يريدون الاستقرار بالبلد سيحصلون على تنازلات تناسب مع رتبهم. كل جندي من كتائب الاحتياط سيكون

الجزء الثاني، 3.

ملزما بإعطائهم عدد معين من أيام العمل. و ما عدا ذلك لا بد بقدر
الإمكان أن يتم العمل بشكل مشترك. فإذا ما نجح الأمر، و لا نرى شيئا
يعيق نجاحه، فإن قوات المشاة لن تكلف الدولة سوى 5.000.000
فرنك إلى غاية الوقت الذي لن تصبح فيه المستوطنة بحاجة إلى ميليشيات.
و فيما يخص الأسلحة الخاصة، فإنه من الصعب النظر فيها في الوقت
الراهن، و لكن حين تصبح هيمنتنا أكثر استقرارا، فمن الممكن جدا ألا
يكون لدينا إلا فيلق دائم مكون من 500 جندي في سلاح المدفعية و جنود
الهندسة و نواة من سلاح الفرسان الدائم. و الميليشيات ستوفر الباقي. و
بضمان فرسان القبائل الخاضعة الذين يستلمون 60 سنتيما⁽¹⁾ كملاوة
يومية بالإضافة للملحق إضافي بـ 2 فرنك لكل يوم خدمة، ستحصل على
سلاح فرسان غير نظامي يقدم لنا خدمات هائلة في حملاتنا و لا يكلفنا
إلا القليل من الصيانة غير المكلفة، إذ أن 1000 رجل في هذا الفوج من
الفرسان سيكلف 401.500 فرنك إذا ما افترضنا استخدامه ربع سنة و
1000 رجل من الفرسان الدائمين تكلف أكثر من مليون فرنك.

نرى إذن أنه بعد استقرارنا بالبلد مثل ما نحن بصدده القيام به، سيكون
من السهل الحصول على قوات عسكرية بحساب جيد إذا ما أردنا ذلك. و
فيما يخص عددها فسيتمتع بالهدف الذي نرسمه، و لكنني أظن أن التوجيه
الجيد للأعمال سيؤدي بنا قريبا إلى عدم الحاجة إلى فيلق ثابت بكل إقليم.

مماثل لذلك الذي قدمناه في المقال الخامس من القسم الثاني للجزء الأول. وباختصار، يجب أن نرعى مجهودات الإدارة إلى جعل الجيش استيطانياً أولاً، لأنه بالبلد الذي يصبح فيه الجنود عمالاً يمكنه الاستغناء عن الجنود، وثانياً لأن الجيش هو عادة الجزء الأكثر صلاحاً في سكان المستوطنات.

من البحرية.

إنه لمن المكاسب المائلة لفرنسا أن تملك قبالة سواحلها البحر الأبيض المتوسط سواحلاً على امتداد 600 ميل، والتي منها قليل منها قابلاً لتوفر موانئ جيدة. سيكون من الصعب على الأجيال القادمة تصديق أنه تم تشكيلك في هذا المكسب - ومكاسب أخرى - و أنه خلال العديد من السنوات قام العشرات من المحامين الثرثارين و الجاهلين بكل ما يخرج من نطاق اختصاصهم برمي قضية الحفاظ على هذا القمع المهم إلى خطوط تصويت خاضع للأهواء.

و بالتجول على سواحل الجزائر من الشرق إلى الغرب نجد قلعة حيث كانت توجد بعض منشآتنا القديمة، تقع بين رأس الأحمر (Roux) و الرأس الكبير (cap Gros) و تعد مرسى مفتوحاً و غير محمي بشكل جيد لكنه فيما هذا ذلك بحالة جيدة. تحتوي القلعة على ميناء صغير.

إن الرأس الكبير (cap Gros) و رأس وردة (cap Rous) يوجدان في البحر في فرنسا المحمي من الرياح الغربية. سواحل غربية محمي من رياح الغرب و من رياح الشمال بواسطة رأس

الحارس (le cap de Garder) ولكنه مفتوح للرياح الشرقية. المرفأ الأقرب من المدينة يسمى القصيرين وليس بحالة ممتازة. على شماله يوجد مرفأ الخروبة وهو بحالة جيدة و قريبا من رأس الحارس يوجد حصن جنوة الذي يعتبر الأحسن من بين الثلاثة.

منذ سنة ضربت أمواج عاتية وكسرت حاجز السيوس، فأصبحت بإمكانها التوأم التجارية الرسو بهذا النهر وبذلك أصبح في عناية ميناء تجاري. ولكن البحر الذي فتحه بإمكانه إعادة غلقه في أي وقت وذلك بإعادة تكليس الرمال التي سحبها من جديد. وحتى لا نخضع لدلال هذه القوة العبياء، وضعنا مشروعا لحفر قناة تجعل السيوس مصب بالقرب من المدينة بواسطة صخور لا يمكن للرمال الوصول إليها. تطبق هذا المشروع حسب ما يبدو لن يكلف الكثير وسيقوم بتخفيف مستنقعات البوجمة وبهذا يقدم لنا فائدتين.

يعتبر مكلأ مطورة في الخليج الذي يحمل نفس الاسم ممتازا على مستويات عدة.

فهو محمي من الرياح الشرقية والشمالية الشرقية براس الحديد والاراضي الناحية. وهو محمي كليا من الغرب بالبر الذي في هذا المكان يعلو نحو الشمال بشكل يجعل الرسو بالقرب من البر ممكنا دائما في هذا المكلا، لأنه يمكن للسفن الاحتباء من الرياح الشمالية. مكلأ مطورة بحالة جيدة وكذلك مكلأ القل الأبعد عن غليل ولكنه أكثر عرضة للرياح الشرقية.

مكلأ جيجل مقترح كثيرا ولكنه بحالة جيدة. وتحوي المدينة ميناء صغيرا وليس سيئا أبدا.

مكلأ بجاية معرض مباشرة لرياح الشرق، الدخول والخروج لا يتجان دائما بطريقة سهلة. المرفأ الذي أمام المدينة لا يساوي شيئا، ولكن مرفأ سيدي يحيى مابعد مرج عبد القادر جيد جدا. وعند الرسو بالقرب من البر قدر الإمكان يمكننا الاحتباء من كل الرياح. ففي فيفري 1835، خلال الإعصار الرهيب لم تعرض السفن التي كانت موجودة هناك لأضرار كبيرة، حتى أن القوارب بقيت على المراسي الخاصة بها وظل بالإمكان الاتصال من ضفة إلى أخرى. والسفينة التجارية التي غرقت في هذه الفترة كانت راسية بالقرب من المدينة.

بين بجاية والجزائر، نجد موانئ مرسى الفحم و دلس و هما دون أهمية. مكلأ الجزائر غير معرض للرياح الغربية و قليل التعرض للرياح الشمالية، لكنه مضطرب بالرياح الشمالية الشرقية. ورغم ذلك وبما أنه بحالة جيدة فإن السفن الحربية تمكنت من تجاوز أسوء الأحوال. في سنة 1835، قاومت سفينة المراقبة الرياح الشديدة التي بقيت محفورة في ذاكرتنا. لكن سفينة بخارية غرقت نظرا لقربها خاصة. العديد من السفن التجارية الأقل جودة من السفن الحربية غرقت كذلك. استغل أولئك الذين كانوا يرفضون الإبقاء على المستوطنة - هذه الكوارث، لكن الكوارث من هذا النوع يمكن أن تحدث في أي مكان.

في عام 1828 خلال احتلال القوات الفرنسية لكاديز الاسبانية، غرقت 19 سفينة بالمكلا الممتاز لهذه المدينة، وفي نفس الفترة غرقت 51 سفينة كذلك في مضيق جبل طارق ولا أحد في إنجلترا فكر في مجرد استعمال ذلك كدريعة لإخلاء هذا الموقع المهم.

الجزء الثاني، 4.

الجزائر لديها ميناء مشكل بواسطة جزيرة صغيرة تم ربطها بالبر بواسطة سد بحري. هذا الميناء في حالة متدنية و معرض لأثار الرياح الشمالية الشرقية. يتطلب حاجز الأمواج المتواجد بطرف الجزيرة إصلاحات مستمرة وهذا ما كلف مسبقا مبالغ جد معتبرة.

يوجد مكلاين بسيدي فرج غرب الجزائر مفصولين بالتوء الخليجي الصغير الذي يحمل نفس الاسم. مفتوحان للرياح الشمالية، ومحمان بواسطة التوء الخليجي الذي يلعب دورا مزدوجا، فمن الشرق ضد الرياح الغربية و من الغرب ضد الرياح الشرقية. يمكن بسهولة المرور من جهة لأخرى حسب جهة هبوب الرياح.

غرب سيدي فرج يوجد الميناء الصغير لتييازة أين يمكننا رؤية آثار مدينة رومانية. و هو محمي من الرياح الغربية بواسطة جبال شتوة. و القوات البحرية لم تتعرف عليه حتى الآن.

مكلا تنس مفتوح كليا من الشمال، يبدو أنه محمي من الرياح الشرقية أكثر من كل مكالي الوصاية، و القوات البحرية لا زالت لا تعرفه بشكل كامل حتى الآن.

ستحدث الآن عن أحسن مكلاين بالوصاية و هما مكلا أرزيو و مكلا مرسى الكبير. الأول محمي تقريبا من كل الرياح و يوجد في بعض النقاط من امتدادها أماكن لا يمكن منها ملح أعالي البحار و يمكن أن نطق أنفسنا في بحيرة لأنه محاط جيدا. حالته جيدة و لكن مستوى الماء منخفض حتى

الجزء الثاني، 4.

تتمكن السفن من الرسو بالقرب من البر. الطرف الأقصى الذي يغلقه عند برج أرزيو يمثل امتدادا لصخور مفرقة بمضايق تقريبا بنفس امتداد هذه الصخور، إذا ما ملأنا هذه المضائق و هذا شيء سهل من جعل من أرزيو من أجمل موانئ البحر الأبيض المتوسط. ويمكن للبواخر المجيء للرسو عند هذا السد البحري.

أما بالنسبة لمكلا المرسى الكبير المفتوح بعض الشيء من الغرب، فهو مرفأ ممتاز ويمكن أن يوفر ملجأ للقوات البحرية الأكثر تعدادا. وقربه من السواحل الإسبانية وقربه من مضيق جبل طارق يجعل منه موقعا بحريا ذو أهمية بالغة.

مرفأ جزيرة رشقون الذي احتلناها منذ أشهر قليلة سيء جدا، لكنه رغم ذلك فإنه كانت تتم في عهد الأتراك - عبر هذا الموقع - تجارة معتبرة للحبوب التي كانت تجلب السفن الأوروبية في المواسم الجيدة. هذه هي الملاجئ التي تهديها الطبيعة لبواخرنا على السواحل الإفريقية والتي كان لدينا اتصال مؤسف بها قبل معرفتها جيدا. وهي ليست أكثر خطورة من تلك الموجودة بسبروقونس Provence وأقل بكثير من تلك الموجودة بلامانش la Manche حيث تمكن العلم البحري من حفر موانئ ممتازة وسيحدث نفس الشيء بإفريقيا.

من بين ضباط البحرية الذين ساهموا بنجاح كبير في التعريف بسواحل ممتلكاتنا في بلاد البربر هما السادة: بيرارد Berard و قارني Garnier

الذين تدين لها بخرايط مختارة في هذا المجال.

خدمة المراسلات بين فرنسا والمستعمرة كانت تتم من خلال الجزائر وتولون، بواسطة سفن بخارية تسافر مرة كل ثمانية أيام. وكانت سفن بخارية تنقل المراسلات كل خمسة عشر يوما مع وهران، بجاية و عنابة. يوجد كذلك سفينة شراعية للمراقبة في مكالي عنابة، بجاية، الجزائر، أرزيو والمرسى الكبير.

5.

المالية.

أثرت إدارة الأتراك سلبا على إيالة الجزائر، حيث جعلتها فقيرة رغم عوامل ثراء. لم يستطع الدايات جني أكثر من 1.800.000 فرنك في آخر عهدها. و كانوا يسلمون الضرائب العينية. وفي الإجمال كانت مداخيل الدولة لا تتعدى 3 ملايين.

وعلى الرغم من أن العرب لم يدفعوا بعد، على الأقل بصفة قانونية، فقد تحصلنا تقريبا على هذا الرقم. فمداخيل عام 1835 ارتفعت إلى 2.593.472 فرنك و 58 سنتيم موزعة كما يلي:

الممتلكات.....	157.862.98 فرنك
التسجيلات.....	133.294.59 فرنك
مصرية المهن.....	70.155 فرنك و 81 سنتيم
رخص الحانات.....	82.541 فرنك
الطهارات.....	1.102.678 فرنك و 68 سنتيم
الزيت.....	75.653 فرنك و 41 سنتيم
مصاريف مختلفة	
من طرف مصراف الرواتب.....	365.155 فرنك و 97 سنتيم

الجزء الثاني، 5.

المشاريع المنجزة في بجاية.....	52.090 فرنك و 40 ستييم
المشاريع المنجزة في مستغانم.....	9 129 1 فرنك و 59 ستييم
منتجات البلدية.....	462748 فرنك و 15 ستييم
المجموع.....	2.593.472 فرنك و 58 ستييم

الزراعة.

منذ الأزل عمل الإنسان على كسب قوته بيده و جمع غذاءه من الأرض طيلة حياته. وعندما عاش ضمن إطار القوانين السديدة و المنظمة أصبح مسرورا بعمله في الأرض و أحس بقيمة النعم التي وهبها الله له⁽¹⁾. و عند انتشار قوانين استبدادية، أجبر على العمل لصالح سادة متسلطين أكثر من عمله لحساب نفسه.

في أيامنا هذه يعمل المجتمع على إعادة تنظيم نفسه حتى يلغي أي تفاوت فاضح في عملية توزيع العمل؛ و كذا الأعباء، وبهذا تصبح الواجبات لكل واحد كالعبء الخفيف. و مهما سيكون شكل المجتمع المستقبلي فإن الزراعة دوما ستكون أولى و أهم انشغالات الإنسان، فهي من نمون بطريقة مباشرة الجزء الأكبر من حاجياته، و بطريقة غير مباشرة نمون مجالات أخرى. مهام الدين يمارسونها صعبة بكل تأكيد و لكنها

(1) تمت بتغيير و تلخيص مفهوم الفقرة التي تكلم فيها المؤلف بشكل خارج عن

تصبح باستثمارات هائلة إبتا وجدت في قوة منظمة جيدا. في كثير من البلاد التي أغلبية مزارعيها يعملون لحسابهم الخاص، أو على الأقل أسعار الإيجار منخفضة فيها و حقوق الإيجار طويلة الأمد، الطبقة المزارعة تمثل الجزء الأكثر فعالية الأصح و الأكثر أخلاقية و بالتالي الأكثر سعادة في المجتمع. ولكن لسوء الحظ، المزارع في أغلب الأحيان هو مجرد لاجئ، بمعنى أنه مستبعد من طرف الأرض الزراعية. و بذلك لديه كل مميزات العبودية. فعد التفكير مليا يظهر أن الذي لا يملك حتى أداة صناعته يكون مجبرا على وضع نفسه تحت تصرف أحد آخر، فهو مستبعد منها كان الاسم الذي نعطيه إيها، أما الأرض فهي أداة صناعة المزارع، و من المفروض أن لا تكون ملكا سوى لمن يزرعها، أو أفضل من ذلك، يجب أن تكون الأملاك غير القابلة للتجزئة لكل الرجال المشتركين في زراعتها. و سيأتي وقت تصبح فيه الحقوق الحقيقية لبعض الكسالى على أراض لم يروها أبدا و آخرون يسبقونها بعرقهم، بنفس درجة تعسف حقوق رجل على آخر، بمعنى الرق الاستعبادي. هذا الوقت أت و نحن نقترب منه.

نحن نتوجه بصفة أكيدة لدرجة الاعتراف كل يوم باستحالة خلق منشآت زراعية جديدة عبر نظام المزارع. و لا يمكننا تشكيل هذه المنشآت إلا بتقسيم القرية أو بانهاء التعاقدات العمالية التي لا تعتبر سوى أحد سبل العمل الجماهيري. هذا النظام الأخير يجمع كل المزايا الإنتاجية للأنماط الزراعية الكبرى و كذلك الصغرى، و هذه المزايا نأقشها لمدة طويلة، كان هناك اتفاق

من إعطاء الأهمية للأنماط الزراعية الصغيرة في الأراضي ذات المنتجات متنوعة و في تلك التي تربتها متحدرة و متصدعة. وفيما يخص بلاد السهول و التي طبيعة منتجاتها تنوع قليلا تبقى القضية محل خلاف و حصل لبعض "ج. ساي" J. B. Say (أ توجد حسابات قام بها في هذا المجال "أرتور يونج" Arthur Young) توضح أنه في بلاد السهول و لزراعة مقاطعة من 6000 فكتار من طرف شركات أو مزارع ذات ثلاث عائلات، يجب توفير 100 رجل و 681 حصان في حين أن المساحة نفسها من الأراضي المستعرة من طرف مزارع بمحراث واحد تتطلب 666 رجلا و 1000 حصان و في كتلة أحادي المنتجات هي نفسها مما يرجح كفة الميزان نحو الأنماط الزراعية الكبيرة و أنه بتكاليف أقل نتحصل على نفس النتائج. يعترف "ساي" Say بدقة هذه الحسابات، لكنه يتردد رغم ذلك في إبداء رأيه، لأن هذا الرجل المنطق لم يكن يحل المزايا المعنوية للأنماط الزراعية الصغيرة رغم أن التسايلات الاجتماعية الكبيرة كانت أقل تقدما مما هي عليه الآن عندما كتب في هذا الموضوع. يمكن تخيل الاستحسان إذا ما طبق الملاك الصغار مبدأ التعاقد في تسير أراضيهم. سيؤدى في المقالات القادمة لنظام التعاقد، و لكن علينا أن نحصر في هذا الفصل في الجانب المادي للمزراعة المطبق في إفريقيا.

من الرغم من أن العرب هم أبعد ما يكون عن الكسل الذين يعتقد عامة البعض، فهم لا يزرعون إلا جزء صغيرا من البلد، أولا لأنهم ليس لديهم سوى الحيوانات قليلة و ثانيا لأن عددهم لا يتناسب مع المساحة الشاسعة

لأراضيهم القبائل الذين يكتلون في تجمعات أكثر من العرب يتركون مساحات غير مستغلة من الأراضي أقل. عند هؤلاء الملكية محدودة بشكل جيد عكس الحال عند العرب التي تكون فيها مبهمة، ومع ذلك نجد لديهم مزارع تشكل ملكية ثابتة والتي تعود ملكية بعضها إلى نفس العائلة منذ عصور قديمة، وباقي الأراضي مبهمة الملكية وتبقى ملكية مشتركة في القبيلة. الحق في المراعي يكون بعد موسم الحصاد وفي الممتلكات غير المغلقة. والطريقة التي يتم بها طريقة مقصرة لنمو الأشجار، وأغلب الغابات يجعلها مجموعة من الشجيرات أو أليكة صغيرة الأشجار. ومع ذلك نجد بعض الغابات في البلد تقوح عطور شجرة الطرفة tamarisque في السهول وعطر أشجار البوط الفلبيني في الجبال. ونجد كذلك أشجار الخروب، أشجار المصطكى، وأشجار الزيتون التي هي رائعة الجمال، وعطور من أوروبا. أما النخيل فيبدو بوفرة وراء جبال الأطلس.

التربة في الوصاية جد متنوعة. الأراضي المهيمنة هي ذات تربة صلصالية غنية بحمض وأكسيد الحديد. ويظهر ذلك من لونها المحمر. هذه الأراضي إما لم تزرع تصبح كالتحجم وتغطيها الشجيرات والمصطكى والنخيل القزم الذي ينتشر بوفرة في البلاد. تأكل هذه النباتات يؤدي إلى تشكيل طبقة من التربة العسوية السطحية التي تحرق في بعض الأحيان طبيعة باطنها. الأراضي التي قسا برصها تسمى في الغابات والجبال الثانوية. الجبال الكبيرة، في كل مكان أمكننا ملاحظتها هي ذات قمم صخرية وقاعدة جيرية. السهول

التي حياها توفر تربة ممتازة للزراعة. هذه الأراضي تكون تارة قوية وسوداء وتارة أخرى خفيفة ولكنها في الغالب دوماً خصبة جداً. أجزاء السهول التي لا يتم زراعتها تغطيها نباتات سنوية تحققها أشعة الشمس كل عام. لم تسجّل في قصة رؤية الرمال التي تغطي سطح المنطقة حسب السيد دوپان Dupin بالرمال جد نادرة للدرجة اضطرارنا لاستخدام التربة لصنع الملاط.

العرب يزرعون القمح، الشعير، الذرى، الشع و بعض الخضروات. لا يمتد سوى حرتين للأرض على الأكثر، وفي غالب الوقت مرة واحدة. بعض أنهم يضعون البذور قبل جني المحصول و يقومون بعد ذلك بتسمير التربة لتغطية البذور و فتح الأرض. و يتصرفون هكذا خصيصاً للشعير. و من البذور مع الأمطار الأولى بمعنى في نوفمبر و ديسمبر. المحراث التي يستعملونه ذو طية معكوسة و هو مستدير عوض مذهب. هذه الأداة غير دقيقة ولكن قلط لأراضي خفيفة. يقوم العرب بقرز حقولهم بعناية كبيرة ولذلك تكون سبلهم في الصيف تسر الناظر ولديهم اهتمام خاص بإبعاد الطيور عنها التي تتواجد بأعداد كبيرة إلى درجة أن مجرد نقص حيلة المزارع قد تؤدي إلى هلاكها. عمل عائلة بأكملها في بضع ساعات. وعند حلول موسم الحصاد، يطمون الغلال بمناجل مشابهة لمناجلنا و يقومون برميها للرفس تحت أقدام الأسنة لتفصل الحب عن السنايل كما نفعل نحن لحد الآن في وسط فرنسا. يحصدون الحبوب في مظمورات و يقومون بذلك بطن رافع ثم يتم حفظها بوفرة الكوام القش يتم تكديسها عادة فوق مخازن الحبوب التي يحفر منها

العديد في نفس الناحية. كل عائلة لديها مطمورة أو العديد منها حسب أهمية محاصيلها. العرب لا يستعملونها فقط لحفظ الحبوب بل وكذلك كل مؤنهم المتزيلة مثل الزبدة، الزيت، الدهن، العسل، المربى، الملح... إلخ. كانوا لا يدخنون أراضيهم بل يقومون بتعديلها بالحرق الزراعي. وهم يارعون في مجال الري. حقوق استغلال المياه هي من الأسباب العادية في نزاعاتهم أو حروبهم. رغم جودة محاصيلهم لا يتحصل العرب سوى على نسبة عشرة إلى اثني عشر من الواحد من مجموع حصادهم في سهول الجزائر العاصمة. وفي سهول سبرات بإقليم وهران تكون النتائج أفضل و تصل النسبة إلى أربعة عشر إلى خمسة عشر من الواحد.

عند قبائل المناطق الداخلية، يقوم العرب بالتشارك طوعا لزراعة بعض المساحات من الأراضي. أصحاب المزارع يقومون باستغلال المزارع بأنفسهم بتشغيل مزارعين يحملون اسم "الخماس" بمعنى أنه يجني المحاصيل ويتحصل مقابل ذلك على خمس الإجمالي. وبطبيعة الحال يتحمل صاحب المزرعة تكاليف كل العملية الزراعية. يقع على عاتق الخماس كذلك رعاية القطيع ولا يدين لصاحبها سوى استحقاقاته من الحليب ونصف كمية الصوف. وله نصف كل ما مزروعات الحديقة. طريقة الاستغلال هذه شائعة كثيرا في ضواحي المدن في ملكيات تابعة لقاطني المدينة. ويحدث في أغلب الأحيان أن يؤجر هؤلاء مزارعهم وتكون الأسعار دائما منخفضة جدا.

العرب وبالأخص القبائل يصنعون الزيت و يبا أنهم يستعملون عامة

لأشجار الزيتون غير الملقحة و التي يتركونها تختمر فيتنج عن ذلك زيتا قوية و جيدة الجودة. يضعون في جُرَر ما يخصصونه لاستهلاكهم الخاص و الباقى يتم نقله في قُرَب إلى نقاط التجارة. أشجار الزيتون جميلة جدا بكل الوضعية لكنها أكثر روعة بتلمسان أين يتم رعايتها بطريقة مميزة. و يتم تلقيحها ما عدا تلك الموجودة في الغابات حيث تعتبر شجرة غابية. ففي هذه المقاطعة الغنية، هذه الشجرة الثمينة التي تصل إلى أحجام خارقة تشكل بساكنين شاسعة. في إقليم الجزائر، يوجد أشجار زيتون برية أكثر منها مطعمة. و تحت حكم عمر باشا الذي كان أميرا مثقفا، أمرت الحكومة بتلقيح كل أشجار الزيتون و أعطى لهاي المثال بتلقيح أشجار أراضيهم. و لكن هذا الإجراء الذي لم يبدأ سوى في نهاية حكم عمر لم يتم تطبيقه إلا جزئيا.

أما في حفة قوة السلطة العربية، فقد كان يتم تربية دود القز بإقليم الجزائر. و نحدد الآن بعض أشجار الثوت العتيقة في ضاحية الجزائر و بالنتيجة، أن توجد الكثير من البلديات التي أخذت إسمها من إسم تلك الشجرة و التي أصبحت الآن نادرة و غير منتجة. العرب كانوا و لا يزالون يزرعون القطن و لكن بكمية ضئيلة في بعض المواضع. تملك عائلة مبارك من القليعة مزرعة بين هذه المدينة و المعاملة، زرعت فيها لبعض الوقت القطن. كما أنه وجد هذا البلد حقول قصب السكر وكانت توجد مطحنة للسكر بحي الحامة بالقرب من الجزائر. وسكان البلد يؤكدون على أن اتجلا هذا قد اشترت من صنعت لأحد الدايات بسعر 300.000 فرنك من أجل هدم هذه الصناعة

الجزء الثاني، 6.

خوفا من منافستها لمستعمراتها. لم أتمكن من الحصول على اسم هذا الداي البغيض. فإن كانت الرواية صحيحة، فقد قام بالتطبيق الحرفي لبود الصفقة المشينة، لأننا لا نجد الآن سوى القليل مما تبقى من قصب السكر المتواجد بنوعية جيدة بالحدائق.

دودة القرمز منتشرة في الوصاية خاصة بإقليم وهران و لا تنتظر سوى من يجمعها. نعلم أنها تنتج من لسعة حشرة تأتي على شجيرات البهشية. تستخدم في الصباغة القرمزية، و تجارتها جد مربحة مثل الحنة و هي نبتة تستخدمها النساء و الأطفال لصباغة الشعر، الأصابع و الأظافر. و هناك نبتة ملونة أخرى كثيرة الشيوخ في الوصاية و هي نبتة الفوة التي يتم جنبها في محافظات متعددة بينها بني جعد بإقليم الجزائر.

يقوم المغاربة، العرب المستقرين و القبائل بأعمال البستنة بشكل ناجح و يذوق كبير. قبل وصولنا إلى البلد كانوا يزرعون أغلب أنواع الخضر الأوروبية و ما كانوا يفضلونه هو عائلة القرعيات مثل البطيخ و الدلاع و القرع.... إلخ و يستخدمون بكثرة البطاطم و الباذنجان. و يذوقوا بالاستمتاع بمذاق البطاطس.

حدائق السكان المحليين ممتعة جدا بظلالها و برودتها. و لا يضحون مثلنا فقط للزينة بل يعرفون كيف يجعلون كل ما هو ضروري جد فائق. و تسمح درجة الحرارة المرتفعة بنضوج المنتج حتى في الظل لذلك هم غير محيرين كما نفعل نحن في البلدان الباردة بالشعيرة الكاملة ليستأن الخضر

الجزء الثاني، 6.

حتى لا يعيق شيء أشعة الشمس، و ينتج عن كل هذا أن الحديقة المغاربية هي في آن واحد: روضة، بستان خضر، حديقة و بستان فواكه؛ والأشجار التي يزرعونها هي أشجار البرتقال، المشمش، اللوز، التفاح، التين، البرقوق، العُناب، الموز، الليمون، النخيل و بعض الأشجار المخصصة للزينة. لديهم الكثير من الشجيرات المزهرة مثل الورد و الياسمين، و التي يستغلونها لصناعة المياه و الخلاصات العطرية. ماء ورد الجزائر أقل شهرة من ماء ورد تونس، و لكن ماء الياسمين لا يعلو عليه أحد. أرملة الأغا ياغا كانت تملك بالقرب من الجزائر منزلا ريفيا باعته لأحد الأوربيين و بداخله كان يوجد من الياسمين ما يُدر عليه مدخولا ب 15 فرنك يوميا لمدة ثمان أشهر في السنة.

كل ضواحي الجزائر و على مسافة 10 كيلومترات، كلها مقطاة بحدائق و أرياف رائعة الجمال كان المغربة و الأتراك يستغلونها بكل عناية قبل مجيئنا. في النتيجة، و رغم معاناتها نتيجة سوء التسيير فإن الزراعة كانت توفر بعض النشاطات خاصة في المنطقة المجاورة للأطلس. و نفس الشيء كان يحدث في المقاطعات الأخرى. الأشياء لم تكن بخير و كانت بدأت بالتراجع و لكنها كانت تسير رغم ذلك. و ما قمنا به في هذا المجال: لمدة ثلاث سنوات و أكثر استحال على الأهالي استغلال أراضي ضواحي الجزائر، والأراضي التي تم شراؤها منهم في السهل أصبحت غير منتجة، فور

اتساع رقعة الاحتلال التي أوقعت هذه الأراضي في أيادي الملاك الجدد الذين كانوا تقريباً كلهم، كما رأينا سابقاً، يشترون بفرض إعادة البيع و ليس للاستغلال الزراعي. وكذا الحروب و أعمال السطو اللتان نتجتا عن حالة الفوضى التي غرق العرب فيها نتيجة غزو الجزائر، فانتخفضت قيمة المنتجات الزراعية من الداخل⁽¹⁾ إلى النصف.

عادت الزراعة للانتعاش في ضواحي الجزائر في العام الثاني من إدارة الجنرال فورول، وفي نفس الفترة أصبحت المزارع البعيدة غير منتجة، وهذا ما سمح للكثير من الأوروبيين من التمكن من شرائها و امتلاكها. و أذكر على سبيل المثال حوش زميرلي بولاد منديل الذي اشتراه السيد باري Barbé رئيس بلدية رُوَان Rouen سنة 1834 و كانت حينها مزروعة، وبإشياء المعسكر الدائم بالدويرة في نفس السنة، استطاع السيد باري زيارتها من حين لآخر، أصحاب الحقل القدامى هجروا المزرعة، و لكن صاحبها الجديد لم يجعل عملهم مما جعل هذا الجزء من الأراضي المتأثرة تذهب هباء.

(1) قلنا في شهر ماي 1835 في السهل التوسع للسهل بين الميناء، الشلف و أرزيو، تعصت من زلازل لظلال نشاط زراعي فعال مضيق: "أه منذ مدة طويلة و نحن في حالة حرب و لا أحد يتجرأ على الزراعة مخافة أن لا يتسنى له حتى تمار عمله، و لكن الآن و بعد أن قام السلطان عبد القادر بإعادة السلم و النظام سوف نعود إلى النشاط الزراعي".

إنشاء إدارة الكونت ديرلون، أدى إنشاء معسكر بوفاريك إلى نفس النتائج الزراعية تلك المنطقة. و لا نريد اللوم على إنشاء هذين المعسكرين و الروح العامة التي أدت إلى تأليف هذا الكتاب تثبت ذلك، لكننا يجب أن نعتم هذه التهمة لإظهار خطر السماح بامتلاك الأراضي لأشخاص محالين من الواجب عليهم و القضاء عليهم لأنهم من أكبر المصائب على المستعمرة. و لا يمكننا دمج كل الأوروبيين في خانة واحدة فمنهم من يبحث عن مصلحة بالعمل و ليس بالاحتلال. فلبسوا فقط من أنبل الأشخاص بل من أكثرهم علماً لأن الاحتلال و جد بظن من يستعملونه كعقوبة عادلة لجشعهم الخفيف. الأوروبيون الذين حصلوا بكل نجاح على إعادة دفع عجلة الزراعة بنواحي الجزائر هم السادة كوبر Coupu، روش Roche، كولومبون Colombon، إيلي يوتي Petit، دوشاسان Duchassin، بوتان Boutin، تولناك Tolnac و فيلر Vallat. هذا الأخير كان صاحب ثروة معتبرة بفرنسا تعلق بإفريقيا شعفا بالكرامة حيا في مضاعفة ربحاته. و هو من بين الأوروبيين قليلي العدد الذين وجدوا القضية الأفريقية، و رغم حماس السادة فإن الزراعة لا تزال متهاجرة. السهول الساحل لم يعودوا تماماً إلى نقطة الازدهار الذي وجدناهم عليها في عام 1810، و رغم ذلك يوجد تطور و هو أساساً نتيجة عمل الغارة التي استعصموا القلة بعض الشيء منذ الإدارة الأيوبية و العادلة للجنرال فورول. في عام 1810 لم يكن يوجد سوى 2000 هكتار من الأراضي المستغلة في الصحراء أما في عام 1833 فكان يوجد أكثر من 6000 هكتار، و ارتفع هذا العدد منذ

ذلك الحين و يجب أن نأمل أن تعود الأمور في ضواحي الجزائر إلى المستوى الذي تركها عليه الأتراك بعد ستين.

لا تصلح أراضي الفحص إلا للأنماط الزراعية الخفيفة و للبستنة. يجب أن تلق على الأشغال في كل مكان و إذا ما اهتممنا بالأمم هكذا فإنه سيوفر الاحتياجات الاستهلاكية لأكثر من 80.000 نسمة. لكن هذه الأرض تستغل بحرية و لا توجد بها ملكيات كبيرة. قام الأوروبيون الأوائل الذين استقروا هناك باستغلالها بتكاليف كبيرة و بهذا قاموا بصفقات خاسرة في أغلبهم. فبعد أن قاموا بتقليب التربة بعمق كبير كانوا يتخيلون أنهم سيتحصلون في البداية على محاصيل رائعة، و لكن بما أنهم وضعوا البذور في تربة خرجت حديثا إلى السطح و التي بقيت دوما دون الاحتكاك بالهواء فإن المنتجات كانت سيئة في معظمها. و هكذا أفلس الكثير من الأوروبيين الذين ظنوا أنهم يجب أن يقوموا بعكس ما يقوم به السكان المحليون للحصول على الأفضل. أفادت هذه التجربة أولئك الذين خلفوا المزارعين الأولين و أولئك الذين لازال لديهم بعض المال لاستغلال هذه الدروس. فتركوا التربة المحروثة في تلامس مع الهواء قبل نشر البذور بها و هكذا تحصلوا على بعض النتائج. السادة: كوپو Coupu، بولان Boulin و دوشاسان Duchassin هم الذين نجحوا في زراعة الحبوب، هذا الأخير أكد أن السابل أعطت من 20 إلى 22 من الواحد بالقة. ارتفعت تكاليف الاستغلال إلى أكثر من النصف تقريبا من الإنتاج و ماعدا ذلك فإن الأوروبيين لم يميلوا إلى زراعة الحبوب بالفحص. وجدوا أن المنتجات الاعتيادية للأراضي

التي يمكنهم بلدها هي الأكثر إنتاجية. و لهذا قاموا بهذه الطريقة بجني قش عذ و قاموا ببيعهم للإدارة العسكرية؛ و بما أنه كان مسموحا لهم استخدام بعض الجنود كعمال لتبيس القش، و يدفعون لهم أجرا قليلا، فإن هذه العملية لا تكلف الكثير و كلها لصالحهم. القليل من السكان الأصليين من يستخدم هذا الشكل من المضاربة و البعض الذي استعاد نشاطه الزراعي عاد إلى طباعه القسبة للعمل الذي يكفي لاحتياجاتهم.

قام الأوروبيون بتلقيح عدد كبير من أشجار الزيتون في الفحص و بعد بضع سنوات ستحصل على وفرة من الزيت. حاولنا القيام بصنع الزيت من الزيتون لري العام الماضي و لكن تكاليف المعصرة فاقت قيمة الزيت فتخلينا عن الفكرة. هذه الصناعة لم تبدأ نشاطها إلا بعد 6 أو 7 سنوات. لم تضر التجارب لقاعة على النباتات المدارية سوى بحديقة التجارب التي تعد الابتكار الجيد و لقبه السيد جانتني دوبروسي و الذي تكلمنا عنه في موضع آخر.

عند قدومنا إلى الجزائر، و جدنا الكثير من الكروم (أشجار العنب) أكثر مما يحسب أنما قارناه بامتناع المسلمين عن الخمر المحرم في ديانتهم. كان المشدنون يكتفون بأكله كفاكهة أو لصنع الخل و لكن اتضح أنه كان هناك من يصنع النبيذ أو يكتفب اليهود بصنعه. صنع القناصل الأوروبيين أنواعا ذات جودة عالية، مثل قنصل السويد الذي كان لديه واحدا يشبه نبيذ مالاغا Malaga، كان قبره في القبر الذي يعج به و كان جنودنا يقومون بزيارته غالبا خلال حصار حصن الأمير الطور و تركوا لديهم ذكريات غريضة. منذ الغزو، قام الأوروبيون بصنع

التيه بكميات صغيرة من باب التجربة وليس من باب المضاربة.

منه مستين، حدث تطور حساس في البسة عند الأوروبيين بالجزائر. وكان البستانيون الذين يعملون لحسابهم الخاص يقومون بصنقات جيدة كان من الممكن أن تكون أحسن لو لا اضطرابهم لبيع أراضيهم للمضاربين الذين استقروا منها. كان الأسبان والمهاون (les Mahonnais) وبعض سكان لا بروفانس من أحسن البستانيين، يراعون مثل المغاربة في زراعة كل خضراوات أوروبا وحتى أشجار الفواكه. أغلب الحدائق سواء كانت ملك الأوروبيين أو الأهالي كانت تسقى بواسطة الآبار ذات العجلات الدوارة.

قام بعض الأوروبيين بزراعة أشجار التوت مما يعني إمكانية العودة إلى مشروع تربية دودة القز. الدكتور شوفرو Chevrau كان أول من أعطى الأولوية لتجارب من هذا النوع. قمنا بتجربة تربية هذا الدود على تلك الأشجار بحديقة التجارب، كانت النتيجة جيدة، لكن الطيور قامت بالتهامها. وفيما عدا ذلك فإن دراسة بسيطة للمناخ تبث إمكانية الحصول على الحرير في هذه الوصاية، إنه مصدر ثراء يتوجب الحفاظ عليه.

سيعتمد الأرمغان السطيل للمستعمرة أساسا على الزيت، الحرير، وربما القطن و هما ثلاثة فروع من التصنيع الزراعي وجب على العاصمة الفرنسية تشجيعها، بما أنها في هذا الجانب تابعة للمطارج. اليامبو كذلك نجح في حديقة التجارب وإذا ما انتشر فإن ذلك سيكون جديدا مفيدا للصناعة في البلد الذي يعاني من ندرة الخشب المخصص للإنشاء.

منه بصفة أشهر، بدأ الأوروبيون بزراعة موضعين أو ثلاثة من الشجيرة ولكن هذه الشجيرات قليلة التقدم حتى يمكننا الحكم عليها. ومع ذلك فمزرعة الأمير مير de Mir، لاجين بولوني براسوطة، تستحق أن يشد الانتباه لها. هذا لاجين يستخدم في المعظم العرب الذين كان يعيش وسطهم دون خوف. فهم من الرجل الحكيم أنه وجب علينا الاستفادة من العناصر الموجودة بين أيدينا. بدأ زراعة المتوجات المحلية ثم بدأ بإدخال شيئا فشيئا التعديلات التي كان يحس العرب بضرورتها نظرا لكسبه ثقتهم و صداقتهم، وهو في هذا الجانب من المسار الصحيح. فيما أن هؤلاء الرجال متوفرون هنا فلم لا نستخدمهم؟ ومن تعلم إذا ما كنا سنحصل على غيرهم؟ إن إبعادهم هي فكرة مؤسفة. ماذا يمكن أن نقول عن رجل يملك حقلا من البطاطس المزروعة والذي قام بتقلعها قبل نضوجها بأمل وضع محلها قصب السكر لا يملكه؟ من المؤكد أنه مصاب بالذوار، ومع ذلك هذا ما يريد الكثير فعله بإفريقيا.

في نهاية، باعتبارها مكانا قابلا للاستيطان، تمكنت الإدارة الحكيمة للجنرال لافور من إحكام النظام، استطاعت الزراعة بها أن تتطور قليلا، لكن لسوء الحظ فإن السمعة بغير ملائمة المدينة أبعدت الكثير من الناس الذين كانوا حاضرين للاستقرار هناك. أما بوهران فإن الزراعة متقدمة.

بخلاف إقليم الجزائر كمية كبيرة من قطعان الماشية. فأغلب القبائل ليس لها تربية أخرى غيرها، ولكن التكاثر يتم بمحاسن الصدق دون أن يراعي بعضهم تقاطع السلالات، لذلك هي أكثر رداءة. الثيران أقل حجما من تلك

التي بأوروبا. نجد عرقانا جميلة على العموم و هي ما تبقى من سلالة تنطق
كل يوم والتي يكون من الضروري الحفاظ عليها لأنها تعطي صوقا ذوقا نوعة
جيدة.

أما الخبول فليس لديها شيء مميز. و من الصعب إيجاد واحد جميل ولكن
عند تفحصهم عن قرب نجد فيهم خطوط تشابه مع الحصان العربي، ونرى أنه
مع بعض الرعاية ستحسن هذه السلالة. والناس الأكثر خبرة في هذا الموضوع
يظنون أنه من الممكن الحصول على عرق ممتاز بمزاوجة حصان محلي مع فرس
أجنبي.

يمتلك العرب علفا كبيرا من الإبل أكثر من حاجتهم الفعلية و ما يفسر
ذلك هو سهولة إطعامها. أجملها يوجد بإقليم وهران. هذه الحيوانات تنتمي إلى
فصيلة أحادية السنام أي الجمال بحدبة واحدة بينما الجمال الحقيقية تملك اثنين.
أفترج السيد حتي دويوسي إنشاء مزرعة استيلاد و قطع نموذجي من أجل
تصبح سلالة الأحصنة و الماشية و هذا سيكون إجراء جيد.

التصنيع.

يستخدم التصنيع حسب عرفنا كل المنتجات الطبيعية و تلك التي
تولدها الزراعة. فالقمينة تصنع من القمح و الأقمشة من الحرير و
الصوف و الكتان، و يقوم بكل التحويلات الضرورية حتى تتمكن من
سد جميع حاجياتنا.

الصناعة في حالة حرجة في الجزائر. و رغم هذا فمن الصعب إيجاد
شعوب أكثر دقة و ذكاء من الشعوب التي تسكنها. ولكن حكومة محظمة
للمعزائم أرهقت كاهلها لمدة طويلة، أو أن الفوضى الأكثر تخطيطا كذلك هي
من النهمتهم أو على الأقل أوقفت كل مصادر الثروة. ففرنسا احتفظت
لنفسها بمعجزة إثراء هذه الصناعة و التجارة. لكن و للأسف لم تقم بشيء
لحد الآن من أجل الوصول إلى هذا الهدف. بل على العكس كانت نتائج
العمليات هي دهورة الحالة المزاجية للأمور. و لكن جهد و حماس بعض
الحراس يهدف إلى إصلاح الضرر الذي فعلته الإدارة أو سمحت بفعله.

يحيك سكان الوصاية أقمشة من الصوف لصناعة البرانس و الحياك التي يكون بعضها على مستوى كبير من المهارة. كان يصنع الكثير منها بالبلدة قبل الأحداث التي أصابت هذه المدينة الحساء. و ماعدا ذلك فإن كل عيمة عربية تعتبر ورشة تحيك بها النساء كل أنواع الأقمشة الضرورية لثياب العائلة.

صناعة الطرز الذهبي و الفضي بالجزائر مطلوبة جدا في كل المشرق و تستحق ذلك. هذا الفرع من الصناعة عانى الكثير منذ وصولنا و انمحت من الوجود باستغاثم أين كانت متشرة جدا. و نفس الشيء حصل مع صناعة الجلود التي انخفضت بشكل محسوس منذ 1830 في كل النقاط التي كنا نتردد منها فيما مضى.

أقمشة الحرير، الذهب، الحرير و الفضة، الموشلون المطرزة بالذهب، القطة أو الحرير لأجل الحزامات و الأوشحة، ثمثل كذلك فرعا من الصناعات المحلية و التي تم تقييرها منذ بعض الوقت. هذه الأقمشة الرائعة و لكن باعقة الأثمان، يمكن لأوروبا صنعها بثمان معقول و لكنها لن تكون بنفس الإتقان و الدقة اللذان لا تتجهها سوى صناعة مطبوعة و يدوية أصيلة. المغاربة هم الأكثر حفاقة في هذا النوع من الصناعة، بلقصورهم فقط الطليبات. الرأسالي الذي يوجه رأساه نحو هذه الصناعة التي ستزول إن لم يتم إنقاذها، سيقوم بصفقات جيدة و سيقطع عائلات محلية كثيرة من الفقر و يستع بنات مسكينات من القوق في أماكن السوء. صناعة زراعي الصوف هي صناعة ثمينة و من المناسب تشجيعها فيما

من كان يصنع الكثير منها بوهراة، مستغانم و القالة. أما الآن فإن المدينة الصغيرة للقالة هي المكان الوحيد تقريبا الذي لا تزال تصنع فيه الزراعي. رسوم المروضة عليهم عند دخولهم إلى فرنسا أغلقت عليها أبواب السوق الأوروبية المفتوحة لزراعي تونس و بلاد المشرق. و مع هذا يجدون نقاط تدفق سهلة داخل الوصاية أين يتم استعمالهم بكثرة. إنها جميلة و جيدة النسيج و الصباغة. فن الدباغة عامة في حالة جيدة في الوصاية، و نسبة الصغيرة دلس تبدو النقطة التي تتحكم في هذا الحال. ما ينقص العرب و المغاربة هو العناصر و التشجيع من أجل العودة إلى لفظة التقدم الصناعي لأجدادهم، فلديهم مع ذلك الذكاء و البراعة للتأمين للقيام بالأعمال الميكانيكية و كذلك روح الابتكار و الملاحظة الخاصة بالإتقان.

لا يوجد في البلاد أي مصنع، باستثناء بعض المطاحن المائية المبنية بطريقة بدائية و جد بسيطة. نرى العديد منها بتاحية للمساكن و كان البعض منها موجودا بالجزائر في عهد الأتراك. و قد انصهرت بعد الغزو، و أرمنا استعمالها بالمطاحن الأوروبية المائية و المغربية و لكن بنجاح باهت. المطاحن المائية المبنية من طرف السيد ماران Marin على الجدول الصغير الذي يصب بالبحر من أمام باب الواد نافرا ما تعمل قائما بقتصها، و الخرافات التي تم حفرها لتجسيع المياه تنسد بسرعة كبيرة، و يعود هذا لطبيعة الجدول الوحل. المطاحن المغربية التي بنتها الإدارة لا تساوي شيئا و مواضعها سيئة. أحد المستوطنين السيد كويو Coupu قام بإنشاء واحدة بحسبه

الخاص على طريق دالي إبراهيم وهي في نشاط كامل لأنه تم وضعها بطريقة ذكية.

بوهوان قامت الإدارة العسكرية بإنشاء مطحنة رائعة في حي البحرية تعمل جيدا وتوفر الخدمات، ويوجد بكل المدن مطاحن للاحتياجات الأسرية ولدى كل عائلة مطاحن صغيرة يدوية.

ويُزعم أنه بامتداد منشآتنا بالنتيجة فإن هذا السهل الجميل سيبتلى بالصانع وهذا لغناه بالمجاري المائية التي تدعونا لذلك. المزفران، الخراش، واد وعاية، واد الكرم، واد بوفاريك و جدول حوش بابا علي وهي مزرعة يملكها الماريشال كلوزيل. وكلها تبدو بشكل بارز صالحة لمنشآت من هذا النوع. ويوجد على هذا الجدول الأخير مطحنة قديمة والتي يمكن إعادة نشاطها بإصلاحات بسيطة وهي في موقع رائع ولا ينقصها الماء أبدا. وفي الأخير، تملك مدينة البليدة الكثير من الثروات المائية مما يمكنها في المستقبل من أن تكون مدينة صناعية غنية جدا لأن هذه المنطقة رائعة جدا وكل عناصر الازدهار مجتمعة فيها.

لقد قلنا أن بعض مناجم الحديد بيجاية كان يستغلها القبائل وهو ما يدفع إلى التأكد من وجود مناجم لمعادن أخرى بالوصاية. ففي سنة 1875 قدمت للأمير عبد القادر قطعة من الذهب المحلي وجدت في نواحي مرندة. تم اكتشاف متجم للرصاص حديثا بالقرب من خريستل Kheristel. ويوجد متجم للنحاس بين البليدة والمدينة على أراضي قبيلة موزاية. وقال السيد روزي tezoR نقيب رئاسة الأركان

وجيولوجي قدير، أنه وجد خامات الذهب بسطاوالي. ولكن المناجم الحقيقية هذه الوصاية تكمن في خصوصية تربتها وهناك يجب البحث عن الثروة الحقيقية.

التجارة.

بعد أن غيرت الصناعة العملية (أصحاب المعامل) تحت تصرفنا
 المواد الممنوحة من طرف الزراعة، تأتي التجارة لتضعها في متناول كل
 واحد وبهذا ترفع القيمة. وعلى سبيل المثال قطعة من الموسلين الهندي
 mousseline de l'Inde ليس له قيمة عند المستهلك الأوروبي إلا
 إذا جلبها له التجارة. والتاجر بالتفصيل الذي يبيع لنا السلع التي
 نحتاج إليها في الحين والذي يقوم بإعفائنا ولكن يزيد من نسبة السلع
 التي نشتريها منه، التجارة تزود بالإضافة إلى ذلك للفرعان الاقتصاديان
 الأمران للمواد والأدوات التي يقرضها الواحد عن الآخر فهي تعتبر
 الوسيط الإيجاري بينهما.

هذه الفروع الثلاثة للصناعة تشجع بعضها البعض. والقوانين لا يجب أن
 تمنع توارق اعتبارية للحماية التي توفرها لهم. وإذا ما تركناها تعمل لوحدها
 فإن الصناعة تستخدم ما تنتج الزراعة، والتجارة تنقل ما ينتج التصنيع وهذا
 سيمر القلة مع نسبة الاحتياجات.

ولا يجب الاعتقاد أبدا بأن الصناعة ستبقى راكدة إذا ما وصلنا إلى التوازن الثام لأن هذا التوازن غير ساكن. على سبيل المثال إذا ما اكتشف مزارع في نبتة ما خاصية عطرية جديدة ويقوم بزراعتها، فإنه يقوم بخلق منتج جديد يستخدم بعد ذلك في التصنيع وبهذا يختل التوازن، ولكن لفترة وجيزة لأن الصباغ الذي لن يتأخر عن اكتشاف هذه النبتة يصبح يستخدمها في عملياته وهذا يأتي دور التجارة لنقله، ويعود التوازن إلى وضعه الطبيعي. وسيحدث نفس الشيء إذا ما وجدت الصناعة طريقة جديدة لاستخدام أو جعل منتجاً مفيداً زراعياً. سيتم مضاعفة الطلب على هذا المنتج أكثر من ذي قبل وهو ما يعيد التوازن من جديد. معناه إذا ما وجدت التجارة الوسائل لنقل عدد أكبر من المنتجات فإنها ترفع من عدد الأشخاص الذين يستهلكونها وبذلك يزداد الطلب عليها بالضرورة. و نرى من كل هذا أن السلع تزداد دون أن يختل التوازن الموجود بين الفروع الاقتصادية الثلاثة وأن أي انتعاش لأي فرع يعود بالإيجاب على الفرعين المتبقين وهكذا يتركهم في حرية كاملة فإننا لا نخاطر بأي شيء تماماً.

بما أن التجارة هي من النوع الذي يعتمد على التبادل، فإنه لا توجد أمة يمكنها الاستغناء عنها فكل واحدة تحتاج إلى هذا أو ذاك مما لا تنتجه هي. ويمكن التعقيل بالقول أن كل أمة يمكن أن تزدهر بالتجارة مربوطة بواحد من الفرعين الاقتصاديين الآخرين ويمكنها حتى الازدهار بالتجارة لوحدها.

وطبيعة الحال إن كانت أمة زراعية فقط ستحتاج إلى التجارة لاستبدال المادة الخام بمواد مصنعة، وإن كانت مصنعة فقط ستكون تحتاج إلى التجارة لتوفير المواد الأولية وترويج موادها المصنعة. وفي الحالتين يمكنها الحصول على مكاسب مهمة للازدهار. وإذا ما كانت تجارية فقط فإنه يمكنها الكسب من هذا الفرع لوحده بلعبها دور البديل للشعوب الأخرى⁽¹⁾.

والأمة التي تكون بها الفروع الثلاثة هي المتطورة وهي بدون شك الأمة التي يكون لها الخط الأوفر لأن تصبح ثرية، أما إذا كانت طبيعة تربتها أو موقعها الجغرافي والأعراف لا تجعلها سوى قادرة على التجارة بالإضافة إلى أحد الفرعين الآخرين فإنه سيكون من الخطأ المحاولة عبثاً أخذها نحو مجالات لا تكون مناسبة لها. وهذا أيضاً يطبق على الشعوب الصناعية، بمعنى أنه على سبيل المثال إن كان بلد معين لا يكون متخصصاً أو أقل تخصصاً من بلد آخر في شعبة صناعية معينة وتقوم حكومته الغير الحكيمة بدفعه لامتثال هذه الشعبة الصناعية، فتصبح هذه الحكومة مرغمة بهدف الوصول إلى متغاها على مع استيراد كل السلع القادمة من الخارج، وهو التصرف عكس مصلحة المستهلك أي كم هائل من الناس.

ومع هذا فإن التجارب مسموح بها وحتى جديدة بالثناء في هذا الجانب، ولكن عندما أثبتت التجارب بطريقة قاطعة بأن الصناعة لا

(1) مثل: هولندا، البلجيكية، جنوة.

يمكنها مساعدة نفسها وأنها بحاجة لكي نحمي إلى الامتناد على نظام يحظر المنتجات الأجنبية من الأسواق، فكان من الواجب التخلي عنها دون تردد. ونعلم جيدا أنه بدعم تلك الصناعة فإننا نخدم مصلحة بعض الخواص الذين يظنون منذ بضع سنوات أنهم يشكلون لوحدهم الأمة، ولكن كم من المستهلكين يعانون والتجارة الخارجية لا تبيع شيئا. لأن المنتجات التي لا يمكنها في أسواقها شد التنافس مع منتجات الشعوب الأخرى، لا تستطيع فعل ذلك في الأسواق الخارجية. ولذلك كل شعب يجب أن يقوم بإتقان نوع الصناعة الخاصة به والقيام بمنتجات صناعية قدر الإمكان ولكن لا يجب عليه التصلب ضد صعوبات لا تقهر.

الجزائر بلد زراعي وتجاري في المقام الأول. في هذه الأثناء هناك الفرعان قليل التطور بالتأكيد وهذا نظرا لأسباب يسهل تفسيرها. في عهد الأتراك كانت الدولة تحتكر كل التجارة وتصدير عدد كبير من المنتجات كان محظورا بشكل لم يكن يشجع العمل. رسوم استيراد كل السلع الأجنبية كانت محددة بـ 5 و نفس الرسوم كانت مقدرة بـ 10 إذا ما كانت عملية الاستيراد من طرف اليهود الذين كان عليهم دائما استثناءات إما مرهقة أو مهينة. الدابات لم يقوموا بشيء لجذب نحو البلد تجارة السودان التي تقام عبر تونس، طرابلس والمغرب. ورغم هذا كانت تصل بعض القوافل من تومبوكتو إلى وهران.

وسب شالر Shaler تقدم جدولا للاستيراد والتصدير سنة 1833 يقول أنه وضعه اعتمادا على وثائق أصلية.

الواردات

من بريطانيا العظمى: مصانع	
الفتد وانجلترا	2.700.000.....
من اسبانيا: الحرير، قماش البروكار، القفل،	
القهوة للمصانع الألمانية والفرنسية	1.520.000.....
من فرنسا: السكر القهوة قفل أقمشة الفولاذ	
وسلع أخرى	1.080.000.....
من المشرق: الحرير الخام والحرير المصنع	540.000.....
من فرنسا وإيطاليا: الحلي، الأحجار الكريمة،	
الألماس، الخ	540.000.....
المجموع	6.480.000.....

الصادرات

لمرسيليا، ليغورنو وجنوة:	
20000 قنطارا من الصوف	864.000.....
10000 قنطار من الجلود	432.000.....
600 قنطار من الشمع	97.200.....
ريش النعام و سلع صغيرة أخرى	81000.....
المجموع	1.474.200.....

الحبوب لا تظهر بثان في هذا الجدول لأن تصديرها كان عادة ممنوعا.

وعادة ما كان التصدير محظورا ومع هذا تم منح فرنسا حق تصدير 16000 وحدة من القمح عبر ميناء عنابة وكذا صيد المرجان على السواحل الشرقية والتصدير عبر هذا الجزء للصوف الجلود والشمع. والرسوم المحددة لذلك كانت 60.000 فرنك في 1817 تم رفعها اعتبارا إلى 200000 فرنك. اشترى باي وهران حقوق التصدير عبر موانئ إقليمه ب 81.000 فرنك. تصدير الزيوت والجلود المحضرة كان ممنوعا باستثناء التصدير لمختلف أنحاء السلطنة العثمانية.

بمقارنة الجدول الذي وضعه شالر Shaler مع الحركة التجارية لسنة 1832 مثلما يتج بجمرد سجلات الجمارك، أوشكت لجنة إفريقيا على استنتاج أن التجارة بالوصاية كان تحت الهيمنة الفرنسية أقل حركة مما كانت عليه في عهد الأتراك. وهذا بالفعل ما كان موجودا سنة 1832. ولكن منذ تلك الفترة أخذت التجارة بالنمو أكثر ونموها التصاعدي بنياً بمستقبل زاهر. وفيما يلي جدول للصادرات والواردات سنة سنة منذ 1832. إنه من الأشمل والأدق مما تم نشره وندين به إلى اللطف الواعي والخريص للسيد بلوندال M. Blondel مدير المالية.

الواردات

1832	6.956.920
1833	7.599.158
1834	8.560.236
1835	12.164.064

الصادرات

1832	850.659
1833	1.028.410
1834	2.376.662
1835	2.503.544

تمثل الواردات في المقام الأول المواد الغذائية : ثيبه فريضة المشروبات الروحية زيوت وحتى الخضر و سلع أخرى للاستهلاك الغذائي. مما يدل وللأسف على أن المستوطنة لا تعيش الآن من مواردها الخاصة. تأتي بعدها الأقمشة بكل أنواعها خاصة الأقمشة القطنية الانجليزية السلع الاستيطانية العقاقير وأدوات الخياطة الحرير الصافي خشب البناء والمعادن المختلفة

ولا تشكل الصادرات لحد الآن سوى من منتجات السكان المحليين مثل زيت المعامل الشمع الأصفر الصوف ريش النعام دودة القرمز عطور الأقمشة الحريرية الزراعي الصوفية والصناعات الجلدية. وتنتج السلع الخمسة الأخيرة نحو تونس والموانئ الأخرى للمشرق، أما الباقي فيتجه نحو أوروبا.

والصادرات قابلة للارتفاع المحسوس ونموها متعلق بالحدود في البلد. إذا ما كان العرب تحت قيادة رجل حكيم وإذا ما كان بإمكانهم القيام

بأعمالهم في أمان وإذا ما كانت الطرق جميعها حرة، فإن المزايا الانجليزية التي يحصلونها في تعاملهم معنا سيجلبهم بكثرة إلى أسواقنا، والسلام البرم مع عبد القادر أعطى دفعا قويا للتجارة رغم تناقصه مع فرض هيمنتنا في إفريقيا ورغم عيب الاحتكار الذي تم التنازل عليه له والبلد لا يبحث سوى عن التطور.

وفي الظروف الراهنة العرب المبعدين يجثون الكثير من المنتجات أو يصنعونها عبر تونس والمغرب، فإنه لمن المستحسن أن نتمكن من سد للمنافذ داخل الوصاية التي يوفرها هذين البلدين ولكن ذلك صعب جدا. ولن يكون صعبا ربما الحصول على قرارات بالحظر من ملوك تونس والمغرب ولكن بسبب عدم امتلاكهم لخطوط جوية على حدودهم البرية فنصبح هذه القرارات مجرد خيالا دبلوماسيا وحتى ولو كان لديهم الإرادة لتطبيقه. وفيما عدا ذلك ستقع التجارة بين أيدينا بطبيعة الحال ليس فقط داخل الوصاية ولكن كذلك بالجزء الأكبر من السودان. نعلم أن التجارة بهذا البلد الغير المعروف لحد الآن تتمثل في بوفرة الذهب، ريش النعام جلود الأسود والتمور المطاط والعاج. يمكننا جعله جدي إنتاجي إذا عرفنا إدارة الأمور، ولجلب تجارة هذا البلد إلى أسواق الوصاية يجب التغلب على بعض العادات التجارية العتيقة ونشر المعارف الجغرافية لاكتشاف خطوط جديدة للتواصل مع نوموكتو وقيرة الاسبانية. ورغم مبادتنا المعارضة لفكرة العلاقات إلا

لنا فكريته من المكسب أكثر، لو تعد بعلاوات كبيرة للقوافل الأولى التي تصل مباشرة من السودان إلى الجزائر. يجب كذلك القيام باستكشاف الصحراء في كل الاتجاهات سواء من طرف سكان محليين أذكيا أو من طرف أوروبيين مثقفين ومتقنين للغة العربية. بهذه الطريقة سنكتشف أشياء كثيرة لم نكن نعلمها بعد وسيكون مهيا اكتشافها كاملة. يجب تسريع من يقوم بهذه الجولات الخطيرة بجوائز قيمة وراقية، وسيتج من ذلك ثوافد كل التجارة الداخلية لإفريقيا على موانئ ممتلكاتنا وبهذا لن يكون هناك قيود تحد نمو مستعمرتنا الجزائر.

في هذه الأثناء يقيم التجار المتمرسين بمليون فرنك رؤوس الأموال المتداولة بالجزائر عاصمة ومركز مؤسساتنا. ويجب القول أنها في المقام الأول مشكلة من مرتبات الجيش ويظهر ذلك من تزامن فترة المدفوعات مع دفع رواتب الضباط وموظفين آخرين. ومع هذا جزء كبير من رؤوس الأموال وربما النصف خارج هذه الحركة بعناية وبوهران رؤوس الأموال هي أقل ندرة.

الثروة التجارية بالجزائر تقسيم بـ 12.300.000 فرنك مقسمة كما يلي:

50	تاجرا يملكون بمتوسط الأجل 50.000 فرنك	300.000.000
50	تاجرا يملكون بمتوسط أجل 20.000 فرنك	1.000.000.000
800	بائع أوروبي بـ 2.000 فرنك لأجل متوسط	1.600.000.000
400	بائع يهودي بـ 2.000 فرنك لأجل متوسط	800.000.000
900	بائع مغربي بـ 1.000 فرنك لأجل متوسط	900.000.000

ديون.....	8.000.000 فرنك
المجموع.....	15.300.000
نطرح ما يذهب للأثاث والأموال العقارية.....	300.000
الباقى.....	12.300.000

إن مصلحة الفائدة بالجزائر مبالغ فيها وتحدد تعلية حديثة، النسبة القانونية بـ 10% الفائدة المتعارف عليها حسب الاتفاق ليس لها حدود. هذا الثمن الباهض للمال يعود إلى أسباب من السهل تقديرها. المماثلة المستمرة للحكومة تصنع مسألة تواجد المستوطنة، ولم يكن سوى كطعم كبير ومصلحة عظيمة حتى تمكن الرأسماليين من تقرير استخدام أموالهم في المستعمرة، وارتفاع قليل للثقة في المستقبل أدى إلى انخفاض محسوس منذ وصول المارشال كلوزيل فانخفض معدل الفائدة العادية من 24% إلى 18 أو 20. جزء من رؤوس الأموال يستخدم في التجارة أما الجزء الباقى فيذهب إلى بناء المنازل وشراء الأراضي.

تبدو الإنشاءات على العموم أكثر مكسبا فقط بالنسبة لأولئك الذين يدخلون الميدان بأموالهم الخاصة. وما هو أكثر من مجرد الشك هو أن الذين يقومون بالاقتراض لفعل ذلك لا يمكنهم الخروج من الورطة التي يصنعون أنفسهم فيها، كانوا مبهرين بارتفاع أسعار الإيجار، ولكن من المستحيل أن يظل السعر على حاله دون انخفاض في ظل المنافسة.

وهذا فإن المنازل لا يمكنها تحمل نسب الفوائد المترتبة عن عملية بنائها وتعود بالمصادرة للذين وفروا رأس المال. ويوجد أكثر من مثال على ذلك. رؤوس الأموال المشغلة في مجال الرأضي لم تعطي سوى بعض الخدمات للمزارعة، لأنهم لم يستخدموها سوى للمضاربة التسويق وإعادة البيع. وما عدا ذلك فإن نجدة الرأسماليين كأصحاب رؤوس أموال هي زائفة للمزارعة، وفي الحقيقة من هو هذا الرأسمالي البسيط والأصيل الذي كان أبلانا الذين يسمون الأشياء بأسمائها يسمونه المراهي؟ هو رجل يملك مبالغ مالية ويقوم باقتراضها بتسبب عالية من الفوائد للعمال الذين لا يملكون المال لكي يتمكن المراهي من العيش دون عمل مع أخذ القسط الأفضل من ثمار عمل الآخرين. في التجارة مساعدة أصحاب رؤوس الأموال قد تكون فعالة لأنه يمكن الحصول على أرباح جيدة يمكن مقاسمتها. ومهما كانت فائدة الأموال فالتاجر الذي لا يملك رأسمال عامل يجده ضالته بالاقتراض حتى لا تقوته بعض الصفقات التي يبدو مكسبها مضمونا. ولكنه ليس بنفس القدر بالنسبة للمزارع فأرباحه جد محدودة حتى يتمكن من تحمل أي فائدة. من المؤكد أن أصحاب رأس المال الأكثر اعتدالا لن يطلب من المزارع أقل من الفائدة القانونية بمعنى 10% ومع هذا فإن أنساءل إن وجد أي مزارع يريد أن يقوم بأعماله الزراعية تحت شروط كمثل هذه الشروط؟ فأصحاب رأس المال لن يكونوا ذا أهمية إلا إذا ما قبلوا فكرة الدخول

معهم في شراكة الخسارة أو بالربح⁽¹⁾. وبالفعل الفلاح يستطيع الالتزام للحصول على رأس مال يتحمل تخفيض في أرباحه، ولكنه لا يمكنه دون الإفلاس الالتزام بتوفير قسط سنوي مستقل عن كل احتمال للربح أو الخسارة. في نقاط كثيرة لفرنسا اجتذب الفلاحون للقيام بعمل غير حلو جداً في ممتلكاتهم، فقاموا بصرف كل أموالهم لإضافة بعض القطع الأرضية لميراثهم. ونتج عن ذلك أنه في كل سنة سيئة يجدون أنفسهم تحت رحمة المزارعين الذين يفلسونهم. في الأساس قاموا باستغلال كبير للفلاحين حتى تم إصدار مرسوم من الإمبراطور سنة 1808 يجبرهم على القيام بخصم جزء من المستحقات لاجتناب إفلاس الزراعة في هذه المقاطعة الجميلة. لذلك يجب الحيلة من مساعدة الرأسماليين بما أنهم لا يريدون أن يكونوا سوى كذلك. فقد تم تشكيل مسبقاً بالجزائر شركة يقال عنها زراعية لم تقم سوى باحتكار أراضي هي مزعجة منها الآن. السيد باري M. Barbet رئيس بلدية روان Rouen وعضو مجلس النواب من الليبراليين وهو صاحب رأسمال ثري جاء إلى الجزائر سنة 3381 ويبدو أن وصوله قد نشر المن حول المستوطنة فيما الذي فعله السيد باري M. Barbet ؟ قام بشراء وإعادة بيع الأراضي وبيع بهذه اللعبة بعض القطع النقدية.

(1) مشروع شركة لاستغلال الأراضي تم خلقه بالمعنى الأوسع و الأكثر ليبرالية و على رأسه مدافعون مشابهة لمبدأنا ثم القراءه من طرف السيد توبليز الرأسماليين الذين لم يقوموا لا ببيعهم و لا بشي.

لقد قمنا في الجزء التاريخي بالتعريف بالأعمال المتتالية للتشريع التجاري في مقاطعة الجزائر منذ الاحتلال ولكن هذا التشريع تم تغييره كتاباً تعليمية 11 نوفمبر 1835 وفيها يلي أهم إجراءاته:

كل عملية نقل بين فرنسا والممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا لا تتم سوى بسفن فرنسية. الملاحة بين ميناء وآخر من الوصاية لا يتم إلا بسفن فرنسية أو إفريقية المسماة الصنادل sandales، التي لا تتجاوز حمولتها 03 طن. وحتى تقوم هذه الصنادل بالملاحة يجب أن تكون ملكاً للسكان الفرنسيين أو المحليين بالأماكن المحتلة من طرف القوات الفرنسية. هذا البند الأخير المطبق بصرامة أغلق الطريق لموانئ على صنادل تنس شرشال دلس وجيجل. وتظهر على أنها ذنب، لأنه بالإضافة لمكسبها التجاري لها مكسب سياسي كبير لربط علاقات مباشرة مع النقاط التي لم تحتلها بعد. السفن الفرنسية والمراكب الإفريقية التي تستوفي كل شروط التعليمات معفية من كل الرسوم في موانئ الوصاية. السفن الأجنبية المحملة أو غير المحملة تدفع عند دخولها لنس الموانئ 2 فرنك للبرميل. حقوق جواز السفر ورخصة التحميل والتفريغ محددة بـ 5 سنتيم. لا توجد ضريبة على الجولات الاكتساب أو الشهادة.

المنتجات الفرنسية باستثناء السكر والمنتجات الأجنبية الموطنة بفرنسا بواضعة دفع حقوق محددة مقبولة في لائحة الإعفاء الفرنسي في موانئ الوصاية.

وكذا السلع الأجنبية مثل الحبوب القريفة الخضر خشب البناء والتجارة الكلس الجير حجر السبورة الأجور الحديد المنصهر، أي كل ما هو من مواد الاستهلاك الغذائي أو البناء.

السكر الخاضع لرسم يتغير حسب المقاطعة من 10 فرنك لكل 100 كيلوغرام إلى 20 فرنك، تفرض على القهوة ضريبة ب 12 إلى 15 فرنك لـ 100 كيلوغرام كذلك. ولسبب ما السكر والقهوة الآتين من فرنسا هم الأقل خضوعا للضريبة. السلع الأجنبية غير المحظورة في فرنسا تدفع عند دخولها إلى الوصاية $1/5$ من الحقوق المحددة بسعر عام بفرنسا إذا ما كانت قادمة من موانئ فرنسا و $1/4$ إذا ما كانت قادمة من موانئ أخرى.

السلع الأجنبية المحظورة بفرنسا غير السكر المكرر مقبولة في موانئ الوصاية وتدفع رسوما بـ 12 من 100 من قيمتها عند خروجها من ميناء فرنسي و 15 من 100 إذا ما قدمت من ميناء أجنبي.

السلع المصدرة إلى فرنسا من موانئ الوصاية معفية من كل رسوم التصدير. السلع المصدرة للدول الأجنبية تدفع عند خروجها رسم محدد بسعر الخروج في فرنسا أو 15 من 100 من قيمتها إذا ما كان حسب هذه التسعيرة خروجهم من فرنسا محظورا. الحبوب والقريفة مستثناة من كل رسم.

السلع القادمة من الممتلكات الفرنسية إلى شمال إفريقيا المعفاة وتلك السلع المستحقة لحقوق تم دفعها يمكن أن يتم نقلها بإعفاء من ميناء إلى آخر داخل الوصاية، عندما تكون تلك الموانئ تحت السيطرة الفرنسية وبالنسبة للموانئ التي لا توجد بها هيئة فرنسية المحافظ العام وبمرسوم معتمد من مجلس الإدارة يمكنه تحديد موانئ المقاطعات المعفاة من الضريبة فيما يخص المواد الأتية:

الحيوانات الحية وقرون الماشية، جلود طرية وجافة شحم الصوف زيت الزيتون بالإضافة إلى الشمع العسل دودة القز، فواكه طازجة التين المجفف خضر طازجة حليب زبدة جبن طازج بيض الدواجن والطراند. كل سلع أخرى قادمة أو خارجة من هذه الموانئ تعامل كأنها قادمة أو خارجة لموانئ أجنبية.

يمكن إنشاء مخازن حقيقية بالجزائر عنابة ووهران وهذه المدن تتحمل مسؤولية تزويد المتاجر الضرورية. وإلى حين تأسيس هذه المخازن يتم إيداع السلع في مخازن افتراضية. ومدة المخزن الافتراضي محددة بستة أشهر ويمكن تديدها ستة أشهر أخرى.

نرى بالتحليل الذي قمنا به أن تعليمات 11 نوفمبر تشجع التجارة الفرنسية والتي لا تشكي منها المستعمرة لأن هذا الامتياز يعتمد في المقام الأول على إعفاء للرسوم التي يعود لصالحها في الأخير. بما أن تكاليف الإبحار مرتفعة جدا للسفن الفرنسية ولا يوجد غيرها

للقيام بعمليات النقل بين الوصاية وفرنسا فإن الإعفاء من الضرائب ليس بالأمر المعبر كما نظن. ففي الواقع إنه لمن غير المهم لدى المستهلك أن يكون سب غلاء السلع التي يشتريها هو حقوق الجمركة أو ارتفاع سعر الشحنات. ولما عدى ذلك تعليمة 11 نوفمبر دخلت حيز التنفيذ منذ وقت قصير، حتى تتمكن من معرفة تأثيرها. ولا يمكن إخفاء أن هذه التعليمة ترمي إلى وضع الجزائر وفقا لتقدير التجارة المرسلية، ولكن هذه الأخيرة تعترف بالتأكد أنه إذا ما أراد تجاوز بعض الحدود فإنه سيعطي فرصة أكبر لمناقشة التجارة الأجنبية رغم الرسوم المفروضة عليها. فيكون من المفضل ربما أن يتم فرتة السفن التي يكون طاقمها مشكلا من بحارة جزائريين فيصبح النقل بين إفريقيا وفرنسا أقل كلفة، وسنقوم بدعم سلالة من البحارة الممتازين والتي تتمحي يوما بعد يوم حتى تنقرض عن الوجود. وباختصار من المستحيل إيجاد أكثر سوءا من أن تتخذ فرنسا إجراءات تجعل من الممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا وتتخذ معها عاداتها التجارية بل يجب العمل أن لا تعاني المستعمرة كثيرا. فالتأكد كان هذا هو هدف تعليمة 11 نوفمبر وهو إعفاء السلع الفرنسية من كل الضرائب عند الدخول.

منذ عام يقوم السكان المحليون باستهلاك أقل لمنتجاتنا مقارنة بالسابق وبذلك فإن للأجانب الأفضلية علينا في هذا الجانب فالحمولات تقريبا كاملة ليوانر قادمة من ليفورن Livourne، جبل طارق وأنجلترا تنجده نحو للعرب. الكاليكو Les calicots الصافي والموسلين التي نبيعها إياهم تأتي كلها من الخارج.

الإشعارات، السير الذاتية.

الحاج⁽¹⁾ عبد القادر وليد محي الدين: عبد القادر الذي أضحي اسمه الآن مشهورا ينتمي إلى عائلة عتيقة من المرابطين، والتي تعود أصولها إلى الخلفاء الفاطميين ولد بقطنة Guetna سيدي محي الدين بنواحي معسكر على أراضي الهاشميين. هذه القطنة Guetna هي عبارة عن ملتقى يجمع فيه أجداده المرابطين الشباب لتلقيهم الأدب، علم أصول الدين والقانون، وهي تقع على أطراف الجبال في موقع قاتم وحلاب أين كل شيء يدعو للدراسة وهدوء الليل. لقد تلقى عبد القادر تربية أحسن مما يمكن لعربي أن يتلقاها من طرف أبيه الذي أوجد فيه صفات الذكاء والصرامة فاستغلها، ففي مقتبل عمره كان يحفظ القرآن الكريم ولا تفوته آية أو تفسير وكان في ذلك يتفوق على أشهر المفسرين. وقام كذلك بدراسة التاريخ والبلغة بحماس كبير وهل هذا ما يجعله في الوقت الحاضر الرجل الأكثر بلاغة في البلد وهو أميلاز كبير لدى العرب، هل يعرف جيدا تاريخ أمته والنقاط المشتركة

التي تجمعها بأمثا؟ ولم يحمل كل التمارين الجسدية التي تفوق فيها، فقد كان من أحسن فرسان بلاد البربر وباختصار تمكن في سن العشرين من أن يتميز بجمع كل صفات الرجل الذي يجتهد العرب أن يتولى إدارة شؤونهم.

سلط الجزء التاريخي من هذا الكتاب الضوء للقارئ على الطريقة التي وصل بها عبد القادر إلى السلطة، وكيف قام بالتصرف فيها وستتقيد هنا بإعطاء بعض التفاصيل عن شخصيته.

بلغ عبد القادر من السن 28 سنة في الوقت الذي أكتب فيه هذه الأسطر وهو ذو قامة متوسطة نحيف سماته لطيفة روحانية وثيلة عيناه جميلتان، لحية نادرة وسوداء وأسنانه غير مرتبة وبها علامات بقع زرقاء، يده جميلتان ويرعاهم رعاية خاصة ورأسه يميل قليلا نحو الكف الأيسر، أسلوبه ودود ومليء بالتهذيب والعفة لا يغضب إلا نادرا ويقتضى دائم السيطرة على نفسه، شخصيته مغرية كاملا ومن الصعب معرفته وعدم التعلق به.

يتميز عبد القادر بشجاعة كبيرة وتفكيره أكثر تنظيما من تنظيمه عسكريا، ومع هذا فإن روحه قد تم تضليلها في الكثير من الأحيان في الظروف الصعبة التي طالما وجد نفسه فيها. عاش بعض لحظات القهر، مبادئه أصيلة وجد صارمة، له زوجة واحدة إذ يحبها كثيرا، وتتكون أسرته من فتاة تبلغ أربعة أو خمس سنوات وابن ولد أياما قبل دخول

لترتيب إلى معسكر. عندما كان بالمدينة كان يسكن مع عائلته في منزل جميل ولكنه بعيد الشبه بالقصور. كان يعيش دون حرس كإنسان بسيط. كان يغدو كل يوم باكرا إلى القصر أو البيك من أجل التفرغ لشاغل الإدارة والقاء خطبه وفي المساء يعود إلى منزله ليعيش حياته الخاصة.

كان عبد القادر يلبس دائما ثيابا بسيطة وبذلك هي من الزي العربي الأصلي دون أي نوع من الزخرفة أو علامات الغرور، ولا يستعمل أي رخاء سوى في أسلحته وحيوله وقد ملك لبعض الوقت برنسا تتل مت رينات من الذهب إلا أنه قام بقطعها وهذا في المناسبة التالية: قام أحد أصحابه الذي عينه قائد لقبيلة قوية بالتباهي في هذا المركز وتم التهامس عليه فقام باستدعائه وبعد أن وبخه على تصرفاته قال "اقتدوا به أنا أكثر ثراء وأكثر سلطة منكم وانظروا كيف ألبس ولا أريد حتى الحفاظ على هذه الزينات الذهبية البائسة التي ترون على برنوسي" وقام بقطعها على الفور ومنذ ذلك الوقت لم يلبس أي عيظ من الذهب أو الفضة.

كان عبد القادر يحب كثيرا الدراسة والتي كان يخصص لها الوقت الخليل من راحته الشيء الذي يترك حياته مضطربة. كانت لديه مكتبة صغيرة تتبعه في كل جولاته. عندما يكون في حلة وجوده أكثر ملوكة له المدينة، يسكن أثناء ذلك خيمة رائعة جد مريحة وموزعة بشكل جيد، ونظام له بها خلوة جميلة جدا أين يقيم مجالس خاصة ويشغل فيها كذلك.

هذا هو برنامج في المعسكر عندما لا يكون في اليوم عمليات عسكرية: بعد المسيرة اليومية يصل إلى خيمته أين لا يحتفظ سوى بخادم واحد ويكرس بعض الدقائق للتنظيف، يقوم بعدها باستدعاء أمناء الإدارة، وأهم ضباطه بالتسلسل ويعمل معهم حتى الرابعة مساءً، وعندها يلف عند مدخل خيمته ويقوم بهم الصلاة وبعدها يخاطب في الناس لمدة نصف ساعة مع انتقاء نص ديني يوصل أفكاره السياسية والحزبية. وفيما تبقى يجلس إلى مائدة الأكل مع الأمين العام الرئيسي ميلود بن حراش Miloud-Ben-Arach كانم أسرارهم، إخوته عندما يكونون في الجيش وفي أغلب الأحيان واحد من أغواته. وأطباق الطعام التي يقدمونها له قليلة ولكنها لذيذة ومحضرة بعناية، لا يدخن شيئاً إلا أنه يأخذ بعض القهوة.

يبدو أن عبد القادر له أفكار دينية ومتمسك بالعناية الإلهية، ولكنه ليس متعصباً بشائناً. لا يخاف مناقشة المسيحيين في مواضيع شرعية ويقوم بذلك دون فضاضة ولباقة. إنه رجل نزيه بمبادئ أخلاقية جد عميقة يختار كلماته بدقة. ورغم أنه رقيق وداهية بالمعنى الدبلوماسي للكلمة إلا أنه غير بعيد عن القسوة. إنه يحكم العرب بالعدل واللفظ وهذا يكذب كلياً ودائماً أقوال الذين يصرون على فكرة أنه لا يمكن حكم العرب سوى بالترهيب. لقد كان يبدو دائماً عند استطاعته كريماً ومتسامحاً نحو

لذلك. وقد تم الحكم بالإعدام على شخصين فقط في عهد حكمه وبعد أن تمت محاكمتهم وهما: قاضي أرزيو وسيدي القوماري شيخ الأنجاد الذي تم شقه بمعسكر في شهر أوت 1835. قيل أنه قتل عنقا سيدي لغري هذا الشيخ الذي تمت محاكمته بعدالة بتهمة الحياة إذ مات بمرض الكوليرا في سجنه. وأبناءه الذين صعب عليهم تقبل موته في فترة الثورة اعترفوا لمؤلف الكتاب أنهم مقتنعون أن والدهم توفي جرّاء ذلك الداء.

إن المحادثة مع عبد القادر مشوقة وفي بعض الأحيان لأمعة. السيد أليغرو M. Allégro الذي كان حينها ضابط مراسلات للجنرال تريزيل والذي وجد نفسه بقرب عبد القادر قبل استئناف القتال، قام بنصحه بمهارة وحسن تقدير بالتنازل عن جزء من أطماعه فيما يخص معاهدته مع الجنرال ديميشيل، وأراد أن يثبت له أنه لا يجب أن تغريه الثروة إلى درجة طموحه في الوصول إلى هدف خارج عن قدرته فأجابه الأمير: "أليغرو، قبل ثلاث سنوات لم أكن سوى أحد الأبناء لوالدي وأجبرت عندما قتلت رجلاً في معركة على الاستحواذ على حصانه وعدته لزيادة مكاسي وترى ما أنا عليه الآن و تريد أن لا أثق بنفسي".

لقد كانت لنا فرصة القول أن عبد القادر لم يكن يظهر عليه حسد أوروبا سوى على براعة الوسائل التي تملكها، وأنه لم يتمثل بحالات قليلة من حصارنا وقد شرحنا لماذا كان يجب أن يكون هكذا.

ومع هذا كان يرد أن يسمع عن أعمال حكومة بونابرت Bonaparte وما كان يصعب أكثر فهمه ليست التصارات العسكرية ولكن النظام الذي عرّف كيف يخرجه في دولته بعد الخروج من الاضطراب العام.

في حياته الخاصة كان عبد القادر مقتصدًا جدًا إلى حد البخل الشديد وتكرّر كثيرًا كان يصرف الكثير وليس له سوى أفكار خاطئة عن التجارة والناحية. لقد قمت بصياغة صورة عن هذا الرجل المميز التي لا تظن أنها مبالغ فيها والتي سيكون معترفًا به لدى كل واحد عرف عن قرب شخصيته الأصلية. ولو استعملت فرنسا مهارة وتقديرًا أكبر في علاقتها معه لتمكنت من وضعه تحت هيمنتها والاستفادة من خدماته الكبيرة. الآن لقد سسى وحده عاليًا ولا يمكننا حتى التفكير في الإطاحة به كليًا. وبعدد سيعود العرب إلى حالة القوضى التي أخرجهم منها في عهد حكمه. هذا ما ننتظره ولكنهم سيمثلون من الوضع شيئًا حدث معهم من قبل وهنا ستكون فرنسا هذه المرة من سيلعب دور عبد القادر وأخذ مكانه الشاغر.

والقصور الكبير الذي ألحقه بنا عبد القادر هو أنه جعلنا بالضرورة لا نمثل سوى صورة الوحشية وصورة التدمير بينما هو يمثل الحكمة والتنظيم.

عبد القادر من غربي : هو أحد السكان الأصليين لمدينة البليدة والذي تقلد منصب حاكم في عهد إمارة الكونت ديولون في الأشهر الأولى لسنة 1813.

هو أحد ملوك للعناء ولكنه رجل تقي في الشاغل. فهو من جلب إلى الجزائر نظام الطعم للقتال مع قازيك سنة 1813 وقد تكلمنا عن هذا الحدث.

عبد العزيز : القاضي السابق لبيت المال وتم تعيينه قاضيًا مسكنًا بالجزائر عندما تم ترقية مصطفى الكياني إلى مرتبة مفتي. هو رجل عاقل وفهماني ومؤدب ولكنه خاطئ فوق كل تعبير، وكرهه للفرنسيين كان شديدًا لدرجة أنه كان يصب خطبه على المسلمين الذين كانوا يخدموننا والذين كانت قصديهم فتح بين يديه في محكمته، وكان يدينهم تقريبًا دون الاستماع لهم فيها كانت بينة حرقهم. ثم طلب إقالته عدة مرات من الوزير الذي كان يرد أنه لا يجد أحسن منه لوضع مكانه وأنه من المستحسن الحفاظ عليه عوض الحصول على آخره. لا يكون أكثر شعبية لنا. استقال عبد العزيز من منصبه بعد القضية العارية التي دخلت في المسيحية تحت إدارة الجنرال فوارول وهاجم إلى الإسكندرية أين لا يزال يعيش هناك.

الحاج عبد السلام : عبد السلام رجل ذو نفوذ كبير الذي يمكن أن يكون مفيدًا أو مضرًا جدًا في حياة عبد قسطنطين حسب موقفه إن كان معًا أو ضده في هذه الفترة هو عدو أحمد باي والجميع في الكثير من المرات يسألني

الضياف لمقاتلته. تملك قبيلة المرجان التي تعترف به شيخا عليها قرب أراضيها المجموعة الشهيرة لبيان الحديد، مما يعطيها نفوذا استراتيجيا كبيرا على الطريق بين الجزائر وقسنطينة. وبهذا فإن عبد السلام رجل وجب كسبه إلى صفنا. وقام بنفسه بالخطوة الأولى فخلال سنة 1834 أرسل مبعوثين إلى الجنرال فوارول لدفعه إلى السير على قسنطينة عبر سطورة Stora أثناء تقدمه بمجموعة من القراصنة على هذه المدينة. أجاب الشيخ الوزير الذي تم إبلاغه بمقترحات أنه من الممكن أنه أرسلهم إلى الجزائر فقط للاستطلاع عن نوايانا الحقيقية تجاه قسنطينة، وبعدها سيقوم بإبلاغها إلى أحمد باي. هذه الشكوك لم يكن لها أساس من الصحة لأنه كان من المؤكد أن عبد السلام كان ضمن قائمة أعداء باي قسنطينة منذ مدة طويلة.

وبدئين عبد السلام بقوته إلى عمل رهيب : فقد كان له منافسان يهددان حكمه ولهما نفس نفوذه في القبيلة ونظاير بالمصالحة معها وقام بدعوتها إلى مائدة أين قام يقتلها أمام أعينه.

عبد الضياف بن أحمد: عبد الضياف هو شيخ قبيلة البدو القوية لولاد معادي المسخرة حاليا جنوب سلسلة جرجرة بثلاثة أيام من المسير من الجزائر. هو عدو باي قسنطينة التي هزم قواته سنة 1833. وكتب في العديد من المرات للجنرال المسؤول ليقترح عليه تحالفه ضد أحمد باي.

عبيد بوعلام: هو أحد المشايخ المهمين للقرايا des Garrabas إذ عيّن عبد القادر آغا. كان يقود مقدمة جيش الأمير في معركة 12 جويلية 1834 ضد مصطفى بن إسماعيل. خلال محاكمة سيدي العربي تم ضبط عند هذا المقاتل رسالة تشوه عبيد بوعلام. قدمها له عبد القادر ولكنه أنكر كتابته لها. فقال له الأمير أنه رغم ما يؤكد أن الرسالة منه فإنه يسامحه، وعند تلك الفترة لم تحم الشكوك حول عبيد بوعلام وبقي وفيا لعبد القادر في السراء والضراء.

عبد بن عثمان: انه رئيس نافذ للدواير بإقليم وهران. عيّنه عبد القادر قائدا لهذه القبيلة وهو من بين الذين انفصلوا عن الأمير بسرعة كبيرة سنة 1835 وكان من بين الملتجئين للانضمام إلينا. ورغم ذلك أثناء الحملة على معسكر ورغم أننا أعطينا لقب آغا فقد ثقاعس في مد يد العون للإدارة الفرنسية التي كانت تنظم نقلا ملحقا بواسطة الجمال التي طلبوها من الدواير والزمالة وهذا ما ترك انطباعا سيئا عنه. وعند العودة من الحملة تمت إقالته وتعويضه بالحاج مختار، أدى Adda لديه ولدان في حزب الأمير عبد القادر.

الحاج عجلال: شيخ جندل دخل في علاقة معنا سنة 1834 وأجبرته على قتلك الحاجيات التجارية لقبيلته لأنها كانت تمنع بالأغذية التي لم يكن لها سوى

سوق الجزائر منذ كانا لها، وما كان يدفعنا لتصديق ذلك هو على الأقل كل تلك الرسائل والمساكن التي كان يقوم بها لدى الحجوة طين للتأكد من حرية المسالك. الحاج عجلال كان غالبا في حرب مع ابن عوده المختاري.

الحاج أحمد: باي قسطنطين هو كزغلي أبوه الذي كان مثله بابا لقسطنطين ثم خلفه. وبعد وفاة والده فرت والدته التي كانت واحدة من بن غانا Gana - Ben إلى الصحراء أين ترعرع أحمد. وبعدها تم تعيينه خليفة حسان باي قسطنطين والخليفة الثاني لوالده وحسين باشا هو الذي لقبه بالباي.

أهم ظروف الحياة السياسية لأحمد باي تم سردها في القسم التاريخي لهذا الكتاب.

يبلغ أحمد الخمسين تقريبا من عمره وهو قصير القامة كثير النشاط وجد مستقر سلوكه رافع وأسلوبه متوحش لا يظهره بشاتا في علاقاته الداخلية ومبادئه جذمته.

قبل إغلاء استقلال الجزائر في 1830 أراد أحمد إقناع حسين باشا بالحقاق به إلى قسطنطين مع كنوزة وهو ما رفضه هذا الأخير، ولحسن حظه لأنه كان متأكدا أنه يحمي له مكيدة. لم يعطى إبراهيم صهر حسين الذي أراد اللحاق بأحمد لذلك، فبعد أن أعطى للباي مبلغا معتبرا من المال كان نجيا في المنزل الربيعي للباي أعاد الباي إرساله إلى الجزائر تقريبا بقميصه فقط.

أحمد بن عجلال: يلقب بمسئول وبقي بالمدينة بعد دخول الفرنسيين إليها. هو رجل ثري وذا عقل متفتح ويتكلم الإسبانية بطلاقة. عيته السلطات الفرنسية دائما للمدينة. هو أحدهم وكان أحد القراصنة وهو يقدم لنا كل يوم خدمات حقيقية.

الحاج أحمد: هو أمين عام عبد القادر ومتعلق به جدا حتى وإن كان يتكلم معه في كثير من الأحيان بالفاظ قليلة الاحترام. هو رجل مثقف بالظاهرة مع ما يكون عليه عربي.

أحمد بن نونة: بن نونة هو مواطن ثري جدا من تلمسان ثم تعينه قايدا لهذه المدينة من طرف المولى علي حين أراد سلطان المغرب الاستحواذ على إقليم وهران. تصدى لعبد القادر في 1833 وتم هزيمته واضطر للفرار إلى المغرب فوضع عبد القادر محله حمادي بن سكال. في سنة 1834 وبعد ثورة مصطفى بن إسماعيل، أعاده الأمير إلى وظيفة القائد بعدما تصالح معه ومنذ ذلك الوقت بقي وقيا له. غادر تلمسان عند وصول الفرنسيين في شهر جانفي الأخير وراح يعتمد على الولاة والقبائل الأخرى للثأفة وحضر المعركتين اللتين قامتتا على ضفاف هذا النهر في 26 و 27 جانفي.

كان بن نونة رجلا مثقفا ومدرك جدا لوضع أوروبا ومهاراتها العلمية

والصاحبة إذ كان له أخ سافر إلى إسبانيا وإنجلترا والذي وافقه المنية بقاء الكوليرا سنة 1834.

أحمد بن شعنان: شيخ بني جيد كان في عهد الأتراك الأمين العام الأول للأطراف كان رجلاً رقيقاً وداهية، يعرف جيداً العرب وكان له تأثير عليهم. بدأ في علاقة معاً بعد أيام قليلة بعد وصولنا. قام الرائد ماري Marcy بتعريفه للدوق دوروفيكو الذي جعل منه شخصية كبيرة. في نهاية 1832 كان يسكن المدينة وأراد أن يعترف به السكان كحاكم ولكنه فشل في ذلك، فقدم حينها إلى الجزائر وعاد بعدها إلى بني جيد أين تم اغتياله من طرف مزارع لديه سنة 1833 ويقال أن القاتل تمت رشوته من طرف والد أحمد نفسه الذي كان يصعب عليه رؤية مساندته للمغربيين.

أحمد بودرياح: جزائري مغربي تمت مشاركته المبكرة لتجارة عمه مصطفى بودرياح الذي كان يسير منزلاً بمرسيليا، بعد أن غادر هذا الأخير المدينة. قام بصفتات سبلة وكان مجبراً على إعلان إفلاسه ولكنه اعتنى بجمع كل ما تبقى له من سلع، ولحسن حظ دائيه أن السفينة كانت مجهزة على الرسو بسيدي فرج أين تمت مصادرتها، وتمت متابعتها كمغفلت محتال وكان من المؤكد أنه كانت مستم إقامته لولا تدخل عمه الذي أرسل المال الضروري لإخراجه من تلك

أورطة. كان دائيه والأمين مما أبعد فعل الجريمة عن القضية بحجة جهل تعاون الشريعتين التجارية.

كان بودرياح بالجزائر عندما قام الفرنسيون بمحاصرتها وكان من بين المرتبطين المرسلين للسيد دويورمنت M. de Bourmont عندما استسلمت المدينة وقد كسب مكانة قوية لدى هذا الجنرال الذي عينه عضواً في رئاسة المدينة. وما أنه كان مليئاً بالعداء ضد الأتراك ويتوق بشدة لثورتهم. قام بكل ما في وسعه لطرد المتبقين منهم من الجزائر. وكان بودرياح صاحب تفكير رقيق في أسلوب مغرماً مكانته من الحفاظ على مركز جيد بالقرب من الجنرال كلوزيل الذي خلف السيد دويورمنت. وكذا في عهد الجنرال بيرثيزين Berthézène لكن الدوق دوروفيكو لاحظ شيء غريب في تصرفاته فقام بحراسته، وقد ظن أنه تحصل على دليل على قيامه بمراسلات تدبته مع العرب. في أولى لحظات عصبه كان يريد وضعه تحت المحاكمة لكن السيدة بودرياح التي كانت فرنسية راحت تتوسل له فاكتمل بإرساله إلى فرنسا. ويظهر أن بودرياح تمكن من تبرة نفسه في أعين الوزير الذي سمح له بالعودة إلى الجزائر بعد أشهر قليلة ولكن الدوق دوروفيكو الذي كان محتاطاً منه لم يتركه يدخل. فذهب إذن إلى باريس أين كانت تتم استشارته غالباً حول مسائل الجزائر. وقد تبنياً بحكمة ما ستكون عليه نتائج معاهدة الجنرال ديمبشيل مع عبد القادر وتكلم بطريقة مميزة أمام اللجنة الكبرى لأفريقيا. عاد إلى الجزائر قبل وقت قصير من وصول الكولون

ديزلون وكان ذا فائدة كبيرة له. وهو يمارس لحد الآن مهام نائب رئيس البلدية التي تم تكليفه بها في تلك الفترة.

أحمد بن أحمد بن يوسف: من عائلة المرابطين بمليانة أين كان قيا عدا ذلك أقل اعتبارا. تعلق مبكرا بالقضية الفرنسية وقدم بعض الخدمات للمارشال كلوزيل الذي عينه محافظا للبلدية بلقب خليفة والسلطة على قبائل ضواحي تلك المدينة. هذه التنظيم لم ينجح وتم طرد أحمد من البلدية. عاد إلى الجزائر ثم بعدها غادر إلى وهران مع بن عمر. وعند عودته الجنرال بيرتيزين أظهر له الإرتياب ففر إلى مليانة أين قتله الشعب لأنه من أتباع الفرنسيين.

علال وليد بوزيد بن شعاعة: هو ابن بوزيد المختال ببوفاريك سنة 1833 عينه الجنرال فوارول قائدا لبني خليل شهرين بعد وفاة والده. ولكن بعض كبار القبيلة ل يروا فيه سوى طفلا صغيرا ورفضوا الانصياع له. ومنهم موسى بن شايب من الدويرة وعلال بن علال من الدكاكنة. ولم يتم الاعتراف بسلطته لبعض الوقت سوى عند بقاء السيد فيرجي هناك إلى جانبه. ولكن عدم قدرته على السلطة تم إثباتها فيما بعد فتم استبداله واكتفى بلقب شيخ على بن شعاعة.

علال بن علال: قائد سابق للعاشور لبني خليل كان يسكن قرية الدكاكنة. كان رجل ذو شخصية غامضة ومحبة للانتقام ولم تتمكن بالأساليب الطيبة جلدبه نحونا، استأجر مقابل مبلغ زهيد مزرعة حوش شارش أين استقر سنة 1834. بناء معسكر بوفاريك أبعد حيث انسحب إلى جبال بني صالح.

علي بن حمدان: المعروف باسم علي بن الخزناجي كان من عائلة كراغلة الجزائر. عند نزول الفرنسيين كان يحارب بإقدام في صفوف الأتراك والسحب إلى القليعة بعد سقوط هذه المدينة وشارك في كل العمليات الهجومية للعرب. تمكن الرائد جوزيف من ربطه وذهب وإياه إلى المدينة حين تم إرساله في مهمة إلى بن عمر، ولكن علي الذي لم يحصل على الثمن المناسب لخدماته رجع إلى القليعة في 1832 وعاد إلى الجزائر وقدم نفسه للدوق دوروفيكو الذي عامله جيدا. ولكن عند خروجه من هناك تم إلقاء القبض عليه من طرف الشرطة التي كانت تراقبه منذ مدة طويلة، واحتفظ في نفسه بحقد شديد وشارك بعد وقت قصير في عصيان سرغالي بعد قضية بوفاريك. انسحب إلى بني موسى أين كان يملك بيتا جيلا. وفي 1833 جاء مرة ثانية إلى الجزائر وقدم خدماته للجنرال فوارول الذي قبلها وبذلك تم تعيينه قائدا لبني موسى وخدمنا منذ تلك اللحظة بحماس

ووفاء ويشارك معالي كل حملاتنا. عند وصول الكونت دبرلون يبحث أعداءه على إفائه ولكنهم فشلوا. وفي 1835 تم تعيينه قائدا لبني خليل وكان أعوه سباحة مكنه بقيادة بني موسى. كان هذا التغيير لفترة قصيرة لأن علي بن الخرناجي الذي راح يحمل بعض المسائل مع الحجوطيين، تم اغتياله بضعة أيام بعد ذلك. وقبل أن أحد خادمية السابقين اللاجئين لدى الحجوطيين هو من أعطاه الفرية الأولى. علي بن الخرناجي رجل قلب وعقل وقادر على أن يكون أكثر من قائد.

علي بن مبيدي سعادي: هذه الشخصية تنتمي إلى عائلة مرابطي الجزائر وقد انسحب إلى واد الزيتون بعد احتلال هذه المدينة. كان هو من دعا إلى الجهاد سنة 1831 و 1832 قبل هذه الفترة. كتب إلى الجنرال بيرتيزين و بر عن رغبته في التقارب معناه ولكنه وضع لذلك ثمنًا مبالغًا فيه أدى إلى رؤية الرد عليه غير ضروري. كان يطلب شيئًا أقل من الإدارة دون رقابة لكل مسائل المغاربة والعرب مع القصة كمسكن له وموضع للأسلحة. الصحة الذي صد هذه الاقتراحات السخيفة لم يقلل من عزيمته حيث قام بنفس الاقتراحات للدوق دوروفيغو الذي بحث عن كيفية كسبه وجلبه إلى الجزائر دون أن يقبل بها. ورغم كل الوثائق التي أرسلها له لضمان سلامته إلا أنه لم يتمكن من ذلك. وبعد هزيمة العرب بيوفاريك انسحب علي بن سعادي إلى بني مناد.

علي بن عيسى: كان من مشاهير مرابط بغليسة وكان يقوده بحث على كل قبائل القبائل وفي المقام الأول على قبائل الشرق. كان من الأتباع لقسطنطين مبيدي عبد الرحمن مرابط آخر ليس أقل شهرة وذكره ذات تسجيل تيرلندي المسلمين. وكان يسكن جبال جرجرة إذ كان يقوم بالأعمال الصالحة لكثرة وله علاقات متعددة مع عائلة حمدان من الجزائر. كبير العائلة أقام منه خلال زيارته الدبلوماسية التي أخذته إلى قسنطينة في عهد إدارة الدوق دوروفيغو. هذا الجنرال فهم أن بن عيسى كان رجلاً وحب وضعه تحت تصرفه وكتب له في الكثير من الأحيان رسائل غير لينة لم يحصل منها سوى من أجوبة مؤدبة ولكنها مبهمه. هذه المراسلات بلا معنى كانت لمدة قصيرة. ومنذ ذلك الحين أصبحنا دون اتصال مع بن عيسى ولكن علمنا أنه لم يستخدم نفوذه سوى لحلف سلمي. توفي بن عيسى في صيف 1835، كان طامعاً في السن وحافظ حتى النهاية على رباطة جأشه وتفكير نير. وحل محله ابن أخيه الذي يحمل نفس الاسم.

علي بن عودة: كان أحد فرسان الأغا في عهد الأتراك، عائلته كانت تسكن بوعقال منذ ثلاث أجيال. عينه الجنرال فوارول شيخاً لكل المرجة وبعد وقت قصير القائد العربي اختاره كنقيب لديه. هو رجل شجاع ونيه وهو الآن في تعداد أعدائنا.

علي بوشيشة: هو شيخ أولاد شبل أين له الكثير من الأملاك، كان لمدة طويلة عدوا لنا ولكنه الآن يبدووا تقاربه معنا بنية حسنة. هو رجل شاب بمستوى كبير من الخلق والحكمة كان لبعض الوقت قائد لبني خليل في عهد الكونت ديرلون.

علي بن القلاي: مرابط ورجل ذو نفوذ في مليانة. تكلمنا في الكتاب 13 عن الدسائس التي قام بها لإيقاع الشك بين الجنرال فوارول والجنرال ديميشيل. توفي في طريقه من القليعة إلى معسكر في 1834.

علي بن ثيغرو: كان الأمير العام المقرب للداي حسين والذي لم يتبعه إلى منفاه. هو رجل طاعن في السن ثري جدا وجدير بالاحترام، يعيش في هدوء تام ورفض دوما الدخول في المسائل. لديه ولدان وهما مصطفى ومحمد. الأول قليل ما يتكلم عنه أما الثاني فإنه كان يعيش بالنعم الجيدة للجنرال بيرثيزين الذي كان يستخدمه في علاقاته مع الأغا محي الدين الذي كان صديقه المقرب ولكنه أصبح مشكوكا فيه بعد بعض المراسلات الغير بريئة مع العرب ففر إلى شرشال. في سنة 1834 وبعد الاضطرابات التي مست هذه المدينة أجبرته على الابتعاد مع البركاني الذي أبعده المنشقون. سمح له الجنرال فوارول بالعودة إلى الجزائر. قام الكونت ديرلون بتعيينه

مستشارا بالمحكمة العليا، ولكن خيانة الأمانة المرتكبة ضد إبراهيم بن مصطفى باشا أدت إلى إقالته. شبابه كان عاصفا جدا وجاعحا. فقد تلقى القلفة مرتين في عهد الأتراك رغم مقام والده الذي سبب له الكثير من المحزن.

عواد بن عبد القادر: سيدي عواد كان في عهد الأتراك قاضي ملكي بالجزائر، كان رجلا متعلما حازما ومخلصا، وكان يتمتع في كل الإقليم بسعة مستحقة من الحكمة والفضائل. يحكى أنه في أحد الأيام كان لرجل ثري قضية بمحكمته وتقدم إليه برسالة توصية من حسين باشا. وبعد أن فرغ القاضي قام من مجلسه وانسحب إلى بيته وتوقف عن الظهور في المكان الذي يحكم في بعدالة. وعندما سأله الداي لماذا يترك مهامه أجاب بشجاعة بما أن الأمير أراد أن نحكم في القضايا بواسطة التوصيات وليس حسب قانون النبي (صلى الله عليه وسلم) فعمله لم يعد له قيمة.

وبعد احتلال الجزائر انسحب إلى البليدة أين اعترف به السكان كقاضي. وفي سنة 1834 عينه الجنرال فوارول مفتي الجزائر بعد الاضطرابات التي مست المدينة تبعا لقضية ارتداد المسلمة إلى المسيحية، ولقد تكلمنا عن هذه القضية في القسم الأول من هذا الجزء ولقد قلنا لماذا لم يتم تنصيب سيدي عواد في مهامه، توفي بالكوليرا في تلك المدينة سنة 1835.

العربي بن براهيم: قام العربي بخلافة والده شيخ بني صالح وهو لا يزال ولدا. كان رجلا حازما و يعرف جيدا الأعمال، تم تعيينه قائدا لبني خليل من طرف الجنرال بيرتيزين، وإقالته بعد وقت قصير تحت إدارة الأغا محي الدين. في شهر جويلية 1834 تم استدعائه للقيادة ليحل محل وليد بن شعاعة الذي كان قد ضعيف لذلك. بن عمر الذي كان يمارس مؤقتا مهمة مشرف لدى الجنرال المسؤول في أوطنان بني خليل ساهم بقدر كبير في تعيينه. وهذا ما ضمن بتميز كبير مكسبا لقبيلة بني صالح لصفنا وهو ما كان نتيجة طبيعية لهذا التعيين. ولكن نظرا للاستعجال في تعيينه لم يتم إلزامه بالذهاب إلى الجزائر للحصول على شهادة اعتياده. مما أبعد عن قسم أداه بعد الوفاة القانونية للعربي بن موسى ومسعود. ونتج عن هذا التسرع أن العربي ظن نفسه شخصية لا غنى عنها وأنه في كل الظروف يمكنه التصرف على هذا الأساس.

وأول عمل لإدارته هو إبلاغه للفرنسيين أنه سيغدو نحو سوق بوفاريك ليرأسه وأن تواجدهم هناك لا يمكن أن يكون سوى إعلانا للحرب، وبذلك لن يكون بوسعهم سوى العودة للقتال وهذا الإعلان يعتبر أشد وقاحة خاصة بوجود واحد من الفرنسيين إلى جانبه حينها وهو مساعد معسكر أرسله الجنرال المسؤول بأوامر إلى هناك. وفي اليوم الموالي كتب العربي إلى الجنرال بأنه كان مجبرا على اتخاذ هذا الأسلوب لتجنب الأسوأ وإبعاد الفرنسيين الذين صمم العرب على ذبحهم. ولكن كل شيء كان يثبت العكس في هذه الظروف

العربي اقترن بأهواء بعض الأشخاص الذين كانت مصلحتهم إبعادنا عن السوق. ومن عمر لم يكن غريبا عن هذه القضية. وفيما عدا ذلك قال العربي برسائته أنه إذا ما أردنا التردد على سوق بوفاريك وجب علينا أخذ الشرطة وأن ترسل قوات إلى هناك كل اثنين وهو ما لم تفكر أنه ضروري في عهد الكونت دي رولون. وبعد استئناف الحرب بعد فترة وجيزة وقف العربي علانية في صفوف أعدائنا، وتوفي بالقليلة بداء الكوليرا سنة 1835.

العربي بن قايه: العربي شيخ بلدة ولاد بسام بالحشنة، تم تعيينه قائدا لهذا الموطن بعد وفاة المخفي في شهر جويلية 1834 وتم اختياره من الجنرال المسؤول في تجمع عام الذي تمت رئاسته من طرف رئيس مكتب العرب. العربي رجل عاقل وصديق للنظام. أنه دون تعصب ظاهر رغم تعلقه الكبير بدينه والذي يتبع تعاليمه بصرامة.

العربي بن موسى: كان في عهد الأتراك مترجما لخوجة الخيل. تم تعيينه قائدا لبني خليل من طرف الأغا محي الدين. وبعد أحداث شهر أكتوبر 1832 تم اتهامه بالتحريض على الاضطرابات في البلد وتم استقدامه إلى الجزائر بوثيقة لحسن سلامته قدمها له الدوق دوروفيكو ثم تم توقيفه وإعدامه بقطع رأسه. وقد قمنا بإعطاء تفاصيل هذه القضية المؤسفة في القسم الأول من هذا الجزء.

العربي: سيدي العربي رئيس قبيلة تحمل نفس الاسم، وهي من أمرق العائلات العتيقة بإقليم وهران. لم يشارك أبدا في حروب أبناء بلده عبد الفرنسيين. كان يجد نفسه طيعيا بمركزه بعيدا عن مسرح الحروب وكان قليل الاهتمام للاقتراب منه.

وبعد أن اعترف بسلطة عبد القادر، قام بالتآمر ضده تم توقيفه ومحاكمته والحكم عليه بالإعدام. مات بالسجن بداء الكوليرا. كان يملك بيتا جميلا من الحجر محاطا بالخنادق الجميلة على ضفاف الشلف غير بعيد عن مازونة. ترك أربعة أبناء أصغرهم في السن السابعة. وأكبرهم هو سيدي شعبان تم تعيينه قائدا لأولاد سيدي العربي من طرف عبد القادر. حيث كان لا يملك خبرة كبيرة فكان عمه سيدي محمد هو من يسير فعليا أعمال القبيلة.

شافلي: قائد بني شقران في إقليم وهران. هو رجل ذو بسالة كبيرة وبأعراف سهلة وعندما لم يخش أن يتعرض للمخطر أصبح جاهزا ليكون معنًا. وبعد احتلال معسكر ودخول القوات الفرنسية إلى وهران، أعطاه عبد القادر الأمر بالطعاب لتوقيف بعض كراغلة القبلة الذين أرسلوا مفاوضين للهارشال كلوزيل فأذعن، ولكنه أبلغ هؤلاء الرجال خلسة فتسللوا من اللجوء إلى مستغانم.

شاويش قويدر بن رباح: قويدر كان في عهد الأتراك شاويش الأغا. إذ كان يدارس مهامه عند وصول الفرنسيين إلى سيدي فرج. حيث اخترقت بسامته وحته في معركة مطاوالي. وبعد احتلال الجزائر لجأ لدى أولاد بلده المحجوبين الذين رغم عدم اعترافهم به كرئيس لهم، كانوا يضعون ثقة كبيرة فيه واستخدم في العديد من المرات نفوذه ليلزمهم بالسلام. في عام 1831 أقام لقاء مع السيد دولا مورسيار كان حينها رئيس مكتب العرب في 1834. وبعد إبرام السلام مع المحجوبين تم تعيينه قائدا لهذه القبيلة من طرف الجنرال قوارول والذي عوضه بالإضافة لذلك على حشره التي تكبدتها أثناء الحرب والتي لم يشارك فيها شخصيا بنائا. وبعد وقت قصير تزوج فتاة صغيرة وجميلة إذ لسي بين ذراعيها كل شيء. ولم يساهم إهماله لواجباته المترتبة عليه بالقليل في إشعال نار الحرب في عهد الكونت ديرون فانسحب كليا عن الأعمال للعيش خامضا في البليدة، وبما أن عبد القادر انتحل حق الحكم على المحجوبين أعطاهم قائدا آخر.

كان قويدر رجل في سن 65 ولا يزال نشيطا ومحافظا على صحته كما لديه أسلوب مميز جدا.

قويدر بن شعبان: شيخ أولاد قائد في الساحل. هو رجل نزيه يتقدمنا بوفاء. وفي سنة 1834 قام باعتقال وتسليم السلطات الفرنسية عشرين

البحراني. أحد المشايخ الأكثر نفوذاً للأنجاد I'Angad، تمرد على عبد
العزيز بن إسماعيل، وعند قتل هذه الخطورة ساعده
في سنة 1834 مع مصطفى بن إسماعيل، ولكنه أعاد الكرة مرة ثانية فلم توفيقه شغفه بمسكرو.
به القهر وجبه قائدا. ولكنه أعاد الكرة مرة ثانية فلم توفيقه شغفه بمسكرو.
ولكن أزمة القوماري
I'Angad مكانه. ولكن أزمة القوماري
قادا للأنجاد I'Angad مكانه. ولكن أزمة القوماري
طافت البلد مع أبنائها وقامت بالأحضان لهم
بعد حملة معسكر قام هؤلاء الشباب بتجميع بعض الثروة
من الأثنياء، وبعد حملة معسكر قام هؤلاء الشباب بتجميع بعض الثروة
عن المشوار le Méchouar، والتحدوا مع
ضد الأمير ولكن تم هزيمتهم وقت إصابة
مشوا بن إسماعيل ومشوا معه ضد الأمير ولكن تم هزيمتهم وقت إصابة
إصابة قاتلة في المعركة.

مدان بن أمين السكة (المدعو بور كابيب): ينتمي إلى عائلة كانت تظلم
بذمت ربيعة في عهد الأتراك في مجال المالية. أما بالنسبة له كانت له بالجزائر
عزرا صغيرة للأقضية بالجملة، ونظرا لتبذيره للأموال التي تم إيداعها له
أصبحت سمته مشهورة وسحبت منه الفتة. بعدها عاش فقرا كبيرا إلى فترة
الحرور. وتحسن حفظه أنه كان متحالفا مع أحمد بورداج الذي كان في علاقة
خفية مع السيد دو بومون M. de Bourmont والذي بواسطته تحصل على
مهمة الأغا في 8 جويلية 1830، هذا التعصيب قد لاجأ الكثيرين لأن مدان
لم يكن يشتغل بالجزائر بأي اعتبار، ولم يكن حتى معروفا لدى العرب خارج
المطبخ.

كما يقتل أورويسين اثنين بلايوالت la Pointe-Pescade. وفي عام 1835 تعرض لعدة إصابات من جراء هجمات للحيتان.

فروحات بن سميد: يتنمي فروحات إلى عائلة عريقة من إقليم قسطنطينية التي كانت تملك بالتناوب مع عائلة بن غانة مشيخة عروب الصحراء، الكلمة بتعين البايات. كان يشغل هذا المنصب عند وصول الفرنسيين إلى إفريقيا. أقاله أحمد باي المدي كان يجتأط منه عام 1830 ووضع مكانه خاله يوزيس بن غانة، فدخل في عردة كبير. ومنذ ذلك الوقت أصبح يعمل ضد أحمد. وقد قمتنا بالتعريف في الجزء التاريخي للكتاب مفاوضات مع الدوق دورو فيكتور. ومنذ ذلك الحين لم يتوقف عن الكتابة إلى الجبرالات المتناوبة على إفريقيا لتسريع سيرتهم على قسطنطينية. وكان تارة لا يفكر سوى بشد انتباههم لسهولة العملية وكان يتكلم بلسان كل القبائل أنها مستقوم وتحشي مع الفرنسيين للإطاحة بأحمد باي، وتارة ينسى كل ما قاله ويقول في هذا الجانب أنه يضمن فقط إخلاصه الشخصي ويقول أن صداقته مع الفرنسيين كانت تجلب له كراهية كل العرب. كان فروحات يعيش في هذه الأثناء نواحي أو لاد جلال بلدة مهمة من مدينة البليدة الواقعة على ضفاف واد جدي. أغلب القبائل التي يستقيها هذا النهر يعترفون بسلاطنته التي تمتد شيئا لا حتى قبائل محاطي بثلاثة أيام سيراً من أو لاد جلال.

أثناء ممارسته لمهامه أظهر حمدان بشاعته ككل من يعبر فجأة من وضعية مزرية إلى صف مرموق، وأتهم بأنه باع الكثير من خدماته لمن كانوا يخلصونه. وقد ذكرنا في القسم التاريخي كيف غادر وظيفته وكان مجبرا على الابتعاد من الجزائر التي عاد إليها مرة ثانية تحت إدارة الدوق دوروفيكو الذي طرده منها ثانية، فذهب إلى باريس أين تم استقباله حسن استقبال، وقدم للوزير مذكرة طويلة عن كل الخسائر التي تكبدتها في ظل خدماته للفرنسيين، ولكن تحقيقا بالجزائر كشف أنه ليس لديه ما يطالب به وأن كل ما يدين به لهم تم دفعه.

عاد حمدان إلى الجزائر في عهد تنصيب الكونت ديرون كمحافظ عام وأراد أن يوقع هذا الجنرال في الخطأ باستخدام الحبل الأكثر قساة، والآن دخل في غموض تام وتزوج من امرأة فرنسية.

حمدان بن عثمان خوجة: هو رجل ذا تفكير متقدم وأكثر ثقافة مما هم المغاربة عليه كان مقداما دائما في خدمة حسين باشا وكان يحمل كرها شديدا للفرنسيين أكثر من أي شخص آخر والذي يجب الاعتراف بالمعجز أمامه. وكان ابنه الذي ترعرع بباريس والذي لا تنفصه الجدارة، يتقاسم مع والده كل تلك الأحاسيس بحيث أن هذه العائلة التي كان من المفروض أن يعرض الثقافة قد تمكنها من التقارب معنا بل على العكس فهي تقف جانباً وتعرف القليل عن مصلحتها للاستياء من وضعية أمور هي فقط من يمكنها أن تحقق له مركزا ما. إنه لمن

صحيح أن المركز الذي كانت تقلده في عهد الأتراك كان أكثر رقاما وأن سارته لم تكن غلة حسرة كبيرة. لقد تكلمنا عن المفاوضات التي تم استخدام حمدان فيها في عهد الدوق دوروفيكو. وفي هذه الأثناء هو متواجد بباريس لمنابعة محاكمة. وهو بالإضافة لتلك الأعداء المقربين لباي قسنطينة. لقد أصدر كتابا ضد الإدارة بالجزائر لأن الخدم الكثير من المبالغة وسوء النية ولكن للأسف توجد فيه أكثر من حقيقة تبيها.

حمود: كان في عهد الأتراك شيخ مشايخ بني خليل، خلف أباه في هذا المنصب في سن السابعة. هو رجل لطيف ومصلح والذي بواسطة طباعه وحاجته للنظام تعلق بسهولة بسلطنته، تم تعيينه قائدا لبني خليل بعد الموت البائس للعربي بن موسى، ولكنه تخلص من المنصب بعد بعض الإزعاج الذي وجهه له التقدم ميراث Merat الذي كان عمدة كبيرا في الجيش. هذا الضابط السامي أراد توقيفه لفضيحة اغتيال يهودي التي تمت على أراضيه رغم أنه اقتاد بنفسه إلى الجزائر أولئك الذين كان يظهر على أنهم مرتكبوا الجريمة.

في شهر جوان 1834 تم تعيين حمود شيخ الحمايد ورغم أن مهامه كانت أقل من التي مارسها إلا أنه قبل بها. وبعد وفاة علي بن الخزناجي تم تعيينه قائدا لبني خليل للمرة الثانية. تصرف معنا دائما بطريقة صريحة ومخلصة، حيث كان يسكن قرية قرواوا الجميلة.

الحضناوي: هو شيخ الخناثة قبيلة قوية بإقليم قسنطينة وتقع على الحدود التونسية. هذه القبيلة مقسمة إلى طائفتين طائفة الحضناوي، وهو عدو أحمد وطائفة عمه التابع لأحمد باي. بعد احتلال عنابة من طرف الفرنسيين عام 1832، قام بمهاجرة الفرق التابعة لمحمد بن عيسى البركاني أحد جنرالات أحمد بمجرد إخلائه لهذه المدينة وحصل على بعض التفوق عليها. منذ تلك الفترة كتب لنا كثيرا من أجل تشجيعنا على حملة على قسنطينة.

إبراهيم باي: كان الباي لسابق لقسنطينة، تمت إقالته عام 1822 من طرف حسين باشا انسحب إلى المدينة مكث هناك إلى غاية عام 1830. كان يعيش بهدوء في كنف عائلته عندما أقمعه مصطفى بن مرزاق باي التيطري مرة جديدة في الساحة السياسية، ولسوء حظ هذا الباي الذي أخذ القرار المجنون برفع راية الثورة على الفرنسيين، وتلقيب نفسه باشا أن قام براسلة باي قسنطينة ليعترف بسلطته عليه، لكن أحمد لم يتركه يصل إليه إذ أعلن أنه لا يعترف أبدا بزميله كحاكم عليه، وأخذ هو كذلك لقب باشا فعاد إبراهيم إلى المدينة دون النجاح في المهمة. هذا الدخول في الأعمال أيقظ فيه طموحا كان قائما منذ ثمان سنوات في قرار نفسه، إذ أراد العمل لحسابه الخاص وجمع أتباعا حوله والذي لم يتأخر مصطفى في تزعيمهم له كرماء منه. وبما أنه خاف من ثار رجل قام بجرحه انسحب

إلى الصحراء بالقرب من فرحات بن سعيد وشارك في حرب هذا الأخير ضد أحمد باي. بعد الانهزام الأول لفرحات انسحب إلى تونس. وكان ذلك في العهد الذي كان فيه هذا البلد في مفاوضات مع الجنرال كلوزيل للسيطرة على إقليم قسنطينة. هذه الظروف جعلت من هذا الرجل مرحبا به نظرا لتمكته من إعطاء معلومات قيمة عن بلد قام بإدارته. ولكن الحكومة الفرنسية لم ترى من الملائم الموافقة على ترتيبات الجنرال كلوزيل مع تونس فأصبح إبراهيم يعتبر كشخص غير مفيد ومزعج. وفي عام 1831 ذهب إلى عنابة بجانب العقيد هودر Houder. استغل ثقته العمياء ليتبرع منه قلعة المدينة مثلما رويناه بالتفصيل في القسم التاريخي. وبعد الاحتلال الثالث والنام لعنابة من طرف الفرنسيين انسحب إلى Bizerte أين خرج مع أتباعه تحت أسوار عنابة، ليتلقى ضربات من الجنرال مونك دوزير Monck d'Uzer. بعد هذه المغامرة قرأ إلى المدينة أين التقى بعائلته. كره أحمد باي فلاحقه إلى هناك إذ وجدته مقتولا في منزله عام 1833. حيث لجأت عائلته إلى الجزائر وترك ابنين اثنين انضموا لخدمتنا.

إبراهيم بوسنيك: إبراهيم بوسنيك الذي عرف منذ وقت طويل عندنا بصفة القائد إبراهيم. وهو تركي من سالونيك الذي كان مثل الكثيرين الذين جاؤوا بحثا عن الثروة بالجزائر. وقد تألق في ظروف

مدينة ووصل إلى رتب عالية في الميليشيات التركية. بعد مغادرة الباي حسن لوهراين أين كان يعمل تحت أوامره، أخذ مهمة لدى خليفة أمير تونس الذي حسب ترتيبات الجنرال كلوزيل كان من المقروض أن يعمل معه. اعترفت بعض الأجزاء من الإقليم بسلطة هذا الأمير وتم استقبال رايته وتنصيبها بمستغانم تحت تأثير من القاضي الحاج محمد الذي كان يدعمه. ولكن هذا القاضي ما تم اغتياله من طرف الحزب المعارض وأوشكت مدينة مستغانم على التخلي عن قضية الباي الجديد. فتم إرسال القائد إبراهيم مع مائتين من أتراك وهران وتمكن من إيقاف الاضطرابات التي هزت المدينة. وبعد وقت قصير، تلقى اعتراض الوزارة على الترتيبات مع تونس وأن يملك وهران سيتم تسييره مباشرة من طرف السلطة الفرنسية، وبهذا أصبح إبراهيم مع الأتراك تحت خدمة فرنسا. استخدم حماسا ونشاطا كبيرا في قيادة مستغانم وانتصر في عدة معارك ضد العرب مكنته من العيش بهدوء.

وبعد احتلال القوات الفرنسية لمستغانم عام 1833 انسحب إلى وهران بمئة 6.000 فرنك حيث بقي هناك حتى وصول الكونت فيرلون *notre d* إلى إفريقيا، فانتقل إلى الجزائر وتم تقديمه إلى المحافظ الذي كن له الكثير من الاحترام بعد قضية المقطع *Mocta* أرسله المحافظ إلى وهران أين اعترف به الدواير والزماملة رئيسا عليهم وحصل أشهر بعد ذلك على تكريم بوسام الشرف. وبعد مسيرة الجيش

بم مسكر اعلنه المارشال كلوزيل والدوق دورليون *d'Orléans* بالملك للمدينة أين تم التخلي بسرعة عن فكرة تنصيبه، فاكفى بكونه بايا على مستغانم أين كان تعيينه هناك سهلا. لم يؤدي إبراهيم في الأونة الأخيرة ما كان أسلافه يأملون منه.

إبراهيم بن مصطفى باشا: إبراهيم ابن مصطفى باشا هو الفرد الأكثر نقاعة وغير مؤذي بتاتا في كل الوصاية. يقطن بالجزائر حيث كان يتمتع برعاية كبيرة. ثم تكريمه بوسام شرف دون سبب أو حجة في رحلة قام بها إلى باريس عام 1832 وفيها عدا ذلك هو رجل نزيه.

إسماعيل بن قاضي: أحد مشايخ الدواير في إقليم وهران وكان اعتقاله من طرف عبد القادر أحد أسباب حرب 1835. هو رجل مقدم جدا ولكن قليل الاعتبار في قومه.

خضر بن طائب: شيخ عريب حمزة. كتب في الكثير من الأحيان للجنرال المسؤول لتأكيد نواياه الوعدة. وعندما تم غزو حمزة من طرف أولاد معادي انسحب إلى مرجانة أين قام أحد باي بالخطافة نظرا لشككه فيه وبقي مدة طويلة تحت قبضته.

لعقال ولد دواج: قائد مازونة كان في القديم مشهورا بقوته بساكنة.
يسمى إلى عائلة لمثل تلك كنوزا كثيرة حسب ما يقال وكثير من الحكايات
الشعبية تحكى في هذا الموضوع.

محمد بن عيسى البركاني: البركاني يسمى إلى عائلة عريقة وقوية جدا
من بني مناصر أين كانت وظيفة الشيخ متوارثة. وبعد احتلال الجزائر
اعترفت به مدينة شرشال قائدا لها وهو شرف اعترف به الجنرال كلوزيل
كذلك. وطوال مدة حكمه بحث عن الدخول في علاقة ودية وتجارية
معنا. ومع هذا لم يكن غريبا عن تمرد 1832 بها أنه ظهر أن بسكويتا تم
إرساله من شرشال إلى معسكر المتمردين بسوق علي. في سنة 1834
قام بتحديد رسم على السفن المحملة الخارجة من ميناء شرشال، نظرا
لحاجيات إدارية مما أدى بأعدائه إلى إيجاد حجة لطرده من المدينة. وقد
لنا بسرد تفاصيل هذه الثورة الصغيرة في الجزء التاريخي. بعد طرده
من شرشال انسحب إلى بني مناصر. وعندما سار عبد القادر لمواجهة
موسى الشراكاوي ذهب ليقدم له دعمه والذي قدره أحسن تقدير. كان
في معركة عمورة ولاحق موسى حتى البرواقية. وعينه عبد القادر باي
لللمبية. يوجد شخص آخر يدعى بن عيسى البركاني وهو جنرال باي
لمسبية.

محمد بوزيد: هو شيخ أحد القرى في نواحي فرنندة ومشهور في كل
الصحراء بقدرات نراها تقريبا خارقة للطاقة البشرية. وباعتراف كل العرب
أنه إذا ما كان السلاح بيده فإنه الرجل الأكثر خطورة في كل البلد. وبعد قتل
والده من طرف قبيلة مجاورة أقسم على قتل أكبر قدر ممكن من أفراد هذه
القبيلة من يصادف طريقه. وأوفى بقسمه حيث قتل حسب ما يقال أربعين
رجلا بيده. أوقفه عبد القادر في رحلة له إلى معسكر ولم يسمح له بمغادرة
القبيلة حتى يتحصل على وعد منه بالحد من انتقامه. محمد بوزيد يشبه في كل
شيء شمشون Samson⁽¹⁾ لدى العبريين وهو شغوف بالنساء. في أحد
الأيام كان مسافرا مع عشيقته له كان قد اختطفها ووقع بين سبعة رجال
من أعدائه، قتل ثلاثة منهم وفر الباقون. وبينما كان بمعسكر رأى عند أحد
الغسائط الفرنسيين لوحة جميلة لامرأة حيث أعجبت حتى أنه قال: "إذا
أردت أن تجلب المرأة الأصلية لهذه اللوحة وتضعها جانيا وأنا أضع زوجاتي
الثلاث وكل ما أملك من جانب آخر وتتخاصم والغائر يأخذ كل شيء".

محمد بن إسماعيل المزارى: المزارى أصبح مشهورا في الوقت الذي أكتب
فيه فهو أول عربي نخل عن عبد القادر في المقاومة الأخيرة. كان لا يزال معه
في معركة الغيرة أين أصيب. هو ابن أخ مصطفى بن إسماعيل الذي تقاسم
معه الثورة ضد الأمير عام 1834. ساعده عبد القادر وأراد كذلك كسبه

(1) شمشون بن منوح هو بطل شعبي من إسرائيل كان يشتهر بقوة هائلة أرسل
الغوليم الإسرائيليون حسب الرواية بالتوراة.

الجزء الثاني، 9.

إلى جانبه بتعيينه آغا. كان يبدو على المزارعي الإخلاص له إلى درجة أنه سنة 1835 اعتقل ابن أخيه إسماعيل بن قاضي الذي عارض أوامر عبد القادر فيها يخص إبعاد الدواير والزمالة عن وهران. وهي من أسباب استئناف القتال بين الفرنسيين والأمير، بعد قضية المقطع توقف المزارعي عن كونه آغا وتم تعيينه قائدا للقلية. وبعد احتلال معسكر أظهر عبد القادر حيلة من أدت إلى انشقاقه. فذهب إلى مستغانم ثم إلى وهران أين استقبله المارشال كلوزيل بحفاوة والذي كان يتأهب للسير نحو تلمسان. قام معهم بالحملة على تلمسان وتصرف بإقدام وكرجل عارف للحرب. هو الآن مع عمه مصطفى بوهران.

محمد البغدادي: هو رئيس قبيلة الألفاف حليف عبد القادر الذي تزوج أخوه من بنته عام 1834، كتب للجنترال المسؤول لينصح به بتعيين آغا تكون له كل السلطة في الخارج، وبما أننا لوم نتمكن أو لم نرد القيام بذلك بأنفسنا، قام بالإشارة إلى نفسه بكلمات واضحة كالوحيد القادر على شغل هذه المهام. تم تدبير هذه الخطوة بينه وبين عبد القادر الذي سيسهل من تحقيق مشاريعه الطموحة أن يكون له بمقاطعة الجزائر آغا متفاني له.

محمد بن محمد: شيخ الأمال في أوطان الخشنة. هو رجل عمل دوما على

الجزء الثاني، 9.

جعل الطرق أكثر أمانا على أراضيه، وأعطى نشاطا للعلاقات التجارية لقبيلته. ومع هذا تم اتهامه عام 1835 بالكتابة إلى العمراوة من أجل دفعهم إلى مهاجمة الحامية الفرنسية في البيت المربع. ونظرا لعدم إمكانية إثبات ذلك الفعل فقد تمت تبرئته بأغلبية أصوات مجلس الحرب.

محمد المخفي: كان من عائلة المرابطين تم تعيينه قائدا للخشنة من طرف الجنرال بيرتيزين وقمنا بالتطرق للدور الذي لعبه في المغامرة المؤسفة لمسعود والعربي بن موسى في عهد الدوق دوروفيقو. في عهد الجنرال فوارول تمت إقالته تبعا لشكاوى رفعت ضده ولكنه سرعان ما عاد إلى وظيفته. توفي سنة 1834 بمرض النقرس.

محمد محي الدين بن مبارك: سيدي محمد كان مرابط القليعة وكان اسمه مبعثا في كل الوصاية. كان يعيش في حالة دائمة من التأمل الزاهد ويصرف مداخيل ثروته الكبيرة على أعمال الخير وكان فيما عدا ذلك بعيدا عن التعصب. كل المسيحيين الذين كانت لهم علاقة به يتنون عليه. لم يخرج من قمه سوى كلمات السلم والائتلاف. ولكن الدوق دوروفيقو قام بتوقيفه أثناء التمرد الكبير لسوق علي وبقي محتجزا لمدة عامين تقريبا بالقصبة بالجزائر. وبعد تعميم السلام مع المحجوبين عام 1834 حرره الجنرال فوارول. هذا الجنرال كان

الجزء الثاني، 9.

يرغب باستخدام سيدي محمد كأحسن وسيلة لتعزيز نظام الاندماج والنهضة التي كان يتبناها وكانت مساعدته قيمة جدا. ورغم كبر سنه لم يتوان عن التنقل إلى كل مكان كان ضروريا تواجده فيه لاستقبال الهدوء والنظام. كان الكونت ديرلون الذي خلف الجنرال فوارول يقدره كثيرا، ولكن سياسته الحاطة التي التزم بها أدت إلى إعادة إشعال فتيل الحرب في إقليم الجزائر، وأصبح سيدي محمد يظهر مشتبها به نظرا لاستمرار علاقته بالحجوة الذين كانت علاقة طبيعية للصداقة والمجاورة. حتى أنه تم توقيف ابن أخيه بالجزائر من طرف الضابط الفرنسي الذي رأى الكونت ديرلون أنه يستحق لقب آغا. هذا الشاب سرعان ما تم إطلاق سراحه ولكن الكثير من الحوادث الأخرى جعلت سيدي محمد يستتبع أن مركزه لدى السلطات الفرنسية لم تعد نفسها كما في عهد الجنرال فوارول. فخشي أن يتم اعتقاله بالقلعة كما حدث في عهد الدوق دوروفينو فقرر الابتعاد عن المدينة. كان يود الوصول إلى بوعلوان Boualouan أين كانت له ملكية هناك. ولكنه قام بالسفر في جو رديء ومات في الطريق من التعب والوهن حيث كان سنه يناهز 70 سنة. أولئك الذين أمرعوا من وفاة هذا الرجل الطيب يمكنهم أن يتفاجؤوا بتقديمهم لأسوأ خدمة يمكنهم تقديمها للمستوطنة.

كان لسيد محمد ابن عم يدهى سيدي علال الذي توفي قبله بوقت قصير وكان يتمتع كذلك بسمعة معتبرة ولكن على العكس لم يكن يستحقها.

الجزء الثاني، 9.

محمد بن زمون: الشهير بن زمون والذي كثيرا ما تم تداول اسمه في السنوات الأولى للاحتلال، كان في عهد الأتراك أحد الضباط الأكثر نفوذا للآغا والذي كلفه في العديد من المرات بمهام جد مهمة. كان يقود القوات المسلحة لقبيلة القليسة القوية في معركة سطاوالي. وبعد سقوط الجزائر انسحب للعيش في هذه القبيلة واستقر بمزرعة شنيشة التي كان يملكها. لقد قمنا بالتنسيق في الجزء الأول إلى مفاوضاته مع السيد بورمونت M. de Bourmont والنصائح التي قدمها له، والتي للأسف لم يتم إتباعها. بعد أن أجبر بن زمون على التخلي عن دور الوسيط الذي أراد لعبه بيننا وبين العرب، أعلن نفسه عدوا لدودا لنا. وهو من هاجم الحامية الفرنسية بالبليدة في 1830 وكان على رأس تمرد في 1831 و1832. وسخط على الطريقة الباهتة التي تصرف بها العرب في مسألة بوفاريك، فأقسم على عدم إقحام نفسه مرة ثانية في مسائلهم ومنذ ذلك الوقت أصبح يعيش بسلام في مزرعته.

مصطفى بومرزاق: كان من أتراك آسيا الصغرى الذي بلغ شرف باي النيطري في عهد حسين باشا. وقد قمنا بذكر كيف أجبر على الانسحاب للجنرال كلوزيل بعد سقوط المدينة والذي أرسله إلى فرنسا، وبعد بضعة أيام من الإقامة في هذا البلد حصل على ترخيص بالذهاب إلى زمير أين يتواجد بالتأكيد لحد الآن.

شارك ابنه الذي بقي بالوصاية بنشاط في تمرد 1831 وتمكن بذلك من فرض سلطته بمدينة المدينة ولكنه سرعان ما تم طرده منها بسبب تصرفاته السيئة والقاهرة. وترك هناك أمه وأخواته اللواتي رفضن اللحاق به. أصبح هالما لا يعلم ما يفعل فالتزم إلى حزب أحمد باي ومدح كثيرا في إحدى شقيقاته لأحمد حتى أرسلها زوجة له ووعد بها ابن بومرزاق فأرسل أحمد 50 من فرسانه إلى المدينة لإحضارها ولكن سكان المدينة لم يتركوها ترحل، لأن أمها قد عارضت هذا الزواج. وأصبح يعيش وليد بومرزاق منذ ذلك الحين حياة مغامرة ويظهر تفردا مع بعض القرمسان في سهل حمزة ولكنه دون أي نفوذ ولم يعد يرى به أحد سوى ملحقا غير نافع.

الحاج عي الدين الصغير بن مبارك: عي الدين من عائلة مرايطي القليعة قام الجنرال بيريزان بتعيينه آغا للعرب، وقد تم التطرق لكل أعماله السياسية في الجزء التاريخي من الكتاب. وبعد مشكلة بوقاريك التحب إلى بني ماديان كان يتمتع باعتراف كبير، وعند سير عيد القادر ضد موسى الدركاوي تعلق به حبه باليانية. وبعد اشتعال الحرب بين الأمير بحث على تحريض أعدائنا في كل إقليم الجزائر، وقاد الحجوطيين وكل القبائل الأخرى لأوضاع السيئة في قضية العفرون في 18 أكتوبر 1835. كانت له علاقة غرامية بالجزائر أين كان يأتي في أغلب الأحيان دون أن تشكل الشرطة في ذلك.

مسعود بن عبد الواحد: كان في عهد الأتراك فارسا للأغا وبعد سقوط الجزائر أصبح قائدا للبيت d'El-Sebt وقد قاسم مصير العربي بن موسى في عهد الدوق دوروفيغو.

الحاج مسعود بن زكري: هذا العربي ينتمي إلى عائلة عريقة من إقليم تلمسان ورغم ذلك كان أبوه يمارس مهام متواضعة كساعي مكتب الباي. أما بالنسبة له فقد كان في الريف منذ طفولته وكان تقريبا غير معروف حتى بدأت شكوك أحمد باي، أو بالأحرى شرطته تخوم حوله بسبب غير واضح عن مكيدة ما. وخفاقة توقيفه لجأ إلى زموري. وخلال تواجد في تلك المدينة دخل في علاقة مع وليد أورماح ويومنة من بحاية Boucetta de Bougie. هذان الرجلان اللذان كانا في مراسلات دائمة مع الجنرال فوارول قاموا بتفويضه له على أنه شخصية بارزة يمكن الاستفادة من خدماتها وبذلك تم السماح له بالسماح إلى الجزائر أين منح له المحافظ منحة سنوية بـ 6.000 فرنك. وعدم جدوى من زكري لم تتأخر عن الظهور ولكن لعدم العودة الفعالية عما تم فعله وأصل الخصوك على مرتبه الذي تخفيض قليلا سنة 1834 وبعد وقت قصير من وصوله إلى الجزائر تم وضعه في برج البحري لحراسة هذه النقطة مع بعض القرمسان التي كانت الحكومة تدفع لهم أكثر مما تستحق خدماتهم. ثم أُلغيت هؤلاء.

الفرسان في 16 جوان 1834 وبعد اجتماع العريب برأسوطة تم تعيين بن زكري قائدا لهذه القبيلة أين يتواجد لحد الآن.

مصطفى بن شرقي: كان في عهد الأتراك فارسا للأغا ونظرا لشاجرة مع أحد رؤسائه انتقل لخدمة باي وهران ثم باي قسنطينة. عاد بعدها إلى موطنه بالبلدية أين كان هناك عند سقوط مدينة الجزائر. عينه الدوق دوروفيفو حاكما للبلدية في 12 نوفمبر 1832 وتم استبداله في إدارة الكونت ديرلون بعبد القادر بن غريبي. مصطفى بن شرقي رجل ذا طباع سهلة و ذاروح متواضعة.

مصطفى بودرياح: وكيل مكة والمدينة أين يقوم بأشغاله أحسن من الشركة. كان أحد التجار بمرسيليا حيث يتكلم القليل من الفرنسية، هو سهل المراس وجد متدلل.

مصطفى بن إسماعيل: هو رجل مسن في الخامسة والسبعين كان دائما في مركز مرموق، تعود على قيادة أعلى الدرجات. كان آغا لدى باي وهران. وعندما قمنا باحتلال هذه المدينة سنة 1830 قدمنا عروضا له إذ قام برفضها، وبذلك ظهر أنه تصرف هكذا بسبب كرهه للمسيحيين أقل من

رغبته في خلق مركز مستقل له. لأنه رفض كذلك عرض سلطان المغرب الذي كان في تلك الفترة طامعا في إقليم وهران. مولاي علي جنرال هذا الأمير قبض عليه ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تحصلت فرنسا من سلطان المغرب على وعد بعدم تدخله في شؤون الوصاية. بعدها أصبح مصطفى يقوم بالحرب تارة لحسابه الخاص وتارة مع عبد القادر. وقد كان يصعب عليه رؤية هذا القائد الشاب ولكنه لم يتجرأ على رفع السلاح في وجهه بخافة تخلي أهله عنه لأنهم سيرونه مسلما سيئا. بعد الهدنة التي تم عقدها بين الجنرال ديميشيل وعبد القادر، فكر في أن الظروف قد تغيرت فتمرد ضد الأمير، وتم هزيمه بعد بعض المحاولات الفاشلة، فانسحب إلى جانب الأتراك وكراغلة المشوار بتلمسان أين كان محجوزا هناك إلى غاية وصول الفرنسيين لتلك المدينة سنة 1836. مصطفى الذي لم يرد أن يكون بابا على تلمسان عاد إلى وهران مع الجيش. إنه رجل ذو رسالة مميزة وحبوية كبيرة والعقل. وتكلم الماريشال كلوزيل عن مواهبه في الحرب وهذا هو أكبر ثناء يمكننا تقديمه له.

مصطفى بن الكيابتي: في بداية الاحتلال كان قاضي مالكي بالجزائر ثم عينه الجنرال بيرتيان مفتي، وهو رجل عادل متفتح وذو سمات طيبة ولكنه غير متحضر للعلاقة معنا وفيما عدا ذلك فإنه يتصرف بتعقل كبير.

الجزء الثاني، 9.

مصطفى بن عمر: بن عمر هو أحد مغاربة الجزائر الذي عاش مطولا بايطاليا أين كان يقوم بالتجارة. كان بالجزائر عندما قمنا بحصارها وكان من أول المعترفين بأن المقاومة كانت مستحيلة. وبمجرد احتلال المدينة بحث عن إنشاء مركز له لدى المنتصر فتم تعيينه في البداية عضوا في مجلس البلدية ثم بايا للتيطري من طرف الجنرال كلوزيل. ونعرف تفاصيل إقامته بالمدينة وكيف عاد من هناك. وبعد عودته من المدينة أرسله الجنرال بيرتيزان إلى وهران ولكن الجنرال بوير Boyer لم يرد استخدامه. وفي عهد الدوق دوروفيكو ذهب إلى باريس ورجع بمنحة 6.000 فرنك وتقليد وسام شرف. وفي عهد الجنرال فوارول تم استعماله في عدة مهمات ولم يتوقف عن مضايقة النظام المفروض من هذا الجنرال حتى انتهى بإبعاده عن الأعمال. بحث عن العودة في عهد الكونت ديرلون ولكن دون فائدة. عينه الماريشال كلوزيل في نهاية سنة 1835 بايا على مليانة وشرشال. وعند محاولة إرساله إلى تلك المدينة بدأ بالصراخ أنهم يرسلونه إلى الموت. فاستقال حينها سفينة بخارية وتقدم نحو شرشال ولكن نظرا لسوء الأحوال الجوية وعدم استعداد البلدة لاستقباله عاد إلى الجزائر لانتظار تحسن الظروف التي تسمح بتوجهه نحو بايليك beylik.

الجزء الثاني، 9.

كان بن عمر رجل مؤدب وطباعه جد مميزة ، ليس له نفوذ لدى العرب
الذين لا يبدون له أي اعتبار. وحين كان بالمدينة رفعت عدة شكاوى ضده
فأرسل الجنرال كلوزيل إليه جوزيف مملوك Josephh Mameluk
الذي وقعت بينهما عدة متاعب وتبادل الرجلان التهم بمحاولة كل
واحد اغتيال الآخر.

مصطفى بن مكلح: ابن أحد البايات السابقين لوهراان. وضعه الجنرال
كلوزيل على رأس بيلك خيالي بتلمسان.

سعد وليد أورباح: شيخ أولاد عبد الجبار تبعد يوم مسير عن بجاية.
كان يريد أن يكون حامي التجارة القرطبية ببجاية ولكنه كان يتمنى أن
لا تكون هذه المدينة محتلة. وبعد إيداعه استعدادا بالنسبة لنا أصبح في
أقرب الأوقات عدوا فور وصول قواتنا إلى بجاية وقد تفرقت في القسم
التاريخي المفاوضات السخيفة والتعبية مع السيد لوازي M. Lowazy.
مات وليد أورباح بعد تلك الخدعة.

المناهج المختلفة لغزو واستيطان الشعوب الأكثر شهرة قديمة كانت أو حديثة.

قد لا يكون من دون الفائدة للقارئ أن يلقي نظرة سريعة على هذه
الثورات، سواء كانت فورية أو تدريجية، والتي جعلت الشعوب تحتك ببعضها
لبعض وغيّرت بطريقة عنيفة أو سلمية وجودهم المشترك و جلبت تركيبات
جديدة للمجتمع البشري . و لهذا نقترح في هذا المقال طرح المناهج المختلفة
للتفوحات و الاستيطان. هذا التحليل سيكون سريعاً و سهلاً لأننا سنقتصر
من الحقائق العسكرية التي سنلخصها بهذه الكلمات الوحيدة: استخدام القوة،
و كنا الحقائق الدبلوماسية التي تقلصت فقط في استخدام المكر. و نعتبر أن
البدا الشامل في تصادم شعبين مبدأ موجود مسبقاً لدى القوضى التي تحكمهم،
و دون معرفة حتى الذين يشاركون في النضال لأنه حسب الحكمة اللاتينية فإن
العقل هو الذي يحث المادة *Mens agitât molem*. في هذا القرن الذي
تطور فيه التفكير كثيراً، لا يجب تحساراً دروس الماضي من أجل المستقبل. فبعد
دراسة واعية لكيفية نجاح بعض المستعمرات و كيفية خسارة أخرى، فإننا ربما
سنستفيد بأكثر سهولة مما يجب فعله في إفريقيا و ما يجب تجنبه.

فتوحات زمن البطولات.

تراث الشعوب القديمة حافظ على ذكرى أبطال مشرعين اعترفت بهم الآلهة، الذين كانوا يحويون الأرض سوى للقضاء على اللصوصية ونشر نظام القانون وعل هذا النحو كان باخوس وهرقل. وإن كان هذا التراث حقيقة أم خيال، فإنه يدل على أنه في تفكير تلك الشعوب فإن الفتوحات النافعة هي الوحيدة التي كانت تحظى بإعجاب البشر. وربما متأثرين بالنظام الذي تشره أولئك المشرعون الأوائل، وسرعان ما قام رؤساء تلك الشعوب باستبدال لصوصية "فرد لفرد" بلصوصية "أمة لأمة". ومن هنا جاءت فتوحات الآشوريين والبابليين، وفيما بعد الفرس. لقد كان الهدف منها هو وضع مناطق شاسعة تحت سلطة قانون استبدادي، خاضع لحكم رجل واحد.

مستعمرات المصريين.

بينما كان الآشوريون يمتاحون آسيا، كان هناك شعب لا علاقة له بالغزو يعاني بعض أحيانا، ويعيش في ازدهار على ضفاف نهر النيل، مستمتعا بالفنون والصناعة، ثم سرعان ما صار شيئا بخلفية تعج بالنحل. وجب أن يرسلها أصرابا إلى الخارج، لقد استقبلت اليونان بعض المستوطنين منهم، لأن تلك المنطقة كانت مأهولة بشعب لا يزال همجيا ومضللا. ثم اندمج المصريون بهم وقاموا بتعليمهم وأصبح العرقان لا يمثلان سوى عرقا واحدا فقط. فكان أن

وبه من هذا الاتحاد الحميم أولئك الاغريقيون الشجعان و البارعون الذين سيطروا دائما في أعلى مراتب الذكاء والمجد الحقيقي.

المستعمرات الفينيقية.

على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، غير بعيد عن الأماكن التي شهدت ولادة المسيح ووفاته، كان يتطور شعب بفضل التجارة والصناعة، ولا يزال من مصلحة غزاته الحفاظ على الازدهار. وهنا ظهرت صور العاصمة الفاخرة للأمة الفينيقية التي لها مستعمراتها، ومن أشهرها: قادس وقرطاج. مؤسسو قرطاج اشتروا من السكان المحليين الأرض التي بنوا عليها مدينتهم، ولكنهم أعملوا الالتحام معهم والمزج بين قوة دم التجار القدامى لصور، والدم الذي كان ما يزال بافعا. ولم يكونوا بالنسبة لأفريقيا سوى مضيقيين غير مرغوب فيهم، وكانت تحملهم الأرض بأسى. نشاطهم الجبار وبراعتهم في التجارة أحرزت للقرطاجيين مكاسب هائلة، ما مكنتهم من الحصول على العديد من فرق المرتزقة الجيدة التي سمحت لهم بتوسيع هيمنتهم، ولكنهم لم يرسوا جذورهم في تلك الأرض. وفي وقت لاحق تخلت عنهم فرق المرتزقة، وفي الأخير، استسلمت للاندثار، لأن الشعب الذي لم يمارس سوى التجارة سيتوقف حتما على أن يكون شعبا، أجلا أم عاجلا. اليونان كذلك عسرت حريتها على يد الرومان، ولكن كان ذلك كل ما خسرته. واستمرت في العيش

الجزء الثاني، 10.

كأمة. وفيما بعد، عاد الى الظهور تواجد الشعب اليوناني على المستوى السياسي مع إمبراطورية المشرق المسحوقة خلال بعضة قرون تحت ثقل فتوحات جديدة، أكثر دمارا وأثقل من الأولى، و لكنهم عاودوا النهوض في أيامنا هذه وأخذوا مكانا بين الأمم الحديثة، فكم كان قويا ومفعما بالحياة ذلك العرق المارح بين المستوطنين المصريين والأبناء البدائيين لليونان!

المستعمرات اليونانية.

لم يعرف اليونانيون، لسوء حظهم، حياة الوحدة إلا نادرا، ليس فقط تناحر المدن فيما بينها بل وحتى الجمهوريات، حيث كانت الصراعات تعصف بقوة. وأدت هذه الوضعية الى العديد من الهجرات، نتج عنها تأسيس العديد من المستعمرات: آسيا الصغرى، وصقلية وجنوب إيطاليا الذي اتخذ اسم اليونان العظمى. وأسباب أخرى مثل الحروب الأجنبية، التوليفات السياسية التي ضاعفت من عدد المستعمرات اليونانية. فأنشأوا البعض في بلاد الغال، وإسبانيا، وأفريقيا وشبه جزيرة القرم، بمعنى جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود.

اليونانيون كانوا يتدخلون طواعية لصالح الشعوب التي يستقرون بها وعلاقتهم بها كانت دوما عادلة و طيبة. سلاسة طباعهم، تفوقهم بفضل تنوع معارفهم، روعة خيال أساطيرهم والرخاء والرفاهية الموجودين بمدنهم، كانت

الجزء الثاني، 10.

كلها أسباب تجلب إليهم صداقة الشعوب، كانوا يرونهم على أساس أنهم جيران طبيين وودودين، يتم استقبالهم بحفاوة. وبالتأكيد، كان يمكن أن يقضوا أياما ممتعة عندهم. وعند عودتهم إلى ديارهم، كان السكان المحليون يقومون بتقليد ما رأوه عندهم، وشيئا فشيئا أصبحت المستعمرات اليونانية محاطة بمنطقة تسكنها حضارة كانت ستمنحها القوة، لو لا أنها فرضت نفسها بمنطق الجبروت.

فيما عدا ذلك، فإن بسالة اليونانيين كانت معروفة، و كان معلوما أنه من الأفضل كسبهم كأصدقاء لا كأعداء، وبما أنهم كانوا متعودين في بلدهم الأم على رؤية العديد من الدويلات المستقلة أكثر من المدن، فلقد أصبحوا أكثر تقبلا لاستقلال جيرانهم من دون أن يفكروا في سحقهم. كانوا يحصلون على الأراضي التي يحتاجونها بواسطة الاتفاقيات ويحمونها بالأسلحة في حالة مهاجمتها، ولكنهم بشكل عام كانوا يكتفون برئاسة الكونفدراليات الحرة التي تشكل حولهم بين الشعوب الخاضعة لهم. كانت هناك حروب بالتأكيد، ولكنها كانت قصيرة المدة ونادرة.

لقد نجحت كل المستعمرات اليونانية تقريبا، والكثير منها ما يزال بعد من المدن الأكثر ازدهارا في الخوض المتوسط.

فتوحات الكسندر.

في آسيا، كان الكسندر، بالكاد، يقوم بمحاربة شعوب مستضعفة، أو أكثر سهولة من حيث التحكم فيها. ومع هذا، فإن النظام الذي استخدمه كان يؤدي

تجاوزوا إلى الكثير من الصعوبات من الذين كانوا يتقدمون نحوه، لأنه كان يحسن استغلال النصر ويراعي أعراف المهزومين. الاستعداد الذي كان يفرضه عليهم كان يبدو أخف من ذلك الذي أرهق عاتقهم لمدة طويلة، ولكن بالرغم من الحجة المشرقة التي يعطيها لكل خطواته، فإن العنف هو ما أثمر لدى الذين جاؤوا من بعده، واستمر الطغيان في الحكم على أنقاض الامبراطورية الفارسية، غير أن الحضارة اليونانية انتشرت في هذه المناطق وحضرت الأذهان للثورة الفكرية الكبيرة التي مستولد من دم المسيح.

الفتوحات والمستعمرات الرومانية.

روما تقدم لنا الظاهرة الرائعة، لشعب يحلم من المهد، بإمبراطورية عالمية، ويمشي بخطوات متنامية وواثقة دائما. فمهما كان حكمنا على طبيعة نتائج هذا الطموح الواسع والمفرح للإنسانية على العموم، فلا يمكن الإنكار من أن تطور العظمة الرومانية هو من أروع المشاهد التي عرضها لنا التاريخ. فاليونانيون، قبل ألكسندر، لم يكونوا سوى مستوطنين. لكن الرومان كانوا في آن واحد مستوطنين و فاتحين، أمضوا خمسة قرون لإخضاع إيطاليا بالقوة، ولجعلها تابعة لهم بكل توليفاتها السياسية. هذه الترتيبات لم يكن فيها أي احتقار للمهزوم الذي كان يدعى

بمنح امتيازات المتصرين نفسها. ولكنهم ارتكبوا خطأ في ذلك، بعدم طلب العدل في تقسيم الأمور، وعوقبوا فيما بعد بتلك الحرب الاجتماعية التي أوشكت بهم على السقوط. وتجنبوا العاصفة بمنح ما لم يكن عليهم رفضه، واستطاعوا أن يقتنعوا بأن الشعب ينمي قوته عندما يزيد من عدد أحواله لا من عدد الرعايا.

وعارج إيطاليا، كان للرومان العديد من الرعايا، و نظرا لاستنادهم على أسس متينة، كانوا لا يخشون من غضبهم الذي حافظوا على عدم إثارته. وبما هو ذا الأسلوب المتجانس الذي كانوا يستخدمونه في كل فتوحاتهم: بمجرد أن يدخلهم امتداد قوتهم في اتصال مع شعب جديد، كانوا يقيمون معه علاقات صداقة وتجارة. هذا الشعب الذي بالضرورة كان له تواجد سياسي، كان على علاقة كذلك مع جيرانه، وهذه العلاقة يمكن ألا تكون ودية كلها، وهنا تدخل روما لتنصح أصدقاءها الطيبين بفعل كذا أو بالامتناع عن ذلك، وبضرورة مراعاتها هي طبعاً. وإذا ما حدثت مقاومة، فسيتم إعلان الحرب فوراً. وإذا ما تم التنازل، فإن المطالب تزداد مع التنازلات، مما ينتج الحرب في الأخير رغم تأخرها قليلاً. وسيكون لروما بالضرورة، كنائب للدولة التي تدخلت لصالحها، والنجاح أكثر أو أقل، بسرعة أو ببطء، مضموناً على الدوام. الحرب الأولية كانت نادراً ما تقضي كلية على قوة المهزوم، بل كانت تضعفها، ولكن بما يسمح له بالبقاء في هذه الوضعية من الأذلال. وبعد وقت قصير، سيعتقد المهزوم أنه تمكن من استجماع قواه وسيعود إلى القتال، حيث تسعى روما من

أجل خلاف جديد. هذه الحروب المتتالية كانت ترهق الشعوب، ويحث منها عن بعض الراحة، فإنها كانت تستسلم لرغبة ضمها للمقاطعات الرومانية، وهي النتيجة النهائية للمقاومة.

الشعوب المستعمرة كانت تحافظ على قوانينها وأعرافها وديانتها، وتغير الهيمنة كان أفضل لها، إذ كانت تعاني من باستعباد الملوك، وكان عددها كبيرا جدا. لقد نظمت كلها الصعداء بخسارة استقلالها أثناء تلك الراحة. الصناعة والتجارة كانت تزدهر من رخائها وتتجملها تتمتع بقسط وفير من الرفاهية. بعض المتدوين كانوا لا انسانيين وجشعين. كانوا يظلمون من حين إلى آخر في المقاطعات التي كانت الحكومة تعهد بها إليهم. ولكن على العموم، كانت الإدارة الرومانية حكيمة ومعتمدة.

هذا النظام الاستعماري كان معدا بإحكام، إذ كانت أي خطوة مكتملة تلعب دور السلم للوصول إلى خطوة أخرى. اكتسب - النظام - قوة جديدة بإنشاء المستعمرات والمحافظات، بعد كل حرب. وكانت كلها كذلك في الغالب. وتقوم روما بالتنازل عن الملكية المقيدة لمساحات من الأراضي التي توزعها على مواطنين معوزين، رومانيين كانوا أو إيطاليين. هذه المستعمرات التي أصبح أغلبها عبارة عن مدن قوية متواجدة لحد الآن، تلتف حول كل الشعوب المحتلة، وتسترع من أذهانهم فكرة الثورة في حد ذاتها. وبالإضافة إلى ذلك، كانت روما تبنى العديد من مدن الأهالي المحليين، وتقدمها بلقب بلدية، مع جميع حقوق المستعمرات. هذه الحقوق كانت ممنوحة بقوة، مما يجعل كل من

ونتيجة لما يتمتع بعلاقة ودية مع روما. المستعمرة كانت عبارة عن وحدة متكاملة يمكنها أن تحقق اكتفاءها الذاتي. كانت مسيرة من طرف قاضيين اختياريين، هما اسمي الدومفيري من duumvirs، ومن طرف مجلس الأسامين. الدومفيري من أعضاء هذا المجلس كان يصوت عليهم الأعيان curiales، وهم أولئك الذين يملكون 25 فدرا من الأراضي. كل مستعمرة أو بلدية كان لديها، إضافة إلى ذلك، محاميا (مدافعا)، مهمته معارضة كل الإجراءات التي كانت تبدو مخالفة للمصالح العامة للمدينة، وكان ينتخب في تجمع عام لكل المواطنين دون تمييز للمركز أو الثروة. فتشريع كهذا، وبذلك الدرجة من التعقل والليبرالية ساهم في ازدهار المستعمرات، وضمن قوة روما لعدة قرون، والتي كانت ترى نفسها تعود إلى الحياة بكبرياء في هذه السلالة المتعددة من المدن الفتية والشاخصة. ومنها من وصلنا تقريبا بشكلها الجمهوري كمرسيليا. فهذه المدينة الأنيقة كانت تشكل بلدية تحت الهيمنة الرومانية⁽¹⁾ ولم تخسر امتيازاتها إلا في عهد لويس الرابع عشر.

استقرار الفرنكيين في بلاد الغال.

نعرف كيف انتهى المطاف بالإمبراطورية الرومانية، ومن بين كل الشعوب التي تقاسمت أنقاضها ستطرق بتفضيل للفرنكيين أو الجرمان. فاستقرارهم ببلاد الغال كان مثينا مما يجعلهم يستحقون هذا التفضيل بعيدا عن الألقاب التي يتميزون بها عندنا، بما أنهم يعتبرون أسلافنا.

(1) نقرأ في كتاب: ألف نهاية القرن الماضي: "لويس الرابع عشر قام ببناء حصن سلك نيكولا للسيطرة على المرسيليين الذين كانت لهم الأمانة الواقعة للحرية".

ويقلل اقترانهم بالغالين، ولدت الأمة الفرنسية. وهو الشعب الوحيد الحديث في الغرب، الذي تعود حقيقة وجوده السياسي إلى سقوط روما، والذي يتحمل وحده التغييرات التي شهدتها في القرون الأربعة عشر الجارية.

الفرنكيون لم يواجهوا الزامية محاربة أي عدو مهم في بلاد الغال. شعوب تلك المناطق لم يعودوا أولئك الغاليون المقدامون الذين صعب على سبزار هزمهم. تلبسوا بسب الراحة المطولة التي فقدوا فيها تعودهم على السلاح. ولكنه ما يزال يتواجد في المدن نوع من الميليشيات البرجوازية *les cohortes* الذين بإمكانهم إبداء معارضة للغزاة، ولكن المواطنين السالين الذين لا يملكون من كلمة مقاتل سوى الاسم فقط، لم يعودوا يصلحون لفتح أبواب مدنتهم وإعطاء شكل متناسق وقانوني لاستحواذ الفرنسيين على أملاكهم. فكان المتصرون يستحوذون، منذ الوهلة الأولى، على الأراضي التي يرونها ملائمة ويضمنون للمهزومين حق التمتع بما يتركونه لهم. هذا التصرف كان عقلانيا، فيجب أن يأخذ النصر حقه. الشعب الذي يتعرض للغزو يتنازل دونها احتجاج. وكأنها ضرورة متوقعة. وإذا ما توقف العنف فينبسبون ذلك. أما إذا حدث العكس أي إذا كانت المتطلبات متتالية، ولا شيء يسمح بمعرفة نهايتها، فإن أحقادا خرساء ستملأ كل القلوب، يتج عن ذلك رد فعل يضع المتصر في وضعية أسوأ من الوضعية التي كان عليها المنهزم.

لما تركت الفرنكيون للغالين الذين كانوا يدعون وقتها الرومان، كجميع رعايا الإمبراطورية، قوانينهم وأعرافهم، لأنهم كانوا قليلي الخبرة لنشر تقاليدهم التي، بالرغم من ذلك، فإنها أصبحت مهيمنة بمقتضى الحال. كان لديهم قسمين من القوانين التي لم يتم كتابتها إلا بعد الغزو: القانون السالي للمستقرين داخل بلاد الغال، والقانون الريبوراري للقبائل المتوقفة بين نهر الراين وميوز. كان يكفي ليختار واحد من الغال أن يحكمه القانون الأول أو الثاني، حتى يتمكن من التمتع بكل حقوق وامتيازات الفرنكي. سرعان ما أدى هذا الحق الممنوح للشعوب المحتلة إلى اندماج حميم، بحيث أصبح العرقان لا يشكلان سوى واحد، والمسيحية التي لم يتأخر عن اعتناقها الفرنكيون سهلت هذا الاندماج بالضرورة، لكونها كانت الدين المهيمن لدى الغالين. لقد أمكنهم التباهي حقاً، بكونهم تمكنوا من الغزو المعنوي لغاليتهم، مما أدى إلى محو كل ذكرى أليمة من أذهانهم لذلك الغزو المادي.

فتوحات الشعوب الأوربية في العصور الوسطى.

بامتثاء استقرار الثورمنديين بنيوستريا، وإنجلترا، وإيطاليا، وصقلية، لا نرى في أوروبا خلال العصور الوسطى سوى حروب أمير ضد أمير آخر، عوضاً عن شعب ضد شعب. الاقتتال الداخلي والمناظرات بين الأقطاعيين ليس إلا، ولكن لا وجود لأية غزوات. إن الحملات التي شكلت الحلقة الأكثر تألقاً لهذه الحلقة أثرت فعلاً على آسيا. نعلم أن تدفق العالم المسيحي على العالم الإسلامي

نتج عنه تأسيس مملكة القدس الصغيرة، والتي لم تدم قرنا كاملا. والمبادئ التي اتبعها المسيحيون في حملهم للسلاح كانت في طبيعتها تجعل من المستحيل إقامة أي نسوية أو تقارب بينهم وبين أتباع القرآن، علاوة على دخولهم في حروب دائمة مع سكان فلسطين بالرغم من الهدنات النادرة الحدوث. النقاط التي احتلوها كانت مسدودة باستمرار من طرف العرب، إذ لم يكونوا قادرين على التواصل معها إلا بحراسة مشددة وكذا تحمل مخاطر كبيرة. فهكذا كان موقف آباءنا منذ 700 سنة في فلسطين. وها هو ذا موقفنا في إفريقيا. في فلسطين، كان مرد ذلك إلى طريقة التفكير التي لم يكن من الممكن القضاء عليها، والتي لم تكن تسمح بتوافق الشيعيين، وفي إفريقيا ليست سوى نتائج أخطاء الإدارة الفرنسية.

الفتوحات العربية.

لقد تطرقت إلى هذا الموضوع في الجزء الأول، ولا أعيد الحديث عنه هنا سوى من باب التذكير.

الفتوحات العثمانية.

الفتوحات العثمانية كانت الأكثر دمارا، والأكثر وحشية، والأكثر تهورا من كل تلك التي عرفتها الإنسانية. فالأتراك لم يختلطوا بأي شعب ولم يبحثوا

من ترسيخ أنفسهم في أي مكان. مماثلة لجنود فظين وجشعين، يلتهمون ريشون كل ما وقعت عليه أيديهم. لقد أزهقوا ودمروا كل البلدان التي خضعت لسيطرتهم، ومن دون إيذاء أي قلق بشأن المستقبل. لقد انمحوا من سكرات الأمم على الرغم من شجاعتهم وصفاتهم الخاصة الجديرة بالاحترام.

استقرار الأوروبيين في الهند.

إن تطور الملاحة فتح أطماع وطموحات الأوروبيين في بلدان غنية وثامنة خلال نهاية القرن الخامس عشر في القارة القديمة المقابلة للقارة التي يسكنونها.

كان البرتغاليون أول من هرع لهذه الحرفة الجديدة التي عرضت عليهم المراتب مزدوجة من الشهرة والثروة. فاسكو دو غاما Vasco de Gama أدقم على الطريق الذي اتبعه الكثير من بعده.

إن استقرار البرتغاليين بالهند كان مبنيا على استخدام القوة مع المكر، وكان أمرا مثاقا ومتقنا. ولقد أسسوا حصونا ومتاجر ومارسوا، بذلك عمليات تجارية وحربا باهرة بمهارة الرؤساء وشجاعة الفرق العسكرية. فبما عدا ذلك لم يتعاملوا مع الأهالي بإجراءات إدارية حكيمة تدفع إلى حب هيمتهم. ولم يندمجوا كليا مع السكان المحليين الذين كانوا يضطهدونهم أكثر ما يحكمونهم. وبالرغم من ذلك، كان على رأسهم رجال عادلون مشهورون.

أليوكارك، خوان دو كاسترو، آتايد⁽¹⁾. كانوا من الأبطال الجديرين بالتعظيم. لكن أعمالهم البطولية وعبقريتهم وقفت عاجزة أمام حواجز منيعة من الأحكام المسبقة والتعصب الديني للأمة. كما أن البرتغاليين أخطأوا بانتشارهم الكبير في الهند واحتلالهم لنقاط متعددة دون ضمان قاعدة واسعة ومتينة. هم لم يتأخروا في إدراك ذلك، لكن شرفهم الوطني لم يسمح لهم بالتراجع. وعندما تم تعيين آتايد نائبا للملك، استخدم كل مصادر عبقريته للحفاظ على جميع النقاط التي تمكن من احتلالها، بالرغم من أنه لا نفسه عن الامتداد الذي أخذه الاستعمار.

وبعد مرور قرن تقريبا على الاستغلال الحصري للبرتغاليين لتجارة الهند، أبدى الهولنديون منافستهم الشديدة. هؤلاء تقدموا مبدئيا نحو السكان المحليين كتجار مسالمين لا يفكرون سوى في القيام بالتجارة معهم، ولصالح الجميع، دون ادعاء السيطرة عليهم في أي شيء. كانوا يقتنعون أنهم من أجل مصلحتهم فقط، ومن أجل الثأر لحقوقهم

(1) هؤلاء الرجال الثلاثة تميزت طريقة تفكيرهم بشيء من العظمة والشهامة، يذكرنا بأبطال بلوتارخ (كتب سير ذاتية يوناني)، ونجاحهم العسكري حقق المعجزات. بلاط لشبونة منحهم سلطات أكثر شمولية. ولم تفرض عليهم أية واجبات أخرى سوى النجاح. وهي الطريقة الوحيدة الفعالة في أي عمل له بعد، ويهدف الوصول إلى أفضل النتائج. الجنرالات البرتغاليون أبدوا استحقاقهم للثقة غير المحدودة لحكوماتهم. عندما كان يتقصصهم المال للقيام بأي خطوة مفيدة، كانوا يقترضونه باسمهم بدلا من ترك الرعية تعاني. وباعتناق عميق وأليم، فإنني أعلن أننا لا نملك في فرنسا أي رجل سياسي تقدم بعرض أقل جزء من ثروته من أجل مثل هذه القضية النبيلة.

المضمونة، يجب أن يجاربوا البرتغاليين. كما كانوا مساعدين لهم. وبعد وقت قصير قلعوا قوة منافسيهم في الهند إلى دور ثانوي، فقاموا بانتزاع ملاقا malaca والكثير من المواقع الأخرى، ولكنهم وجهوا نشاطهم على الأخص نحو جزر الملوك وجزر سوندا. وبعد إهانتهم للبرتغاليين، استظفروا أقتعتهم ووتفطن السكان المحليون إلى أنهم قاموا فقط بتغيير الطاغية. وحتى يستبقون احتكار التوابل، فرضوا على ملوك الجزر المختلفة عدم البيع لسواهم، وأجبروهم كذلك على تدمير كل أشجار القرنفل أينما وجدت باستثناء منطقة أمبون، حيث كثفوا زراعتها. أبادوا سكان جزر باندا التي تنمو بها جوزة الطيب، وأسسوا مستوطنة. كما أنهم أبادوا سكان مملكة جاكارتا في جزر جاوة، التي أسسوا بها يانافيا عاصمة لمستعمراتهم. بمعنى أنهم تجاوزوا في الكثير من الأحيان وحشية البرتغاليين. لم تكن بتاتا الجمهورية التي تسير عمليات الهولنديين في الهند بل شركة منحتها الحكومة الحق الحصري لممارسة التجارة والمنشآت. أعوان هذه الشركة، وإن لم يبيدوا الأهالي، فإنهم كانوا يقومون برشوتهم أو افلاسهم بالاحتيايل التجاري، وهو طبعاً أكثر عاراً وتمثلت سياستهم تجاه أمراء البلاد في تزويدهم بالأسلحة دون توقف، لضرب بعضهم البعض، واعتطاف أطفالهم كرهائن لإفساد أخلاقهم، وتعليمهم طريقة التحكم بالناس، أي المبادئ الخاطئة والأكثر انحرافاً. أخيراً، وعند

توليهم العرش، سيعملون بأنفسهم على إضعاف وتدمير رغباتهم. كل هذا سيظهر للعيان على أنه قمة البراعة، ولكن ما نتج بالفعل هو إحاطة المستعمرات الهولندية بقطاع طرق، دون إقرار ذلك، عوض أن تحيط هي نفسها بمساعدين مقبدين وعمال متجبن. مما كان يقلل كل يوم من المنافسة التجارية، ويافساد الأوروبيين لأنفسهم باستخدام هذه السياسة البشعة أصبح جموع السكان وحدة ضعيفة وثاقفة.

أسس الفرنسيون كذلك مستعمرات في بلاد الهند، لكن سلطتهم كانت لمدة قصيرة، وعرفوا كيف يحيون الأهالي فيهم. ولكنهم استسلموا لأنهم كانوا في مواجهة عدو تحت خطواته كلها ببراعة. شاندرنافور Chandernago، وخاصة بونديشيري Pondicherry، تألفوا لبعض الوقت. وهما الآن ليسا سوى مصانع دون أهمية. فقد دمر الانجليز في الهند القوة الفرنسية التي علا من شأنها دوماس Dumas ودوبليكس Duplex، وهم الآن يسيطرون على كل تلك البلاد الثرية والساحرة، مع اقضاء كل الأمم الأوروبية.

الطلائع كانت ضعيفة مثل الهولنديين، وقاموا مثلهم بتقديم أنفسهم مبتدئين على أساس تجار مسلمين لهم ضباط. ففي سنة 1750 لم يكونوا سوى قوة ذات شأن هين في بلاد الهند، وهم الآن بشكل ما، القوة الوحيدة هناك. منشأهم الأولى كانت مصانع بسيطة لحصولها من

لأرض البلاد على الآن بإقامة حامية عسكرية بلديعة معقولة، وهي حامية تجارهم ضد هجمات الشعوب الأوروبية المحاربة لهم. ومع الوقت تمكنوا من الحصول على تنازل عن سيادة النقاط التي كانوا يحتلوها، سواء بالمال أو بالكر. وبعد أن أحسوا بتعزيز مكانتهم، بدأوا بالقيام بالغزو. وكان في الغالب لبراء محليون يفتقون إلى صفهم كمساعدين، ممن كانوا يسلحونهم ببراعة ضد بعضهم البعض، ونذكر بعض الأمثلة: كان لهم مصنع وقرى عسكرية بسورات، تم التنازل عن كل سيادتها من طرف الحاكم الإقليمي للدولة، مقابل دفع معاش سنوي يقدر بكلح من الروبيات أي 100,000 روبية. والإمبراطور أورجيزيب الذي سمح لهم بالاستقرار في كالكوتا، تمكنوا من الحصول على إذن من خلفائه بأن يتم استئجارها من سلطنة الأقليم، وهذا عن طريق طبيب منهم، تمكن من شفاء هذا الأمير من مرض خطير. وبعد بضع سنوات، تنازع حاكمين إقليميين على حكم البنغال فوقعت التحول إلى جانب واحد منهما، وساهمت مساعدتها بانتصاره على منافسه، وهكذا تمكنت من الحصول على الرفع من قوتها. وأخيرا، ما حدث مع سليل الإمبراطور القوي أورجيزيب، وهو الشاه علوم الذي كان ضعيفا وباتسا حتى أجبر على التنازل لهم كليا عن كل حقوقهم في بلاد البنغال، وبعض الأقاليم المحاذية. ورغم هذا فإنهم واصلوا لمدة طويلة تعيين حكام إقليميين هناك، وهم لم يكونوا سوى متقلبين لأوامرهم. وفي الأخير تمكنوا من الاستحواذ على

دلهي بطريقة تحليص شاه علوم من قبضة الماراثا marathas، تزامن هذا الحدث مع بداية هذا القرن، ومنذ تلك الفترة توسعت هيمنتهم أكثر فأكثر. فمساعدة أو باستخدام الماراثا تمكنوا من القضاء على سلطة سلاطين الميسور crosyM وهم حيدر علي وابنه تيبو - صهيب. وعندما لم يعودوا بحاجة لهم لم يفكروا سوى بتدمير والقضاء على قوة من كانوا حلفاءهم.

كانت انجلترا تمارس تأثيرها في الهند عن طريق شركة تجارية، ولكن كل ممارسات هذه الشركة خاصة السياسية منها، والسيادة كانت تحت رقابة و إدارة الحكومة.

البريطانيون كانوا يحكمون الهند ويهيمنون عليها، ولكن لا يمكننا القول مع ذلك أنهم استقروا بالكامل لأنه كان من المحظور عليهم اكتساب الأراضي، وكذا جميع أولئك الذين صنعوا ثروة من التجارة، فكانوا ينقلون إلى العاصمة ثرواتهم نقداً، فلم يتشكل أبداً أي عرق أوروبي هناك، مما يعطي الأمل للسكان المحليين بالحصول على استقلالهم عاجلاً أم آجلاً. خلاص الأرض الهندية قد يأتي على أيدي الماراثا اللذين لازالوا أقوياء، وخاصة السيخ، وهو شعب جديد تشكل وسط السكان القدامى، ليس من قبيل الصدفة بل اختيارياً، مثلما ظهر المسيحيون داخل الامبراطورية الرومانية. انها طائفة فلسفية ودينية تخلت عن التمييز بين الطوائف وأغلب الأحكام المسبقة والخرافات الهندوسية، أخذت شكل دولة تحتل مناطق شاسعة من غرب دلهي. يشكلون

جمهورية لندرية، وأعطتهم المحررين المستقبليين للهندوستان.

فتوحات واستقرار الاسبان بأمريكا.

لا أحد يمكنه انكار الوحشية المستخدمة من طرف الاسبان في أمريكا، فالسويهم كان يرمي إلى القضاء على السكان الأصليين، أو إلى إخضاعهم للعبودية. بهائني وفي كل الجزر الأخرى، اختفت جموع السكان عن الوجود خلال وقت قصير. فمن لم تقض عليهم الأغلال وأسنان الكلاب المحرصة، فقد تم إخضاعهم لأعمال لم تقدر عليها بنية أجسامهم. فكان من الواجب استبدالهم بالسود المتقدمين من إفريقيا إلى أمريكا بواسطة ذلك الاتجار المشين التي تلطخت به الأمم الأوروبية ولمدة طويلة. لقد دافعت الحكومة الاسبانية لسنوات عدة عن السكان المحليين ضد تكاليف المستوطنين الأوروبيين، ولكنها في الأخير كانت مجبرة على الرضوخ، وتسليمهم هؤلاء الذين يعتبرون من حثالة أوروبا، فقد تم أخذهم من السجون والمؤسسات العقابية.

عند غزو المكسيك الذي تم ثلاثين سنة بعد استقلال هايتي، أظهر في البداية فرناند كورتيز، قائد الحملة، تجاوباً مع السكان المحليين وقد كان له منهم العديد من الماعدين الذين قدموا له مساعدة كبيرة، وكان متأكداً من فشل مشروعه لو لا التحالف الذي عقده مع جمهورية تلاكسكالا. وبمجرد انقائهم لغزوهم، أظهر المستعمرون وجههم القاسي والمتوحش. لقد كان الأهالي يظنون مكبلين

للعمل لصالح أسبادهم الجشعين. وحدث نفس الشيء بالبيرو، أين تمت معاملة شعب ضعيف ولطيف معاملة جائرة من طرف قطاع طرق، ذبح بعضهم بعضا في الأخير من أجل تقاسم الغنائم. في الشيلي، وجد الأسبان سكانا عماريين وأكثر صلابة، فتنازعوا معهم على الأراضي، وأجبروا أمامهم على التراجع والتجوء إلى الجبال أين استمروا حتى أيامنا هذه في إعطاء ضربات مدمرة وقتلة للمستعمرات الأوروبية، من أن لأخبر.

وإنه لمن السعادة أن نحول أنظارك عن مشاهد تعيسة وكثيرة، لننقلها إلى المؤسسات الخيرية اليسوعية. هؤلاء رجال الدين المشهورون باللقاب مختلفة، أسوا في البراغواي وكاليفورنيا مستعمرات هينة ومزدهرة، مشكلة كلها من السكان المحليين، وهذا باستخدام وسيلة وحيدة هي الطيبة، والافتناع، والاحسان والفضائل. وتمكن اليسوعيون من القيام بكل ذلك بواسطة الكلمة والإنجيل، أكثر مما قام به فاتحو العالم الجديد بالسيف والمدفع.

المستعمرات الأسبانية بأمریکا كانت تكلف البلد الأم 34.500.000 جنيه، والآن هي منفصلة عنها، بحيث أنها باعتزازها الغني لم ترد الاعتراف باستقلالها، ولم بعد فها معها أية علاقات تجارية. هذه العلاقات، وعندما كانت موجودة، كانت تكسب الجمارك الأسبانية منها كفوائد سنوية 20.000.000 جنيه.

ولن نطرق إلى المستعمرات البرتغالية في البرازيل، فقد سارت على خطى الأسبان. وهناك أيضا استخدم اليسوعيون الانسانية والحكمة مكان الظلم والعنف في المستعمرات التي أقاموها.

المستعمرات الفرنسية.

لقد قلنا في الكثير من الأحيان أن الفرنسيين لم يكونوا يعرفون كيفية الاستيطان. وهذا التأكيد وللأسف، صحيح. هذا لا يعني أنهم ليسوا قابلين لعدم ذلك. فمن كل المستوطنات التي قاموا أو حاولوا إقامتها في أمريكا، ستكتم عن تلك التي بأمریکا الشمالية لأنهم وجدوا أنفسهم في احتكاك مع السكان المحليين.

في عهد شارل التاسع، تم إنشاء مستعمرة صغيرة بفلوريندا، تحت إشراف الأميرال دو كوليني de Coligny، ولم تزدهر بتاتا، لأن الحكومة أهملتها نظرا لاهتمامها بظروفها الداخلية المخرجة، وتم تدميرها كليا بعد ذلك من طرف الأسبان الذين كانوا يخشون أية منافسة ممكنة.

في سنة 1534، اكتشف جاك كارتير Jacques Cartier كنذا، أين وضع صامويل دوشيلان nialpmahC ed leumaC التي التحية للمكيك سنة 1608. هذه المستعمرة الثانية لم تزدهر كذلك لأنها كانت تحت سطوة الاحتكار، وكذا فإن الفرنسيين أرادوا احتلال الكثير من المواقع، ما جعلهم ضعفاء على العموم. وفي عهد لويس الثالث عشر انتزع منهم البريطانيون كنذا، والتي أعيدت إليهم فيها بعد سنة 1631 بموجب اتفاقية سان جيرمان. وبعيدا عن تصحيح الذات من التجارب العظيمة، وقعوا في نفس الخطأ مرة ثانية، وكانت كل مواقعهم الصغيرة متناثرة على مساحة واسعة وغير متصلة فيما بينها، وأصبحت مهددة من طرف السكان المحليين. ولحسن الحظ

أن كندا لم تغب عن الأعين الثاقبة للويس الرابع عشر. هذا الملك قام بإرسال بعض القوات إلى هناك ووضع حدا للاستغلال السيء للاحتكار. بدأت المستعمرة تأخذ شكلا من أشكال النمو، وتم احتواء الأهالي. ولكن المحافظ دونوفيل الذي قام بتوقيف رؤساء الإيروكوا Iroquois غدرا بعد أن دعاهم إلى اجتماع، واستأنفت الحرب بسرعة بوحشية أكبر من ذي قبل. وتم تدعيم حقول المستوطنين على يد عدو كان ممتعضا بطبيعة الحال. واستغلت بريطانيا الفرصة نظرا لحربها مع الفرنسيين وتحالفت مع الإيروكوا، وكادت كندا أن تضيع مرة ثانية من يد الفرنسيين لولا تحلي السكان المحليين بالدهاء، ففهموا أنه من مصلحتهم المحافظة على توازن بين الفرنسيين والانجليز. ومنذ ذلك الوقت فإنهم يعيشون بوتام مع الفرنسيين الذين أطلقوا سراح رؤساء الإيروكوا المعتقلين. في سنة 1715، أي بعد أكثر من قرن عن تأسيس الكييك، لم تكن المستعمرة تحصى سوى 2000 مستوطن، وأصبحوا 100.000 فرد في سنة 1758.

الغالو-كنديين كانوا عسكريين أكثر منهم مزارعين، كانوا يتجارون في الفراء. وللحصول على هذه المادة بأحسن الأسعار، كانوا يصطادون بأنفسهم الحيوانات التي تتوفر عليه. وكانوا يجدون متعة كبيرة في هذه الحرفة، للدرجة أن بعضهم لم يعد يرغب في القيام بعمل آخر. وذهبوا للعيش مع الهمج وتنازلوا عن الحياة المنحصرة. وبهذا توطدت العديد من الروابط بين الكنديين والمستوطنين الذين أصبحوا أكثر استعدادا للنزول إلى مستوى الهمج. بعد استئناف الحرب

الجزء الثاني، 10.

بين فرنسا وبريطانيا، حارب الكنديون بإصرار وشجاعة مع حلفائهم، ولكن وجب الرضوخ للقدر في الأخير. فقد ضاعت كندا من أيدي الفرنسيين للأبد سنة 1763. هذه المستعمرة كانت في تلك الفترة مكلفة جدا بالنسبة للبلد الأم، ما أدى إلى إدخال سوء الاستغلال الفاحش والإفلاس. المصاريف التي كانت تقدر سنة 1729 بـ 400.000 فرنك سرعان ما ارتفعت إلى 2.500.000 فرنك. وظلت في ارتفاع مستمر طوال تلك الفترة، حتى وصلت سنة 1758 إلى رقم هائل هو: 27.000.000 فرنك. وكان الناتج الوحيد للمساهمات يقدر بـ 200.00 فرنك.

المستعمرة التي أنشأها الفرنسيون بمنطقة أكاديا المشابهة لتلك بكندا، تم التنازل عنها لبريطانيا بموجب معاهدة أوتريش.

لويزيانا كانت مأهولة بمستوطنين سويسريين وألمان، أرسلتهم شركة الميسيسيبي الشهيرة. وبما أن لا شيء كان محضرا لاستقبالهم أو لتمكينهم من العيش، فقد ماتوا من الحزن والعوز. و لأجل تعويضهم، تم انتقاء آخرين بدلهم من السجون والأماكن السيئة بالبلد الأم، وكان هذا شيئا فظيحا، ومن كل الجوانب داخل المستوطنة.

في سنة 1731، توقف الاحتكار وبدأت المستعمرة بالازدهار قليلا، فقامت الحكومة بإرسال جنود متفرغين من الخدمة للإقامة هناك، ووزعت عليهم الأراضي وقدمت لهم تسهيلات. ولكن الفرنسيين وقعوا في لويزيانا في نفس الخطأ المقترف بكندا، وهو التوسع كثيرا، حيث أرادوا احتلال بلد في مساحة تمتد على 2500 كلم عن طريق 7000 رجل.

المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية.

كان والتر راليت، أول انجليزي فكر في استقرار أبناء بلده على سواحل أمريكا الشمالية. أسس سنة 1584 شركة تحصل لأجلها من الحكومة على حصرية استغلال كل البلدان التي تقوم باكتشافها في تلك القارة الشاسعة. أول مستعمرة تم انشاؤها في نفس السنة كانت بخليج روينوك الذي هو الآن جزء من ولاية كارولينا. البريطانيون تصرفوا جيدا ومنذ البداية مع السكان المحليين في البلد، مما سهل من استقرارهم. ولكن سرعان ما غيروا من طريقهم تجاههم، فتمت مهاجمتهم والقضاء عليهم كلهم تقريبا. فأعادت الشركة ارسال مستوطنين جدد عام 1589، وهم 115 فردا من الجنسين. وكانت هذه بداية أمة عظيمة.

مستوطنة روينوك كانت منسية تقريبا عندما قرر زيارتها غوزنولد Gosnold، وهو أحد المساهمين بالشركة. انطلق عام 1602 ولكنه تجاوزها أكثر نحو الشمال فأخفق، ووصل الى سواحل الماساشوست، وقام هناك بصفقات مربحة مع السكان المحليين في مجال الفرو، وعاد إلى موطنه للإعلان عن اكتشافه. ولكن الشركة التي كان ينتمي اليها رفضت التورط في مستعمرة جديدة، فتم انشاء شركة جديدة لاستغلال هذا الموقع فأصبحت هناك شركتان. وبما أن كافة قارة أمريكا الشمالية كانت تدعى فرجينيا، على شرف الملكة إليزابيث التي كانت تعتبر كالعذراء، فكان أن سميت الشركتان كالتالي: الأولى "شركة فرجينيا الجنوبية" والثانية "شركة فرجينيا الشمالية".

الجزء الثاني، 10.

هاتان الشركتان لم تعرفا نجاحا كبيرا. عام 1614 لم تكن المستعمرتان تضمآن سوى 400 شخص، والتي كان من الممكن أن تهزل أكثر لولا أن الاضطرابات التي حدثت بانجلترا ملأتها باللاجئين. فعام 1621 تعب العديد من المشيخيين البروتستانت الانجليز، الذين أجبرهم اضطهاد حكومة شارل الأول على البحث عن ملاذ بهولندا، من عدم حصولهم على موطن، فاشتروا امتيازات بـ "شركة فرجينيا الشمالية"، و ذهبوا للاستقرار بالماساشوست. وتبعهم عدد كبير من أتباع نفس الديانة، وخلال سنوات قليلة أصبحت هذه المستوطنة قادرة لوحدها على إنشاء مستعمرات جديدة قامت بها في هامبشاير أو الكونكتيكت وبيرودايسلاند.

لقد سادت، ولمدة طويلة في هذا الجزء من أمريكا، خرافات تافهة، إذ ظهر أن المشيخيين لم يهاجروا من أوروبا أين تم اضطهادهم سوى ليصبحوا طاعين بدورهم. وتم حظر كل الطوائف المخالفة لطوائفهم. وحتى القرن الثامن عشر، بقيت تشريعات هذا البلد تحافظ على ذكرى اجراءات مروعة لا معنى لها، بخصوص جرائم مزعومة عن السحر، وهو تباعد مخزي للتفكير الانساني الذي لم تكن قد عرفت الكنيسة الكاثوليكية في ذلك الوقت. هذا البلد تم تسميته كما في أوروبا اسم انجلترا الجديدة (نيوانغلاند). والأقاليم الأربعة التي كانت تشكله كانت مستقلة عن بعضها البعض، وتتحذ بالرغم ذلك للدفاع المشترك تحت لواء المستعمرة المتحدة. وكان يمثل هذا الاتحاد مجلس نواب لكل اقليم.

سلوك المستعمرين في نيوانغلاند كان قاسيا تجاه المواطنين، حيث ازدهرت المستعمرة، ويمكن وصفها بالشكل التالي: المشيخيون توجهوا إليها بحشود كبيرة، لأن روح الاستثناء التي تميز طائفتهم كانت هي نفس روح المستعمرة، وعمت الحرية المدنية الأكثر امتدادا، لأنها كانت من مبادئهم. كما كان يعم المكان كل ما هو خارج عن النطاق الديني: العمل، والعدالة، والأعراف الحسنة. لأن كل ذلك كان ما يزال من مبادئهم. وبكلمة واحدة، يمكن القول إن هؤلاء الطائفيين شكلوا فيما بينهم مجتمعا جديدا منظم وحكيم، لا يكون عنيفا ومستبدا سوى في علاقاته مع المجتمعات الأخرى. ولكي ينمو هذا المجتمع، لم يكن ينقصه سوى شرطان اثنان: قوة الجانب وضعف العدو. القوة تم الحصول عليها بالهجرة الكثيفة القادمة من أوروبا، والضعف وجدته عند الأمريكيين الذين، ورغم شجاعتهم، فإنهم كانوا غير متحدين ولا يعرفون الأسلحة النارية التي استخدمت كل مهاراتها ضدها. في هذا البلد كانت المنشآت تتشكل محاذية لبعضها البعض، وكانت المؤسسات البعيدة والمعزولة ممنوعة.

عند وصول أفراد جدد، كان يجب الانتظار حتى يتوفر تجمع من ستين عائلة. وبهذا، يبدؤون ببناء كنيسة وتعيين قس ومدرّس. ليتم اختيار المكان الذي سيصلحونه، ويكون دائما مجاورا للأراضي المأهولة بأوروبيين سابقا. وهكذا، تواصل التدفق المستمر لموجات جديدة على نيوانغلاند أمام ناظر السكان الأصليين. الذين كان يتم طردهم بقوة إلى المناطق الداخلية. وهو ما

تدريجيا تحول أسفاد رهيبة في القلوب، تتحول إلى أعمال انتقامية فظيعة. فأثناء حرب الثميرة كانت نيوانغلاند تضم 900.000 فردا. في الوقت الذي كان المشيخيون البروتستانت مستقرين في نيوانغلاند، كان قاتوليكم الجليز يؤسسون مستعمرة في ماريلاند، وهم الذين فروا كذلك من تلك المخاوف مضطهدين، لأن شارل الأول الذي كان مساندا لهذه الطائفة يرى أن ما وجد نفسه مجبرا على التخلي عنها لصرامة القوانين التي تم سنها منذ الإصلاحات، وكانت مضادة للبابوية. اللورد بالتمور كان مؤسس وحاكم هذه المستعمرة، ويمكن القول أنه مالكيها، لأن الأراضي تم التنازل عنها له بموجب ميثاق من شارل الأول. لقد قام بتوفير ظروف جيدة للمعهودين إليه، وعامل السكان الأصليين بطريقة جيدة، وتعايش معهم في وئام، ونشر التسامح الديني التام في المستعمرة.

في سنة 1664، ونحت حكم شارل الثاني، تمكنت إنجلترا من الاستحواذ على بلجيكا الجديدة، وهي مستعمرة هولندية على ضفاف نهر هودسن جنوب نيوانغلاند، أعطاهما شارل لأخيه دوق يورك فأخذت اسم نيويورك. هذا الأمير الذي حل بعد جاك الثاني، نشر هناك القليل من الحريات المدنية والسياسية، حتى كان الأوروبيون على وشك التخلي عنه عندما قرر أخيرا عام 1683 تعيين مجلس نياي لحسم القضايا، وبما أن نيويورك كانت تهدد من الجهة الشمالية لها الأراضي الكندية مباشرة، فإنها عانت الكثير من كل الحروب بين البريطانيين وبين فرنسا وحلفائها المحليين. ولم تقس لإدخالها

سوى حين تمكن البريطانيون من الاستحواذ على كل المستعمرات الفرنسية عام 1760.

كانت حكومة نيويورك كحكومة نيوانغلاند، معادية للسكان المحليين الذين تم طردهم أو محقهم. عرفت الزراعة فتورا لمدة طويلة، لأن جاك قدم تنازلات معتبرة لنفس الأشخاص، الذين، وعلى غرار الملاك الكبار، كانوا يرغبون بالعيش في رخاء دون القيان بأي شيء، فكانوا يفرضون ظروفا قاسية على المزارعين.

التبوجرسي المحاذية لنيويورك كانت في البداية عبارة عن مستعمرة سويدية احتلها الهولنديون عام 1655، وقاموا بضمها الى بلجيكا الجديدة. وبما أن هذه الأخيرة، وكما رأينا سابقا، كانت فريسة البريطانيين، فإن جرسي عرفت نفس المصير. قام جاك بالتنازل عنها لشخصين مفضلين عنده، لم تكن لديهما رغبة في استغلالها، فقاما بالتنازل بدورهما عن أجزاء كبيرة لمضاريين بالأراضي، لم يفكروا سوى بتحقيق مكاسب جمة بإعادة بيعها بالتقسيط. ونتج عن كل ذلك أن المنتجين وجدوا أنفسهم مجبرين على تحمل ثقل تلك الفوائد للحصول على الأراضي. وأخيرا ابتعد المضاريون المتتاليون عن البلد ونقلوا تجارتهم لمكان آخر سنة 1702. فقد رأوا أنهم قد أخطأوا في حسابات جشعهم الأعمى، فتنازلوا عن كل مزاياهم للحكومة مقابل شيء بسيط. وهنا بدأت الحكومة بتوزيع الأراضي مقابل شروط معقولة؛

بلد بدأت المقاطعة ترى نوعا من التقدم رغم وقوع حرب الاستقلال، ولم يكن بها سوى 16000 ساكن.

اشهر المستعمرات البريطانية بأمرينكا الشمالية تدعى بنسلفانيا، كما سماها ليوم بن Guillaume Penn مؤسسها. هذا الرجل كان من الشخصيات التاريخية القليلة التي تركت للتاريخ سمعة عرفت كيف تستحقها، فقد كان ابن أميرال بريطاني مات وهو يدين للدولة بمبالغ مالية معتبرة. وبما أن الحكومة لم استطع تسديد المبلغ المطلوب، تنازلت لابنه عن تلك البلدة التي أصبحت منذ ذلك الحين تحمل اسمه. وصل الى هناك سنة 1681 مع 2000 شخص من طائفة الكويكرز (جمعية أصدقاء الدين)، وبما أن تنازل الحكومة عن أراضي بلد مأهول هو سند كافٍ للملكيتها، فإنه قام بشراء الأراضي المناسبة لإنشاء المستعمرة من السكان المحليين. سعر البيع كان، من المؤكد قليلا، لكنه يبقى دائما بمثابة تكريم لحقوقهم. وعندما أصبح بن سيد الأراضي، قدم بتنازلات بأسعار منخفضة وبطريقة تجعل المتعاملين المالكين ثابتين لأنه لم يرد أتباعا متكرين باسم مزارعين. واستبقى لنفسه ممارسة السلطة التنفيذية، ولكنه وضع الى جانبه ممثلية وطنية حقيقية ومنظمة بشكل جيد. الحرية كانت مضمونة مثل الحرية السياسية و كل الطوائف أعلنت حرية دون الهيمنة على أي واحدة منها. مظاهر العدالة تم تقليصها إلى الحد الأدنى الضروري، ومهنة المحاماة كانت محظورة. بدأت العدالة تنمو بشكل مميز في المستعمرة التي استقرت على

فوائد من الأعراف الحسنة. ولكنها لم تظهر شكلا موحدا و مدججا بشكل كاف، لأن المستعمرات لم تكن مجموعة مثل ما يوجد في نيوانغلاند. بان الذي كان دوما يعامل السكان المحليين جيدا، كان يظن أن مستوطنته لم يكن لها ما تحشى منه و أنه يستطيع دون النزاع الانتشار في البلاد، ولكنه أهمل أن يوليح لديهم حكومة، كما أهمل أن يتحد معهم بزيجات حيث لم يكن هناك لا اندماج و لا ضمائم. و من هذه الوضعية، نتجت فيما بعد هجمات جزئية من القبائل الأمريكية، جعلت من الصعب التصدي لها مع انتشار المزارع. و من الواجب القول إن البسلفانيين كانوا أغلب في الوقت عدوانيين: ففي 1763 هاجموا و قضاوا على قبيلة الكونستوغوس، من دون أي تحرش من هؤلاء الباسيين. كان تعداد سكان بسلفانيا في فترة حرب الاستقلال 350,000 مقيم.

سنة 1606، تم استقرار البريطانيين في البلد و حافظت على اسم فرجينيا حصريا. اللورد دولاوار Delaware الذي كان يبارس مهام محافظ مؤقت، قام بالكثير من الأشياء الحسنة، ومع هذا بقيت المستعمرة دون تطور يذكر، لأنها كانت تحت استعباد المزايا الحصرية للشركة المؤسسة سنة 1584 من طرف والتر رايت. هذا الوضع انتهى مع ارتفاع شارل الأول لعرش بريطانيا. فقد اشترت المملكة كل أسهم الشركة و قامت بالتنازل عن الأراضي مقابل أتعاب سنوية تقلر بـ 2 جنيه و 5 سنتات لكل مئة فدان. هذا التغيير السعيد للأمور جلب نحو فرجينيا كثما هائلا من السكان، مشكلا من كل المستائين في البلد الأم

من الحكومات التالية طوال القرن السابع عشر. في أمريكا، نسي كل هؤلاء الأبرار و رغم آرائهم المختلفة، كل أحقادهم السابقة و عاشوا مع بعضهم البعض في وئام تام، و لم يفكروا سوى بتطوير بلادهم بالتعايش المشترك. لسوء سكان فرجينيا نحو السكان المحليين لم يكن لا انساني و الا سياسيا، و رغم ذلك كان هؤلاء على تجاوب مبدئي معهم، حتى انهم عرضوا بناتهم عليهم للزواج. الفرجينيون رفضوا ذلك باستعلاء، على الرغم من أنه كانوا من دون نساء في السنوات الأولى. الاحتقار هو الشيء الوحيد الذي لا يسمح عليه السكان المحليون بسهولة، فحقدوا على جيرانهم الجدد، و حدثت حروب تامة و اعمال عنف و مجازر كان بالإمكان تجنبها بتقبل الاندماج الذي عرضه الأهالي، مستوطن واحد قبل بذلك، و تزوج بنت أحد رؤساء القبائل. دوام هذا التحالف كان يكسب المستعمرة فوائد جمة. وباختصار، كان من المفروض في هذه المستعمرة القيام بما تم به في المستعمرات الأخرى، وهو طرد الأهالي أمامنا. كان الجميع والأوروبيين ملزمون بالتخلي عن رؤيتهم كرجال حقيقيين. الجميع كانوا يتفوقون على الفرجينيين في الكثير من الأحيان، لأنهم قاموا بقص خطأ البسلفانيين، وهو تباعد مزارعهم. وقت حرب الاستقلال كان يسكن فرجينيا 650.000 ساكن.

مستعمرة الروينوك التي تكلمنا عنها في بداية هذا المقال لم تتطور بعد، وفي سنة 1663 أعطى شارل الثاني ملكية كارولينا لثلاث لوردات استقروا بها، قام

الجزء الثاني، 10.

لوك ekoL بكتابة الدستور الذي لم يكن من بنات أفكاره بالتأكيد. وفيما عدا ذلك، ما الذي كان بإمكانه فعله مع ثمان من كبار الملأك الذين كانوا يريدون استغلال البلاد حصريا لصالحهم؟ هذا عيب جذري ومدمر لكل تقدم، وتم الشعور به مرارا في كارولينا، حتى أنه في سنة 1728، قرر البرلمان إعادة الملكية الى الدولة، مع تعويض اصحاب الحقوق، وهم المالكين الشمانية. و بعدما أرجعت الحرية للبلد بدأت بالتقدم بخطى متسارعة. تم تقسيمها الى اقليمين: شمالي وجنوبي، وكان يضم وقت حرب الاستقلال 600.000 ساكن. كان سكان كارولينا مثل جيرانهم بفرجينيا غير عادلين مع الأهالي، ونتج عن ذلك حرب طويلة كانت نهايتها اباداة القبائل أو انسحابها الى خارج أبالاتشي.

جيورجيا الواقعة جنوب كارولينا كان لها نفس مصير هذه البلدة، ولكنه تم تأهيلها فيما بعد. أولى المستعمرات كانت سنة 1733. البلد لم يتطور منذ البداية، لأنه كان الملكية الحصرية لبعض المضاربين الجشعين. و تم تحريره من هذه التجارة حتى تمكن كالبقية من استقبال شعوب بريطانيين، فرنسيين، ألماني، اسكتلنديين وسويسريين.

في سنة 1763 تنازلت اسبانيا عن فلوريدا لبريطانيا، مما جعل ممتلكاتها تمتد حينها من بحيرة سان لوران الى الميسيسيبي. وضعت بريطانيا بفلوريدا عسكريين متوقفين عن الخدمة ومستوطنين من أجزاء مختلفة من أوروبا حتى من اليونان.

الجزء الثاني، 10.

في الوقت الذي أعلنت فيه أمريكا استقلالها، كانت المستعمرات المختلفة التي قمنا بتعريفها مقسمة إلى صنفين، بحسب شكل حكومتها: صنف المستعمرات التي كان الملك يعين محافظها، وتدعى مستعمرات ملكية، وهي الأكبر عدداً. والصنف الثاني كانت حكومته تدعى مالكة، أي أن تلك الأقاليم كانت من الأصل ملكيات خاصة، أين حافظ ورثة المالك المؤسس على حق تعيين المحافظ، ويوجد من هذا الصنف مستعمرتان اثنتان فقط في فترة الثورة هما: بنسلفانيا وميريلاند. وما عدا ذلك، كان يوجد في كل مستوطنة ممثلة وطنية وكلها كانت تتمتع بحرية سياسية ومدنية كبيرة.

بالنظر إلى الملخص السريع الذي طرحنا فيه التأسيس والتطور، فمن السهل استنتاج أن المستوطنة لم تكن تعتمد في شيء على البلد الأم أو العاصمة، بما أنها كانت منشأة من طرف المستوطنين أنفسهم. وهذا ما يفسر كذلك لم كانوا يتمتعون بكل هذا القدر من الحرية. فما الذي يمكن مطالبة من أشخاص لم تقدم لهم شيئاً، والذين خاطروا بها لديهم للاستقرار بأمريكا ؟ بالإضافة إلى ذلك، كان هذا من الأشياء التي لا نفكر فيها حتى في إنجلترا، الحق الذي يمتلكه الأفراد المترابطون بمصلحة مشتركة بتسيير مسائلهم كما يحلو لهم، ولا تفكر حتى في مهاجمة ذلك، أو منع حرية تنفس كل واحد. وما نتج عن ذلك هو أن المستعمرات البريطانية تحمل معها مبدأ تواجدتها، ولا تحتاج إلى الحصول عليه مع كل يريد وارد من البلد الأم. هذه أفضلية كبيرة، مع اقترانها بالتزايد المستمر لأفرادها بعد الثورات في البلد الأم، مما يفسر التطور السريع الذي

شهدته مستعمرات أمريكا الشمالية. شهدت بعض الأقاليم عددا معتبرا من الوفيات، وهو عامل كان سببا كافيا في تعطيل نموها لبعض الوقت. أريد التكلم عن مزايا الشركات و مالكي الأقاليم التي كانت قوة الأشياء العامل الوحيد لاندثارها في بعض المواقع. وفي مواقع أخرى تم وضع حد لها بحكمة من طرف الحكومات. و هو ما ترك للأجيال القادمة دروسا عظيمة، ومنها أن التنازلات الممنوحة لشخص واحد هي من الأشياء الأكثر ضررا بالنسبة لأي مستوطنة، فلا يمكنها أن تتطور إلا بالعمل الحقيقي، وليس عن طريق التكهنات. و أرجو من القارئ أن لا تغيب عن باله هذه الحقيقة الكبرى.

وبما أن مبادئ السياسة البريطانية لم تكن تسمح لها بمناقشة كمية محددة من الحرية الممنوحة لمستعمراتها، إلا أنها تصرفت بشكل يحمي مصالحها التجارية، فقامت بمعارضة أي علاقة مباشرة لهذه المستعمرات مع الشعوب الأخرى. لقد أرادت أن تعبر كل تجارة هذه البلاد على عبرها. هذا الغرور، وإذا ما طبق على بلد لا يملك مناجم المعادن النفيسة مثل أمريكا الجنوبية، كان سيجلب الافلاس، لولا أن عوامل أخرى ساهمت في ازدهاره. و بالرغم من ذلك، فإن هذه التجارة المجبرة مع البلد الأم فقط كانت سلبية لأمريكا حتى أنه في فترة الثورة أصبحت تدين للبلد الأم بأكثر من مائة مليون.

هذه الثورة قامت بسبب بعض الضرائب التي أرادت العاصمة فرضها

في أمريكا. الإعانات التي كانت تمنحها المستعمرات للعرش كانت دائما تعتبر كتبرعات طوعية مقدمة بحرية من ممثلي كل ولاية، و كذا طموح البرلمان البريطاني الى فرضه بنفسه للمستعمرات، بدا ظالم بدوغة عالية، و نتج عن ذلك صراع بين المستعمرات والعاصمة يعرف الجميع مخرجها. و منذ استقلالها، اكتسبت المستعمرات البريطانية نموها هائلا بعد اتحادها في كونفدرالية تحت اسم الولايات المتحدة الأمريكية. عدد السكان ازداد أكثر من عشرة أضعاف، وهو أحسن علامة من علامات التقدم الإيجابي. لحصلوا على لويزيانا التي تنازلت لهم عنها فرنسا بموجب اتفاقية سنة 1803، و على الكثير من المستعمرات الجديدة المتمركزة بين الأبالاشي و الميسيسيبي مثل الأوهايو، ليلينوا... الخ. لقد تواصل طرد السكان المحليين و لكن الحكومة الأمريكية قامت بهذا الطرد بنوع من المساواة، كانوا يقدمون رشاوى لبعض رؤساء القبائل الأكثر نفوذا ليتحصلوا على اتفاقيات يلتزم فيها السكان المحليون بالتخلي عن المكان مقابل بعض المال.

وبهذا، فإنه وفي سنة 1827 التزمت العشائر التي كانت تقطن البلاد المحصورة بين جيورجيا و الألاباما الجديدة بالهجرة الى الضفة اليمنى للميسيسيبي. و في شمال ولاية نيويورك تم دفع السكان الأصليين عام 1832 الى خارج الحدود التي منحت لهم في الأول.

سكان الولايات المتحدة كانوا يتزايدون بشكل رئيسي بشر جنسهم، الذي كان نشيطا جدا في بلد المستقبل فيه مضمون. كما كان يصل الى البلد

العديد من المهاجرين الأوروبيين خاصة من سويسرا وألمانيا، كان يتم جذب المهاجرين من طرف مالكيين كبار، لم يكن لديهم سواعد كافية لاستغلال أراضي شاسعة، في بلد كان سهلا الحصول فيه على أراض، يمكن لكل واحد لديه رأس مال بأن يستخدم كل الطرق لاستقدام أناس من تلك البلدان البعيدة، والذين جعلهم الفقر تحت تصرفهم، وعندما كان هؤلاء البؤساء يصلون سعيدين إلى أمريكا، لم تكن لديهم أي مصادر دخل، مما يجبرهم على المرور مثلما يريد أصحاب الأراضي، والذين يمتصونهم بوقعهم على التزامات تقضي باستغلال حرفتهم لمدة معينة من طرف السادة الجشعين. وبعد أن يضيّعوا أجل سنوات عمرهم تحت عبودية حقيقية، يتلقون بعض المساعدة وينون بذلك حياة مستقلة. هؤلاء العبيد المتطوعون كانوا سلعة تجارية قابلة للبيع، و يتنازل عنها أو يتم استبدالها بأي ثور أو حصان⁽¹⁾. وبهذا الشكل، أسس الجمهوريون الأمريكيون عندهم نوعا ما تجارة الرقيق الأبيض. تجارة الرقيق الأسود كانت محظورة، ولكن استعباد رجال من هذا اللون كان موجودا في جميع المحافظات الجنوبية، وبما أنه كان ممنوعا وضعهم للبيع، فسيتهي بهم المطاف إذن بالاختفاء عن الوجود. لو علم هؤلاء المزارعون البؤساء، الألمان والسويسريين، المصير الذي كان يتظرهم بأمريكا، لكانوا أقل رغبة في الذهاب، ولكن الحكومات كانت تخفي عنهم ذلك و تتركهم في جهلهم، فمن مصلحتها التخلص من

(1) في محادثة لي مع رجل عمل لمدة طويلة كمزارع بأمريكا، تطرقنا لمسألة من بين آخريات عن صالحي ساهات سويسريين، تعاقبوا معه بالتزام من هذا النوع، وعملية بيع مع أرباح جازمة فرصة القيام بها في ظروف معينة. ولا أدري إن كان الخطأ كله انبعاث مني أو من موضوع شديد منه، حيث لم أفهم في البداية ما هو موضوع

الجزء الثاني، 10.

أشخاص هم عبء في بعض الأحيان على البلديات.
و حتى نختصر الأمور، سنقول أن النظام الاستعماري بأمريكا الشمالية كان
مبنيا على:

- الحرية المدنية والادارية.
 - الطرد المتتالي للسكان الأصليين.
 - استغلال الأرض.
- كانت الحرية المدنية والادارية شيئا ايجابيا، أو بالأحرى انبثاقا للزاميا لمبادئ
وعادات العاصمة أو البلد الأم.
- وأمكن الطرد المتتالي للسكان الأصليين حدوث ذلك، لأن المستوطنين كانوا
يملكون الأسلحة النارية، والسكان المحليون كان لهم قارة يمكنهم الترحال
فيها، ولم يثابروا في الدفاع عن أراضيها التي كانت تنتزع منهم على، سواء بالقوة
أو بالاحتيال.

وكان استغلال الأرض فوريا، وسهلا، وخصبا أيضا، لأنه لم يسجل نقص
في السواعد، فأوروبا أرسلت لهم الكثير من المجتدين للعمل فور حصول
الاضطرابات التي هزتها منذ الظهور الأول للمستوطنات. بمعنى ذلك أن
المستعمرات البريطانية بأمريكا اكتسبت كلها حظوظ النجاح، و مع القليل
من البغض للسكان المحليين، كان بالإمكان استجماع قوى هذا الدم الأوروبي
المعجوز من خلال التحالف معهم، فلقد فقد هذا الدم قوته، ربا في أمريكا
أكثر مما كان عليه في أوروبا، لأن الشعب الأمريكي، وبالرغم من طموحه
نحو الكمال، فهو ليس شعبا مفعما بالحياة. كان بإمكان بريطانيا اخضاعه من

دون الدعم المقدم من فرنسا التي أتت به من إسبانيا، والتي كان تأثير اسمها بأمريكا الشمالية يمنع جميع قبائل السكان الأصليين من الاتحاد ضده. فلم يكن يتوجب، في هذه الفترة، سوى وجود بعض الرجال، مثل الباسل واللامع تيكومسيه Tecomseh، الذي ثار بضرية واحدة لكل الانتهاكات التي تعرض لها السكان الأصليون. هؤلاء الرجال يمكن أن يظهرُوا يوماً ما. الهنود المطرودون إلى ما بعد نهر الميسيسيبي وإلى غرب البحيرات، يمكنهم الاتحاد في شكل أمة وتأسيس حضارة أكثر صلابة، إلى درجة لن تكون فيها عرضة للخطر، كتلك التي تعرضت للقمع والطرود. وهي الأمانة التي أبدتها أحد الرؤساء الشباب للكريك Crecks مام أحد رفقاء لافايات خلال رحلته الأخيرة لأمريكا. وإذا توج المستقبل هذه الأمانة، فلم لا يكون الهنود في هذه القارة الجديدة مثلها كان عليه العرب في القديمة؟

مبادئ يجب أن تتخذ كأسس لاستقرارنا بأفريقيا.

بعد عرضنا في المقال السابق لمختلف طرق الاستيطان والغزو، لنرى إن كان في مثاولنا إيجاد الطريقة المناسبة، لنستخدم في إفريقيا التي نحتل بعض مناطقها. ولنضع للحظة، جانباً، اعتبارات العدالة والأخلاق، ولا نفكر في المسألة من وجهة نظر مادية، ولنفرض أن فرنسا تملك نية فرض سيطرتها بأي ثمن في إفريقيا. فكيف الوصول إلى ذلك؟

هل يفترض بها أن تبعد السكان المحليين أو تفرض عليهم الاستعباد، كما فعل الإسبان في أمريكا؟ إذا ما كان هذا تفكيرها فإن كل قوتها ستتهار في محاولات تطبيقها. فالعرب لا يشبهون تماماً السكان البدائيين لأمريكا الجنوبية، والذين كانوا عبارة عن مخلوقات معزولة وضعيفة. فالعرب رجال بواصل وأشداء، وهم لا يخشون أسلحتنا، وإذا ما دُفعوا دفعاً نحو اليأس فسيصبحون خفيفين.

و هل يمكننا انتظار طردهم نحو المناطق الداخلية و اجبارهم على اخلاء المكان لصالحنا؟ لا يوجد أمل في ذلك، فممكن نظام القمع من النجاح في أمريكا

الشمالية، لأن سكان هذه البلاد المحليين كانت وراءهم مساحة مقدرة ما بين 7500 إلى 9000 كلم، وتمكنوا، مع ذلك من التراجع دون خوف من أن تنقصهم مساحات الأراضي. لكن العرب يعرفون تماما أنه وعلى بعد 250 كم جنوبا، سيجدون بحرا من الرمال، ليست لديهم رغبة الذهاب للاندفاع فيه. فهم يدافعون عن أراضيهم بنفس وحشية الدفاع عن حياتهم وحريتهم. وإذا ما حدث وأن أدت النشاطات المستمرة لكل تفوقنا عليهم إلى طرد بعض القبائل فإنها ستذهب للرفع من وسائل المقاومة التي سيتوجب علينا محاربتها أيضا. وبالأندماج معها بشكل ما، فإن كل خطوة نقوم بها ستجعل قوات عدونا تتركز أكثر، وتصبح من الخطوات التي سنقدم عليها، وبما أن العرب كيتسون وأذكيا، فإن هذا الصراع المطول سرعان ما سيفتح لهم أسرار علومنا العسكرية، وهكذا اذن، سنجد أنفسنا أمام أمة لم تجعلها انتصاراتنا العابرة سوى أكثر قوة وتوحدا، وهي التي ستحاربنا بسميزاتها الطبيعية، مضافة إلى ما تمكنت من تقليده، وسنكون سعيدين إذا لم ينضم اليها العديد من المنشقين. فنكون بذلك قد صنعنا على أبواب مستعمراتنا عدوا رهيبا بقدر ما هو ماهر. وهو ما يتوجب علينا تجنبه.

وبما أنه لا يمكننا محق أو طرد العرب، فهل يتوجب علينا تسييرهم كحكام دون الاستقرار عندهم كمستوطنين، كما فعل الانجليز تجاه الهندستان؟ هذا النظام الذي لن يكون تطبيقه سهلا، سيكون دون فائدة

بالنسبة لفرنسا. فهو يوفر لانجلترا الفوائد التي المتأرجع عليها لأنها تطفها في بلد يملك عناصر تجارية هائلة، ومستقلة عن الأوروبيين، ولكنه سيكون نظاما مقلدا في بلاد البربر أين من الممكن معرفة أن أغلب السلع يجب أن تطلب من الأرض المزروعة بإياد أوروبية، نأو على الأقل بمناهجنا، مما يجبرنا على الاستقرار بطريقة مخالفة للانجليز في بلاد الهند.

وبعد انتهائنا من هذه النقطة، لا يبقى لنا سوى الاستقرار وسط العرب كحكام، وكمستوطنين. ولكن، هل يمكننا ممارسة سيادتنا، حتى نضعهم بسهولة تحت نفس التسمية، أو بالأحرى تحت نفس الحكومة كالفرنسيين؟ أو نكرس للأبد تميز عرق على عرق آخر؟ هذا النظام الأخير كان أسلوب العرب في اسبانيا، وأسلوب الأتراك في اليونان، وفي كل مكان، عيوب خطيرة مرفقة بذلك، فليس هناك سوى اليهود الذين لم يتعبوا من أن يكونوا في مكانة أدنى ومهينة. أما النظام الأول فكان هو أسلوب الفرنكيين في بلاد الغال، مما وفر ميلاد أمة هي الأكثر تماسكا، والأكثر وحدة على الكرة الأرضية، إنها الأمة الفرنسية. إنه نظام الاندماج العقلاني، الوحيد الذي يوفر نتائج دائمة، لأنه النظام العادل الوحيد. الغزاة الذين يتبعونه، أدوات تستعملها العناية الإلهية لتعديل المجتمعات البشرية دوما لصالحها، أما الباقي فهي نكبات عابرة. وهذا يعني دوما أنه يتوجب علينا تبني هذا النظام الأكثر فائدة والأكثر عدلا.

كيف مفهوم بتطبيقه؟ هنا تكمن الصعوبة الكبيرة و لكنها ليست مستحيلة التجاوز. فإذا كانت فرنسا قادرة على إرسال خلال بضع سنوات 50000 رجل لأفريقيا، فسيكون من السهل احتلال كل المواقع المهمة، من تلمسان إلى قسنطينة، وكذا تشكيل بلديات، والهيمنة بهذه الطريقة على شعوب خاضعة بكل سهولة إذا لم تجد نفسها مهددة، لا في حريتها ولا في ثروتها. ستعطي إذن، لمختلف القبائل العربية، حقوق المستوطنين الفرنسيين كمكافئة عن حسن تصرفهم واحترامهم للقوانين وتطورهم في أعمالهم الزراعية، وبالعيش وسطهم على عمل المساواة، وبتقبلهم وسط عائلاتهم، وبالاندماج معهم، وبمقاسمتهم أعمالنا ومتعتنا، فإننا سنجلب التمازج المرغوب. فالتقطة المهمة ستكون بتشجيع التحالفات المختلفة وإضعاف الأحكام الدينية المسبقة دون تدمير للمعتقدات. وهو شيء ممكن تحقيقه.

أكبر حاجز يعترض هذا الاندماج سيأتي ربما من الأوروبيين. فالتجربة تثبت، للأسف، أن الأفراد المستقرين في المستوطنات لهم حيطة من السكان المحليين أكثر من الحكومات نفسها، حتى الأقل تفتحاً منها. ولقد رأينا أمثلة مؤسفة في المقال السابق. وهذا يعني تواجد أحد ما على رأس أقطابهم، ممن خرجوا من مواقف صعبة وأصبحوا جشعين عند وصولهم هذا البلد. إنهم بالإضافة إلى ذلك، قليلو العلم عامة ويحسون بالشائط، وما من شيء له اعتزاز كبير سوى الجهل. فيجب أن تراعي أكثر تلقين

الأوروبيين. على أن نعلم السكان المحليين، وأن نفهمهم جيداً أن الاندماج سيكون لصالحهم بقدر ما هو في صالح المحليين، وأن لا يتم قول سوى أولئك الذين تخلوا عن كل أفكارهم المسبقة نحو الأعراق، بل الوظائف العمومية. ومع هذا، فمن بين جميع الأوروبيين، يوجد لدى الفرنسيين استعداد مؤسف، نحاول محاربتهم، ولكنه الأقل ترسخاً.

ومن جانب السكان المحليين ما يبدو أنه أكثر ما سيعارض الاندماج، من الأعراف الدينية، لكنه، ولحسن الحظ، يوجد ببلاد البربر رجال دين مجلدين، هم المرابطون الذين هم على العموم رجال سلم ومصالحة. فيجب الاستفادة من هذه الميزة⁽¹⁾. العديد من هؤلاء الرجال مستثرون ومثقفون بالقدر الكافي لفهم أحسن من المسيحيين، بأن المحمدية ليست في الأخير سوى طائفة من المسيحية، وإضافة إلى ذلك، هل يوجد الكثير من المتدينين المسيحيين بيتنا؟ من المؤكد أن العرب يعلمون أننا لا مبالون دينياً. وهذا يعد ضماناً لهم بعدم ازعاجنا لمعتقداتهم الدينية. وما تبقى لدينا من عقيدة لا تدهشهم كذلك، لأن هذا الإيمان تقدمي، هو معتقد شاتوبريان ودولامولي، فهي تتعاطف مع كل العقائد. إنها

(1) أنه لمن المؤكد أن أشهر المرابطون لم يظهروا كعابدين عن المسيحيين، ويمكن العودة إلى السير الذاتية لأحمد ما ذكرناه عن بن عيسى و سدي محمد. وفي قصيدة المقطع فإن حياة الأسرى الفرنسيين أطلقت على يد مرابطين وبعض الفارين من الغيل الأجنبي عادوا إلينا لأنهم وجدوا أنفسهم وسط العرب وأكتوا لنا أنهم وجدوا دائماً المساعدة و الحماية عند المرابطين حتى حين أبوا رغبهم بالعودة إلى المسيحيين.

هي التي ذكر الانجيل أنها ستقوم بتغيير أماكن الجبال، بمعنى صنع شعب واحد من بين كل الشعوب، وعائلة من بين كل العائلات ورجلا من بين كل الرجال.

أعلم أن نظام الإدماج سيقابل معارضة كثير، ولكن، ما العمل؟ هذا قدر كل الحقائق المقيدة. ومع هذا، فإن فكرة خلق أمة شابة وقوية من كل العناصر التي تلتقي بالجزائر في الوقت الراهن، سواء كانت محلية أو دخيلة، من الذين يمكن أن يتدفقوا عليها، فهي فكرة عظيمة في حد ذاتها، ما يتطلب التوقف عندها للحظة. الرجال الأكثر تحيزا لا يتجرؤون على التطرق إليها مبدئيا، ويكتفون بإحالتها للطوباوية أو الخيال المثالي. ولكن، لم كل ذلك؟ فامة مثل الأمة الفرنسية، تمكنت خلال بضع سنوات من أن تغير تواجدها السياسي والاجتماعي، لدرجة أن آباء آبائنا لن يتعرفوا على موطنهم لو خرجوا من قبورهم الآن. فهي أمة أدارت ظهرها بشكل عنيف لماضيها، حتى لم يتبق له أي أثر، فهل وجب عليها التضييق في حدود الإمكان في النظام الأخلاقي لدرجة الاقتناع بأنه لا يمكن إجراء أي تعديل في كونهم عربا! لنفرض أنه بعد خمسين سنة بعد هذا، سيوفرون لنا جنرالات لجيوشنا، أجهزة لقوانيننا، نوابا لمجالسنا التشريعية، ورسامين لورشائنا، ألن يكون هذا التغيير أكثر إفعالا من ذلك الحاصل في فرنسا سنة 1780 وفرنسا سنة 1830؟ فكم من

آباء همج البيريني، والأفيرون، والبروتان... هم الآن من بين وجهاء مجتمعاتنا فلم يظنون أن همج جبال الأطلس والمنيحة، لن يكونوا قادرين على الوصول إلى هذه المراتب العليا؟ فلتتبنى أن ترى فرنسا في العرب أناسا تقدميين مثلنا، ولقد لهم يد المساعدة، ترفعهم إلى صف الأمم بتبنيهم كأبناء لها. لكنها لن تصل إلى الاندماج بمجرد إعلانها أنها تظنه حدوثه ممكنا، بل يجب عليها كذلك أن تفتح له الدروب. ومن أجل ذلك، لا يجب عليها الانتظار أن يقوم العرب بكل المساعي، فيجب عليها القيام بجزء من ذلك بنفسها. يجب أن تكون القوانين منطوية على متطلبات الدوائر المحلية، وأن تكون هناك امكانية تشكيل عائلات مختلطة حسب الأعراف المتواجدة في البلد، وأن تقترب تنظيما القضاة والإدارية من البساطة العزيزة عند هذه الشعوب. وسنريح أكثر منهم بهذا التغيير.

أنا لا أعرف إن كنت أسيء الفهم، فكلما نهلت من دروس الماضي، وكلما أعمت النظر في ملفات الحاضر والوقائع الحالية، وجدني في النهاية أجمع بين كل احتمالات المستقبل، فإن ذهني يفيض قناعة بإمكانية حدوث الاندماج بين وبين العرب. ولكن، إن كنت تحت اغراء أوهام كاذبة، وإن كان وطني الأكثر اطلاعا، يعتبر ذلك مستحيلا، وبذلك لا تعمل شيئا لتحقيقه، فيتوجب عليها التخلي عن إفريقيا التي لن تكون في هذه الحالة سوى عينا مزعجا لنا. لأننا إذا ما أعطينا للعرب تخمينا عن نفور الفرنسيين، مما يلغي أي تقارب أخلاقي

بين الشعبين، ونظرا لسلالتهم، فمن الواضح أنهم سيقضون بالطبع الاعتراض
كأسياد بمن رفضوهم كإخوة. بهذا، ستولد بيننا وبينهم حرب مستمرة،
ستكلف فرنسا الكثير من الدم والمال، من أجل الحصول فقط على بعض النقاط
التجارية الضعيفة على الساحل، والتي ستكون مجبرة على التخلي عنها آجلا
أو عاجلا، مثلما فعل البريطانيون بطنجة والاسبان بوهران. ومن هذا نستج
أن نظام الاتحاد هو الوحيد الممكن تطبيقه وإن كان ذلك غير ممكن فيجب
الرحيل، وخير البر عاجله.

و لنفرض مع هذا أنه يمكننا إجبار السكان الأصليين على النزول عن
المكان لصالحنا، هل نحن متأكدون من أن نحل محلهم؟ هل نحن في فترة تكون
فيها الهجرات الكبيرة ممكنة؟ وهل الأسباب التي جعلت أمريكا الشمالية أهلة
بالسكان هي الآن متوفرة بأوروبا؟ وهل يجب علينا النزول عن محاولة الاستعادة
من الرجال الذين سجد لهم هناك، مع أمل تعويضهم بعناصر أكثر انصياعا إذا
ما أردنا ذلك، والتي قد لا نستمكن من جميعها؟ هذه بالتأكيد تساؤلات في
الصميم. اعترف للحققة أنه سيكون من المستحب أن يكون لدينا في الوصاية
أوروبيون فقط، لكن، هل هؤلاء الأوروبيون سيعربون في المحي؟

لن يأتوا إلا إذا ما اضمحلت كل أسباب الحرب والدمار من المستوطنة،
إلا إذا ما عم السلام والنظام. ولن يعم السلام والنظام إلا بعد أن تكون قد
أسست البلد. ولا يمكننا تأسيس البلد إلا بالعناصر التي هي تحت أيدينا، وهذه
العناصر تمثل في السكان المحليين.

لقد تكلمنا عن 50.000 رجل لضمان هيمنتنا على نقاط الوصاية في نفس
الوقت، وتحضير الأرضية لتطبيق النظام الوحيد الذي نراه مقبولا. فبوتابارت
أخضع مصر بأقل من ذلك، ولكن ثم التيل كان يعطيه جبهة ممتازة للعمليات،
لا تملكها نحن هنا. فب 50.000 رجل سنضمن غزو كل البلاد تقريبا، دون
إراقة للدماء، فالعرب إذا ما تم تهديدهم في كل الأنحاء لن يمكنهم التكتل
في أي مكان، وتطبيق النظام سيصبح سهلا. وقد أتسرع بالقول أنه بعد
عشر سنوات من تطبيق هذا النظام، فإن فرنسا ستمتلك في إفريقيا أكثر من
4.000.000 من اتباعها المخلصين. صحيح أن عشر سنوات من الاحتلال
ستكلف فرنسا ضعف ما تكلفها الآن، والمقدر بـ 20.000.000 فرنك،
ولكن الإيرادات التي لا تعدى في الوقت الحالي 2.000.000 فرنك ستؤول
إلى الارتفاع، ويمكننا أن نقول إنه في نهاية العشر سنوات ستغطي كل التكاليف
التي ستخفف باستمرار، ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار كذلك ارتفاع
مداخيل الجمارك الفرنسية، والتي جعلها الاحتلال المحدود بسيطة، والتي
ستصبح معتبرة أكثر إذا ما قامت التجارة التي المارة بتونس وموانئ سلطنة
المغرب بالعبور عبر عنابة ووهران. وهو ما ستكون له نتائج فورية على مستوى
الخضوع التام للبلد.

وفيما عدا ذلك، فإننا ستكون محطتين إذا ما فكرنا أن وصاية الجزائر يمكنها،
في يوم ما، أن تكسب فرنسا ربحا صافيا. فكل ما يمكنها فعله، حتى في ظل
ظروف إيجابية هو تغطية مصاريفها.

لا يمكن اعتبارها، في المستقبل الآن، كمزرعة يمكن استغلالها لصالح
الضرائب، لأن البلد الأم، ورغم مصادره الهائلة بالكاد يمكنه تحمل مصاريف
إدارته. فكيف يمكننا أن نتوقع من بلد، حيث يتم إنشاء كل شيء فيه، أن يدفع
جزية لفرنسا، بالإضافة إلى المساهمات الضرورية لتغطية الانفاق الداخلي؟
فأفريقيا ستحقق اكتفاء ذاتيا إذا ما تمت إدارتها جيدا، وهذا كل ما يمكننا النظر
أو المطالبة به. الجانب الإيجابي لفرنسا هو النمو التجاري الذي يصبح كل سنة
أكثر اعتبارا، وكذا توسيع القوة البحرية والعسكرية الناجمة عن خلق أمة جديدة
تتحد معها بروابط ودية، والمصلحة المشتركة. وبالإضافة إلى ذلك، فهنا وجدت
من بين كل هذه التضحيات، سوى المجد الذي يرتبط بكل هذه المشاريع الكبيرة
التي يجب أن لا تتردد في القيام بها. فبالرغم من كل ما يقوله رجال الأرقام،
هو الشيء الوحيد للمجد في حياة الشعوب، خاصة إذا ما كان هذا المجد نقيًا
وعزيزًا، ولا يرمي إلى الغزو والدمار، بل للتنظيم والبناء.

لقد سبق وأن صرفت فرنسا الكثير لأجل الجزائر، أقل مما أعلنه معارضو
الاستيطان ولكن مع هذا اكتفاء برغبة عدم تبذير أموالها في خسارة بحتة.
لقد حان الوقت لأن تشغل بجدية، يجعل هذه الشبهات تنتج مدخولا في
المستقبل. ويظهر أنها تراجعت أمام الغزو، والتنظيم في وقت واحد للرصاصة،
لأنها سحقت تحت وطأة إدارة مدمرة وسيئة تماما، ممثلة بالجزء الأقل صرامة،
ويمكن القول الأقل تنويرا في المجتمع. وبعد كل شيء، فإنه يعتبر الأسلوب
الوحيد للاقترب من نهاية هذه التضحيات. وهذه رؤيتنا لكيفية سير الأمور.

في حالة ما إذا أرادت فرنسا مع هذا، أخذ الأشياء من هذا الجانب.
بقرب نهاية شهر ماي، أين تكون الأراضي مغطاة، ويكون العرب يرتحفون
لحاصلهم، يكونون عادة أكثر تكييفا من أي موسم آخر من السنة. سيتم تشكيل
ثلاثة جيوش بالجزائر وعناية وهران.

الأول بقوة 10.000 رجل، سيتوجه نحو إقليم التيطري وسيؤسس
بالمدينة مستعمرة فرنسية، ويترك بها حامية عسكرية، وسيحوب بعدها البلاد
مع تعيين القباد في كل الأوطان، وبمدعم بكل الوسائل التي تساعد على
فرض سلطتهم. حاميات عسكرية محصنة جيدا سيتم وضعها في كل من حمزة
والبرواقية. الجيش الذي قلص إلى 6000 رجل سيعود إلى إقليم الجزائر عبر
بني جبد وسيباو، أين سيتم فرض السلطة الفرنسية في كل تلك المناطق، وإقامة
حامية بحصن سيباو وحصن تيزي وزو، أين تجمع حولها قبائل الزمول القدامى
في البلاد. وتتوجه بعدها إلى شرشال، أين سيتم ترك حامية بـ 1000 رجل في
هذه المدينة وباقي الفرق ستعود إلى الجزائر داخل المعسكرات المجاورة لها.

الجيش الثاني بقوة 15000 رجل، سيتوجه من وهران إلى تلمسان ومنها إلى
معسكر، القلعة ومازونة ومليانة، مع وضع السلطة الفرنسية لحامية عسكرية
بكل هذه المدن. تحركات هذا الجيش ستكون متتفة بشكل يجعل وصولها إلى
مليانة يتوافق مع وصول جيش التيطري إلى شرشال. و من مليانة ستعود إلى
وهران عبر مستغانم وأرزيو. جيش عناية بقوة 15.000 رجل مثل جيش
وهران، سير مباشرة إلى قسنطينة، ومنها نحو غرب الإقليم. ستترك حامية

بقسطنطينة، وزمورة وعند بيان الحديد، ومستعود إلى قسطنطينة حيث يلعب جزء من الجيش لاحتلال سطورة وجيجل. أما فيما يخص بلاد القبائل، أي جبال بجاية والقلعة، فلا أدري إن كان يتوجب علينا احتلالها حالياً. كل هذه العمليات لن تأخذ أكثر من شهرين. العرب الذين سيعاملون جيداً ويعلمون مسبقاً بأهدافنا لن يبدوا أية مقاومة في أي مكان، ما عدا المواقع التي حل رأسها عبد القادر وباي قسطنطينة. الجيوش ستكون مقسمة كالتالي، بعد الغزو أو بالأحرى، بعد عملية الاستحواذ:

الجزائر وضواحيها	10,000 رجل
بوفاريك	500 رجل
شرشال	1000 رجل
مضيق الشبة	200 رجل
مياو	500 رجل
دلس	500 رجل
البلدة	500 رجل
المجموع في إقليم الجزائر	14,200 رجل
المدينة	2000 رجل
البرواقية	500 رجل
حمزة	1500 رجل
المجموع في إقليم الشطري	4000 رجل
وهران وحصونها	1500
الجزيرة	200

سغانم	1000
معسكر	4500
تلمسان	2000
ملوثة	2000
مزاوثة	1000
تلس	500
جسر الشلف	300
الثامنة أو غزوة	2000
المجموع في إقليم وهران	15000 رجل
قسطنطينة	8800
غانية	1800
سطورة	1000
زمورة	1800
بيان الحديد	2000
جيجل	1200
المجموع في إقليم قسطنطينة	15800 رجل

بعض الأشخاص سيحدثون، ربما أن الفرق الموزعة بهذا الشكل ستكون أكثر انتشاراً ولكن، يجب ملاحظة أنه إذا ما تم تقسيم كل مركز للمقاومة، فإن هذا التبعثر سيكون دون خطر، وسيكون هدفها الشل، دعم استقرار المستعمرات الأوروبية على نقاط متعددة في آن واحد، ويمكن بالإضافة إلى ذلك، للتوزيع على مناطق متعددة أن يجعل القوات جاهرة

لأي تدخل مع أولى أعراض أي ثورة. و في البداية، لا بد من تواجد بعض الفرق الصغيرة المتنقلة التي تمضي غالبا من حامية إلى أخرى، لاستطلاع أمور البلاد و دعم سلطة القياد الذين يعملون لصالحنا إذا ما تطلب الأمر لذلك؛ و يبقى مفروضا بطبيعة الحال أن يكون استعمال القوة الملموس بهدف فرض النظام و العدالة، و أن يتم تطبيق نظام الاندماج بواسطة وسائل أخلاقية تم مسبقا تطويرها و بعيدا عن أسلحتنا الحضرية.

ستكون عملية الغزو المتزامنة أسهل عن طريق المفاوضات عوض الأسلحة. و لا توجد أية مقاطعة كان لنا فيها علاقات متواصلة مع القبائل القوية إلا و كان نصفها قد خضع لنا. و ستكون ذات عون كبير لنا للتعرف على الأماكن و تموين مخازننا. و لكن ما يجب مراعاته في علاقاتنا مع السكان الأصليين هو تجنب استعمال الخدمات الاستغلالية لأصحاب الفتن عديمي الخجل و عديمي الوطنية الجاهزين دوما لتلطيح سمعة أولئك الذين يستخدمونهم لإرضاء جشعهم المنحط و المستبد في الكثير من الأحيان.

و حالما تستقر المستعمرات الأوروبية و يصبح البلد منظما و آمنا، ستختفي كل عوامل الاضطراب، و سيكون لمليشيات محلية مكونة من أوروريين و أهالي أن تعوض أغلب الحاميات الفرنسية التي لن تتمركز سوى في عواصم الأقاليم، و يمكنها فيما بعد ترك البلد لقواه الخاصة و الانسحاب كليا.

خلال عشر سنوات، ستشكل الأمة الجديدة الغالو-جزائرية (gallo-algérienne) وحدة متكاملة، متمثلة في شعب لا يزال مولودا صغيرا لكنه ذو بنية جيدة، و الذي سينزع حفاظاته الأخيرة بعد مرور عشرين سنة و سيتمكن من الانتقال بكل شبابه و حيويته إلى المستقبل.

و باعتبار خطته تبدو عظيمة لدى الأشخاص الذين يظنون أنه يتوجب على فرنسا عدم الإقدام على أي خطوة كبيرة، فإنه لا بد من إضافة مبالغ معتبرة لتلك التي كلفتنا الجزائر لحد الآن، لأنه حسب طريقتنا في تسيير الإدارة و الحرب و حسب التبذير و أخطاء النظام و الحسابات، و كذا كل الخبث الذي يلف كل خطواتنا، فإنني لا أظن أنه يستوجب أقل من 300 مليون فرنك تصرف خلال عشر سنوات، منها 100 في السنة الأولى للتمكن من القيام بهذا المشروع بشكل جيد. لكنه بعد عشر سنوات فإن إفريقيا لن تصبح مكلفة لفرنسا بل على العكس ستصبح أحد عناصر رخائها. الاحتلال المقيد سيكلفها خلال نفس المدة 230 مليون و لا يمكن تحديد مدة تفضحياتها. لأنها إذا لم تكن قط سيادة البلد فإنها لن تتمكن بأي شكل من الأشكال من التحكم في الأحداث الواردة.

الأمريكي شالر Shaler، هذا الرجل الحكيم و الذي لحد الآن برهنت الأحداث كل توقعاته، كان يرى أن الغزو و حضارة هذا البلد الرائع إيجابي بشكل كبير للأمة التي تقدم عليه و القيام به سهل جدا. و أوصى بنظام الاندماج و لم يشكك في أن الغزو يجب أن يكون عاما و فوريا. و يصر أن

الجزء الثاني، 11.

أدعم بهيئة إسمه آرائني الشخصية على خطة من شأنها ضمان مستقبل الوصاية مقابل بعض التضحيات العابرة، و لكنني بعيد عن تأمل أن من يتحكمون بمصيرنا يقاسمون شالر قناعاته. ففي فرنسا نادرا ما نتصرف وفق نماذج مخطط لها لمدة طويلة و بعناية و إصرار مسبق. فنحن نعيش اليوم في يومه حسب نزوات الوقت الراهن و أهواء الزمر، فنحن أحيانا سخيون و أحيانا بخلاء، و تقريرا دوما في اتجاه معاكس. و كما جرت العادة، فإننا مستقبل بصرف من ٠٢ إلى ٥٢ مليون في السنة و إلى أجل غير مسمى و في أغلب الأحيان بدون فائدة تذكر للمستقبل، و أكيد أننا لن نذهب بعيدا. لذلك يتوجب ضبط أنفسنا في هذا الجانب. فإذا كانت حكومة الجزائر غير مرتبطة بعاداتنا الإدارية و توفرت لديها من ٠٢ إلى ٥٢ مليون و تمكنت من خلق مصادر في هذا البلد، و نظمت فرقها العسكرية و إدارتها كما تشاء، فإنها ستتمكن من الهيمنة على كل البلاد بالعمل و البراعة رغم الندرة الواضحة للوسائل المتاحة. و إنه لمن المؤكد أنه لو كان لدى عبد القادر ربيع ذلك فقط لكان قد بسط هيمنته على كل شمال إفريقيا، و هو شيء لا يمكن لأي محافظ للجزائر القيام به. إن سوء الاستغلال هي فطرة ملحة نكرسها المصالح الشخصية التي يجب التخلي عنها و محاربتها بالقوانين و الأعراف. كل مستقيم يذهب إلى مكانه المحدد مسبقا و كما يقال، كل فلس يعلم الجيب الذي يدخل فيه. نحن بحاجة بالضرورة إلى أفواج جيوش منظمة بطريقة معينة تلبس بدلة كهذه أو تلك، عدد الضباط فيها كذا و تعداد المهندسين و الموسيقين كذا و كذا و هو ما سيكلفنا مبلغ كذا. نحن بحاجة إلى إدارة عسكرية متكونة من

الجزء الثاني، 11.

ذاك العدد من الأفراد التي تقوم بهذه الأشياء و لا تقوم بتلك، مأخوذ من فئة معينة و ليس من أخرى، يمررون الوثائق عوض إنتاج شيء فعلي. نحن بحاجة إلى عدد معين من الجنرالات و عدد معين من ضباط هيئة الأركان الذين يضيعون وقتهم في كتابة رسائل بلا معنى، ضباط هندسة عسكرية كحرفي بناء يدفنون في الجير و الملاط ما علمتهم إياه بكل عناية الطبيعة و التربية العلمية من أفكار نيرة، نحن بحاجة إلى إدارة مدنية روتينية و مكلفة. والجدير بالذكر أن كل هذا يمكن تنظيمه بطريقة أخرى و أكثر اقتصادا بحيث أن شيء يكلف هذا المقدار إذا ما قمنا به بهذه الطريقة و لن يكلف سوى ذلك المقدار إذا ما قمنا به بتلك الطريقة، و سيذهب كل شيء سدى. و لن نتوقف عن ذلك أبدا، يتوجب على حكومة الجزائر أن تتصرف بما يتوفر لديها من عناصر مطابقة لما يناسب لائحة القواتين. هذه العناصر هي 21.000 رجلا يجب دفع رواتبهم، إقطاعهم و التكفل بهم، بعض المال للأشغال العمومية و المصاريف المدنية، بعض الملايين من الفرنكات للمحالات غير المتوقعة و مصاريف المفاوضات مع العرب. بهذه الوسائل القليلة التي يكون استخدامها ثابتا، فإنه من المستحيل القيام بغزو المناطق الداخلية للمواصبة في آن واحد فتبقى محاولة الغزو المتعاقب. و لأجل هذا لابد من الحفاظ فقط على مواقع بحرية و عسكرية في الشرق و في الغرب و تركيز كل قوى الأداء في إقليم الجزائر، مع السعي لتأسيس حكومات إقطاعية بأقاليم: قسنطينة، وهران و الشيطري وفقا للنظام الذي اعتمدته الجزائر كلوزيل عام 1830 و الذي لم يتمكن من الحصول على تنفيذ له إلا تحت ظروف

لم تكن جوهرية. و رغبة التصرف بطريقة أخرى أي انتشارنا الكبير بوسائل غير كافية يعني جعلنا إعطاء في كل مكان. و سيكون خطأ مماثلا للذي جلب اليه السلطة البرتغالية في بلاد الهند.

إن نظام الاندماج المعتمد في إقليم الجزائر مع إدارة جيدة و أبوية و النظام و الحدود السائد في المنطقة، هي كلها عوامل ستجعل العرب الذين يعيشون به أعيان و سعداء. و رؤية الرخاء الذي يعيشون فيه لن تتأخر في إعطاء مفعوله لدى القبائل البعيدة و ستغيب في الدخول تحت لواء الدولة الجديدة التي ستتميز بهذا التلاحق المتالي، و التي قد ينهي بها المطاف لاحتضان كل الوصاية. إنه لمن المؤكد أن تطبيق هذا النظام سيكون صعبا بعض الشيء، فلا يوجد به شيء كبير أو شيء شهم و يناسب مقاس رجال دولتنا، فنحن نعلم إذن أنه من المناسب التوقف عنده و أريد إعادة التنويه إلى أنه لا يمكننا التحكم في الأحداث إذا لم تكن سيادة البلد. و بهذا يمكن للغزو التدريجي أن يتلقى منافسة خطيرة مثل تلك التي يمثلها عبد القادر.

إن البريق الذي سبغ من الغزو الفوري و الأثر الذي ستركه في الأذهان سيجذب الكثير من الأوروبيين نحو إفريقيا. و بالاحتلال المحدود متحصل بالضرورة على القليل منهم.

في هذه الحالة أو تلك، يجب التفكير في تشييدهم بطريقة إيجابية لهم و للدولة. لقد أشرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب عن مساوئ استيلاء المضاربين على الأراضي المتاحة. و لقد أثبتنا أن المزارعين في ضواحي الجزائر سيكونون تحت

همهم و أن الإنتاج الثقيل بأرباح المضاربة سيغالي كثيرا. و لقد اقترحنا لعلاج هذا الأمر إحداث إجراءات تشريعية تجبر المضاربين على التنازل عن الأراضي بسعر البيع إلى الكادحين. و إذا كان هذا الإجراء قاسيا وفقا لبعض الأفكار التي ليس هنا المكان المناسب لمعارضتها، يمكننا تحقيق الهدف بالجمع بين تدبيرين اثنين سهلا التطبيق. فالدولة تملك بالنتيجة أراضي شاسعة قما سابقا بوصفها للقاري. و إذا ما وهبتها للعمال على شكل قطع بأسعار منخفضة فإنها تشكل منافسة للمضاربين لا يمكنهم مواجهتها و بهذا تبقى أراضيهم بوراء و عند وضع ضريبة على الأرض غير المستغلة سيكونون مضطرين إلى بيعها بأسعار منخفضة و بهذه الطريقة ستصل الأراضي إلى أيادي متجبن قعليين و هم الوحيدين من يتوجب أن يمتلكوها في كل المجتمعات الجدة منظمة إلا إذا ما بقيت مع ذلك ملكيتها محصورة.

إن نظام المزارع سيكون غير معقول في إفريقيا و لا توجد سوى مصيدة الملكية التي تمكن من جذب العمال. فالأوهام الخادعة قادت المزارعين المساكين إلى أمريكا و هناك من لم يتمكنوا من التراجع عن خطاهم و هم على بعد آلاف الأميال عن أوروبا. و لكن هنا على أبواب أوروبا فإن الأوهام مستحيلة لذلك لابد من الواقعية. فالمضاربون بالأراضي لا يجب أن يتوقعوا القيام بتجارة الرقيق الأبيض بالجزائر. و علاوة على ذلك، فلنأخذ رأينا في الجزء السابق كيف أن هذه الانتهاكات للملكيات الكبيرة أضرت بازدهار العديد من الدويلات الناشئة و كيف توجب على التشريع أن يجد منها أكثر من مرة.

ولأجل ازدهار الجزائر، وجب على العامل أن يكون مالكا وليس مزارعا. لكن سيقال: أين لهم برأس المال؟ وبالفعل، هنا كما في أماكن أخرى، توجد في المصنعات الحديثة هذه الآلة الرهية التي تضع أدوات العمل بين أيادي غير متجة تجبر العمل على دفع مستحقات للكسل. وبما أنه الأمر على هذا النحو أي ملزمون بدفع مكافئة للكسل فليكن على يد صاحب مزرعة مجتهد، وإليك الطريقة:

عمل الإنسان له قيمة يمكن تقديرها بالمال، فلنشكل شركات من المستخدمين والمساهمين حيث تكون هذه القيمة هي أساس الأسهم فيها، كل فرد من الشركة سيمتلك أسهما حسب كفاءته و يدفع ثمنها سواء بالمال أو بالعمل أو بالأرض. الإيرادات ستقسم حسب الأسهم. ولتوضيح الفكرة: لنقدر بـ 500 فرنك العمل السنوي للرجل الواحد. العامل الذي يضع ساعديه في العمل وحقلا بـ 500 فرنك سيمتلك سهما. والمساهم الذي يدفع 500 فرنك سيمتلك سهما. و بـ 500 فرنك ستبتاع الشركة كل ما يلزم لعملية استغلال الأرض والمدخول يتم تقسيمه على ثلاث أسهم. والآن يمكن تعميم ذلك على مقياس أكبر. ولدينا إحساس بأن مشروع الشراكة يحتاج إلى التطوير ولكننا طرحنا الفكرة المبدئية له.

إذا ما تحصل العمال على بعض التسيقات يستطيعون التشارك فيما بينهم للعمل في الميدان التجاري وهذا هو المفضل. التكاليف ستكون بهذه الطريقة أقل اعتبارا. فعلى سبيل المثال، عوض الحصول على محراث، مشط

وراج من الثيران أو أي شيء آخر لكل القطعة الأرضية، يمكن الحصول من ثلث لكل ثلاث قطع أرضية أو أكثر، حسب طبيعة الأغراض. ولا أحد يجهل قوة الشراكة لإنتاج آثار كبيرة بوسائل صغيرة. فإذا ما شجعت حكومة الجزائر الشركات فإنها ستجذب عددا هائلا من العمال إلى المستوطنة الجديدة.

يمكننا تجربة هذا النظام على العسكريين من جيش إفريقيا، الذين تقدم لهم تسيقات دون أن يكلف شيئا للدولة. هناك نقاط في البلد من الواضح أنه من الضروري احتلالها مهما كان التوسع الذي نريد إعطاءه لغزونا. ألا نستطيع وضع جنود بها يكونون في آخر سنة من الخدمة و يودون الاستقرار بإفريقيا؟ سيتم إخراجهم من الفياق التي يتمنون إليها ولكنهم سيستمرون في أخذ أجورهم واستحقاقهم منها. ثم يتم تشكيلهم في شركات يسيرها ضباط سابقين لهم نفس النزعة.

فعند حصولهم على المواد الغذائية والياب لمدة سنة فإنهم سيستخدمون تقريبا معاشهم بالكامل لشراء الحيوانات والأدوات اللازمة لعملهم، بشكل يجعلهم في استقرار كامل بحلول نهاية العام. وقد شاءت الصدفة أن تملك الدولة أراضي جاهزة في نقاط مختلفة من النتيجة، وجب الاهتمام بها لأنها في الوقت الحالي المنطقة الأهم بالنسبة لنا. ويمكننا الحصول على هذه المستعمرات العسكرية دون تكاليف، ومن المرجح أن تتزايد بشكل مذهل في غضون سنوات، ستزوج هؤلاء المستوطنين الجدد بنات قدامى المحاربين

التواتر يوجد العديد منهم في البلد، ثم و بمرور الوقت يمكنهم الاقتران بالبنات المحليات و هذا سيكون أفضل، و لا أرى أي مانع معقول يمكن أن يقف في وجه هذا المشروع ذو التطبيق السهل و الاقتصادي.

بعد كل مسائل الإنشاء و الاستقرار المبدئي تأتي مسألة التواجد السياسي للمستوطنة. فهي مسألة خطيرة يتوجب التفكير مليا بها. الدروس المستفادة من التاريخ أثبتت أنه لا يمكن لأي بلد أن يزدهر دون حرية، و أن المستوطنات - التي تريد البلد المستعمرة لها الإمساك بها باستمرار و استغلالها في إطار ضيق لمصلحة الضرائب، أو تلك التي تضعف أو تفصل بعنف عن البلد الأم التي - غالبا ما تشكل عبء كبيرا و غير منتج.

فكل رجال الاقتصاد الحديث و على رأسهم ج. ب. ساي J.B. say التي تتحسر العلوم السياسية و التربوية على فقدانه مؤرخا، يظنون بأن الشعب الحكيم لا يتوجب عليه تأسيس مستعمرات إلا باستخدام الفكر و بهدف تركها فور عدم حاجتها لمساعدة البلد الأم. و يشيها بصغار الطيور الذين يتركهم والداهم لقواهم الشخصية حالما يصبحون في وضع يقدرون فيه السعي من أجل البقاء. لا يجب التفكير في أن هذا النظام سيكون غير مريح للشعوب التي تأسس المستعمرات على هذا الأساس؛ لأن المستعمرات تجمعها بالبلد الأم اللغة و عادات و أصول مشتركة، تتأخذ طبيعتها من عاداتها التجارية، و تجارتهم تصبح أكثر نموا كلما كانت الحرية التي يتمتعون بها أكبر. شالر Shaler و حشد كبير حتى

الأنجليز منهم، اعترفوا بأن بريطانيا تستفيد أكثر من ذي قبل من أمريكا من أن حصلت على انفصالها. و بالإضافة لذلك ينصح ج. ب. ساي J.B. say بمستعمرات مستقلة مع تنديده بإقامة مستعمرات تابعة. و لقد أشار - قبل فترة طويلة من تفكير فرنسا بالجزائر - إلى شمال إفريقيا كمكان بارد و مناسب لاستقبال مستعمرات من هذا النوع. و حسب رأيي فإن هذا دليل على بعد نظر هذا الرجل المشهور.

علاوة على ذلك، فإن شمال إفريقيا مجاورة لفرنسا لدرجة أن هذه السلطة ستأخذ تجاهها - عندما يحين الوقت - موقفا وسط بين التبعية و الاستقلال المطلق: سيكون بإعلانها جزءا متحميا لإمبراطوريتها و منحها نفس الحرية السياسية التي تتمتع بها. و في هذه الحالة يجب توفيرها على استقلاليتها أكثر مما يوجد في دوائرها و بالخصوص تشريعات أكثر بساطة. و لن يغيب عنا أن الإدارة جد معقدة و جد مكلفة بفرنسا، لدرجة سيصعب على هذا البلد الجميل و الرائع تحمل ثقلها. و تطبيقها بإفريقيا هو كسحق صدر طفل صغير تحت ركة عملاق. فتجاوزات المركزية المطبقة في هذا البلد شيء رهيب، و لقد كان ذلك كفاية لحرق أرواح كندا رغم أنه لم يكن في ذلك الوقت مفرطا فيه مثل اليوم. يجب مناقشة مصالح الجماعات المحلية داخل الجماعات المحلية. فأولئك الذين تهتمهم مصلحة شيء ما هم من يتوجب عليهم الاهتمام به.

و بالتالي، فإن تحقيق الاندماج مع الأهالي و التوجيه الجيد للنشاط

الاستيطاني و الحرية الإدارية أولاً ثم الحرية السياسية سيؤدي إلى تطور البلد و في حالة الحرب يستطيعون من نحو بعض فرنسا قبل الإطاحة التي تلتها إما بالمال أو على الأقل بالرجال و ربما لم يفت الوقت الذي يمكن لوقت جنوب أوروبا أن يرى فيه مرة ثانية الرئيس العربي.

حول إقليم التيطري

في الجزء الأول لم نقل سوى الشيء القليل حول هذا الإقليم و مع ذلك سنطرق إليه في هذا الجزء من الكتاب قمتنا سابقاً بالحاق لائحة لأسماء قبائل التيطري و التي من المحتمل أنه تم حذفها بسبب استحالة قراءة الكتابة هذا الخطأ المطبعي يتيح لنا فرصة العودة إلى هذا الموضوع و التطرق إليه بطريقة أكثر شمولية و ذلك لأنه منذ سنة اكتسبنا معلومات جديدة حول هذا الإقليم.

الأوطان السبعة التي تحيط بمدينة المدينة من الجنوب و بالدوران شرقاً هي: بني حسن، حسن بن علي، بني يعقوب، وزرقاء و امري، ربيعة، هوارة الأرض مشحونة و تغطيها للال و أودية

و إلى ما وراء حسن بن علي و باتباع طريق الصحراء نلتقي بقبائل العبيد و الدواير التي تسكن منطقة سهلية بتوسطها حصن البروالية الذي

يعد بمسيرة يوم واحد عن المدينة كما ذكرنا في الجزء الأول. وإلى جنوب البرواقية و دائها باتجاه الصحراء، نجد قبائل مفتاح ثم اولاد مختار، الريان و قبائل أخرى مستقلة تمتد حتى الشلف و إلى بحيرة أو مستنقعات التيطري.

تأتي بعدها قبائل اولاد نائل التي تمتد حتى سلسلة كبيرة من الجبال التي تصل بعدها إلى الصحراء. القمة الأعلى لهذه السلسلة هي قمة الصحاري المكسوة بالثلوج لفترة طويلة من السنة و هي على بعد مسيرة ثلاثة أيام كاملة إلى جنوب المدينة.

بين سهل حمزة و القبائل التي تحدثنا عنها نجد القبائل التالية: العربايا، اولاد سيدي إبراهيم، اولاد علان، اولاد متيف، اولاد شبانا، اولاد زايد و الدريزة. هذه الأخيرة تشكل موطننا كبيرا جدا و الذي يكون على رأسه عادة واحدا من أبناء باي التيطري. نجد جنوب سهل حمزة الذي يدخل ضمن إقليم الجزائر الميطنة (Les Maitenan).

عند سلسلة جبال الصحاري ينتهي إقليم الجزائر، لكن أبعد من هذه الجبال و على مشارف الصحراء، يعيش شعب يستحق الاهتمام به لأنه ربما الأكثر حكمة و الأكثر رخاء و الذي يحكم بأفضل طريقة موجودة بالأرض. هذا الشعب هو قبيلة بني ميزاب أو المزاييون الذين قمنا بتعريف أصولهم المحتملة في الجزء الأول. تحتل هذه القبيلة ثلاثة واحات، تلك الواقعة أقصى الغرب تبعد بعشرة أيام من المسير عن المدينة. هذه الواحة

تروى ب مياه النهر الأبيض الذي تجري في الجهة الجنوب - شرقية، و تروى سواء في الشط أو في واد جدي أو تنوء داخل الرمال كالكثير من مجاري المياه في هذه المنطقة؛ و لم أستطع الحصول على معلومات إيجابية في هذا السياق.

غرداية، المدينة الأكثر أهمية في بلاد بني ميزاب هي المنبع الأصلي لهذا النهر. هي واسعة كالجزائر و لكنها أقل كثافة سكانية، المنازل بها عموما ذات طابقين اثنين لأنها مبنية من الحجر، و قد تم بناؤها بنفس شكل مباني الجزائر. ضواحي المدينة جميلة و خصبة، و على بعد نصف ساعة من السير، أسفل غرداية نجد القرية القوية مليكة و أسفل مليكة نجد المدن الصغيرة و المتباعدة عن بعضها البعض: بني يزقن، بونورة و العطف و كلها مقامة على ضفاف النهر الأبيض.

شرق الواحة الأولى توجد واحة أخرى أكثر اتساعا و أقل كثافة سكانية و توجد ثلاث مدن: القراة، بريان و متليلي. هذه الأخيرة كبيرة بصورة معتبرة. و ثالث واحة تحوي أربعة مدن أكثر تباعدا عن بعضها البعض و هي: ورقلة، الرويسات، الشط و نقوسة.

و بما أنه ليس لبني ميزاب جيرانا فلم تكن لهم حروب خارجية مخشونها. و أقرب قبائل عربية منهم تبعد أربعين ميلا في اتجاه الشمال الغربي و هي قبائل العمور و قبائل اللواتة. و القبائل العربية الأقرب توجد على بعد مسافة أربعين ميلا في الشمال الغربي.

كل مدنة بني مزاب تشكل جمهورية قنصلية. السلطة التشريعية و
الحكومية في كل مدينة تكون بين أيدي الطلبة (العلماء) (Les Talebs)
و يأخذ هذا اللقب كل من يعرف القراءة و الكتابة و يمكنه التأمل و
التدبر في القرآن. يقوم الطلبة بتعيين شيخ يمارس مهام السلطة التنفيذية
و هو في نفس الوقت إمام المسجد الرئيسي للمدينة التي يديرها. وظيفة
الشيخ ليست لها شعبية كثيرا في هذا البلد و عندما تجري انتخابات يجب
مفاجئة الذي تم اختياره لأنه قد حدث في كثير من الأحيان و أن فر
المرشح إلى مدن أخرى و حتى أن يقاوم بالقوة و لكن حين يتم الإمساك
به فإنه يكون مجبرا على القبول. إلا أنه يمكنه فرض شروطه مثل ترخيصه
بالتقيام بتغييرات في إدارة البلد أو إعطاء الأعمال الاتجاه التي يشير إليه.
و عند تبوؤه لمصبه فإنه يؤدي واجباته بأمانة و يحيطه مواطنوه باحترام
حيث يعطونه لقب الأب. كل الوظائف المنحدرة تحته هو الذي يقوم
بتعيينها. القضاء مستقل عنه، يمارسه في كل مدينة قاضي معين من طرف
الطلبة. جريمة القتل هي الذنب الوحيد الذي يعاقب بالإعدام⁽¹⁾.

بلاد بني مزاب غنية جدا بأراضيها الخاصة، لها علاقات تجارية كبيرة
مع دغامس، بورنو، تمبوكتو و جميع أنحاء السودان. و تقوم بتسويق
منتجات هذا البلد عبر كل من تونس و طرابلس.

استقر الكثير من بني ميزاب لبضع سنوات بالجزائر، ففي عهد الدايات

(1) عندما تحدث مطاردة بين مدينتين من مدن بني ميزاب فإن المدن الأخرى
ترسل حكاما للفصل في القضية و قوات لغرض احترام القرار الصادر.

استكروا الخيانات، المطاحن و القصابات. فهم أناس نشطاء، كادحين،
أذكياء و ذوي نزاهة كبيرة. و يمكننا بواسطتهم في وقت لاحق أن نجلب
إلى الجزائر التجارة التي يقوم بها أبناء بلادهم عبر تونس و طرابلس.

جدول المحتويات

محتويات المجلد الثاني.

الجزء الأول

الكتاب 9: الفصل بين السلطة المدنية و السلطة العسكرية بالجزائر — إعادة
استدعاء الجنرال بيرتيزين — تعيين السيد الدوق دوروفيقو قائدا لجيش
الاحتلال بإفريقيا — تعيين السيد بيشون حاكما مدنيا — تجديد الأفواج
العسكرية — تكوين قناسة إفريقيا و كنائب المشاة الخفيفة — أشغال الطرقات
و إنشاء المعسكرات — المساهمات المقروضة على الصوف — الأعمال الإدارية
للسيد بيشون — التخلي عن النظام الجديد و تنحية السيد بيشون — السيد جتي
ديبوسي حاكم مدني — إنشاء قرى القبة و دالي إبراهيم — أعمال إدارة السيد
جتي تحت إدارة الدوق دوروفيقو..... 1
الكتاب 10: سياسة الدوق دوروفيقو تجاه العرب — سلوكه نحو الأغا —
المفاوضات مع سعيد بن فرحات — مجزرة العوقية — مذبحه فرقة استطلاع
فرنسية — عرض للجنرال بوشي حول يسر — اضطرابات في إقليم الجزائر

— إعلان الحرب المقدسة و التمرد العام — قضية بوفاريك — السلوك المشبوه للأغا وفراره — اعتقال مرابط القليعة — حملة على البليدة — اعتقال وإعدام مسعود والعربي — المفاوضات مع قسنطينة — الدعم المقدم بعناية — أحداث وهران و تحية الجنرال بوير — مغادرة الدوق دوروفيقو — الاستطرد نحو محافظة قسنطينة 25

الكتاب 11: المرحلة المؤقتة للجنرال أفيزار — تشكيل مكتب العرب — تعيين السيد دولامورسيار رئيسا لمكتب العرب — أعمال الإدارة المدنية تحت حكم الجنرال أفيزار — وصول الجنرال فوارول — حملة قرواو — معسكر الحمير — تكوين صبايحية الفحص — تسليم حراسة المعامل للسكان المحليين — تهدئة البلاد — أشغال جسر بوفاريك — أشغال الطرق و التجفيف — معسكر الدويرة — حملة بجاية — أحداث عنابة 71

الكتاب 12: بداية الإضطرابات بين عرب المتيجة — اغتيال قائد بني خليل — جولات لجنة إفريقيا في السهل وبالبليدة — حملة ضد الحجوطيين بن زكري — حملة الحشة — إقامة السيد فارجي وسط العرب — المفاوضات مع

توقرت — حملة الحاج حافظ — الحملة الثانية ضد الحجوطيين — استسلام الحجوطيين — السلام العام — انتشار الأوروبيين في المتيجة — معسكر الدويرة — سوق بوفاريك — الاعتراف بمزارع اليك — التآمر و الضعف — المفاوضات مع التيطري — ثورة شرشال 101

الكتاب 13: الجنرال ديميشال بوهران — حملة ضد الغرابة — معركة تحت اسوار وهران — احتلال ميناء أرزيو — احتلال مستغانم — حملة طفراوي — لجنة إفريقيا بوهران — الغدر بقدرور بأرزيو — حملة تامزورار — مراسلات الجنرال ديميشال مع عبد القادر — معركة 6 جانفي — مفاوضات الصلح مع عبد القادر — حرب عبد القادر ضد الدواير و الزمالة — اترك تلمسان — طموح عبد القادر في اقليم الجزائر و التيطري — أحداث بجاية 139

الكتاب 41: طبيعة العلاقات بين الجنرال فوارول و السيد جتي دويومي — هذا الأخير جعل نفسه المتحكم بقرارات مجلس الإدارة — الأعمال الإدارية — العدالة، الأملاك، المالية، التجارة، الزراعة، الأشغال العمومية، الشرطة، مصلحة الطرق الخ — لجنة الجزائر — لمحة عن هذه الأشغال —

خلاف الجنرال فوارول وحاكم المدني — قضية صوفار — ارتداد مغربية
 إلى الديانة المسيحية و تبعات هذه القضية — تعيين الجنرال درووي كونت
 ديرلون محافظا عاما للممتلكات الفرنسية في شمال افريقيا والسيد لوباسكي
 كحاكم مدني — مغادرة السيد جتي — المغادرة الظافرة للجنرال فوارول ...
 185.....

الكتاب 15: القانون التأسيسي للإدارة العليا للأملاك الفرنسية في شمال افريقيا
 — تنظيم العدالة — وصول الموظفين الجدد — مؤامرات المغاربة —
 تأسيس المحاكم — التنظيم الجديد للمجالس البلدية و الشرطة — تشكيل
 الدوائر الريفية — الأعمال الإدارية..... 209

الكتاب 16: الأعمال الأولى لإدارة الكونت ديرلون في علاقته مع العرب —
 مكائد بعض المغاربة بالجزائر — إرسال كتائب إلى سوق بوفاريك —
 النتيجة الجيدة لهذا الإجراء — الحالة المرضية للبلد — حل مكتب العرب
 العقيد الملازم ماري يمين آغا للعرب — تغيير السياسة العربية — حرب ضد
 الحجوطيين — اضطرابات في نقاط مختلفة — أحداث بجاية — السلام

المرحوم مع القبائل — الجنرال ديميشيل يغادر وهران — عبد القادر يغزو
 إقليم التطري و جزء من إقليم الجزائر — التنازلات المقدمة من طرف الكونت
 ديرلون — جزء من الدواير و الزمالة أتوا للدخول تحت حماية الجنرال تريبزيل
 بوهران — استئناف الحرب — معركة مولاي إسماعيل — خسارة المقطع
 — مغادرة الكونت ديرلون 235

الجزء الثاني.

1. الديانة..... 281
2. الإدارة..... 293
3. الجيش..... 299
4. البحرية..... 311
5. المالية..... 317
6. الزراعة..... 319
7. التصنيع..... 335

8. التجارة 341
9. الإشعارات : السير القاتية 357
10. المناهج المختلفة لغزو و استيطان الشعوب الأكثر شهرة القديمة
والحديثة 401
11. مبادئ يجب اتخاذها كأسس لاستقرارنا وإفريقيا 430
12. ملاحظات حول إقليم النيجري 463

نهاية فهرس المجلد الثاني



هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين
بمناسبة الذكرى الـ 50 لعيد الاستقلال



Assala
culture

57، شارع ديدوش مراد، الجزائر

هاتف/فاكس: 021 444 700

www.assala-culture.com